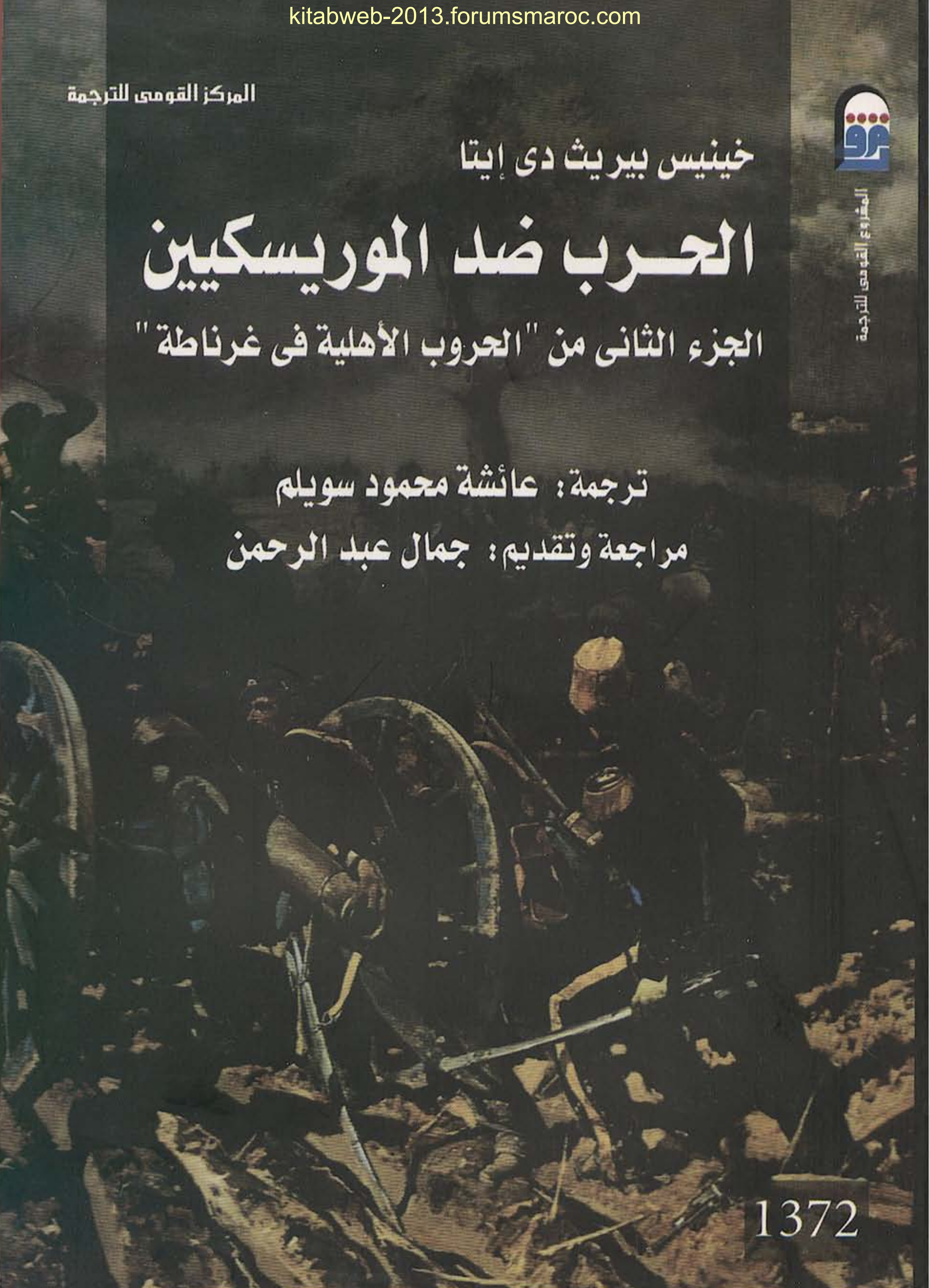


المركز القومى للترجمة

خينيس بيريث دى إيتا

الحرب ضد الموريسكيين

الجزء الثانى من "الحروب الأهلية فى غرناطة"

ترجمة: عائشة محمود سويلم

مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن

المشروع القومى للترجمة

1372

الحرب ضد الموريسكيين

الجـــزء الثـانـى

من "الحـروب الأهـليـة فـى غـرنـاطـة"

المركز القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١٣٧٢
- الحرب ضد الموريسكيين
  (الجزء الثانى من «الحروب الأهلية فى غرناطة»)
- خينيس بيريث دى إيتا
- عائشة محمود سويلم
- جمال عبد الرحمن
- الطبعة الأولى ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب:

La Guerra de Los Moriscos

Segunda Pate

de Las guerras civilas de Granada

Por : Peraz de Hita

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

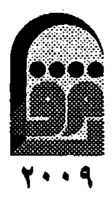
الحرب ضد الموريسكيين

(الجزء الثانى من "الحروب الأهلية فى غرناطة")

تـألـيـف : خينيس بيريث دى إيتا

ترجـمـة : عائشة محمود سويلم

مراجعة وتقديم : جـمـال عـبـد الرحـمن



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

دى إيتا ، خينيس بيريث
الحرب ضد الموريسكيين (الجزء الثانى من «الحروب الأهلية فى غرناطة»)
تأليف : خينيس بيريث دى إيتا ، ترجمة : عائشة محمود سويلم،
مراجعة وتقديم : جمال عبد الرحمن
ط ١- القاهرة : المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٩
٥٠٨ ص ص ، ٢٤ سم
١ - الحرب الأهلية
٢ - إسبانيا - تاريخ - الحرب
(أ) سويلم، عائشة محمود (مترجم)
(ب) عبد الرحمن ، جمال (مراجع ومقدم)
(جـ) العنوان ٣٠٣,٦٤

رقم الإيداع ١١٨١٦ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 479 - 403 - 2
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتـــويات

مقدمة المراجع

هذا الكتاب - وإن كان يحمل عنوانا مستقلا- هو الجزء الثانى من كتاب "الحروب الأهلية فى غرناطة" لبيريث دى إيتا الذى صدر عن المركز القومى للترجمة منذ أيام.

يتناول هذا الجزء الثانى وقائع الحرب التى دارت فى الجنوب الإسبانى بين الموريسكيين الذين ضاقت بهم الأحوال و بين السلطات الرسمية التى أرادت فرض المذهب الكاثوليكى على كل من يقيم فى شبه جزيرة إيبيريا. تقول بعض الروايات إن الثورة اندلعت عام ١٥٦٨ إثر تجريد شريف مسلم من سلاحه فى غرناطة. من الصعب أن نتخيل أن حربا شاملة تستمر ثلاثة أعوام تنشب بسبب عابر مثل هذا، ونميل إلى الجزم بأن الواقعة المشار إليها كانت بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير، أو نقطة الماء التى ملأت الكوب كما يقول المثل الإسبانى. عموما فإن بيريث دى إيتا يتحدث عن اتصالات أجراها موريسكيو البشرات مع العثمانيين ومع ملك الجزائر فى وقت سابق على تلك الحادثة، ويرى أن الزعيم المسلم قد تعمد المخالفة حتى يجد مبررا للثورة. إن من يطالع القرارات المتلاحقة التى كانت السلطات المسيحية تصدرها لحرمان المسلمين من التحدث باللغة العربية ومن ارتداء لباسهم الطبيعى وغير ذلك، يدرك على الفور أن الوضع كان متأزما وأن الثورة كانت آتية لا محالة.

يثقل على المرء أحيانا أن يقرأ شيئا قرأه قبل ذلك. أضيف هنا أن هذا الأمر ثقيل على الكاتب أيضا. أشعر بذلك وأنا أشرع فى تقديم هذا الكتاب، إذ أحتاج إلى تكرار بعض سطور كتبتها لتقديم كتاب "الحروب الأهلية فى غرناطة" الذى ذكرناه للتو، ذلك أن قارئ هذا الكتاب ربما لم يطلع على الجزء الأول، ولهذا يجب أن نشير إليه ولو بإيجاز.

عرضنا فى المقدمة السابقة مفهوم الرواية التاريخية، وعلى ضوء التوضيح طرحنا تساؤلا: هل "الحروب الأهلية فى غرناطة" رواية تاريخية؟ كانت إجابتنا بالنفى، إذ رأينا أن المؤلف تخلى تماما عن الدقة مما أدى إلى خلط الوقائع التاريخية، ونسب إلى شخصيات معينة ما فعلته شخصيات أخرى. إن بيريث دى إيتا يخلط بين ملكين تولى كل منهما عرش غرناطة، يجمع بينهما أن كلا منهما يدعى أبى عبد الله، وكلا منهما يلقب بالصغير. الملك الأول

هو الذى اتهم أحد الفرسان بمغازلة زوجته – فهيمة –، لكن المؤلف ينسب القصة إلى زوجة أبى عبد الله الصغير – آخر ملوك غرناطة المسلمين – التى لا نعرف لها اسما. (وأغلب الظن أن قصة غرام الملكة بابن حامدى السراجى لم تقع أصلا، فلو كانت وقعت لأوردها المقرى صاحب نفح الطيب أو ابن خلدون). يقع تحت باب مخالفة التاريخ كذلك القول بأن الملك أبا الحسن قد أسر، والصحيح أن الذى أسر هو أبو عبد الله الصغير فى معركة اللسانة. صحيح أن الرواية التاريخية بالمعنى الذى أشرنا إليه لم تكن قد ولدت بعد، لكننا وجدنا من بين النقاد الإسبان من يتحدث عن "الحروب الأهلية فى غرناطة" على أنها رواية تاريخية فآثرنا أن نورد هذا التوضيح.

فى هذا الجزء الذى نقدم له يظهر ملك "صغير" آخر، لكنه هنا صغير الشأن، إذ لم يمارس سلطته إلا على رقعة صغيرة من التراب الإسبانى.

"الحروب الأهلية فى غرناطة" تجمع بين "التاريخ" والأدب، بل يغلب عليها الطابع الأدبى وإن كان أدبا دعائيا فيه حديث كثير عن دخول مسلمى غرناطة فى المسيحية جماعات وأفرادا. نحن نرى أن هذا من باب الأدب الدعائى الذى عهدناه فى أدب القرن السادس عشر الإسبانى، ودليلنا على ذلك فى غاية البساطة: لو كان الأمر كذلك فلماذا تمسك الموريسكيون بإسلامهم ما يزيد على قرن من الزمان رغم محاكم التفتيش وأهوالها ورغم الصعوبات وانقطاع الصلة مع بقية العالم الإسلامى؟ أورد هذه المعلومة حتى يدرك القارئ موقف المؤلف من رواية الأحداث فى الجزء الثانى الذى نقدم له الآن.

ذكرنا فى المقدمة السابقة أن الكتاب يقع فى جزأين: تمثل "الحروب الأهلية فى غرناطة" جزأه الأول، وهذا هو الجزء الثانى من الكتاب الذى يتناول ثورة البشرات التى شارك بيريث دى إيتا نفسه فى إخمادها. لكن هناك من يتحدث عن جزء ثالث، فهناك وثيقة تعود إلى عام ١٦٠٤ تتحدث عن ثلاثة أجزاء من "الحروب الأهلية فى غرناطة ". لا ندرى ما الذى يمكن أن يتضمنه الجزء الثالث، ويبدو أن نجاح هذا الكتاب قد شجع بيريث دى إيتا على تأليف كتاب آخر غير معروف اليوم، ربما كان يشكل الجزء الأول من ثلاثية حول تاريخ غرناطة.

شخصية المؤلف:

قيل إن بيريث دى إيتا موريسكى، واستند من يتبنى هذا الرأى إلى أن المؤلف من مولا، وهى القرية التى ظل الموريسكيون يقيمون فيها إلى ما بعد الطرد، وإلى أن المؤلف اسمه خينيس، على اسم ولى مسلم زعموا أنه يمت بصلة قرابة إلى النبى (صلى الله عليه وسلم) (علينا أن ننبه إلى أن إيتا كتب روايته قبل الطرد، وإن روحها تبتعد كثيرا عن تمسك الموريسكى بهويته الإسلامية)، لكن الثابت بالفعل هو أن المؤلف كان إسكافيا ومن ورشته كانت تخرج عربات تحمل كل أنواع الزينات والاختراعات لاحتفال المدينة بالأعياد المختلفة. من الثابت كذلك تأثر الإسكافى بيريث دى إيتا والحرفيين أمثاله بالفن الموريسكى. لعل هذا يفسر لنا الوصف الدقيق للملابس الموريسكية ولاحتفالات أهل غرناطة التى يرد ذكرها كثيرا فى الجزء الأول.

كان إيتا على دراية بكتب الفروسية وبكتب الأخبار التى تتناول آخر سنوات مملكة غرناطة، وكانت له صلة بالأغنيات الشعبية القديمة والجديدة، وكان يصدق أية أخبار يراها مطبوعة. كان يخلط بين الحقيقة التاريخية والخيال الشعرى، ويلغى الحدود الفاصلة بين الواقع والخيال. علينا أن نذكر هنا أن الأغنيات الشعبية الإسبانية تعرضت لتحريف شديد، ولا تعكس بحال من الأحوال حقيقة الأوضاع فى الفترة التى تعالجها. إن أغنية شعبية تتحدث عن فترة التفوق الإسلامى قد أدخلت عليها تعديلات بحيث يبدو الجانب الكاثوليكى هو الأقوى. ليس لدينا شك فى أن اعتماد المؤلف على الأغنيات الشعبية كمصدر لرواية التاريخ قد أبعده عن جادة الصواب، فالأغنيات – فى ثوبها الجديد- تتحدث عن عاطفة الشعب، لا عن حقائق تاريخية.

من نافلة القول كذلك أن المؤلف قد نسى "التأريخ" فى أحيان كثيرة وأطلق لخياله العنان، فأنت تراه فى بعض الأحيان يسهب فى ذكر ما يقوله الموريسكى لنفسه، وفى أحيان أخرى يحن إلى وصف المبارزات، فيفتعل مناسبة يتبارز فيها الأتراك والموريسكيون، ويكون النصر فيها حليف الطرف الإسبانى. وإذا تأملنا وصف المسابقات التى أجريت، سندرك بالحساب أن يوما واحدا لا يتسع لمسابقة حمل عمود الرخام بمفردها، فضلا عن بقية المسابقات.

فى أثناء الحرب ضد الموريسكيين كان بيريث دى إيتا جنديا حل محل أحد الأغنياء عندما تلقت مدينة لورقة أو لوركا (Lorca) طلبا ثانيا لإرسال فرقة من الرجال للمشاركة فى الحرب. من بين أولئك الذين طردوا كان هناك أصدقاء ومعارف للمؤلف، ممن ذهب لزيارتهم فيما بعد من أجل كتابة تاريخ موثق لثورة الموريسكيين، وجدير بالذكر أن إيتا قد رأى فيرناندو دى بالور عندما كان هذا الأخير عضوا فى مجلس غرناطة. من الثابت كذلك أن إيتا كان مكلفا بحراسة بعض الأسرى الموريسكيين وأنه استمع إليهم وهم يعرضون قضيتهم.

يتحدث المؤلف إذن عن عالم يعرفه جيدا، وكان بإمكانه كتابة تاريخ موضوعى على غرار أورتادو دى مندوثا، لكنه سار وفق التيار العام السائد آنذاك، ولم يتفهم حق الإنسان الموريسكى فى حرية الاعتقاد. على أن بيريث دى إيتا لم يكن منحازا تمام الانحياز إلى الجانب المسيحى، فقد اعترف ببعض الحقائق، فقال إن جيش ماركيز مونديخار كان به ألف لص، وإن هؤلاء لم يكونوا يدافعون عن قضية، بل كان همهم الاستيلاء على ثروات الموريسكيين. فى معرض الحديث عن سوء تصرف الجنود يعترف بيريث دى إيتا أنه هو نفسه نهب متاع الموريسكيين. اعترف كذلك بشجاعة الجنود الموريسكيين. خلاصة القول هى أن إيتا لم يكن موضوعيا مثل أورتادو دى مندوثا، لكنه لم يكن منحازا تماما مثل مارمول كارباخال الذى كتب أيضا عن حرب البشرات.

أما عن موقف المؤلف من تلك الحروب التى دارت على أرض إسبانيا قبيل سقوط غرناطة وبعده، فإن عنوان الكتاب لا يدع مجالا للشك: كانت حروبا أهلية بين إسبان يعتنقون ديانتين. وللإنصاف نقول إن المؤلف يكتب فى بعض الأحيان عبارات يفهم منها أن الموريسكيين غرباء عن البلاد لأنهم أحفاد العرب الذين غزوا إسبانيا. موقف المؤلف المتردد هذا يذكرنا بموقف ثيربانتيس بالنسبة للمسلم: فمن ناحية كان قد عاش لسنوات أسيرا بين المسلمين وعرفهم عن قرب بحيث تعرف على صفاتهم الحميدة، ومن ناحية أخرى كان عليه أن يسير وفق التيار السائد وأن يلحق بهم كل نقيصة.

أمة بلا وثائق:

يعترف محمد عبد الله عنان بأنه عند تأريخ الفترة الأخيرة لمملكة غرناطة الإسلامية اعتمد على الوثائق القشتالية حتى فى ذكر أسماء السلاطين الذين تولوا العرش. لا نظن أن المؤرخين العرب لم يكتبوا شيئًا ، بل نذهب إلى أن كتاباتهم فقدت لأننا لا نهتم بالوثائق عادة .

انظر مثلاً حالة كتاب المصرى عبد الباسط بن خليل الذى تناول تلك الفترة التاريخية فى كتابه "الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم"، فالكتاب موجود فى مكتبة الفاتيكان فقط. ومن يسعده الحظ بقضاء ساعات فى مكتبة إسبانيا الوطنية سيدرك على الفور مدى تقصيرنا فى المحافظة على تراثنا. إنك تجد فى هذه المكتبة كتب التراث فى صورة مخطوطات، وهذا يدل على أن إسبانيا - إدراكا منها لأهمية هذا التراث - اجتهدت فى الحصول على تلك المخطوطات. نحن لا نطمع فى الحصول على مخطوطات بلاد أخرى - وإن كان ذلك مهما- لكننا نأمل فى أن نحافظ على تراثنا فى بلادنا. هناك عامل آخر فى اختفاء وثائقنا، وهو حرص الدول التى احتلت منطقتنا على نهب ما تمكنت من نهبه. على أن وطننا العربى لم يكن الضحية الوحيدة لعملية سرقة الوثائق، فقد مارست دول أوروبية الجريمة نفسها ضد دول أوروبية أخرى. خلاصة القول فى هذا الشأن هى أن وثائقنا قد فقدت، إما لأن المستعمر قد حملها إلى بلاده، وإما لأننا أهملنا فى المحافظة عليها من الرطوبة ومن السرقة.

أهمية الترجمة:

من الغريب أن قضية غرناطة الإسلامية برمتها لا نكاد نجد لها وثائق بالعربية، فمعاهدة التسليم نفسها حررت باللغتين العربية والإسبانية. واحتفظ الإسبان بوثيقتهم ولا تزال موجودة إلى اليوم، أما بالنسبة للنسخة العربية فقد ضاعت كما ضاعت وثائق أخرى كثيرة. و تعين على الباحث العربى أن يترجم الوثيقة الإسبانية تعويضا عن الأصل العربى المفقود. ولما كانت الوثيقة الإسبانية تحرف بعض الأسماء العربية فقد أدى ذلك إلى وجود أسماء شبه عربية استعملت بين المؤرخين العرب نتيجة محاولة التوصل إلى الأصل العربى للأسماء الواردة فى الوثيقة الإسبانية.

أسماء الأعلام:

لعل الملاحظة الأولى التى سيتوقف عندها قارئ "الحروب الأهلية فى غرناطة" هى أننا اتبعنا فيه نظامًا جديداً فى كتابة الأسماء بل بالأحرى عدنا إلى النظام المعمول به فى الدراسات الأندلسية، ويتعين علينا توضيح هذا الأمر.

سعت الممالك المسيحية عند استيلائها على مدن إسلامية إلى تغيير أسمائها عمداً أو بسبب صعوبات لغوية، وهكذا أصبحت مجريط "مدريد" ووادى آش "أنداراكس" وهكذا. أحيانا يكون التغيير بسيطًا يمكن أن يتنبه إليه القارئ بسهولة، وفى أحيان أخرى يلزم التوضيح، وقد اتبعنا فى كتابة أسماء المدن والقرى الإسبانية نظامين:

- كتبنا الأسماء الأصلية التى كانت تسمى بها هذه المدن إبان الفترة الأندلسية عندما يتعلق الأمر بأحداث وقعت قبل سقوط غرناطة.

- وكتبنا الاسم الجديد الذى استقرت عليه السلطات المسيحية بعد استيلائها على تلك المدن عند رواية أحداث وقعت بعد عام ١٩٤٢.

أما الشخصيات الواردة فى هذا الجزء الثانى فقد تناولناها بطريقتين:

- أسماء الشخصيات الحقيقية البارزة حاولنا التحرى عنها قدر جهدنا ونحسب أننا توصلنا إلى الكتابة الصحيحة للجزء الأغلب منها ، وفى كل الحالات تركنا الاسم بالإسبانية كما أورده المؤلف.

- الشخصيات الروائية أو الثانوية لم نبذل فيها جهداً مماثلاً، وقمنا بتعريب الأسماء على ضوء الأسماء التى كانت شائعة فى الفترة التاريخية التى تجرى فيها الأحداث.

هناك ملاحظة أخرى تتعلق بأسماء الأعلام، فالمؤلف نفسه كان يكتب الاسم بأكثر من طريقة، مما وضعنا فى حيرة، إذ كنا نخشى أن يتعلق الأمر بمكانين مختلفين، أحدهما قرية صغيرة غير مشهورة، وبالتالى فقد آثرنا أن نكتب الاسم كما ورد فى النص الأصلى، إيمانا منا بأن الباحث المدقق سيكون بإمكانه رصد أخطاء المؤلف الناتجة عن السهو.

سيلاحظ القارئ بونا شاسعا بين رواية الأحداث هنا، وبين رواية الأحداث عند أورتادو دى ميندوثا من حيث دقة العرض وموقف "المؤرخ". كان علينا أن نضع أمام القارئ العربى وجهة نظر أخرى حتى تتكون لديه صورة كاملة عن رؤية الإسبان لما حدث بعد سقوط غرناطة. نحن هنا إزاء "شأن داخلى" إسبانى، لا نملك وثائقه إلا فيما ندر، ولكى نعرف ما حدث ليس أمامنا سوى أن نقرأ ما كتبه مؤلفون اختلفت روايتهم للأحداث. لعل هذا يبرر صدور هذا الكتاب عن المركز القومى للترجمة.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات.

جمال عبد الرحمن

موافقة

بأمر من المجلس الأعلى لجلالة الملك، قمت بمراجعة الكتاب الذى يحمل عنوان "الحروب الأهلية فى غرناطة والمعارك التى وقعت بين المسلمين والمسيحيين فى غوطة غرناطة، وثورة أبناء هذه المملكة"، ويحتوى هذا الكتاب فى نسخته التى سلمت إلىَّ على ثلاثة أجزاء: الجزآن الأول والثالث مكتوبان بخط اليد، ويحتوى الجزء الأول على ٥٥٩ صفحة بينما كُتِبَ الثالث فى ٤٦٦ ورقة، وقد طبع خوان غراثيان (Juan Garcián) الجزء الثانى فى مدينة ألكالا دى إيناريس (Alcala de Henares) عام ١٦٠٤. وهكذا بعد تصحيحى لهذه الأجزاء الثلاثة والأخطاء التى كانت بها، أعتقد أنه لا يوجد بها ما يتعارض مع ديننا الكاثوليكى المقدس ولا العادات الحميدة، وعلى الرغم من أن كثيراً من كتب التاريخ والحكايات تحتوى على بعض الخرافات فإن هذا لا يجعلها عديمة الفائدة، وعليه فإننى أُبدى موافقتى على طبع هذه الأجزاء الثلاثة، وأضع إمضائى.

مدريد فى ١٠ أبريل ١٦١٠.

دكتور مولينا

القس القائم بخدمة الملك

إلى ألونسو ديل بوثو بالومينو
كاهن كنيسة كوينكا المقدسة

أعترف يا سيدى أننى وفاء منى ببعض واجباتى الكثيرة فإننى أطلب منك معروفا آخر: أن يخرج إلى النور الجزء الثانى من كتاب "الحروب الأهلية فى غرناطة" بفضل تدخلى لديكم وتحت رعايتكم.

وإذا كان المؤلف قد استحق ثناء الجميع فى نظر العقلاء، فإننى أؤكد لكم أن هذا الكتاب، ما لم يتعرض لعوامل سيئة أو لحقد الحاقدين، سيحقق الشهرة والمجد. تقبلوا منى هذا العمل كبادرة طيبة، وهو أقل مما أرغب فى تقديمه إليكم، لكى تنعموا علىَّ بحمايتكم، ولكى أظل أعترف لكم بالدين.

أندريس ميغيل

" قصيدة لفرانثيسكو فيرنانديث أوليباري "

لقد سجل الإغريقى المثقف العالِم

المعركة التى دارت بين الطرواديين والفريجيين

لقد امتلأت روما بالوكانيين وسالوسطنيين

وكانت الحرب هذه المرة أهلية والجلبة هائلة

وبينما امتدح جوزيف الرومان

أطلق لعناته على الأعداء

وفى نهاية كل فصل كانت هناك أبيات شعر

يسبقها نثر لم يترك شيئًا مخفيًا

عن الثورات والحروب

هنا تجد اللاتينى والإغريقى والعبرى

تجد المنافسة والضجيج والشغب

تجد الشعر والجملة المثقفة والأسلوب الرصين

كل هذا قام به المؤلف

فى هذه الحكاية التى صبها فى قالب

حيث النثر الجميل الذى يعقبه الشعر

" قصيدة لبدرو دى سوليرا
فى مدح طباعة الكتاب والقائم بها "

ظل الجزء الثانى من
"حروب غرناطة الأهلية"
فى طى النسيان قرنًا بأكمله
وهو مزيج من الأحزان والجمال
مكتوب بعبقرية وفن
فهو مرآة صادقة لحقبة من الزمن
تقاوم النسيان والحسد
وقد قامت اليد الحرة
ولا أقول اليد الجميلة
لأندريس ميغيل
بطبع هذا الكتاب الضخم
لإسعاد إسبانيا
وقد أهداه إلى بوثو بالومينو
فإلى جوار البئر يشتد حماس
الحمامة فى طيرانها(١)

(١) يتلاعب الشاعر بالألفاظ، حيث تعنى كلمة بوثو "بئر" ، وتعنى كلمة بالومينو "شىء يخص الحمام" (المراجع).

سيتعرف أهل روما وبيزنطة

واليابان وتونس

لماذا يقفون عاجزين أمام صعوبات

يتغلب عليها الإسبان بسهولة

" قصيدة خوليان غييارو (Julian Guiaro)
لأندريس ميغيل "

كان التأخير خيراً

رغم أنه كاد يقضى على الأمل

الذى يعيننا على التحمل

ولم يكن ذلك لأن السماء

تعيق الخير وفعله

بل لأن الأمانى الحلوة دائماً

يصعب تحقيقها

وكم قمتما يا فلامنكو أندريس

وبلانتينو كاستيانو باتهام

قوالب مطبعتكما بالبطء

ولكن مع طباعة هذا الكتاب

أحاط بكما إكليل المجد

وفاقت شهرتكما الآفاق

الملك

علمت منكم يا سيد خوان دورادو، المولود فى مورثيا، أنكم قد اشتريتم كتاباً يحمل عنوان "الحروب الأهلية فى غرناطة، وعائلة الثغريين، وبداية ونهاية دمار مملكة غرناطة" من مؤلفه الذى يُدعى خينيس بيريث دى إيتا، المولود فى نفس المدينة، وعلمت أنكم قد قدمتم هذا الكتاب بعد موافقة السيد بيريو (Verrio) ، وأن النسخة الأصلية لهذا الكتاب التى كانت لدى المؤلف قد فقدت، ولأن هذا الكتاب قد طبعت منه عدة نسخ على يد بعض الأشخاص وبإذن من مجلسنا الموقر، وأرى أنكم قد تضررتم بسبب شرائكم هذا الكتاب الذى تكلف أكثر من ثمانمائة ريال، وقد طلبتم منا أن نخولكم امتيازا خاصا بحيث لا يستطيع أحد سواكم من الآن فصاعداً أن يطبع هذا الكتاب، وقد اتخذت الإجراءات اللازمة بخصوص طبع الكتب، وتقرر منحكم هذا التصريح، ونرى أن هذا سيكون أمراً حسناً، ولذا نمنحكم إذناً وصلاحية لمدة عشر سنوات كاملة تبدأ من اليوم الذى صدر فيه هذا القرار الملكى، بطبع هذا الكتاب لكم أو لمنْ يحل مكانكم ممن تختارون لطباعته، وسوف نصدر أمراً إلى كل منْ يريد طباعة هذا الكتاب فى ممالكنا المختلفة بأن يستخدم لذلك النسخة الأصلية الموجودة لدى مجلسنا الملكى والتى سيتم التوقيع على غلافها وفى الخاتمة من قبل دييغو غونثاليث دى بيارويل، كاتب مجلسنا، بحيث يتم مطابقة أى نسخة من الكتاب بالنسخة التى لدينا، وأن يتم مراجعة وتصحيح أية نسخة مطبوعة على يد أحد المصححين الذين تختارونهم وبعد مضاهاة هذه النسخ المطبوعة بالأصلية التى لدينا ونأذن بطبع الكتاب فى تلك المطبعة على ألا تتم طباعة الصفحة الأولى ولا الأخيرة، وعلى ألا تتم طباعة سوى نسخة واحدة فقط كى يتم تصحيحها ووضع التسعيرة عليها من قبل مجلسنا، هكذا، وهكذا فقط يمكن طباعة الصفحتين الأولى والأخيرة، بحيث يوضع فى أول صفحة هذا الأمر الملكى وهذا الامتياز والموافقة ثم التسعيرة والأخطاء المطبعية. ولن تستطيعوا أنتم أو غيركم بيع هذا الكتاب إلا بعد وضعه وإخراجه بهذه الصورة. ونُعلن أن منْ يقوم بطبع الكتاب بطريقة تخالف هذه الإجراءات فعليه أن يتحمل العقوبات القانونية السارية فى ممالكنا، ونأمر بأنه لا يجب أن يطبع أحد أو يبيع هذا الكتاب

خلال الزمن الذى حددناه قبلاً دون تصريح منكم و منْ يقوم بهذا يعرض نفسه لمصادرة الكتب التى تمت طباعتها، وقوالب الطباعة والآلات الخاصة به، وعلاوة على هذا سيضطر لدفع غرامة تصل إلى خمسة آلاف عُملة مرابطية، عن كل مرة قام فيها بطبع الكتاب، وسوف تُقسم هذه الغرامة بحيث يصل ثلثها إلى مجلسنا، والجزء الآخر سيحصل عليه القاضى، أما الجزء الثالث فسيكون من نصيب المُبَلِّغ عن الكتاب المطبوع. ونأمر أعضاء مجلسنا، ورئيسه، وكذلك أعضاء المجالس الخاصة بنا من عُمداء، ورجال شرطة ممنْ تضمهم حاشيتنا الملكية والاستشارية، ورجال الشرطة فى كل المدن والضواحى والقرى، فى كل الأماكن التابعة للملك من ممالك وإقطاعيات، ورجال القضاء والقانون أن يقوموا من الآن فصاعداً بتنفيذ قرارنا هذا، لأن منْ يعارض، أو منْ لا يوافق عليه سوف يتعرض للعقاب، ويضطر لدفع عشرة آلاف عُملة إلى المجلس.

صدر هذا القرار فى ليرما فى اليوم الرابع من شهر يونيو من عام ألف وستمائة وعشرة.

أنا الملك

بأمر من الملك سيدنا:

يورخى دى توبار (lorge de Tovar).

الفصل الأول

الذى يكشف عن أسباب عودة غرناطة ومملكتها مرة أخرى إلى الثورة، وأشياء أخرى كثيرة.

لقد انتهت الحروب الدامية والطويلة التى خاضتها مملكتا قشتالة (Castilla) وليون(León) المسيحيتان ضد المسلمين الذين احتلوا إسبانيا، منذ عهد الأمير بيلايو (Pelayo) وحتى مجىء الملك فيرناندو الخامس[١] والملكة إيسابيل، طيب الله ثراهما، حيث استمر هذا الاحتلال ثمانية قرون. وقد استطاع هذان الملكان العظيمان الاستيلاء على غرناطة (كما أوضحنا فى الجزء الأول من الكتاب)[٢] وقد أحاط الملوك الكاثوليك هذه المدينة بكل أسباب العظمة والفخامة التى تناسب أعظم المدن وأشهرها؛ فقد أقاموا فى غرناطة محكمة ملكية وحاشية وأشياء أخرى كثيرة خاصة بطبقة النبلاء. وعلاوة على ذلك أقاموا فيها مقبرة فخمة، وهكذا استقرت هذه المدينة الملكية ونعمت بالهدوء. وقد أنعم الملك على الفرسان المسلمين الذين تعاونوا معه وأجزل لهم العطاء، وكذلك أجزل العطاء لأعوانه الكبار وغيرهم ممنْ برزوا خلال هذه الحرب، وهكذا عاد إلى قشتالة تاركًا غرناطة تعج بالمسيحيين الشجعان، وترك قصر الحمراء الملكى الشهير يحيط به أشجع الجنود وأصلبهم. وقد عيَّن الملك كونت تينديا، السيد إينييغو لوبيث دى مندوثا[٣] (Ynigo López de Mendoza) قائدًا لها. ولم يمض سوى شهرين على رحيل الملكين الكاثوليكيين من غرناطة، حتى عادت بعض القرى التابعة للبشرات (Alpujarras) إلى الثورة

---

(١) هو خامس الملوك الذين يحملون هذا الاسم وأشهرهم جميعًا، وهو الملقب بالملك الكاثوليكى. (المراجع).

(٢) انظر "الحروب الأهلية فى غرناطة" تأليف بيريث دى إيتا، ترجمة مروة محمد إبراهيم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٩. (المراجع).

(٣) هو والد أورتادو دى مندوثا صاحب كتاب "حرب غرناطة" الذى تُرجم إلى اللغة العربية ونشره المركز القومى للترجمة منذ قليل. (المراجع).

وحمل السلاح ضد المسيحيين، ولكن سريعًا ما أخمدت هذه الثورة، فقد تصدى المسيحيون للمسلمين المتمردين وقهروهم وقمعوهم وقاموا بمعاقبة كبار المحرضين على هذه الثورة بكل قسوة؛ ولكن لم يكن لهذه العقوبات الرادعة تأثير كبير حيث لم يتوقف المسلمون عن إلحاق الأذى بالمسيحيين فى الخفاء، فقد كانوا يقومون بخطف بعضهم وقتلهم حتى إن المسيحيين لم يكونوا يجرءون على السير فى المدينة ليلاً أو الخروج إلى الحقول إلا فى جماعات لا تقل عن أربعة أو ستة أشخاص، لأنهم لو خرجوا بطريقة أخرى لقتلهم المسلمون، وقد استمر ذلك الوضع خلال فترة بقاء المسلمين بالملكة: فلم يؤد تطبيق العقوبات الرادعة التى يقوم بها رجال الشرطة عليهم إلى توقفهم عن شرورهم وبث كراهيتهم تجاه المسيحيين؛ وهكذا قام من بينهم مسلم شجاع يُدعى عروبا (Arroba)، واستطاع ومعه ثلاثة عشر من رفاقه، لا يقلون عنه شراً ولا شيطانية، إلحاق الأذى بالمسيحيين وقتل الكثير منهم، حتى تجاوز عدد القتلى الأربعة آلاف قتيل، وقد لقوا حتفهم جميعًا فى طرقات أغواس بلانكاس (Aguas Blancas) ما بين غرناطة و غواديكس (Guadix) . ولكن بفضل من الله تم القبض على عروبا ورفاقه، وقُطعوا إربًا، وعُلقت رءوسهم على أحد الأبراج، بحيث تعلوا رأس عروبا رءوس الآخرين بنحو شبر حتى يتم التعرف عليها بسهولة. وغير هذا كان هناك العديد من المسلمين الذين ارتكبوا شروراً كثيرة ثم رحلوا إلى إفريقيا. فقد كان هناك مسلم شجاع يُدعى القانيارى (el Canari)، اتخذ من غابة روما الكثيفة وكرًا له، وكان هو وأصحابه يقومون بالهجوم على المسيحيين السائرين فى الطريق. ولكن أيضًا بفضل من الله أُلقى القبض عليهم وتم تقطيعهم إربًا. ولكن هذه الإجراءات الصارمة لم تنفذ إلا قليلاً. فقد قُتِل الكثير من المسيحيين سرا وقُطعت أجسادهم، وسطعت الشمس وهم ملقون فى الميدان وفى ميدان بيبارامبلا (Vivarrambla)(٤)، وكان ذلك سبب فى نفاذ صبر المسيحيين على هذه المعاناة وهذه الشرور، فاتفقوا على أن يجعلوا المسلمين يدفعون نفس الثمن، وهكذا كونوا فرقًا للحراسة مجهزة تجهيزًا جيداً، وكانوا يخرجون مساءً فإذا عثروا فى طريقهم على مسلم قتلوه، وفى أحد الأيام لقى العديد من المسلمين حتفهم، فى المدينة وفى الحقول، وهكذا وصلت الحال بالمدينة إلى حد قيام حروب أهلية داخلها، حيث لم يكن يجرؤ أحد على السير فى الطرقات، وكانت المدينة تدجج بالسلاح أيامًا طويلة، حتى استطاعت أن تخمد هذا الغضب وتلك الحرب الأهلية من خلال العقوبات

---

(٤) هو الاسم الحالى لباب الرملة . (المراجع).

الرادعة التى حكم بها القضاة، سواء على المسيحيين أو المسلمين؛ ولكن على الرغم من إخماد هذه الحرب الأهلية، لم يتوقف البغض المميت للمسلمين ضد المسيحيين (والذى ذكرنا سابقًا أنه لم ينتزع من قلوبهم)، فلم يستطيعوا أن ينسوا ما ألحقهم بهم المسيحيون من عار جراء استيلائهم على مدينتهم القديمة: وهكذا لا يمكننا القول إن غرناطة ومملكتها قد تم الفوز بهما، فوفقًا لمجريات الأحداث، وكما سنرى فيما بعد، لم يتوقف المسلمون عن الثورة وعن محاولة استعادة مملكتهم، فقد حاولوا هذا دائمًا وبشتى الطرق، وكان لديهم من أجل هذا الهدف سلاح فى كل مكان ومُعدات قتال كانوا يقومون بإخفائها، وقد تم العثور عليها فيما بعد (كما سنذكر لاحقًا). استمر الوضع فى غرناطة على هذه الحالة من الحرب طيلة ٧٧ عامًا وأكثر، شهدت خلالها غرناطة ازدهارًا عظيمًا، حتى يمكننا القول إنه لم يكن فى إسبانيا مدينة نالت حظها فى المعاملات والتجارة والعمارة والمبانى الفاخرة، كتلك المدينة الكبيرة العامرة بالسكان. فقد شُيِّدت فى غرناطة معابد ذات شهرة عالمية، حتى إن واحدًا منهم يُعد من عجائب الدنيا السبع، وخلافًا لهذا المعبد كان هناك العديد من الكنائس الشهيرة والأديرة التابعة للعديد من الرهبانيات، وأخص بالذكر ذلك الدير الذى بُنى إحياءً لذكرى القديس العظيم خيرونيمو (S. Gerónimo)، والذى دُفن فى ثراه دوق سيسا (Sesa)، والذى تزينه الرايات والبيارق ويعلوه نصب تذكارى لأشهر الانتصارات وأعظمها التى حققها هو ومنْ سبقوه، بخاصة انتصارات القائد الشهير غونثالو فيرنانديث دى كوردوبا (Gonçalo Fernández de Cárdova)، شمس الأمجاد الإسبانية الساطعة، الذى ستظل بطولته الخالدة حيَّة بين الرجال دائمًا.

فى ذلك الوقت، أصدر الملك الكاثوليكى فيليبى الثانى، بغيرته الدينية، ودفاعه عن شرف الرب، أمرًا بأن يترك مسلمو غرناطة ونواحيها (علمًا بأنهم قد تم تعميدهم وأصبحوا مسيحيين) عاداتهم ولغتهم، وألا يقيموا احتفالاتهم الليلية، وألا يقيموا أفراحهم وفقًا لتقاليدهم، وألا يجهزوا طعامهم فى أعياد الميلاد أو أعياد رأس السنة حسب عاداتهم، وقد مُنعت عنهم أشياء كثيرة أخرى على هذا النحو. وقد أمر الملك بكل هذا حتى يتعمق الموريسكيون أكثر فأكثر فى العادات المقدسة الخاصة بالديانة الكاثوليكية وينسوا الأشياء الخاصة بطائفتهم وينسوا القرآن أيضًا[٥]. وقد أمر الملك بكل هذا بعد موافقة المجلس الملكى وأصحاب القداسة

(٥) كان مندوثا قد حذر الملك من المساس بعادات الموريسكيين، وفى المذكرة التى قدمها نونييث مولاى إلى الملك إشارة إلى أن تلك العادات لا علاقة لها بالدين الإسلامى. انظر "الموريسكيون الأندلسيون" تأليف مرثيديس غارثيا أرينال، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة. (المراجع).

رجال الدين الغيورين على شرف الرب. بعد الموافقة على هذه الإجراءات أمر الملك بأن يتم الإعلان عنها فى غرناطة ومملكتها، وقد أحدث هذا ألمًا شديدًا فى نفوس الموريسكيين كما قيل. وقد رأى الملك هذا وأمر به لأن قلبه معلّق بالرب وطوع بنانه، وأخيرًا، لأنه حتى ورقة الشجر لا تتحرك إلا وفقًا لإرادة الرب. وقد كانت الغيرة المقدسة وراء هذا الأمر حتى تتحرر هذه المملكة التى تم استردادها كلية ويترك المسلمون دينهم القديم. على الرغم من أن هذا قد تسبب، حقيقة، فى خسارة عظيمة، وفى إراقة الدماء المسيحية، ونقصان كبير فى الإيرادات الملكية، وفى خراب قرى عديدة تابعة لملكة غرناطة وانهيارها إلى الأبد. لما صدرت الأوامر (كما قلنا) بترك موريسكيى غرناطة لغتهم وعاداتهم، أحدثت غضبًا عظيمًا، وهياجًا فى كل المملكة، وهكذا تشاور زعماؤهم فيما يجب أن يقوموا به فى هذه الحالة. فبعد تفكير بدا لهم أنهم لن يستطيعوا تحمل هذه الأوامر ولا تنفيذها، فقد اعتبروها خطيرة وثقيلة واتفقوا فيما بينهم على الثورة وحمل السلاح، بعد أن أشعل الغضب نفوسهم وسيطر عليهم حُنق عظيم. ولم تكن ثورتهم هذه ضعيفة، بل لقد حرضهم إله الحرب على حمل السلاح ورفع الرايات ضد فيالق المسيحيين، فسقطوا فى جحيم الغضب وأيقظوا الحرب التى كانت منسية بضجيج أسلحتهم. وعندما استيقظت هذه الحرب من سباتها وانطلقت فى بساتين غرناطة اليانعة، نفثت فى آذان المسلمين الغرناطيين وعقولهم سمومها، وجعلتهم يقومون بثورة سريعة متعجلة ويرفعون سلاحهم فى وجه الجانب المسيحى. وهكذا عقدوا العزم على تنفيذ فكرة دموية، تم التوصل إليها بعد مشاورات مع أقوى رجال المملكة، ألا وهى عمل قائمة بالرجال القادرين على الحرب، وأن يتم ذلك بسرية شديدة حتى لا يعلم به أحد، وهداهم تفكيرهم إلى فكرة شيطانية وهى أن تطلب مدينة غرناطة إذنًا بإقامة مستشفى كبير لعلاج مرضى الجذام من الموريسكيين الفقراء. وقد حصلوا على الإذن وتم اختيار موقع المستشفى فى سان لاثارو (San Lázaro)، وهى مدينة تقع على الطريق إلى ألبولوتى (Albolote)، وقد صدر الأمر، بخطابات وإذن للقاضى الدكتور رومان (Román) (وكان رجلاً عظيمًا)، بخروج اثنين من الموريسكيين يطوفان بالمدينة كلها وكذلك بالبشرات طالبين المعونة والتبرع لبناء ذلك المستشفى. وكان النظام المتبع أن البيت الذى به رجلان قادران على حمل السلاح يقوم بدفع فلسين، والبيت الذى به واحد يدفع فلسًا واحدًا، وهكذا وفقًا لعدد الرجال فى المنزل الواحد كانت تُدفع النقود. وهكذا بهذه الطريقة السرية، ووفقًا لحساب النقود، كان هناك خمسة وأربعون ألف رجل قادرين على حمل السلاح، وقد تم الاتفاق بين هؤلاء الرجال المذكورين فى القائمة على حمل السلاح وعلى الكتابة إلى أولوج على (Ochali)، ملك الجزائر وإرسال خطاب له كان مضمونه الآتى:

«خطاب من مسلمى غرناطة إلى أولوج على العظيم ملك الجزائر»

لقد أمر النبى محمد العظيم فى سُنته بإغاثة المسلمين المحتاجين وبخاصة منْ هم فى حرب ضد المسيحيين. وقد قال لنا القرآن هذا، فى كتاب السيف[٦]. ونحن الآن، أيها الملك العظيم، فى أشد الحاجة لمساعدتكم ونحن نرزح تحت حُكم الإسبان المسيحيين، كى نتخلص من هذه العبودية الثقيلة، فاعطنا السلاح والرجال القادرين على الحرب، ونحن نعدك بتسليم إسبانيا لك. ونحيطك علماً بأن لدينا خمسة وأربعين ألف رجل مستعدين للقتال، وهم شباب يتوقون إلى حمل السلاح، وبعون من الله سوف تعود إسبانيا للخضوع لمشيئة الله العظيم، كما كانت فى عصور سابقة؛ فالآن تبدو فرصة تحقيق ذلك الأمر عظيمة، فمدينة البشرات التابعة لهذه المملكة مليئة برجال قادرين على الحرب وراغبين في تحقيق ذلك. سوف نقدم لك الموانئ الآمنة والمعدات والمال كى تدفع لرجالك. هنا يوجد ميناء بحرى يُسمى سورباس (Sorbas)، يمكن لرجالك أن ترسوا مراكبهم فيه بأمان، وغير ذلك، هناك أماكن أخرى، يعرفها الرحالة من رجالك جيداً، حيث يستطيعون أن يهبطوا هم وبقية الرجال. نستحلفك بالله العظيم ألا تتخلى عن هذه المهمة، التى تعدك السماء بالشرف والمجد إذا قمت بها. نكتفى بهذا.

غرناطة.التاريخ: العشرون من أبريل لسنة ألف وخمسمائة وثمانية وستين".

كتب مسلمو غرناطة هذه الرسالة إلى أولوج على، ملك الجزائر، وأرسلوها عن طريق بيرا (Vera) كما عُرف فيما بعد. آنذاك كان هناك فارس من لوركا (Lorca)، يُدعى توماس دى سيغورا (Tomas de Sigura)، كان أسيراً، وكان فى استطاعته أن ينقل هذه الرسالة، وقد أحضرها إلى لوركا، وقد وصلت الرسالة قبل قيام الثورة بقليل. عندما وصلت الرسالة إلى يد الملك أولوج على أمر بجمع رجال الحرب الذين يحصلون على رواتبهم من الجزائر، وجمع أيضًا قباطين وقراصنة كثيرين، وقرأ أمامهم هذه الرسالة، ثم طلب من كل منهم إبداء رأيه حول هذه المسألة وما يجب أن يفعلوه إزاءها. وقد أحدث هذا جلبة عظيمة بين هؤلاء الأوغاد[٧]

(٦) يقصد سورة التوبة.(المراجع).

(٧) رغم التعاطف النسبى الذى أبداه بيريث دى إيتا فى الجزء الأول من كتابه، نراه هنا يتخلى عن حياده ويصف المسلمين بأقذع الألفاظ. (المراجع).

وكانت هناك آراء عديدة؛ فقد رأى بعضهم ضرورة إنقاذ مسلمى غرناطة ورأى آخرون عدم التدخل لإنقاذهم لأنهم سفلة لا يحترمون كلمتهم وأنهم قليلو الخبرة بالحرب، وأن الذهاب إلى إسبانيا لن يأتى من ورائه خير، لأن الإسبان شجعان ومهرة فى الحرب. فى أثناء ذلك كان هناك مرابط عجوز(٨) ، ذو خبرة فى الحياة، يُكن له مسلمو الجزائر عظيم الاحترام، عندما رأى الجلبة التى أحدثها هذا الحشد وهذا الاختلاف فى الرأى حول إغاثة أهل غرناطة، ألقى بعكازه من يديه فى إشارة منه كى يلتزم الجميع الصمت، وعندما عَمَّ الهدوء المكان، تحدث سيدى بوجاو (Cidde Bujao) (كان هذا اسم المرابط) بطريقة تعكس جدية وخطورة الموقف على وجهه.

"حديث المرابط للقادة المسلمين وجنودهم فى الجزائر"

"أيها القادة الشجعان، يا منْ هبطتم إلى الأرض فى ليبيا، وعند شواطئ إسبانيا، شاهرين أسلحتكم فى وجه المسيحيين طاعة لله ولمحمد: افهموا جيداً ما أريد أن أقوله لكم الآن، إنه أمر عادل ومهمة مقدسة، وفرصة سانحة، مدحها الله فى "كتاب السيف" (٩)(على لسان محمد) حيث أمرنا أن نكون على استعداد لحمل السلاح ضد المسيحيين، وأن نقوم بإغاثة المسلمين عندما يطلبون ذلك: وإذا تخلينا عن القيام بذلك حلَّ علينا غضب محمد (١٠) الآن، حان الوقت، يا سادة، كى نقوم بهذه المهمة العظيمة أن نحفظ دين محمد، وسوف يتحقق هذا بنجدتنا لأهل غرناطة الذين يستغيثون بنا، الذين يريدون العودة لمحمد، فلنساعدهم بحمل السلاح، كى يستعيدوا إسبانيا وسوف يرضى الله عن هذه المهمة وسيجازى صاحبها أعظم جزاء. ولهذا، أيها الأصدقاء، لا بد من إغاثة الغرناطيين، لأنهم جزء منا وهم أخوة فى الدم، وأعدكم أن أقدم لكم صك غفران(١١) يصاحبه جزيل الشكر، طبقًا لما ورد فى شعائرنا وفى

---

(٨) ربما كان يقصد أولئك الزهاد الذين كانوا يرابطون فى الثغور. (المراجع).

(٩) ذكرنا أنه يقصد سورة التوبة.(المراجع).

(١٠) لاحظ رؤية المؤلفين المسيحيين لمحمد (صلى الله عليه وسلم) على أنه إله للمسلمين. (المراجع).

(١١) لاحظ عدم فهم المؤلف لحقيقة الإسلام. (المراجع).

ديننا العادل، لكل منْ قدم سلاحًا أو قام بمهمة فى الحرب مع مسلمى غرناطة. تعلمون جيدًا أن لدىَّ السلطة، والقوة، والقيادة كى أعطى كل شىء، لكل منْ يهب لنجدة موريسكيى غرناطة سواء بالسلاح أو بغيره، وسيكون النصر لنا فى النهاية".

كان لهذه الخطبة التى ألقاها المرابط الكاذب(١٢) تأثيرها العظيم على ملك الجزائر، وعلى كل جنوده، الذين هتفوا بصوت واحد بضرورة إغاثة الغرناطيين ومنحهم السلاح. وقد تم اختيار مسجد كبير كى تجمع فيه الأسلحة ومعدات الحرب. وتم تجميع عدد كبير من الأسلحة فى ذلك المسجد فى نفس ذلك اليوم؛ فالبعض حمل أقواسًا، وآخرون حملوا السيوف، وآخرون حملوا الرصاص، وآخرون حملوا البارود، وآخرون حملوا الحبال، وغيرهم حملوا البنادق، وحتى النساء والأطفال حملوا الكتان والقنب حتى يستطيعوا صنع الحبال، وآخرون حملوا السهام والدقيق والخبز والكعك من أجل إطعام البحارة الذين سيعبرون البحر. لقد جاءوا بالكثير لدرجة أن المسجد - على اتساعه - لم يستوعب أكثر، طمعًا فى صك الغفران البائس الذى وعدهم به المرابط(١٣) بعد وضع هذه الأشياء فى المسجد وامتلائه بها، أمر أولوج على أن يُعقد مجلس للحرب فى قصره الملكى، وأن يتكون هذا المجلس من قادة ورجال حرب لهم خبرتهم فى الحرب فكلهم من كبار السن. وبعد عرض عدة آراء، اتفقوا على ألا يرسلوا إلى غرناطة أى شىء دون علم الملك. وهكذا، بعد هذا الاتفاق، تم إعداد سفينة شراعية خفيفة، بكل سرعة، وكان قائدها شاب سيئ الأخلاق يُدعى مامى كالابريس (Mamí Calabrés)، قوى البنية، معروف فى البحر (حيث لا يزال حيا حتى اليوم)، كقرصان رهيب، وقد اتخذ طريقه فى البحر نحو القسطنطينية، وفقًا لما أمر به، حاملاً معه رسائل لسلطان الأتراك حول مطالب أهل غرناطة. عند وصول هذه الرسائل واستلام الترك لها، ومعرفة ما تحتويه جيدًا، والاتفاق الذى تم فى مجلس الحرب، قرر السلطان التركى أن يعود الأمر كله إلى أولوج على؛ فقد كان ملكًا للجزائر، وعارفًا بأمور الحرب، فهو من دول الجوار لإسبانيا وله حدود مع سواحلها، وبهذا الاتفاق أمر سلطان الأتراك بعودة مامى كالابريس حاملاً رسالة إلى أولوج على. وقد عاد القرصان الشهير خلال أيام قليلة إلى الجزائر، وسلَّم الرسالة إلى أولوج على، وعندما فتح أولوج على الرسالة وقرأها، كانت تقول:

---

(١٢) سوف تتكرر هذه النعوت فى حديث المؤلف عن المسلمين . (المراجع).

(١٣) لم يكن هناك مرابطون فى ذلك الوقت؛ بل كان هناك شيوخ روابط (جمع رابطة) أو زوايا. (المراجع).

"خطاب من عظيم الترك سليم سليمان (Selín Solimán) إلى أولوج على، ملك الجزائر"

"استلمت رسالتك ومعها رسالة موريسكيي غرناطة؛ وقد أخبرتني بما قمت به وبالأسلحة التي جمعتها لنصرتهم، لكن لا تستعد لشيء دون سبب وجيه له. ابعث بمائتي جندي تركي وليس أكثر، ممنْ عندك من البحارة، وحسبما ستسير أمور الحرب سنقوم بالتصرف؛ وهكذا يجب عليك أنت أيضًا أن تستعد، وإذا رأينا أن المهمة يمكن تحقيقها، سوف أطلب من الفرنسيين العون وعندها سأدخل بكل قوة من إيطاليا وسوف آمر ملك فاس والمغرب أن يدخل من جهة الغرب، وإذا سارت الحرب لغير صالحنا سنضطر للاستسلام. نكتفي بهذا. من إسطنبول سليم سليمان".

عندما قرأ أولوج على هذه الرسالة، شعر بالراحة لما أخبره به سلطان الأتراك وما أمره به، وقد أطلع أعضاء مجلس الحرب عليها وقد شعروا جميعًا بالراحة. بعد هذا بدأ أولوج على فى البحث بعناية شديدة عن مائتين من الأتراك، من الجنود الأكفاء، لكى يبعثهم إلى مملكة غرناطة، وسوف نترك هؤلاء الآن كى نتحدث عما كان يحدث فى غرناطة.

فى ذلك الوقت، لا بد أن نعرف كيف أن مسلمى غرناطة بعد إرسالهم الخطابات إلى أولوج على، ملك الجزائر، بدءوا فى الاتصال ببعضهم بعضًا فى سرية تامة، وبدءوا يجمعون الآراء حول منْ يستطيع أن يكون ملكًا عليهم؛ وقد وضع كبارهم عيونهم حول السيد فيرناندو مولاى (Fernando Muley) ؛ سيد بالور (Valor)، لأنه كان سليل الملوك الذين حكموا غرناطة، وهو قريب وسليل لأمير المؤمنين، ملك المغرب وقرطبة، وكان يُدعى محمد. وكان السيد فيرناندو مولاى ابنًا للسيد خوان مولاى (Juan Muley) وحفيدًا للسيد فيرناندو، الذى منحه الملوك الكاثوليك هبات عظيمة وأعطوه الكثير من المزايا من أسلحة ودروع ومرتبات عظيمة بقرارات ملكية من الملوك الكاثوليك، أكد عليها وصدَّقها الإمبراطور والملك فيليبى الثانى سيدنا، وقد رأيت أنا هذه الوثائق فى مورثيا (Murcia) لدى لويس ألبايار الغرناطى (Luys Alvayar Grana dino) . وكان السيد فيرناندو هذا الذى تحدثنا عنه فتًى فى العشرين من عمره. كانت له لحية صغيرة؛ وكان أسمر اللونْ، مقرون الحاجبين، ذا عينين سوداوين واسعتين، متناسق الجسم، يبدو من تصرفاته وهيئته أنه ذو دماء ملكية (وكان فى الحقيقة ذا دماء ملكية)؛ كان تفكيره ملكيا أيضا، وكان جميع المسلمين الغرناطيين يحترمونه، وكان واحدًا من الفرسان الأربعة والعشرين

المعروفين في غرناطة. أعطى هذه العلامة عنه لأننى رأيته مرتديًا ملابس الحداد، وفي صحبته (بقية) الأربعة والعشرين[١٤] في جنازة الملكة إيسابيل دى لاباث (Isabel de la Paz) زوجة الملك الكاثوليكي فيليبى الثانى؛ حينئذٍ عرفت منْ هو وبماذا يُدعى. وقد وضع المسلمون عيونهم عليه كى يكون ملكًا عليهم، ولكنى لا أستطيع أن أؤكد إذا كان المسلمون قد تحدثوا معه بهذا الشأن، ولكن لنقل إنهم بالفعل قد فاتحوه في الأمر، وذلك وفقًا لما ظهر فيما بعد.

من المعروف أن السيد فيرناندو مولاى هذا قد دخل يومًا ما في المجلس البلدى (Cabildo) في بلدية الفرسان، وقد نزع السيف عن وسطه، كما هى العادة بين المراجعين (Regidores) أو الفرسان الأربعة والعشرين الذين يتركون سيوفهم فى الخارج. وعندما ترك السيد فيرناندو سيفه في الخارج لم ينزع معه خنجره، مثلما فعل الآخرون، وعندما رأى أحد الفرسان وهو رئيس شرطة غرناطة، وكان يُدعى السيد بدرو ماثا (Pedro Maça)، أن السيد فيرناندو دى بالور قد ترك سيفه ولكن لم يترك خنجره، قال له: "سيدى فيرناندو، لقد أسأتم التصرف لعدم ترككم الخنجر مع السيف في الخارج كما فعل بقية الفرسان"، وقد ردَّ عليه السيد فيرناندو قائلاً: "حقا يا سيد بدرو، لقد فعلت هذا دون قصد، ولكن لا يهم أن أدخل البلدية ومعى خنجرى، فليس هناك أدنى شبهة فىَّ، بخاصة وأنا فارس وأستطيع أن أدخل ومعى سيفى وخنجرى". قال السيد بدرو: "أنا لا أنكر هذا، فمن المعروف أن سيادتكم وأسلافكم لديكم امتياز ملكى يسمح لكم بحمل السلاح والدخول به في الأماكن الممنوعة وغير الممنوعة، ولكن كما تعلمون، أن العادة جرت على عدم دخول أى فارس مهما كانت أهميته، بسلاحه في صالة البلدية في أى مملكة أو إقطاعية تابعة لمليكنا المعظم. وهكذا ليس من العدل أن تدخل بسلاحك، في الوقت الذى يمتنع فيه فرسان آخرون عن الدخول بالسلاح". وقد غضب السيد فيرناندو غضبًا شديدًا من هذه الكلمات وقال له: "ليس هناك فارس يماثلنى ولا لديه الحرية التى يستطيع بها أن يدخل ومعه سلاحه"، وقد غضب السيد بدرو غضبًا شديدًا لما قاله السيد فيرناندو، وقد تجرأ كقاض أكبر وقال له: "إن منصبى يعطينى الحق فى تجريدك من خنجرك، فليس من حقك أن تضعه في خصرك دون وجود السيف به، ولهذا فمن حقى أن أقاضيك". وبعدما قال ذلك، توجه نحو السيد فيرناندو ونزع الخنجر من خصره. وشعر السيد

(١٤) كانت كل مدينة إسبانية بها ٢٤ وجيهًا. (المراجع).

فيرناندو بالغضب، ولكن لعلمه بأنه كبير القضاة لم يدافع عن نفسه، وتركه يأخذ الخنجر من خصره وقال له: "لقد تصرفتم بشكل سوقى، وأقسم بالتاج الملكى لجدودى، الذى يشرفنى دائمًا، بأن أنتقم منك لهذه الإهانة، وممنْ وافقوا على نزعك خنجرى من خصرى". وقد أمر المأمور القضائى؛ الذى استمع إلى هذه الكلمات بأن يلقوا القبض عليه، ولكن السيد فيرناندو خرج بسرعة كبيرة حتى لا يُعتقل، إلى الصالة التى كان بها سيفه وأخذه وأخرجه من غِمده، وقال لهم من عند الباب، إذا أرادوا إلقاء القبض عليه فليفعلوا، ولكنه سوف يقتلهم. وقد حاول رئيس الشرطة أن يساعدهم ولكنه لم يستطع لأن السيد فيرناندو، كشاب يافع وسريع، انحرف للخارج، وصعد السلَّم كله، وعندما وصل إلى الدهليز وجد جواده، حيث كان خدمه قد أعدوه له، ودون وضع قدمه فى موطئ الحصان قفز إلى ظهر الجواد، وضم ساقيه عليه وخرج من المجلس البلدى بسرعة وكأنه شُعاع برق، بطريقة لم يستطع معها السيد بدرو ولا الحراس ولا رجال الشرطة الآخرون الذين كانوا هناك أن يفعلوا شيئًا لإيقافه. أما خدمه، فبعد هذه الجلبة، لم يستطيعوا أن يلحقوا بسيدهم، وأُحتجزوا فى الزنزانة الملكية، التى كانت على مقربة من المجلس البلدى. ولهذا يغلب الظن على أن السيد فيرناندو دى بالور مولاى كان على علم بمؤامرة الانقلاب على الملكة، لأنه ذهب ذلك اليوم إلى البلدية على ظهر حصان ولأنه أراد أن يدخل ومعه خنجره حتى يكون لديه هذه الفرصة فى الخروج من غرناطة. هذه الحكاية، وغيرها مما ذكرنا كانت سببًا فى تمرد المملكة. اللعنة على الخنجر، واللعنة على غيره من الأحداث؛ فقد تسببوا فى الكثير من الشرور، وفى إراقة الدماء المسيحية فى حروب أهلية، هكذا يمكننا أن نسميها؛ لأنها كانت حروب مسيحيين ضد مسيحيين، وكلهم داخل مدينة واحدة ومملكة واحدة، ولم تكن تلك الحروب بالهينة، كما سنقول لاحقًا. وهكذا عما حدث يمكننا أن نذكر قصيدة، حتى لا نخالف أسلوب الجزء الأول[١٥].

قصيدة

بعدما فاز فيرناندو الخامس

بغرناطة الشهيرة

(١٥) تميَّز الجزء الأول بالخلط بين رواية الأحداث نثرًا وذكر أغنيات شعبية تتناول موضوع الرواية . (المراجع).

والحمراء والمروج

وقلعتها المنيعة

وأبراج بيرميخاس القوية

و معها باب التوابين

وكل ما حولها

كل الغوطة المستوية

لوخ ومالقة وموكلين

والحامة الشهيرة

وقلعة ابن زايدى

التى يُطلق عليها الآن

القلعة الملكية

وأيضًا قلعة كولوميرا الغنية

القريبة من غرناطة

ومناطق سلسلة الجبال

التى يسمونها البشرات

القريبة جدا من لا بيثا

وغواديكس وألمرية وباثا

بكل ما يحيط بها

المليئة بالسكان

وأيضا نهر ألمرية العظيم

والآخر الذى يُطلق عليه نهر المنصورة

الذى يصل إلى قشتالة

لقد فاز الملك بكل هذا

وفى صحبة الكبار

الذين كانوا معه فى الحرب

ترك الأرض آمنة

ومليئة بالسكان المسيحيين

وقد مرً سبعون عاماً وسبعة

بحساب واضح

كانت فيهما غرناطة هادئة

لا يحدث فيها أى شغب

ولكن فى نهاية هذا الوقت

وعندما كان يحكم

الملك فيليبى الثانى

ملك إسبانيا

عاد إله الحرب المتوحش

لينشر رايته

فقد رأى أنه من العبث

أن تبقى هكذا مطوية

وقد حرض مسلمى غرناطة

على الحرب والسخط

وقد هاجت كل المملكة

وأراد الجميع حمل السلاح

وخاطبوا ملك الجزائر

الذى يُدعى أولوج على

لكى يأتى لإنقاذهم

واعدين إياه

بالاستيلاء على إسبانيا

وما حدث فى هذا الصدد

سنقوله فى فصل آخر

الفصل الثانى

الذى يتحدث عن خروج السيد فيرناندو مولاى ابن أمية من غرناطة، وذهابه إلى بالور، وهو موطنه، وكيف تجمَّع حوله أناس كثيرون ونادوا به ملكًا على غرناطة؛ وسوف نتحدث عن أشياء أخرى ترتبط بهذه القصة.

خرج السيد فيرناندو مولاى ابن أمية (هكذا كان يُسمى) بكل سرعة من غرناطة، ومن المعروف أنه كان يوجد فى غرناطة عائلة أخرى تحمل لقب فرسان مولاى (Caballeros Mul-eyes)، وقد تحدثنا عنهم سابقًا؛ وقد حملوا اسم مولاى لأنهم من سلالة ملكية؛ لأن "مولاى" تعنى بالعربية "ملك"؛ ولكن السيد فيرناندو مولاى سمى ابن أمية لأنه كان سليل الخليفة ابن أمية العظيم، حفيد الابنة الكبرى للنبى محمد التى تُدعى فاطمة؛ ولهذا فإن لقب ابن أمية حمله فى إسبانيا الخلفاء والملوك الذين حكموا قرطبة، وفاس والمغرب. ومن الابنة الثانية لمحمد، التى تُدعى هاجر (Haja)، جاءت عائلة (عبد الرحمن) الدورامين (Alduramén)، والتى إليها ينتسب خلفاء وملوك فى جزيرة العرب وإفريقيا وإسبانيا. ولكن عائلة ابن أمية كانت لها قيمة أكبر وانتسب إليها عدد أكبر من الملوك وهذا ما نجده عند استيبان دى غاريباى (Estevan de Gari-bay) [1]، فى موجزه الذى أعده حول تلك الأشياء، والذى استند إليه فى هذا الأمر. استمر إذن السيد فيرناندو مولاى ابن أمية هذا، الذى نتحدث عنه، عندما خرج من غرناطة، كما قلنا، وهو فى قمة غضبه لانتزاع خنجره، فى طريقه دون توقف حتى وصل إلى بالور، استولى على إحدى القرى التابعة له فى البشرات قريبًا من كاديار (Cadiar)، وهى قرية كان بها أعوان له،

(١) هل هو اسم حقيقى؟ لاحظ أن المؤلف - مثل آخرين كثيرين معاصرين له - لا يكاد يعلم شيئا عن الإسلام ولا عن تاريخ المسلمين الأوائل. الحديث عن ابنة للنبى (صلى الله عليه وسلم) تسمى هاجر يذكرنا بحديث ألفونسو العاشر عن زيارة النبى (صلى الله عليه وسلم) إلى قرطبة. انظر دراستنا "صدى سقوط غرناطة فى الأدب الإسبانى"، أعمال المؤتمر العالمى الخامس للدراسات الموريسكية، تونس، ١٩٩٣. (المراجع).

حيث كان يعيش فيها أحد أعمامه ويُدعى ابن جوهر(جهور؟) (Abenchoar)، وكان رجلا غنيا وقويا وكان الجميع فى هذه البلدة يكنون له الاحترام لأصوله ونَسبه. وعندما علم هذا العم أن ابن أخيه السيد فيرناندو قد وصل إلى بالور، ذهب لزيارته مصطحبًا معه موريسكيين أغنياء آخرين، أحفاد عائلات نبيلة، وعندما تقابل العم وابن أخيه فرح كل منهما بالآخر، وعندما تحدثا عن أشياء كثيرة، حكى السيد فيرناندو كل ما حدث فى غرناطة مع السيد بدرو ماثا وانتزاعه خنجره. وقد حكى السيد فيرناندو هذا بكل غضب وغيظ، حتى إنه بكى لفرط تأثره، وأقسم على الانتقام بنفسه من الإهانة التى لحقت به. وعلى الرغم من تأثر عمه ابن جوهر بما حدث، فإنه قال له: "ليس بالدموع (يا ابن أخى العزيز) يتم الانتقام، بل بالسلاح. لقد حان الوقت الذى تظهر فيه شجاعتك، وانتسابك المباشر لملوك غرناطة وقرطبة السابقين. إن المملكة كلها تتحرك باحثة عن حريتها، وقد اختارتك ملكًا عليها وسيدًا لها؛ فأنت جدير بالمُلك، فلا ترفض هذا الأمر لأنه حقك. لقد خاطبنا ملك الجزائر ونتوقع منه الإغاثة بالسلاح والرجال. فإذا أصبحت ملكًا (كما قلت لك سابقًا)، يمكنك الانتقام بنفسك من أعدائك وتدمير أملاكهم".

وقد توّسل الحاضرون كلهم للسيد فيرناندو بأن يقبل التاج الذى تقدمه له المملكة، ووعدوه بتقديم العَوْن له بالنفس وبالمال. أما السيد فيرناندو؛ الذى لم يكن يتمنى شيئًا آخر سوى أن يكون ملكًا، فقد قال فيما بعد إنه يقبل الملك عن رضا، ووعدهم بتحرير المملكة كلها وحمايتهم جميعًا والعمل لصالحهم. وقد سعد الجميع بهذا وأرادوا أن يقبلوا يديه وأن ينصبوه ملكًا، ولكن جوهر قال إنه لا يصح أن يتم تنصيبه بهذه الطريقة، لأنه يريد أن يحضر احتفال تنصيبه كل أغنياء المسلمين فى المملكة. وهكذا أرسلوا رسلهم بكل سرعة إلى جميع أنحاء المملكة كى يحضر الجميع إلى بالور. وهكذا فى غضون ثمانية أيام اجتمع العديد من أغنياء الموريسكيين فى غرناطة وفى غيرها من المناطق، وتم هذا بسرية عظيمة، وبطريقة لم يشعر بها أحد؛ وعندما اجتمعوا فى بالور، كان أول شىء فعله السيد فيرناندو نفسه هو الذهاب إلى أوخيخار (Ojíar)، فى صحبة عدد كبير من الأشخاص، وأمر بتحطيم السجن وإطلاق سراح أكثر من مائة مجرم موريسكى كان مقبوضًا عليهم لقيامهم بالقتل والسرقة، وقد جهزهم بسلاح على أعلى مستوى. وعندما حدث هذا ثار مسلمو أوخيخار وطالبوا بحريتهم. آنذاك كان مسلمو بيرالهول (Veralhul) قد قاموا بقتل بعض حاملى السلاح الذين قد كان قائد الحمراء قد عينهم للحراسة. وبهذه الطريقة أعلنت الكثير من القرى التمرد، وأقام متمردوها فى

كهوف آمنة وفى أماكن وعرة، وقد ملئوا هذه الكهوف بدقيق القمح والشعير والعسل والزيت وغيرها من ضروريات الغذاء بكمية تكفيهم لمدة تزيد على ست سنوات. وقد وضعوا فى هذه الكهوف أيضًا أموالهم، وما يملكون من حرير وذهب وثياب، وضعوا كل هذا فى صوامع تحت الأرض وفى أماكن أخرى، بحيث لا يستطيع المسيحيون أن يعثروا عليها. بعد ذلك بدأ المجرمون الموريسكيون، وهم يرفعون الرايات، فى إحداث أضرار بالغة، مطالبين بالحرية، وأجبروا القرى التى لم تكن ترغب فى التمرد على الثورة. وعندما رأى السيد فيرناندو أن المفاوضات قد فشلت، وأنه لا يستطيع عمل شىء آخر إلا الموت أو المضى قُدمًا، أمر الناس بالتجمع للحرب فى كاديار، لأنه أراد أن يعطيهم الأوامر بما يجب عليهم أن يفعلوه لأنهم قد اختاروه ملكًا عليهم بمحض إرادتهم؛ وهكذا، اجتمع الناس فى كاديار، بهدوء ووداعة لا يتناسبان مع الموقف، فقد كانوا فى الحقل، واجتمع الرجال تحت أشجار الزيتون الوارفة حيث وضعوا بعض المقاعد والوسائد، من بينها مقعدين جميلين، تم تجهيزهما بفراش من الحرير من بقايا ملوك غرناطة[٢] السابقين، جلس السيد فيرناندو على أحد هذين المقعدين، وعلى الآخر، ناحية يده اليسرى، جلس عمه ابن جوهر، وحوله جمع من الأغنياء من تلك القرية وغيرها. وعندما رأى ابن جوهر الناس وهى مجتمعة ومعهم فرقة من الرجال المسلحين، على الرغم من سوء حالة سلاحهم، حيث لم تكن لديهم الأسلحة الضرورية، قام من مقعده، وفى صوت يستطيع أن يسمعه الجميع بدأ الكلام، موضحًا خطورة ما يقول، وقال الآتى:

"حديث ابن جهور إلى المتمردين المسلمين فى البشرات"

"أيها الفرسان العظام، أيها المحترمون، يا بقايا الشعوب الغرناطية المسلمة. تذكرون جيداً كيف كانت غرناطة وشعبها وتعرفون ما هم عليه الآن من حال، وتعرفون جيداً كيف أنه منذ نحو مائة عام سرق المسيحيون أمجادنا العظيمة واغتصبوا غنائمنا فى العصور السابقة مع كل انتصاراتنا، ولم يكتفوا بهذا بل استولوا على مدننا، وقرانا بعدما وعدونا ببقائها معنا، وقد نزعوا منا سلاحنا أيضًا بعد أن هددونا بعقوبة شديدة لو استخدمناه.

(٢) لاحظ الجانب الخيالى فى رواية الأحداث. (المراجع).

وهكذا اكتمل مصابنا؛ ويفهم شديد لحياتنا وأموالنا حرموا علينا استخدام لغتنا الجميلة ودِيننا القديم (وهو أمر لا نستطيع أن نتحمله أو نعانيه)، وهو سبب كاف كى نسعى نحن الغرناطيين للبحث عن حريتنا كى يفهم المسيحيون الطامعون أننا لسنا مقهورين ولسنا عاجزين. تذكروا الضرائب والإتاوات المتزايدة التى يجعلوننا ندفعها لهم دون وجه حق، ويجعلونا نعتقد ونعبد أشياءً لا نفهمها ولا نعرفها؛ ويدعوننا كل يوم لتسجيل أسمائنا فى كنائسهم وكأننا عبيد لديهم. أى دماء شريفة، وأى نبيل يستطيع أن يتحمل هذه النكبة؟. حقا، يا أصدقائى المخلصين، إن أى رجل نبيل وأى أناس شرفاء يتمنون الوقوف على حافة الموت ولا يتحملون هذه المحن القاسية. أية محنة أكبر من الحرمان من الحرية ؟. إذن لعلاج مثل هذه المسائل وهذه الشرور، لا بد أن يقرر النبلاء والشرفاء وكل المملكة البحث عن الحرية الحلوة اللذيذة؛ التى يجب الحصول عليها بقوة السلاح، وهى ما نطالب به. أيها الأصدقاء، لدينا الآن بين أيدينا فرصة سانحة وسوف يصل إلينا من الجزائر النجدة والسلاح بفضل"محمد"؛ ومن أجل هذه المهمة العظيمة نحتاج إلى ملك يتفق عليه الجميع، ينتمى لطائفة وعائلة الملوك السابقين؛ هذا الملك هو السيد فيرناندو مولاى، ابن أخى، إنه أحق بالمُلك، لأنه ليس هناك شخص أقرب منه للمُلك، وأيضًا لأنه كشخص يستحق هذا، فهو ذكى وحصيف وهو سليل الملوك. لقد أجمعت عليه كل المملكة، وهو أمر أستطيع فيما بعد أن أؤكده بتوقيعات أهم شخصيات المملكة. وقد رجوته ومعى الكثيرون من الحاضرين هنا كى يقبل هذا الأمر، وكان رده علينا: "أنه يرغب فى أن يكون جنديا مخلصا، وأن يموت من أجل حرية أبناء مملكته، ولا يقبل هذا المنصب الخطير ولا أن يكون ملكًا"، ولكننا ألححنا عليه كى يقبله. انظروا الآن، أيها الرجال الشجعان والجنود البواسل، وقولوا ما رأيكم، هل من الصواب أن يصبح السيد فيرناندو ملكًا، وأن نجعله يقبل التاج بالقوة؛ لأن هذا سيكون لصالح الجميع ولصالح حريتنا؟".

ما إن انتهى ابن جوهر من هذه الكلمات، حتى علا ضجيج هذا الجمع الغفير قائلاً: "يعيش الملك السيد فيرناندو مولاى، الذى اخترناه ونريده ملكًا علينا كى يدافع عنا وكى يمنحنا الحرية"، وعندما قالوا هذا مدَّ الكثيرون ممنْ كانوا على مقربة من السيد فيرناندو أيديهم له، ورفعوه بمقعده عاليًا هاتفين: "يعيش ملك غرناطة، مولاى ابن أمية"، وهكذا ظلوا رافعين إياه إلى أعلى فترة من الزمن، وبدءوا بعد ذلك فى عزف الموسيقى والمزامير والأبواق والطبول بكل قوة وكأنهم يريدون إسماعها للعالم. ثم وضعوا على رأسه تاجًا من الفضة المزخرفة جميلاً

جدا، والذى كان عليه صورة للسيدة العذراء، وكان ابن جوهر يحتفظ به من أجل ذلك اليوم. وبعد تتويجه أقسم على القرآن بأن يحميهم حتى الموت. وهكذا أقسم هذا الملك الصغير (٣). (هكذا سندعوه من الآن فصاعداً)؛ وعندما انتهى من القسم عزفت المزامير والطبول والآلات الموسيقية الأخرى بصوت هائل. فيما بعد جاء سكان القرى الأخرى لإعلان طاعتهم ولتقبيل يديه، هذه القرى كانت :

أوخيخار	Ogíjar
بيرتشول	Verchul
بالور الألتو	Valor el alto
بالور الأسفل	Valor el bajo
لاس غواخاراس العليا	Las Guajaras altas
لاس غواخاراس السفلى	Las Guajaras bajas
أنداراكس	Andarax
مورتاس	Murtas
تورون	Turón
ألبونيثيلاس	Albunicelas
لانخارون	Lamjarón
كانيليس دى فرو.	Canyles Aceytin
ألماتثاتا	Castril de Fero
أوتشانيس	Almanzata
فيلبيس	Ochanes
كانخايار	Fieles

---

(٣) reyzuelo أى صغير الشأن. (المراجع).

إينوكس	Ynox
خيرغال	Géragal
البيلودوى	Albeludiay
فيلابريس	Filabres
سييرو	Siero
باكاريس	Bacares
تيركى	Terque
سانتا فى	Santa Fe
الحامة لا سيكا	Alhama la Seca
غيثيخا	Guécja
فيليكس	Felix
إينكس	Ynix
بيكار	Bicar
دوركا	Durca
أوركا	Unca
فونيتين	Funitín
فيليكس	Felix
أوليلا دى بورتشينا	Uleyla de Purchina
أوليلا ديل كامبو	Uleyla del Campo

أخيراً، كل قرى إقليم أنداراكس (Andárax) ونهرى ألمريه (Almería) والمنصورة (Almançora)، مع قرى كثيرة تابعة للبشرات، والذين كانوا كثيرين جدا. وبعدما أصبح السيد فيرناندو ملكاً لغرناطة؛ حسبما يرى، أمر بعمل راية واختيار قادة للحرب. وكان القادة الذين تم اختيارهم هم:

الغورى (El Gorri)، من أندراكس.

سارية (Zarea)، من أوخيخار.

بويرتوكاريرو (Puertocarero)، من ألكايدى دى خيرغال.

المالك (El Malik)، من بورتشينا .

حازم (Hazén)، من بيليث البلانكو (Véliz el blanco).

الغربى (El Garvi)، من بيليث الروبيو (Véliz el rubio) .

ابن بهيلى (Abenbahyle)، من ألكوديا (Alcudia).

فرج الأسود (Farax el Negro)، من تيركى.

الفوريكى ((El Forayque)، من باثا (Baza).

اللالى (El lale)، شرطى من ماكائيل (Macael).

ألادرا (Alhadra)، من أوتشانيس.

الروكايمى (Alrrocayme)، من غواديس (Guadix).

الحبينى (El Havayni) من غواديكس (Guadix).

الديرى (El Dere)، من أندراكس (Andárax).

خيرونثيو دى لا بيغا (Gironcillo de la Vega)، الخائن الكبير، خادم ماركيز مونديخار (Mondéjar).

الدالى (El Dalí).

بيريو (Berio).

الميليلو (El Melilu).

الكوركوث دى دالياس (El Corcuz de Dalías).

الكاراس (El Carras).

المهاجر (El Mohaxar).

الرنتيو (El Rentío).

وغير هـؤلاء كان هناك الكثير من القيادات، الذين وصل عددهم إلى مائتين وخمسين اسمًا، كلهم ذوو دماء شريفة، أحفاد وأبناء أحفاد عظام، حكموا فى الماضى غرناطة وأراضيها. كان فرج الأسود (Farax el Negro)، فقط من أصول وضيعة، ولكنه كان شجاعًا لا يجاريه فى الشجاعة أحد، وسوف نتحدث عنه فيما بعد.

وبعد اختيار الملك الصغير لكل هؤلاء القادة، وتعيين كل منهم فى منصبه، أمرهم بحمل القرارات الملكية، موقَّعة ومختومة بخاتمه، كى يضرموا النار فى أية قرية لا تريد أن تعلن عصيانها وتساهم فى الحرب، وأن يشنقوا منْ لا يريدون الدخول تحت رايتهم. وهكذا أعلنت قرى كثيرة تمردها تحت تهديد القوة، وتم شنق الكثير من الموريسكيين وتعليقهم على الشجر لرفضهم الانضمام تحت راية الغرناطيين. وبهذه الطريقة ثارت المملكة كلها. البعض تمرد طوعًا، وآخرون تمردوا كرهًا[٤]. وقد تم توزيع القادة المعينين فى عدة أماكن، فى حاميات وضعت فى القرى، حتى إذا حضر المسيحيون مدججين بالسلاح وجدوا مقاومة فى كل مكان. وقد تم تعيين أحد القادة كقائد عام للجميع، كان يُدعى الحبقى (El Havaquí)، وهو رجل خطير، حكيم وذو شخصية تتميز بالشجاعة، ينتمى إلى طائفة الرجال النبلاء، وهو من مواليد غواديكس أو الكوديا (Alcudia)، وقد أهَّله هذا ليكون قائدا عاما دون رغبة منه فى ذلك، لأنه كان يقول إن هذه الحرب ليست عادلة، ولا يمكن أن تأتى بخير، لأن قوة الملك فيليبى كبيرة وهائلة ولا يمكن مواجهتها أيامًا طويلة، ولكن على الرغم مما كان يقوله اضطر إلى قبول منصب القائد العام. وقد بدأ المجرمون الموريسكيون، الذين كانوا يشكلون جزءًا كبيرًا منهم بإلحاق الأذى الشديد فى قرى الموريسكيين أنفسهم، سمح لهم بذلك لأن تلك القرى لم تتخلى عن الرايات المسيحية. وبهذه الطريقة انقلبت أحوال المملكة كلها وفقدت هدوءها. وقد اتخذ المالح (Al Maleh) من نهر المنصورة معسكرًا له بينما كان ينام فى بورتشينا (Purçena)، ومعه ٣٠٠ رجل. وقد أقام بويرتو كاريرو (Puertocarrero) عند نهر المرية، ومعه ٣٠٠ رجل آخرين. والكوريتينيا (El Corritenîa) أقام فى إقليم أنداراكس، ومعه ٣٠٠ رجل آخرون بينما احتل كاريا (Carrea) إقليم أوخيخار والبونيثيلاس (Albunicelas) ولاس غواخاراس ومعه ٤٠٠ رجل.

---

(٤) بعض المؤلفين الإسبان المعاصرين للأحداث والنقاد الحاليين يرون أن أسباب الثورة كانت كامنة فى نفوس الموريسكيين بعد سلسلة المظالم التى تعرضوا لها. (المراجع).

بهذه الطريقة لم يكن هناك مكان في المملكة لا يوجد به معسكر؛ من البشرات وحوضي نهرى ألمرية والمنصورة. وبعد كل هذه الاستعدادات، كان أول شيء قام به المسلمون هو حرق الكنائس وتحطيم تماثيل القديسين والصلبان، وقتل القساوسة والكُهَّان بكل قسوة. ففي قرية فيليكس كان هناك قس، من أبناء لوركا، يُدعى ميغيل سانشيث (Miguel Sánchez)، أخذه المسلمون وربطوه في شجرة برتقال، في فناء أحد المنازل وسلموه لنساء القرية يفعلن به ما يرون، وقد قمن بطعنه بالمدى وقلن له: "تحدث بالإشارة أيها الكلب"، كن يقلن له هذا ويمررن المدية في وسط جبهته حتى تصل إلى لحيته، وبعد ذلك تأتي مسلمة أخرى وتقول له: "بالصليب"، ثم ترسم علامة الصليب على جبهته بالمدية، وهكذا بهذه الطريقة كنَّ يرسمن علامة الصليب بكل قسوة بشكل لم يُر ولم يُسمع من قبل: وهكذا توفي القسيس بعد أن قطعوه إربًا بالأمواس، شهيدًا ورجلاً طيبًا من رجال يسوع. ولكن أراد الرب بسبب موت هذا الكاهن، أو من أجل منْ كان يقوم بخدمته، أن تسقط صاعقة في هذه القرية، حيث لقي أكثر من ٤٠٠٠ شخص مصرعهم خلال ساعة، رجال ونساء، أطفال وكلاب وقطط، فلم يبق أي شيء حي، كما سنقول في حينه. إذن هذه القسوة وغيرها استخدمها المسلمون ضد المسيحيين، كما سنحكي في حكاياتنا، متحرين الحقيقة[٥]، متخذين كشاهد عيان أحد الرجال الذين شاركوا لمدة ثلاث سنوات وأكثر في الحرب في قوات ماركيز لوس بيليث (Marqués de los Vélez) تحت رايته، ألا وهو السيد لويس فاخاردو (Luis Fajardo).

عندما انقلب الوضع، لم يكتف المسلمون بكل هذه الوحشية؛ فقد انطلقوا إلى الطرق في أراضي المسيحيين وأسروا الكثيرين منهم وحملوهم إلى توورباس (Torbas)، لأنها قرية قريبة من البحر، وهناك كانوا يبيعونهم إلى قراصنة الجزائر: المسيحي مقابل بندقية، كانوا يفعلون هذا كي يجمعوا السلاح. وعندما عُرف هذا الأمر في الجزائر قام الكثيرون من تجار الرقيق اليهود والمسلمين بإرسال أنواع من الأسلحة ما بين بنادق وأقواس وسيوف وسهام، كل هذا مقابل المسيحيين البؤساء. لقد شاعت هذه التجارة، حتى إنه قد أقيمت جمارك في مدينة بورتشينا من أجل بيع المسيحيين، وكانت السفن ترسو في سورباس. وسوف نتحدث عن هذا فيما بعد بالتفصيل وحول ما قلناه نذكر الآتي:

---

(٥) لا نصدق أن المؤلف سيتحرى الحقيقة، وإن كان لم يبتعد عنها كليةً مثل مارمول كارباخال. (المراجع).

قـصـيـدة ثـانيـة

على صوت الطبول والأبواق

تم تتويج مولاى

واختار قادة كثيرين

وأقاموا المعسكرات

أقاموا الكثير من المعسكرات

فى ولاية غرناطة

وارتكب المسلمون، بحنق عظيم

أفعالا لا تُصدَّق:

حرقوا كل الكنائس

وحطموا مذابح الكنائس

وهشموا تماثيل القديسين

هشموها إلى ألفى قطعة صغيرة

حطموا القديسين والقديسات بالفئوس

وحولوا التماثيل إلى قطع صغيرة

وذبحوا المسيحيين

بوحشية عظيمة

واستشهد الكهنة

وخُدام الكنيسة مصلوبين

وأسروا الكثير من المسيحيين

وأرسلوهم إلى الجزائر

كانوا يبيعون الواحد

مقابل طلقة رصاص

كي يحصلوا على سلاح جيد

وفى مدينة بورتشينا

كانت تُعقد الصفقات

والملك الصغير مولاى

كان يستفيد من كل هذا

فقد كان الإفريقيون .

يحضرون الكثير من البنادق

ومن أجل الربح ، الذى كان كبيراً

كانوا يعطونها للعبيد

وأخيراً دُمرت

قرية لوركا وسكانها

فهذه الأرض نالت الأذى مضاعفاً

أكثر من غيرها

فقد كان المسلمون يهاجمون

كل طريق فيها

ويأسرون السائرين

ويحملونهم إلى بورتشينا

ومنْ يدافع عن نفسه

كانوا يقطعونه ألف قطعة

وهكذا هاجت الأرض

من هذه الأفعال الشنيعة

واستعد الجميع بالأسلحة

ضد الجانب الغرناطى

فيما بعد سوف أحكى لكم

ما حدث فى هذا الموقف

الفصل الثالث

الذى يحكى عن الوحشية التى تعامل بها المسلمون مع المسيحيين وما فعلوه فى الكنائس، وكيف أن جلالة الملك عندما علم بهذا الأمر أمر بإعداد قوة، وكيف خرج ماركيز مونديخار إلى البشرات، وما حدث بعد ذلك.

كانت وحشية المسلمين عظيمة، وقد قاموا بسرقات كبيرة طمعًا فى امتلاك الأسلحة، وكل ذلك من أجل تحقيق محاولتهم المزعومة؛ وهكذا، فقد كان الريف كله مسلحًا، وقد اتفقوا على الذهاب إلى نهر ألمرية، وعندما وصلوا إلى قرية جميلة، تُدعى غيثيخا (Guécija)، كان أول ما فعلوه هو إضرام النار فى دير لرهبان دومينيكيين، كان الوعاظ يدرسون فيه، وقد قاموا بذبح الرهبان وجردوهم من ملابسهم وألقوا بهم فى حوض كبير كان يجمع فيه الزيت من عصارة الزيتون التى كانت هناك، وألقوا معهم عددًا آخر من المسيحيين، كانت فيما بينهم ابنة جميلة لأحد المحامين يُدعى خيباخا (Gibaja) ألقوا بهذه الفتاة بملابسها الجميلة والغالية، وهكذا ظهرت فى الحوض، طافية على الزيت، بملابسها الجميلة وقفازها فى يديها، لقد كان شيئًا يدعو إلى الشفقة رؤيتها هى والمسيحيين الآخرين مذبوحين هناك. وعند الانتهاء من كل هذه التصرفات الوحشية، عاد المسلمون إلى أنداراكس (Andárax)، حيث اتفقوا على اللقاء فى غرناطة فى أول ليلة من ليالى عيد الميلاد. ولهذا اتفقوا مع مسلمى غرناطة، فى الخفاء، على الاستيلاء على المدينة، ففى هذا الوقت يكون المسيحيون منصرفين إلى صلاة الفجر. ولكن أراد الرب ألا ترى هذه الخطة النور، فقد شهدت هذه المدينة أحداثًا لا يمكن تصديقها، فقد سقط الجليد لمدة ستة أيام قبل ليلة عيد الميلاد بكمية كبيرة وبشكل يدعو إلى الفزع فى كل البشرات. وقد غطى الجليد كل الطرق التى تؤدى إلى غرناطة والتى كان يجب أن يسير فيها المسلمون وشكل طبقة سميكة عليها. ولهذا السبب لم يقم المسلمون بمحاولتهم هذه المرة ولكن لتوقف الجليد عن السقوط مدة خمسة عشر يومًا، استطاع المسلمون الوصول إلى غرناطة من طرق سرية، وعلاوة على ذلك بدءوا فى العزف على آلاتهم ونفخ أبواقهم فى ميدان بيبالبولود (باب البنود) (Bivalbulud) فى البيازين (Albaycín)، محدثين بذلك ضجة عظيمة، تردد صداها فى

كل المدينة. وقد شعر مسلمو غرناطة بهذه الضوضاء، وعندما أدركوا أن مسلمي البشرات قد حضروا، ولكنهم قلة وقد تأخروا في الحضور، بدأ مسلم عجوز في عزف المزمار من فوق برج عال وغنى قائلاً:

أغـــنـــيــــة

لقد حضرت متأخراً يا زايد

وأحضرت معك القليل

لو كنت يا زايد الطيب

أتيت كما تعاهدنا

لكنا استقبلناك بحفاوة

ورفعنا راياتك

لقد تأخر كثيراً رضوان

لكي يفتخر

بما يقوله قرآنه

وهكذا مع النكبة

تحضرون قلة وتأتون متأخرين

كنا في انتظارك

ليلة عيد الميلاد

ونحن نثق في صدقك

ولكننا لم نرك قط حزيناً

لقد ذهب عنك الأمل

ليس لأنك جبان

ولا أبناء سليمان (Solimán)

بل أنتم قادة شجعان

ولكنكم قليلون

وحضرتم متأخرين

لقد تأخرتم كثيراً

فى الحضور إلى الحمراء

التى كان يجب أن تعج بالضوضاء

وتمتلئ بالآمال

لقد تأخرتم يا زايد

فعد وليحفظك محمد

لأن القائد قال لنا

إنكم قلة وحضرتم متأخرين

كانت تلك الأغانى تُغنى باللغة العربية، على صوت الأبواق، ولكى نترجمها من هذه اللغة الشديدة الصعوبة لم نتمكن من كتابتها بشكل أجمل، نكتفى بأن نقول إن زايدا ورضوان، وهما القائدان اللذان حضرا مع ذلك الجمع، عندما سمعا ما تقوله تلك الأغانى، فقدا الأمل فى تحقيق الهدف الذى جاءا من أجله. لذا، فقد أمرا على الفور بأن يُقرأ القرآن فى نفس الميدان

الذى كانت الأغانى ترتفع فيه. وعند الانتهاء من قراءة القرآن أمام ألف أو أكثر من مسلمى البيازين الذين خرجوا بسبب الضوضاء التى أحدثتها الأسلحة، توجها فى طريق العودة عبر سلاسل الجبال، قبل طلوع الشمس بنحو ثلاث ساعات، وفى صحبتهم أكثر من خمسمائة موريسكى من البيازين. وعندما شعر حراس قصر الحمراء وخفراؤه بالضوضاء والجلبة الحادثتين، بخاصة وأن المسلمين قد أطلقوا بعض الرصاص، قاموا هم أيضًا بإطلاق النار، ودقوا ناقوس الإنذار، وهو ناقوس كبير جدا، ثم أطلقوا بعض قذائف المدفعية، وهكذا أصبحت غرناطة فى حالة من الهياج والضوضاء الشديدة، فقد خرج كل سكانها إلى الشوارع وهم يقولون: "احملوا السلاح، احملوا السلاح، الموت لأعداء مدينتنا ". ثم بدأ بعد ذلك دق الطبول ونفخ الأبواق بصوت مرتفع، كانوا يقرعون الطبول وهم سائرون ويعزفون النفير وهم راكبون. وهكذا انتشر الخلل والضوضاء بين الناس فى كل الطرقات، وانتقلت الجلبة من شارع إلى آخر وكأن العالم يغرق، والكل يحيط به الخطر العظيم، ذلك لأنه عند التقاء جمع من الناس بجمع آخر كانوا يعتقدون أنهم من المسلمين فكانوا يبادرونهم بالهجوم. وبهذه الطريقة أصاب الجانبان أذى عظيم. ولهذا، ولتفادى عدد أكبر من الموتى (حيث كانت هناك أشجار تعوق الرؤية)، كان يُنادى بسانتياغو[1] من كل جانب، حتى لا يهاجم المسيحيون بعضهم بعضا. وقد حضر القاضى وفى صحبته عدد كبير من رجال الشرطة وأحضر معه المشاعل، وأمر بالنداء بأن يضع كل السكان المشاعل على أبواب البيوت وعلى النوافذ، وأن يشعلوا النار فى الطرقات. وعندما قاموا بكل هذا، بدت المدينة وكأنها نهار رغم ظلام الليل، فلم يكن هناك شارع ليس به أقل من مائة حريق، وعلى كل باب ونافذة وعلى أسطح المنازل كانت المشاعل تضىء. ثم طُلب رسميا أن يحضر كل الرجال القادرين على حمل السلاح إلى الميدان الجديد (Plaça Nueva) وميدان بيبارامبلا، لكى يكون فى كل ميدان رجال حُراس وأيضًا نيران كبيرة. وبهذه الطريقة أضيئت الشوارع بضوء ليس أقل من ضوء الشمس. حينئذٍ خرج ماركيز مونديخار من قصر الحمراء ومعه الرجال المدججون بالسلاح، وهبطوا إلى المدينة، تاركين قلعة الحمراء الملكية فى حماية قوة عظيمة، كى يبحثوا عن سبب هذه الضوضاء وهذا الشغب المتزايد فى المدينة. ولم يرتح أيضًا العُمد، حيث كانوا يسيرون ويشجعون الناس، قائلين إن كل شىء يسير بنظام وإنهم على أتم الاستعداد لتتبع أسباب هذه الضوضاء. وقد أراد

(١) كانت كلمة "سانتياغو" هى الصيحة التى يطلقها المسيحيون فى الحرب ضد المسلمين، وسانتياغو هو قديس ينسب إليه المسيحيون الإسبان معجزات كثيرة. (المراجع).

المسيحيون أن يصعدوا بالتحديد إلى البيازين، كى لا يتركوا أحداً من الموريسكيين حيا، ويشعلوا النار فى بيوت الموريسكيين، ولكن ماركيز مونديخار والمراجع ومعهما عدد كبير من الرجال عارضوا هذا . على الرغم من ذلك امتلأت منطقة البيازين عند الفجر بالمسيحيين الذين حطموا بيوت الموريسكيين، فقد أزالوا الأبواب وقتلوا الموريسكيين وأشعلوا النيران فى بيوتهم، ولهذا فقد ارتفعت الضوضاء حتى بدت غرناطة وكأنها تغرق. فقد تعالت صرخات النساء والأطفال، وأُجبر المسلمون تحت وطأة القوة المسيحية على القتال، والدفاع بشدة عن حياتهم وأملاكهم. وعندما علم المراجع والماركيز بالأمر، توجها ومعهما قوة عظيمة من الجنود إلى البيازين لوضع نهاية لهذا الشر، وعند وصولهما جرت مفاوضات جادة. فقد كان صعباً إيجاد حل، ولكن المراجع والماركيز والعمد فعلوا الكثير ومعهم عدد من الرجال حتى تراجع المسيحيون الغاضبون فى النهاية، بعدما أصدروا منشورا رسميا يفيد بمعاقبة الجندى الذى يرفض الهبوط من البيازين بالموت، وهكذا ترك المسيحيون كرهاً البيازين وهبطوا إلى المدينة، وعلى الرغم من قلة زمن مكوثهم، تسببوا فى قتل أكثر من مائتى موريسكى فى ذلك اليوم، وقتل أيضاً بعض المسيحيين، ولو تُرك المسيحيون ليتصرفوا على هواهم لقتلوا كل مسلمى البيازين ذلك اليوم ولما تركوا أحداً منهم حيا . وكان قد انقضى جزء كبير من اليوم عندما أطفئت نيران هذه الفوضى، وقد أرسل الماركيز بعض الناس ليتتبعوا المسلمين الذين دخلوا المدينة، ولكنهم لم يلحقوا بهم، فقد ساروا بسرعة عظيمة حتى إنهم وصلوا إلى سلسلة الجبال عندما خرج المسيحيون من غرناطة. وعندما عاد المسيحيون إلى غرناطة أمر الماركيز بتعيين قادة ليذهبوا إلى البشرات ويعطوا الأوامر بإخماد ثورة بعض القرى التى أعلنت تمردها؛ وهكذا خرج بعض القادة ومعهم عدد من الناس، وعندما وصلوا إلى منطقة بادوليس (Padules) وجدوا أنهم لن يستطيعوا وضع حلٍ لما جاءوا من أجله، فقد كانت القرى كلها مسلحة ومستعدة للقتال، وهكذا عادوا إلى غرناطة دون القيام بأى شيء. بعد ذلك بعث الماركيز والرئيس إلى جلالة الملك يخبراه بما حدث، وقد كان من رأى الملك عدم ترك مسلم فى غرناطة، لذا فقد كتب إليه وجهاء المنطقة قائلين إن هذا التمرد لم يكن عظيماً، فلم يكن سوى هجوم من بعض اللصوص الموريسكيين على بعض قرى البشرات، وقد تم إلقاء القبض عليهم بسهولة وأخذت العدالة مجراها، وأخمد كل شيء فيما بعد، والكثير من الرجال الذين أخبروا الملك بهذا الأمر كان لديهم فى البشرات ومملكة غرناطة قرى موريسكية تابعة لهم، وقد أخبروا جلالة الملك بهذا حتى لا ينال قراهم ولا رعاياهم أذى أو ضرر، اعتماداً على علاقاتهم المشئومة بهم. وعندما فهم جلالته هذا تنازل عن رغبته السابقة وأرسل إلى ماركيز مونديخار بأن يهدئ

من روع الموريسكيين قدر استطاعته. ولأن الماركيز كان لديه أيضاً قراه التابعة له، ولأن بعض السادة قد كتبوا له أيضاً بأنه لا بد من معالجة هذا الموقف، هكذا اهتم الماركيز بالأمر، وأمر بإعلان مرسوم رسمي يعد منْ يُسلم رأس السيد فيرناندو دى بالور بمبلغ كبير من المال، ذلك السيد الذى أعلن نفسه ملكاً على غرناطة. ومن أجل إنجاح هذه الصفقة دعا اثنين من الموريسكيين الأغنياء، اللذين شعر بإمكانية الوثوق بهما، على الرغم من قلة الموريسكيين الذين كان من الممكن الوثوق بهم فى ذلك الوقت. أخيراً، أمر بأن يذهب الاثنان إلى البشرات وأن يحضرا بعض الرجال الصالحين، حتى لا تستمر هذه الفوضى الرهيبة أكثر من ذلك، وأن يأمرا بقتل الملك الصغير، وفى مقابل رأسه سوف يدفع عشرة آلاف دوقية وسيجزلون العطاء للرجل الذى يقوم بقتله. وقد رحل هذان المسلمان من غرناطة وعندما وصلا إلى لوس بادوليس تم استجوابهما عن الهدف من رحلتهما، وهل هربا من غرناطة؛ كان جوابهما أنهما قد خرجا من غرناطة قاصدين أنداراكس لمقابلة الملك مولاى ابن أمية لإطلاعه على أمر فيه مصلحته. وبهذه الطريقة وصلا إلى أوخيخار، ولكن عند بونيويلاس (Bunuelas) وجدا قوات كبيرة مسلحة، وبينهم موريسكيين من أبناء غرناطة، أصدقاء لهما. ولدهشتهما من وجود هذا الجمع من الرجال المحاربين بدءا فى مناقشتهم حول أمور تتعلق بالنكبة التى حلت على كل المملكة، وكيف أن ماركيز مونديخار قد وعد بدفع عشرة آلاف دوقية لمنْ يأتى برأس الملك الصغير وأنه سيجزل له العطاء. وقد استطاع هذان الرجلان قول الكثير، وقالا إنهما قد علما من الماركيز أن الملك سوف يعفو عن هؤلاء الموريسكيين الذين أعلنوا عصيانهم، وأن رجال الجبال سينالهم العفو كذلك، على الرغم من قتلهم الكثيرين ومن السرقات والشرور الكثيرة التى قاموا بها. وكذلك سوف يشمل العفو كل القرى الثائرة مع الضمان الكامل للحفاظ على ثرواتهم. قال سفراء الماركيز كل هذا، مما أحدث شعوراً بالندم الشديد فى نفوس مثيرى الفتنة والمتمردين لعصيانهم الملك. وهكذا صاح الجميع قائلين: " نحن مسيحيون، و يجب أن نموت مسيحيين، ويعيش الملك، نحن رعاياه ونرغب فى السلام أكثر من الحرب، لقد عفا عنا الملك برحمة عظيمة وغفر لنا الشرور التى ارتكبناها، ونحن هنا نعده بالبحث عن فيرناندو دى بالور وقتله، وقتل عمه الشرير ابن جوهر، فبسببهما ضاع الجميع لأننا أخذنا بنصيحتهما الشريرة. نعد بإصلاح حقيقى لما حدث". قال هذا جمع زاد عدده على ٣٠٠٠ جندى مسلح. وقد وصل خبر العفو العام والدوقيات العشرة آلاف مقابل رأس الملك الصغير إلى كل القرى القريبة مثل بادوليس (Badules) وغيخار (Guejar) وقريتى غواخاراس (Gujaras) وقرى أخرى تابعة للبشرات. وقد قرر الجميع العمل للوصول إلى السلام ونبذ الحرب التى بدأت. وهكذا فيما بعد

جاء كثير من الرجال لمشاركة الموريسكيين اللذين أرسلهما الماركيز الشراب ومناقشة هذا الأمر جيداً. أحد هذين الموريسكيين كان يُدعى المنظرى[٢] (والآخر كان يُدعى عبد الرحمن Abduramén) وقد قلنا سابقًا إنهما كانا رجلين من الأغنياء، وكانا يبلغان كل منْ يأتى للحديث معهما بالعفو العام الذى وعد به الملك ويبعثان الأمل داخله، بحيث سرَّ الجميع ووعدوا بالبحث عن الملك الصغير وقتله؛ وهكذا خرج أربعة رجال من أغنياء الموريسكيين للقيام بهذه المهمة، بعد أن أقسموا أمام الكثيرين بالبحث عنه وقتله وحمله إلى غرناطة. أما رجال الجبال فعندما أدركوا هذه الأمور لم يثقوا كثيراً فى العفو كما أعلن، لذا فقد رحلوا إلى القرى المجاورة للبحر هاربين من هذه التجمعات التى اقتصرت على المسيحيين؛ وعند وصولهم إلى تلك الموانئ جاءت إليها بواخر تركية، وحدث منهم ومن هؤلاء الأتراك شرور عظيمة؛ فقد قاموا بنصف هذه الشرور على اليابسة وبالنصف الآخر فى البحر. فقد اجتمع هؤلاء الأتراك مع أشرار الموريسكيين وقاموا سويا بإلحاق الأذى بالقرى القريبة من البحر، وهكذا اعتمدوا على الضرورى فقط، منتظرين أن يصل المدد من الجزائر، وهو ما كانوا ينتظرونه. انتشر خبر العفو العام فى كل أنحاء البشرات ومعه خبر الدوقيات العشرة آلاف مقابل رأس الملك الصغير، الذى أصبح تقريبًا دون أتباع. وعندما علم الملك الصغير بذلك الخبر، استبدت به الريبة، فكان لا يثق فى أى موريسكى، ومعترفًا بقلة شجاعته، قرر أن يختفى بعض الأيام حتى يرى إلى أى شىء سوف يصل به هذا الاختفاء، وهو يعلم تمامًا كيف أن قوة الدوقيات العشرة آلاف مقابل رأسه يمكن أن تكون سببا قويا لهلاكه. وهكذا، فى صحبة أربعة من أصدقائه المقربين، خرج ذات ليلة من بالور، قريته، دون أن يشعر بذلك أحد؛ وذهب إلى كهف قديم، كبير وعميق لا يعرفه أحد، إلا هو وأصدقاؤه الأربعة الذين كانوا معه، وعاش فى هذا الكهف حاملاً معه ما هو ضرورى للبقاء حيا. وكان أصدقاؤه الأربعة يهتمون به ويحملون إليه الطعام فى غير موعده حتى لا يشعر بهم أحد. وهناك كانوا يحكون له كل ما يحدث ويجرى فى المدينة وبين الناس. كان مولاى يحتفظ بكل شىء فى ذاكرته، إلى أن يحين يوم يرى فيه إمكانية الخروج، واثقًا فى جماعة رجال الجبال من الموريسكيين الذين ينتظرون الغوث القادم من الجزائر. فى

(٢) كانت عائلة المنظرى إحدى العائلات الكبيرة فى غرناطة، وقد قام أحد أفرادها بإعادة تأسيس مدينة تطوان. انظر "المنظرى الغرناطى مؤسس تطوان"، تأليف غوثالبيس بوستو، ترجمة ممدوح البستاوى، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٨. (المراجع).

هذا الكهف استقر سيد البالور عدة أيام منتظراً الفرصة، التى سنتحدث عنها لاحقًا، بعدما نقول ماذا فعل فى هذا الأمر فى الفصل الخاص به.

بعد أن انتشر خبر العفو عن كل القرى المتمردة، توجه بعض رجال الجبال إلى مكان، والبعض الآخر من الموريسكيين الذين كانوا يرغبون فى السلام إلى منطقة أخرى، بطريقة جعلت هناك جيشين؛ ولكن الجيش الأقوى بينهما كان التابع للأشرار من رجال الجبال الموريسكيين، لأنهم كانوا مسلحين جيداً، ولأن كلا الفريقين لم يعرف بما حدث للملك سيد البالور، فلم يستطيعا التصرف مع عدم وجود ملك. وقد عاد الناس كلهم إلى قراهم، فيما عدا الذين خرجوا بحثًا عن الملك الصغير، والذين شكلوا قوتين كبيرتين من الناس يقودهم أربعة من المسلمين، كما قلنا، يُدعى أحدهم ديرى (Dere)، وكان أهمهم؛ والآخرون ليس لدىَّ علم بأسمائهم. وقد استعد هؤلاء وأصدقاء كثيرون لهم للبحث عن الملك الصغير، طمعًا فى الدوقيات العشرة آلاف وطمعًا فى علاقة طيبة تربطهم بماركيز موندیخار، ولكنهم فشلوا فى العثور على الملك سواء حيا أو ميتا؛ وعندما علموا أنه رحل إلى إفريقيا اتفقوا على قتل رجل موريسكى نبيل، يُدعى مولى (Maule) كانت هيئته ولون بشرته ووجهه تتشابه كثيراً مع ملامح ووجه السيد فيرناندو دى بالور. وقاموا بالفعل بقتله، وحملوا رأسه إلى غرناطة، وأقسموا أنها رأس الملك الصغير. وقد شاهدت غرناطة كلها تلك الرأس، وكل منْ رآها قال إنها رأس السيد فيرناندو دى بالور، وهكذا أُعطيت الجائزة إلى الذين أحضروها، وأيضًا إلى الذين قالوا إنهم رأوه ميتًا، وقد أرسل الماركيز الرأس إلى مدريد ومعها رسالة يطلب فيها أن يمنحه جلالة الملك أربعة ريالات كمرتب كل يوم.

إننى أكتب هذا تمامًا كما أخبرنى به كثير من الموريسكيين وأنا أستعد لكتابة هذا الجزء الثانى، وأعلم أن هذا هو ما حدث وهكذا، فالكثيرون حدثونى عنه كوقائع حقيقية. ولأن الملك الصغير لم يتم العثور عليه، فبعد أن أعلن المسلمون هذه الوفاة المزورة وهذه الخيانة، عاد كل منهم إلى قريته فى أمن وسلام. وذهب بعضهم إلى غرناطة كى يتحدث مع الماركيز، الذى عاملهم معاملة لينة وطيبة، وأعطاهم الأمل فى أن كل شىء سوف يهدأ ويكون خيراً. فقط استمر رجال الجبال على تمردهم، فلم يكونوا يثقون فى أية وعود، وكانوا يخافون من بطش المسيحيين بهم ومعهم رجال الشرطة كما فعلوا مع كثيرين غيرهم. وهكذا أرادوا أن يعلنوا ملكًا عليهم يتولى الحكم بحيث يكون ذا قلب شجاع وتفكير عميق، وأن يحقق ما أرادوا تحقيقه من قبل؛ ولم يكونوا يعرفون النظام المتبع لعمل ذلك إلا أن الشيطان الذى يبحث دائمًا عن فعل

الشر أمرهم باختيار ملك كى تستمر هذه الشرور ولا تتوقف. وعندما انتقلت أخبار هذه الأحداث إلى الجزائر عُرف كل ما يحدث فى مملكة غرناطة، وعندما رأى الجزائريون أن الموريسكيين يبعثون إليهم بالكثير من العبيد ويطلبون الكثير من الأسلحة، وأن الحرب لا تزال مشتعلة، وافق أولوج على ملك الجزائر على إرسال مائتى تركى مسلحين جيداً ويتميزون بالشجاعة إلى البشرات، ولأن سلطان الأتراك قد أمرهم بالقيام بذلك كى يعرفوا على أى طريق تسير الحرب، فإذا كان هناك استعداد لوضع إسبانيا بمأزق ويستطيع المسلمون دخولها بأمان، مثل أيام الملك القوطى رودريغو، فعليهم أن يخبروا سلطان الترك بهذا حتى يكون على يديه انهيار إسبانيا، وهكذا بعث أولوج على بهؤلاء الرجال الذين تم اختيارهم بعناية وقد عبروا البحر من إفريقيا إلى إسبانيا فى قارب استكشاف كبير يقوده كالابريس ورسوا فى فارايون (Farallón) قريبًا من رولدان (Roldán)، ما بين ألمرية وبيرا، وهناك علموا بما حدث وبمجريات الحرب، وكيف قتل الملك الصغير ولم يظهر، وكيف أن المسلمين المتمردين قد أصبحوا قلة، وعندما عادوا إلى سابق عهدهم عفا عنهم الملك، كما كان مُعلنًا، وأن المتمردين قد اقتصر عددهم على ما بين ثلاثة أو أربعة آلاف من رجال الجبال بصحبة عدد قليل من الأتراك، الذين يصل عددهم إلى خمسين أو ستين رجلاً، والذين مكثوا على اليابسة، هناك بالقرب من أدرا (Adra)؛ وأن هؤلاء سيعبرون إلى شمال إفريقيا عندما تسنح لهم الفرصة.

كل هذه الأحداث عرفها الأتراك المائتان عن طريق مسلمى كابرا (Cabra) وسيرينا (Sire-na)، وقد أدرك الفزع هؤلاء الأتراك، وندموا على عبورهم البحر إلى إسبانيا. وقد تناقشوا فيما بينهم وهم داخل قاربهم، حول ما يجب أن يفعلوه إزاء هذا الأمر، وقد رأى البعض أن يعودوا، ورأى الآخرون عدم العودة، فقد جاءوا إلى إسبانيا وليس هناك سبب يجعلهم يعودون دون رؤية هذه البلاد ودون معرفة مصير الحرب، فملك الجزائر قد أرسلهم لذلك. وقد ردَّ البعض على هذا بأن الأرض تبدو قاحلة وأنهم لا يعرفونها، ومن الممكن أن يقوم بعض الموريسكيين أنفسهم (لأنهم رجال متقلبون ومتغيرون) بإلحاق الأذى بهم إذا وصلوا إلى اتفاق مع ملكهم، ولكن أحد القادة الذين حضروا – وكان يُدعى كاراكاتشا (Caracacha)، وهو رجل تركى شجاع – أخذ على عاتقه أمر هؤلاء الناس، ، قال لهم، حول هذا الأمر:

"حديث القائد كاراكاتشا إلى الأتراك على السفينة"

" أيها الجنود الأتراك الشجعان، يا أصحاب الدماء النقية، يا أحفاد الطرواديين، كما جاء فى الكتب القديمة، أيها المدافعون عن قيمكم النبيلة: تعرفون جيداً أننا جئنا إلى إسبانيا كما أمر ملك الجزائر، وقد اختارنا من بين رجاله الآخرين لشجاعتنا وتفوقنا، وقد بعث بنا إلى إسبانيا كى نعرف ما يحدث فى الحروب الأهلية الجارية بها، وقد علمنا عن هذه الحروب الكثير، ولو رحلنا من هنا، كما يقترح البعض منكم، فماذا سيقول عنا أصدقاؤنا وأعداؤنا ؟ لن يقولوا سوى أننا قد أصابنا الفزع عند رؤية سواحل إسبانيا وسلاسل جبالها العالية؛ وأننا قد عدنا هاربين كالجبناء دون رؤية أى مسيحى، بل ربما لرؤيتنا وجه اثنين من المسلمين البؤساء الذين حكوا لنا الأمر. إذا كان حقا أن الموريسكيين تركوا الحرب، فربما يكون ذلك بسبب عدم وجود ملك لهم، لأنه ليس لديهم منْ يحكمهم ومنْ يحميهم ومنْ يعطى لهم السلاح. وعندما يحدث كل هذا، ستعرفون فيما بعد أنه من بين الجنود الثائرين سيتم اختيار قائد عام ليتولى حكمهم ويحميهم، وفى ظله يقوم الجنود بمهمتهم. وهذا هو ما يمكننا أن نفعل الآن، أن نختار ملكًا حسب ما نرى، ثم نرحل معه إلى الجزائر حتى لا تتعرض حياته وشرفه لأى خطر؛ هذا إذا تعرضنا نحن لضربة من ضربات سوء الحظ، لأننا أيضًا نستطيع، فى وجود ملك معروف، أن نقوم بأشياء لمعاونة الموريسكيين المتمردين الذين يقولون إنهم سيعاودون إعلان الثورة فى كل المملكة، وسيحملون السلاح ضد راية المسيحيين، وسوف يمنحنا "محمد" العون لدخول إسبانيا وسوف يجازينا الله خيراً لقيامنا بهذه المهمة التى ربما يكون فيها هلاكنا، وسوف يقول أصدقاؤنا وأعداؤنا فى الجزائر: " لقد ماتوا كجنود، ولم يهربوا خائفين كالدجاج"، ولهذا، أيها الجنود الشجعان، أيها الأصدقاء، أرى أن نبادر بالهجوم وأن نخترق أراضى إسبانيا، التى ستكون أرض الله وأرض "محمد"."

وقد رأى القائد الآخر والذى يُدعى مامى أغا (Mami Aga) كل ما قاله القائد كاراكاتشا صوابًا، وأيضًا رأى ذلك كل الجنود الموجودين فى السفينة؛ وهكذا اتفق الجميع على رسو السفينة وتوغلوا فى الأراضى الإسبانية حتى وصلوا إلى سورباس، وكان معهم كمرشد ودليل مسلم من تورى (Ture) وكان يُدعى غاثيا (Gacia)، والذى أصبح فيما بعد قرصانًا عظيمًا، وعندما وصل الجنود الأتراك إلى سورباس، توجه إليهم الحراس الأربعة الملازمين للملك الصغير، الذين كانوا يعرفون أنه يختبئ فى الكهف، وكانوا قد حضروا للبحث عن بحارة من المسلمين كى يعبروا البحر إلى الجزائر معهم ومع الملك الصغير آخذين فى الاعتبار أن هذا

الملك أصبح بلا حماية، ويعيش وحيداً ومطارداً وأنه لا يستطيع العودة مرة أخرى إلى غرناطة، وقد اتفقوا على أن يذهب إلى الجزائر ومعه أصدقاؤه الأربعة، ولذا فقد حضروا مرات كثيرة لهذا المكان رغبة فى العثور على بحار يقبل أن يحملهم؛ وعندما وجدوا أن الأتراك قد أتوا إلى هذا المكان اعتبروا ذلك فرصة طيبة كى يعود السيد فيرناندو إلى سابق عهده، إذا عاد بالفعل، وهكذا توجهوا إلى سورباس وتحدثوا مع القائدين التركيين، كاراكاتشا ومامى أغا؛ على الرغم من أن هناك منْ يقول إن أغا هذا كان له اسم آخر، ولكن ليكن ما يكون، ذلك هو ما أخبرنى به أتراك الجزائر وهكذا حكى الأصدقاء الأربعة للأتراك كل ما حدث فى الحرب، وأكدوا لهم أن الملك مولاى لا يزال حيا، وأنه مختبئ فى أحد الكهوف منذ أيام عديدة وأنه لم يُقتل، وكيف أن بسببه قد قتل أحد الشبان الذى يشبه السيد فيرناندو دى بالور، وأن كل المملكة تعتقد أنه قتل، وكيف أنه كان من المقرر رحيله إلى الجزائر، لأنه لا يستطيع البقاء فى إسبانيا، وأنهم قد حضروا إلى هذه الأراضى المتاخمة للبحر للبحث عن بحارة جزائريين، ولكن عندما علموا بخبر وصولهم إلى هناك، حضروا لرؤيتهم ومناقشة إذا كان من الممكن إيجاد حل لهذا الأمر.

حكى الأصدقاء الأربعة للأتراك كل هذا، وقد اندهش هؤلاء للأخبار الجديدة التى سمعوها، ولكن القائد كاراكاتشا قال لهم: "لقد أراد محمد ألا يُقتل ملك غرناطة هذه المرة وألا يرحل إلى الجزائر حتى نموت كلنا جهاداً فى سبيله، وقد أمرنا بذلك الملك أولوج على منذ لحظة خروجنا من الجزائر، ولهذا فلنرحل جميعًا إلى حيث يوجد الملك ولا نتوقف هنا لأنه إذا تأخرنا سيحدق الخطر بنا جميعًا". وهكذا فى نفس تلك الليلة، رحلوا من سورباس ولم يتوقفوا حتى وصلوا قريبًا من بالور، وقد تأخروا ثلاثة أيام فى الذهاب، لأنهم لم يكونوا يسيرون نهاراً بل ليلاً فقط، فقد كانوا يختبئون فى مكمن خلال النهار. ولكن هذا لم يكن من السرية بحيث يخفى على الأهالى فى كل من موخاكار (Mojacar) وبيرا (Vera) فقد وصل إليهم خبر الحراس وهذه القوة الكبيرة من الأعداء، وهكذا أخبروا ماركيز مونديخار بما حدث، ولم يُسَر الماركيز بمعرفة تلك الأخبار لأنه كان يعلم جيداً أنه من المنتظر وصول إغاثة من إفريقيا لمسلمى مملكة غرناطة، وعندما علم بهذا استعد رجال حرب كثيرون وتم تعيين العديد من القادة، وتم استدعاء الكثيرين من القرى القريبة لتقديم العون إذا اقتضت الحاجة. وعندما وصل الأتراك إلى بالور، قريبًا من الكهف الذى يمكث فيه مولاى، حدث أنه فى تلك الساعة كان مولاى قد خرج من الكهف لكى يرتاح ويريح عينيه، بخاصة وهو يقضى أياماً طويلة حبيس هذا الكهف

المظلم، ولأنه بالنظر إلى الحقول الخضراء ترتاح عيناه ويُسر قلبه، وقد كان جالسًا بين أشجار عالية، وكان ينظر إلى سلاسل الجبال الوعرة فى البشرات، وتداعت إلى ذاكرته كل الحروب السابقة فى تلك الأراضى وانهيار تلك المملكة التى كانت فى يوم ما مزدهرة وغنية، ومع هذه الذكريات أخذ يفكر فى النكبة الحالية التى ألمت به، وكيف أنه رأى نفسه يومًا ملكًا متوجًا وسيدًا لمملكة غرناطة، وكيف أنه حاليا يعيش وحيدًا مطاردًا ينقصه الضرورى للحياة فى أوقات كثيرة، وحتى الطعام. يتذكر غرناطة، ويتذكر حياته الطيبة بها حيث كان يعيش فى رغد من العيش. يتذكر خروجه البائس من غرناطة لأمر تافه، وكيف أنه الآن يعيش دون ماله الذى يملكه ودون الأمل الذى وعدوه به، يعيش فقط مطاردًا وبعيدًا عن والده، وأمه وإخوته، وما حدث لهم جميعًا بسببه. عندما تذكر السيد فيرناندو دى بالور كل هذا بكى حزنًا ولديه كل الحق؛ فهناك الكثير من النزاعات ومن الحظ السيئ يتبعه، فبسببه تم أسر أبيه السيد أنطونيو دى بالور (Antonio de Valor) فى برج منيع فى قشتالة، بعيدًا عن أرضه، حيث مات مكبلاً بالحديد، وكان لا يستحق هذا؛ وتم اعتقال أخ له يُدعى السيد ألونسو دى بالور (Alonso de Valor) فى مدريد، ولم يعد مرة أخرى إلى غرناطة؛ بينما بقى أخوه الآخر الذى يُدعى لويس دى بالور فى الجزائر، وكان قد بعث به حاملاً رسائل إلى أولوج على لكى يرسل إليه هذا الأخير بالغوث والسلاح، ولهذا أرسل إليه أولوج على الأتراك المائتين الذين تحدثنا عنهم، وقد بقى السيد لويس دى بالور فى الجزائر شبه رهين، ولكل هذه الأسباب كان الملك البائس يبكى حزنًا على هذه الذكريات الحزينة والأمل الضعيف الذى ينتظره. وهكذا، يبدو لى من الصواب أن أكتب شكواه فى صورة أبيات من الشعر هى الآتية:

مـــرثــيـــة

آه يا أفكارى المضطربة الفانية

أبراج تعلو أمام الريح

ومن أجل شر عظيم شيدت

ولأن أساسها ليس متينًا

فأى نجمة حزينة يمكنها

أن ترشدنى للذهاب ؟

أى قدر قاسى

كان متمادياً فى الشر ؟

أى مصيبة

يصاحبها ألم شديد

أتت بى إلى هذه الحالة الحزينة

التى أعيش فيها وكأننى مدفون وأنا حى ؟

أين الرغد الذى كنت أعيش فيه ؟

وأين ذهبت شجاعتى وعظمتى

والتاج الذهبى الذى حملته على رأسى

الذى جلب لى حظًا تعسًا حطمنى ؟

أين الآمال الموعودة

والمدح الكثير ؟

الذى قدمه لى رجالى المسلحون

الذين كانوا يحيطون بى

وكانوا يهتفون : يعيش .. يعيش

وتتعالى صيحاتهم وهم يقولون :

ملك مملكة غرناطة

وهم يصفقون بشكل ليس له مثيل

وصوت النفير الذى يُنذر بالحرب

والأبواق الصادحة

التى كانت تسكن بعد العزف العالى

كى تفسح المجال لأبواق أخرى

لقد انتهت هذه الحياة الجميلة سريعًا

وجاء بعدها ألم شديد

فلم تعد هناك مملكة

هكذا أراد

القدر القاسى

ربما فى المرة الثانية

عندما رآنى صاعداً إلى النجوم

اقترح أن أقطع نفسى فى تلك الشكوى

تم اختيار القادة

وقررنا اتخاذ السبل المؤكدة

كان لدىَّ خاتمى الملكى المدموغ

على ضوء الهلال المنتشر فى السماء

الذى يمنح الحظ

والوجه الجميل

ولكن لم يدم ذلك طويلاً

بل تحول إلى كابوس

كما هو واضح الآن

فقد دارت العجلة بسرعة كبيرة

ولم ترغب فى البقاء على ما هى عليه

زيادة فى ألمى

يا لهول ما حدث لأبواى وأخوتى

لكل أقاربى وأصدقائى

الذين كانوا شهوداً على خيرى وشرى

وكانوا مسلمين ومسيحيين معًا

فقط الوحدة تصاحبنى

فقد أراد القدر

أن يتبقى من كل هذا المجد

مجرد ذكرى

أحتفظ بها

لأننى أسير

وأنا أعتقد أن بها شر غريب

هكذا أمر القدر كى يؤذينى

ابكيا يا عيناى المتعبتان ومعكما قلبى

فكل خير انتظرناه ضاع منا

ابكيا أيضاً على ما أعانى من شرور

وما يصاحبها من آلام وقسوة

ابكوا على غرناطة التى ضاعت منكم

على الحديقة المليئة بالزهور

وعلى قصر الحمراء

فلم تعد هناك سهرات جميلة

يحضر إليها ابن عمار

حيث قال إن الألم حلَّ محل النضارة

لا أتوقع أن أراكم ثانية

لأن الحظ القاسى أراد ذلك

فقد خلط ما بين الخير والشر

وعاملنى بقسوة وشدة ولم يرحمنى

لم يتبق لى من الخير

سوى شيء أراه فظيعًا

وليس من الممكن

أن يكون مؤكداً

بل مُرا وقاسيا :

أن أعبر أمواج البحر

العميقة جدا

وأصل إلى الأراضى الليبية

وأصل إلى شواطئها وأنا حزين

ووحيد دون أن أرفع راياتى

إذن لا بد أن تشعروا بى

لكل هذا البؤس الذى أشعر به

والذى يجلب لى الأحزان

التى ستكون سببًا لضياعى

ابكى أيتها العيون

على كل هذا البؤس

الذى لم يره أحد من قبل

والذى يعطى سببًا

لهذا الألم الذى لا ينتهى

وهذا البكاء الذى يتدفق فى الوريد

وهكذا حزينًا سأنتهى

وأنا أرى كل خير لى

يطير من يدى كالدخان

بهذه الطريقة كان الملك الصغير البائس يأسى على نفسه، وكان يذرف الدمع الغزير، وكان لديه الحق فى إبداء ألمه وهو يرى نفسه، منْ كان لديه المال والوطن السعيد، ويتمتع بحريته، يرى نفسه ضحية ضربة من ضربات القدر لا يستطيع أن يجد لها حلا، وهو يقف فى

انتظار الموت، بعد أن فقد مكانه، وبعد أن أصبح ينادى عليه كخائن لسيده وملكه. ولكن لأنه كان شابا، وليس لديه الذكاء والحصافة المطلوبين، لم يكن يعرف كيف يُبحر فى هذا الخضم من الأمواج الخطيرة لبحر صعب، ولا أن يجد ميناءً يرتاح فيه بعيداً عن مصائبه، فلو أنَّه عندما وجد نفسه بعيداً عن قومه وأهله، دون إيمان أو دين، فى ليلة ما ذهب ليختبئ من الرعب الرهيب الذى يسببه له الموريسكيون الذين يتابعونه لكى يُلحقوا به الأذى، وأخذ يفكر فيما لو ذهب إلى غرناطة ومنها إلى مدريد، ويبكى عند قدمى الملك فيليبى، لكان برحمته المعتادة قد صفح عنه وتركه يعيش فى مكانٍ ما، حيث إن أراضيه قد نُزعت منه، ولأن السيد فيرناندو حديث السن؛ وهكذا، لأنه شاب صغير ولم يصل إلى سن الحكمة والنُضج، كان يمكن أن يحصل على عفو من الملك، إلا أن سوء حظه لم يجعله يقوم بهذا الحل لمشكلته، وواصل اختباءه فى هذا الكهف، منتظراً الرحيل إلى إفريقيا هارباً من عطف ورحمة الملك ومن الموت الذى كان ينتظره على يدى ماركيز مونديخار؛ وهكذا كما قلنا، عندما كان ذلك الأمير تعيس الحظ يأسى على حاله، وكان يذرف الدمع الغزير من عينيه، رأى الفرقة التركية قادمة إلى حيث يوجد، وعندما رأى الأتراك تغيَّر لون وجهه، وكأنه على وشك الموت، فقد اعتقد أنهم الموريسكيون القادمون كى يقتلوه، وهكذا قال لنفسه وبكل خوف: " الآن يا سيد فيرناندو، وصلت إلى نهايتك، الآن سوف تتخلص من الشقاء الذى يحيط بك "؛ وبينما تقترب هذه القوة القادمة، رأى فى الأمام رفقائه الأربعة الوحيدين الذين يعرفون مكان تواجده، وهكذا شعر بالضياع أكثر، فقد اعتقد أن أصدقاءه قد باعوه، لأنه يعلم أن هؤلاء الموريسكيين قوم لا خلاق لهم وأنهم لا يؤمنون بالصداقة الحقة، كما حدث منهم فى الماضى، ولكن عندما رأى هذه الجماعة القادمة وهى مجهزة جيداً؛ فالجميع يرتدون أحذية من جلد النمور الأسود، وعلى رءوسهم تعلو القلنسوات الملونة والعمائم البيضاء، والملابس البيضاء والزرقاء ويحمل الجميع البنادق الطويلة اللامعة، فيما بعد أدرك أن هؤلاء القوم ليسوا غرناطيين بل أتراك، وهذا خفف عنه كثيراً وهدأ من روعه حتى يرى إلى أى شيء يتوقف هذا الجمع. وعندما وصلت القوة قريبًا من الكهف، تقدم المسلمون الغرناطيون الأربعة إلى الأمام، ودخل أحدهم بين بعض الصخور التى تخفى باب بالكهف عن العيون، بحيث لا يراه أحد ولا يعثر عليه أحد، ودلف إلى داخل الكهف. وعندما دخل قام بعمل الإشارة المعتادة، التى كانت عبارة عن إطلاق صفير قصير، وعلى هذا الصفير كان يجيب الملك فى العادة؛ ولكن هذه المرة لم يرد عليه الملك، حتى إنه أعاد الصفير أربع مرات. وقد اندهش الرجل المسلم عندما لم يجب الملك الصغير من أول مرة كعادته؛ وهكذا خرج من الكهف منزعجًا وقال إن الملك لم يظهر ولم يرد على الإشارة. بعد ذلك دخل الأصدقاء

الثلاثة إلى أعماق الكهف، حتى وصلوا إلى الفراش الذى اعتاد الملك النوم عليه، ولكنهم لم يجدوه، وهكذا، خرجوا من الكهف وهم فى غاية الانزعاج والقلق قائلين إن سيد البالور لم يظهر؛ الأمر الذى جعل كاراكاتشا، القائد الشجاع يقول بحنق: "لقد أدركت الآن أنكم قد قمتم بخداعنا وأتيتم بنا إلى هذه الأراضى كى تعرضونا للهلاك، ولكن رغم خداعكم سنعيش. حقا نحن قليلون ولكننا قادرين على أن ندمر الأراضى وأن نحرق الجبال، وإذا دعت الحاجة سنذهب إلى غرناطة وسنشعل فيها النار، رغم أنف كل العالم، وسنعود إلى البحر، لذا، ابحثوا عن الملك بكل همة، وإذا لم تعثروا عليه سريعًا سوف نجعلكم أشلاء، وسنحمل رءوسكم إلى الجزائر كشاهد على ما قمنا به، كى يعلم أولوج على أننا توغلنا فى الأراضى الإسبانية، رغم الريح والبحر". ولم يدر الغرناطيون الأربعة ماذا يفعلون فى مثل هذه المحنة واستبد بهم الفزع. وعندما رأى الملك الصغير ما حدث، وضع نفسه فى كف القدر، وقام واقفًا ونادى على أصدقائه كل باسمه، وشعروا بفرحة عظيمة لرؤيته، وعندما هبط الملك الصغير واقترب من القائد كاراكاتشا، نظر إليه متفحصًا، وبدا له الأمير كرجل ذى قيمة وأهمية؛ فقال له: "هل أنت الملك الذى تم تنصيبه حديثًا لهذه المملكة؟". أجاب السيد فيرناندو، وقد عكست ملامح وجهه الجدية ولم يبد عليه أى خوف، وقال نعم، إنه ملك غرناطة، ولماذا يسأله هذا السؤال. بعد ذلك ظهر على التركى الفرحة، وعانق الملك وقبَّل يديه قائلاً: "لقد بدا واضحًا نقاء دمائك ولا يمكن إنكار قيمة أصلك الذى يبدو على شخصيتك"، وعندما قال ذلك وضع يده فى حقيبة البندقية، التى كانت كبيرة، ثم قال: "خذ هذه الخطابات التى أرسلها لك ملك الجزائر؛ وسوف تعرف منها ما أرسلت به لأقوله لك". أخذ الملك الصغير الخطابات، وفتحها، وكان الخطاب يقول الآتى:

"خطاب أولوج على، ملك الجزائر، إلى ملك غرناطة الصغير"

" إليك، يا فيرناندو مولاى ابن أمية، ملك غرناطة الجديد، الذى تم اختياره عن حق وقد تأكد الذين اختاروه من نقاء دمائه الملكية، أتمنى لك دوام الصحة وأن تتمتع سنوات طويلة بالتاج الجديد الذى تستحقه. تعلم أننا منذ أيام قليلة تلقينا خطابًا أرسله لنا الفارس ابن جوهر، الذى يبدو أنه أحد أقاربك كما فهمنا فيما بعد، وأنه أحد رجال مملكة غرناطة المهمين، وقد طلب منا فى هذه الخطابات أن نمدكم بالسلاح والإغاثة كى تنتصر فى الحرب المشتعلة ضد ملك إسبانيا، وقد وعدنا بتجهيز موانئ آمنة، ومداخل إلى إسبانيا، وأن يساعدنا كى نغزو

من جديد هذه المملكة، كما حدث فى الماضى فى زمن الملك رودريك؛ وعندما استلمنا هذه الخطابات عقدنا مجلسا ملكيا للحرب كى نقرر ماذا يجب أن نفعل إزاء هذا الموقف، وقد رأينا أنه من العدل والصواب تقديم العون والسلاح لمنْ يطلبه ليحارب به المسيحيين، لأن ذلك هو ما أمرنا به 'محمد'، ولهذا قررنا توفير كمية من الأسلحة كى نرسلها لكم؛ ولكن فيما بعد، اتفقنا على أن نرسل إلى الصدر الأعظم كى نخبره بما طلب الغرناطيون وبما قررنا أن نفعله لهم. وقد أرسل السيد الأعلى مائتى تركى، من أشجع الجنود، الذين يحصلون كرواتب ما بين عشرة وعشرين دوقية من الهلال إلى الهلال الجديد، كى يشاركوا فى حالة الحرب، وإذا دارت الحرب لصالحنا، واستطعتم تحقيق الأمل المنشود، يقول الصدر الأعظم إنه سوف يرسل بمدد أكبر من الرجال والسلاح، وسوف يتدخل هو شخصيا عبر مناطق إيطالية عابرًا البحر إلى إسبانيا ويتوغل فى أراضيها بقوة، وعندما تلقينا هذا الرد من الصدر الأعظم، وصل إلينا أخ لك يُدعى السيد لويس دى بالور، فى فرقاطة يملكها أحد المسلمين الغرناطيين قادمًا من سواحل إسبانيا، وقد أعطى لنا أخوك خطابًا بخط يدك تطلب به للمرة الثانية العون والسلاح، مؤكدًا على القيام بما وعدت به، وهكذا تحدد القرار الملكى بإرسال الغوث المطلوب والأسلحة لمقاومة المسيحيين، وهكذا أرسلنا الأتراك المائتين، وهم من أفضل الجنود، وأسلحة قدر استطاعتنا؛ ونأمل أن يتمكن هؤلاء الأتراك من الانتصار، وقد تعودوا على هذا فى ميادين القتال عندنا. سيبقى أخوك السيد لويس دى بالور فى الجزائر، معززًا ومكرمًا. نصرك الله وأيدك 'محمد' فى كل أمورك. من الجزائر، أولوج على[٣].

عندما قرأ الملك الصغير هذا الخطاب بدا وكأنه قد بُعث من الموت وعاد إلى الحياة، فقد ظهرت عليه السعادة، وعاد مرة ثانية لعناق القائدين التركيين، وقدم لهما أموالاً كثيرة؛ بعد ذلك قامت هذه الفرقة التركية بإطلاق دفعات من الرصاص تردد صداها فى كل الأراضى والسهول، حتى إن الضوضاء التى أحدثتها سُمعت فى مناطق كثيرة لدرجة جعلت المسلمين الهاربين من المسيحيين يفقدوا ثقتهم فى السلام الذى وعدوهم به. فيما بعد أمر الملك الصغير بأن يذهبوا إلى قريته بالور[٤] . فعلى الرغم من أننا قد قلنا سابقًا إنه قد توجه إلى قريته، لم

(٣) كانت هناك مراسلات بين السلطان العثمانى والموريسكيين نشرها الدكتور عبد الجليل التميمى. لكن ماركيث بيانوبيا يرى عدم إمكانية غزو تركيا للسواحل الإسبانية. انظر كتابه "القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى" ترجمة عائشة سويلم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥. (المراجع).

(٤) يبدو بيريث دى إيتا هنا وكأنه يكتب يوميات. (المراجع).

يكن الأمر كذلك ، لأن الكهف الذى تحدثنا عنه كان فى أعلى سلسلة جبال دالياس (Dalías)، كما عرفنا وفهمنا من مصادر موثوقة. وهكذا رحل الملك الصغير ومعه الأتراك إلى بالور، وعندما وصل إليها استقبله رعاياه بسعادة كبيرة لأنهم كانوا يعتقدون أنه قتل، وقد تحدث إليهم الملك الصغير وقال لهم إنهم مصممون على ما وعدوا به، فقد جاءهم مدد أكثر مما طلبوا، ومن بالور ذهب إلى قرية خوبيليس (Jubilés)، ومن هناك إلى أنداراكس، ومنها إلى أدرا (Adra)، حيث وجدوا عدداً كبيراً من رجال الجبال الموريسكيين وغيرهم من الموريسكيين الأشرار، الذين انضموا بكل سعادة إلى الملك الصغير، والذين كانوا يعتقدون أنه قد لقى حتفه، ومن هناك عاد الملك الصغير إلى أنداراكس ومعه رفاقه، وأصدر أوامره بخوض الحرب ضد المسيحيين.

بعد أن علم ماركيز مونديخار من ناحية بيرا (Vera) وموخاكار(Mojacar) أن هناك جماعات قد عبرت من إفريقيا، أمر بأن يستعد كل رجال الحرب المدرجين، وكانوا كثيرين، فقد كان بينهم رجال شجعان من مناطق أندلوثيا المختلفة، وقادة ماهرون، وقد وصل عدد الجنود الذين أعدهم ماركيز مونديخار إلى عشرين ألف رجل من خيرة رجال أندلوثيا، بالإضافة إلى الجنود القادمين من مملكة مورثيا (Murcia)، الذين كانوا أيضًا رجال سواحل ماهرين فى استخدام السلاح من كل نوع. وهكذا خرج ماركيز مونديخار من غرناطة فى صحبة جنود من خيرة الجنود وأشجعها، كما قلنا سابقًا، خرجوا رافعين راياتهم والعَلم الملكى للحمراء، ورفعوا أمام الماركيز البيرق الخاص به كقائد عام، وهو محاط برجال من أهم القادة، وقد واصلوا جميعهم السير حتى وصلوا إلى قرية تُسمى الإندين (Alhendín) وألبادول (Alpadul)، حيث وجدوا المسلمين يعمهم الهدوء، عندئذٍ أمر بمرسوم بألا يُلحق الجنود الأذى بالموريسكيين ولا بأملاكهم. وقد أمر ماركيز مونديخار بهذا حتى يهدئ من ثورة الموريسكيين المتمردين بالسلم لا بالحرب؛ ولكن لم يحدث ما كان يتوقعه، كما سنقول لاحقًا، وهكذا كانت تتحدث هذه القصيدة عما حدث فى هذا الفصل الذى حكيناه:

أغنـيـة شـعـبيـة

كونت تندييًا الطيب

الذى يُلقب بماركيز

ولاية موندیخار

وهو سيد عظيم

وأحد أعضاء المجلس المختارين

لشجاعته العظيمة

وهو قائد الحمراء المخلص

وقائد عام عظيم

لمملكة غرناطة

أمر بتعيينه الملك

عندما رأى أن مسلمى المملكة

قد أعلنوا العصيان

أمر بجمع أناس كثيرين

قادرين على خوض الحرب

وجهزهم بالسلاح كى يستطيعوا

الانتصار وإطاعة أوامره

ويستطيعوا الصعود إلى البشرات

- ومعهم جيش مشكل جيداً -

آخذين الطريق الصحيح

وهكذا أرسل اثنين من الموريسكيين الغرناطيين

كى يتفاوضوا مع المسلمين

من الرجال المتميزين

وأصحاب المناصب

كى يتفقوا على إحلال السلام

مع المسلمين المتمردين

الذين وعدهم الملك

بعفوٍ عام

وقد أرسلهم الملك

كى يهدئوا من روعهم

وهذا ما حاول المسلمان

القيام به مع القرى المتمردة

التى أبدت ندمها على ما قامت به

وقالوا إنهم مسيحيون

وإنهم ليسوا راغبين فى الحرب

وإن ابن جوهر الكاذب

قد خدعهم

وإنه تصرَّف دون شرف

ضد ماركيز مونديخار

لأنه عامل المسلمين الغرناطيين

معاملة سيئة

مثلما أعلن حينئذٍ

فقد أحزنهم استعمال السلاح

وهم يرغبون فى العيش

كمواطنين مسيحيين

وقال الرجلان المسلمان أيضًا

إنهم سيعطون عشرة آلاف دوقية

لمنْ يسلم رأس

الملك الصغير المزيف

وطمعًا فى هذا المال

بحث مسلمون كثيرون

عن الملك الصغير الحزين

كي يسلموه أو يقتلوه

ولهذا قام الملك بالاختفاء

حيث لا يعثر عليه أحد

وكان أكثر الناس بحثًا عنه

ومطاردة له هو الديرى أحد أقربائه

ولأنه لم يعثر عليه

كى يفوز بالدوقيات العشرة آلاف

قتل صبيا موريسكيا

يشبه كثيراً السيد فيرناندو

وقد قام بقطع رأسه

وحملها إلى غرناطة

وقد منحه الماركيز المال

وهو مخدوع فيه

وهكذا حلَّ السلام على المملكة

بهذا الاتفاق

ولم يبق سوى رجال الجبل

الذين لم يتم التصالح معهم

وكان عددهم أكثر من ثلاثة آلاف رجل

مسلحين جيداً

وكانوا مستعدين للعبور إلى فاس

لو وجدوا فرصة جيدة

لأنهم كانوا يعتقدون

موت ذلك الملك المزيف

وعند هذه النقطة من الحكاية

توغَّل الكثير من الأتراك

إلى داخل البشرات

وكانوا مسلحين جيداً

وقد أرسلهم أولوج على

ملك الجزائر المعروف

كى ينقذوا مملكة غرناطة

ويدافعوا عنها

وقد عثروا على الملك الصغير

فى أحد الكهوف المغلقة

وقد استقبلهم الملك جيداً

وذهب معهم إلى بالور

ومن هناك ذهب إلى أنداراكس

مع رجاله المنظمين

وقد انضم إليه رجال الجبل

بكل سعادة

لأنهم عثروا على ملكهم حيا

وقد كانوا يعتقدونه ميتًا

وأمر الملك الصغير

بالاستمرار فى الحرب على الفور

مثلما بدأت من قبل

ولأن ماركيز مونديخار

علم بهذا الخبر

فقد خرج من غرناطة

مع جيش منظم

خرج معه

أكثر من عشرين ألف رجل

بينهم قادة أقوياء

وبينهم جنود شجعان

وقد رفعوا الرايات الجميلة

وبيرقهم المذهَّب

والماركيز على صدر الموكب

كما هو معتاد

ماذا حمل القائد معه

عندما سار مع لوائه ؟

الذى حدث حينئذٍ

سوف أرويه لكم فيما بعد

"خاتمة "

الفصل الرابع

الذى سنحكى فيه عن خروج ماركيز بيليث بلانكو وبيليث روبيو لمواجهة المسلمين القاطنين حول نهرى المنصورة وألمرية وسلسلة جبال فيلابريس وتالى (Filabrés y Tahalí)، وأحداث كثيرة أخرى.

حكينا كيف أن ماركيز مونديخار وصل إلى بادول (Padul) ومرَّ على الإندين (Alhendîn)، وقد ترك المسلمين فى هذه القرى فى حالة من الهدوء بعد أن تم الاتفاق على السلام، وقد وصل إلى البونيويلاس وهناك أمر جيشه بالتوقف عن القتال كى يصل إلى اتفاق مع الموريسكيين فى هذه القرى دون إلحاق الأذى بهم بعدما تخلوا عن عصيانهم، ودون أى تردد استمر ماركيز مونديخار فى مهمته واستطاع إخضاع كل البشرات، ماضياً فى أفضل السبل وهو سبيل السلام الذى وعدهم به؛ ومعه العفو العام لهذا التمرد الهائج وتلك الثورة، لو أراد بعض الأشرار من المسيحيين تحقيق هدفهم. فقد كان يصطحب معه أكثر من عشرين ألف رجل، كان بينهم أكثر من عشرة آلاف لص من أكبر لصوص العالم، الذين لم يكونوا يفكرون سوى فى القتل وسرقة ونهب قرى الموريسكيين الذين لم يقوموا بتمرد أو بثورة. ولأن جيش ماركيز مونديخار لم يكد يعبر قريتى الإندين، وبادول واستقر فى لاس البونيويلاس، عندما قام ألف لص من جيش الملك بالإغارة على هذه القرى التى ذكرناها ليلاً وقاموا بنهبها وقتل الكثيرين من الموريسكيين، وقد حملوا معهم العديد من النساء الشابات والصبايا، وأخذوهم إلى أراضيهم وقاموا ببيعهن كسبايا ولأنهم قاموا بهذه العملية الشريرة ليلاً فقد عادوا إلى الجيش مرة أخرى. وعلى الرغم من أن المسلمين الذين قاموا بالهروب قد أعلنوا غضبهم أمام الماركيز قائلين له كل الشرور التى حدثت لهم من سرقات وقتل، فقد كان غضبهم هذا دون فائدة، لأن الماركيز لم يكن يعرف منْ يعاقب لأن الذين قاموا بهذه الشرور كان عددهم كبيراً جدا. ولأن الموريسكيين رأوا أن ما أصابهم من شر لا علاج له، وأن الإهانة التى لحقت بهم قد مرت دون عقاب، فقد تم الاستيلاء على ثرواتهم، وقد سُبيت نساؤهم وأطفالهم، لم ينتظروا أكثر من ذلك، فجمعوا ما استطاعوا حمله وقاموا بإخفاء الباقى، وذهبوا إلى الجبال حيث يقيم الملك

الصغير، قائلين له إن الماركيز بدلاً من السلام الذى وعدهم إياه، قد بعث إليهم مَنْ يدمرونهم، وقد استقبلهم الملك الصغير استقبالاً حسنًا، وشملهم بحمايته قائلاً لهم: "يا للمساكين، ألا ترون أنهم قد خدعوكم بوعود السلام الزائفة التى أعلنوها بينما هم فى الحقيقة يحاولون التخلص منكم وتدميركم، حتى لا يتبقى فرد واحد منكم؛ فلتحملوا أسلحتكم ولتدافعوا حتى الموت عن حياتكم وثرواتكم، وهكذا ستصبحون قريبًا أسيادًا أحرارًا على كل الأرض". وقد أثارت كلمات الملك الصغير هذه حماس الموريسكيين فتركوا قراهم وعادوا إلى الحرب. وبهذه الطريقة تمرد العديد من القرى المسلمة بسبب المسيحيين الأشرار المتعطشين للسرقة ونهب أموال الآخرين، وقد استبد الغضب والغيظ بالماركيز لأنه عندما كان يعتزم فعل شىء ما، كان رجاله يخالفونه. لذا فقد أمر بإعلان عقوبة الإعدام لمَنْ يخرج عن قواعد جيشه ويقوم بالسلب أو النهب، ولكن هذه الإجراءات كانت بلا جدوى لأن اللصوص خرجوا دون أن يعلم أحد، وعلى الرغم من وجود حراس فى الطريق، فإنهم قاموا بشرور كثيرة. وكان هذا سببًا فى عودة قرى البشرات كلها للثورة والعصيان وحمل السلاح بحيث أصبحت المملكة كلها فى حالة هياج وعدم ثقة فى السلام المزعوم؛ فقد كان الجميع يفضلون الموت حربًا على العيش فى معاناة مستمرة، وهكذا حمل الجميع السلاح، وعاد القواد الذين عينهم الملك الصغير إلى تجهيز رجالهم بالسلاح تحت راية سيد البالور ضد المسيحيين. وعندما رأى الأتراك هذا الجمع من الرجال المسلحين، عملوا على تشجيعهم قائلين: "سوف نعمل على الفوز بإسبانيا كلها من أجلكم". وبكل هذا استعاد الغرناطيون حماسهم وعادوا للقيام بأعمالهم الشريرة. وعندما علم ماركيز بيليث، السيد لويس فاخاردو (Luys Faxardo) بأن المسلمين قد أعلنوا عصيانهم مرة أخرى، على الرغم من أن هذه المرة لم يكونوا هم المخطئين؛ بل كان الذنب يقع على المسيحيين الأشرار، عندما علم الماركيز، قرر الخروج على رأس جيش لمحاربة المسلمين القاطنين حول نهرى المنصورة وألمرية، بحيث يهاجم هو من ناحية ويهاجم ماركيز مونديخار من ناحية أخرى، ويعملا سويا على إنهاء هذه الحروب الأهلية[1]، وهكذا أرسل فيما بعد - كقائد عام لملكة مورثيا- إلى كل القرى المجاورة كى يشاركوه هذه المهمة، وهكذا اجتمع فى كارباكا (Caravaca) الكثير من الجنود المهرة ومعهم قائد شجاع يُدعى خوان دى ليون (Juan

(١) من المهم التوقف عند صفة "الحرب الأهلية" التى يطلقها بيريث دى إيتا على الحرب التى اندلعت بين المسلمين والمسيحيين فى أعقاب ثورة البشرات . (المراجع).

(de León يصاحبه قائد شجاع، يُدعى أندريس دى موْرا (Andrés de Mora)، وهو رجل شجاع وجندى ماهر بأمور الحرب، وهناك خرج معه حامل لوائه، وكان يُدعى بينابيديس (Venavides)، وهو رجل نبيل وشجاع، ومع كل هؤلاء خرج أيضًا جنود آخرون وصل عددهم إلى أربعمائة رجل، مسلحين جيدًا، وقد خرج من مدينة ثيخين (Zehegín) مائة جندى مسلح من أشرف الناس، وقد عين كارينيو (Carreno) وهو جندى كبير وشجاع كقائد لهم، وقد خرج من مدينة مولا (Mula) ثلاث مائة رجل مسلح؛ وكان قائدهم يُدعى ميلغاريخو (Melgarejo)، وهو رجل ذو شجاعة عظيمة، ومن مدينة توتانا (Totana) خرج مائة رجل شجاع وقد تعودوا على محاربة المسلمين، وكان قائدهم يُدعى خوان دى مورا، وهو رجل شجاع، ومن مدينة ألحامة (Alhama) خرج مائة رجل من أفضل الجنود مثل جنود توتانا، وكانوا معتادين على مواجهة المسلمين على الساحل، وكل هؤلاء كانوا مسلحين جيدًا، وكان قائدهم يُدعى فالكايويلا (Falcayuela)، وهو رجل مسلح وجندى شجاع. وقد أرسل الماركيز السيد خوان فاخاردو، وكان قد عين مرشدًا للجيش أرسله إلى لوركا، كى يطلب من هذه المدينة المشاركة فى الحرب، فخرج من لوركا أكثر من ألف جندى، من أشجع الناس، وفى كامل استعدادهم، وكان على رأسهم القائد خوان فيليثيس دوكى (Juan Felices Duque) وخوان ماتيوس دى غيبارا (Juan Mateos de Guevara)، وألونسو دى كاستيو ألموثو (Alonso de Castillo el Moço)، وأدريان ليونيس دى ألبيركا (Adriín Leones de Alberca)، وإرنان بيريث دى توديلا (Hernán Pérez de Tudela) . وقد خرج هؤلاء القادة الستة، بالترتيب من المدينة، وخرج معهم أكثر من ألف جندى (كما قلنا آنفًا). فيما بعد، خرج للحرب، فى أوقات متفرقة، خمسة قادة آخرون، من أنبل الرجال، وكانوا يدعون: ألونسو دى ليبا مارين [٢] (Alonso de Leyva Marín)، ومارتين دى لوريتا (Martín de Lorita)، وحامل الراية الأعظم؛ وغوميث غارثيا دى غيبارا (Gómez García de Guevara)، وخوان ماتيوس ريندون (Juan Mateos Rendón)، ولويس دى غيبارا (Luys de Guevara)؛ وكان هذا الأخير من أوائل الذين خرجوا للحرب، وسوف نتحدث عنه وعن الآخرين كل فى حينه. وقد خرج فى وقت آخر كقائد خوان ليونيس دى غيبارا (Juan Leones de Guevara) وأخوه لويس بونثى (Luys ponce)، وخوان مانشيرون

(٢) ربما يكون هو الذى تشاجر معه أورتادو مندوثا فى القصر الملكى. انظر مقدمة "حرب غرناطة"، ترجمة إيمان عبد الحليم وسلوى محمود، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٨ . (المراجع).

(Juan Manchirón)، رئيس بلدية لوركا؛ وسوف نتحدث عن كل هؤلاء القادة كل فى حينه، وسوف نتحدث عمنْ لقوا حتفهم فى الحرب كى نبرز قيمة ونبل شخصياتهم.

تحدثنا عن تلك القرى التى دعاها الماركيز للخروج وعن هؤلاء القادة الذين خرجوا منها، ولا بد أن نتحدث عن مورثيا النبيلة، التى أخطرت بالحرب فسارع حاكمها الشجاع وأرسل لجلالة الملك ما سبق وذكرناه، وقد أمر جلالته بإرسال العون ومدد من الجيش لمواصلة الحرب، وهكذا قدمت المدينة النبيلة ثلاثة قادة من أشجع الرجال، من المشاة اثنان، يدعى أحدهم ألونسو غالتيرو (Alonso Galtero)، وهو فارس شجاع، وآخر يُدعى نوفرى رويث (Nofre Ruiz)، وهو لا يقل قيمة ولا شجاعة عن الأول. أما الثالث فقد كان يُسمى السيد خوان باتشيكو (Juan Pacheco)، وقد كان فارسًا من رهبانية سانتياغو، وكان فارسًا على جواد، وكان حامل لوائه رجل يُدعى سالبادور نابارو (Salvador Navarro) هؤلاء القادة الأفذاذ كانوا رجالاً شجعانًا، ومجهزين جيداً بالسلاح، ولكنهم لم يخرجوا سريعًا من مورثيا؛ بل انتظروا حتى خروج الماركيز من بيليث يوم عيد الملوك السحرة عام ١٥٦٩ (٣) ولكن لم تتأخر مورثيا فى الخروج مع أهلها كما سنقول فيما بعد. فعندما خرج فاخاردو الشجاع فى اليوم الذى ذكرناه، وخرج معه من القرى الثلاث، الجنود الألف الذين تحدثنا عنهم وهم فى كامل استعدادهم، إلى جانب الجنود الآخرين المنتظرين فى مورثيا؛ خرج رافعًا الرايات وفى نظام محكم، بحيث كانت لوركا فى الطليعة، وكاراكابا فى قلب الدفاع، وتوتانا وألحامة فى مؤخرة الجيش، وشيخين معهما، كل هؤلاء كانوا رجالاً بارعين فى حمل السلاح تم اختيارهم بعناية، وكانوا مسلحين جيداً، قادرين على سحق عشرين ألف رجل من أى بلاد أخرى، وهكذا عندما رأى حاكم المدينة الطيب هذا الجيش العظيم شعر بسرور عظيم وحماسة، وقال إنه منذ أن كان يحارب تحت راية الإمبراطور لم ير جيشًا محاربًا كالذى خرج معه آنذاك، وأنه فى مواقف كثيرة كان يسعده أن يكون على رأس جيش من مملكة مورثيا، لأنهم على مستوى إسبانيا كلها لهم شهرتهم وخصائصهم المميزة. وكان لدى الماركيز كل الحق فى مدح رجال جيشه، لأنهم كانوا رجال حرب ماهرين فى استخدام السلاح، ولهذا كان يمدحهم ويقدرهم وكان يشعر بالفخر والاعتزاز بهم، وهكذا قال ماركيز بيليث، بسرور عظيم إنه يسعده أن يجد

---

(٣) أى فى السادس من يناير. (المراجع).

الفرصة العظيمة للتعبير عن شجاعته وشجاعة الرجال الذين خرجوا معه، لأن الماركيز كان واحداً من أشجع الرجال فى العالم ويُعد واحداً من أشهر قادة إسبانيا، من هؤلاء الذين فاقت شهرتهم غيرهم من أمثال "السيد" ، والكونت فيرنانديث غونثاليث (Fernández González)، وفيرناندو ديل كاربيو (Bernando del Carpio) وغيرهم من مشاهير الرجال وعظماء القادة الذين تفتخر بهم إسبانيا، وهذا ما أكده الإمبراطور كارلوس الخامس عندما حضر من الجزائر، فقد أقام فى قرطاجنة (Cartagena)، وذهب إليه لتحيته وتقبيل يديه الماركيز بدرو، والد السيد لويس، الذى نتحدث عنه الآن، وقد قام الإمبراطور بمعانقته ورفعه عن الأرض حيث كان راكعًا، وقال له: "أيها الماركيز، إن لديك ولداً طيباً، وتستطيع أن تقول إنه من أفضل الأبناء فى إسبانيا فهكذا يبدو لى دائمًا فى أى مناسبة جمعتنى به". وقد ردَّ عليه السيد بدرو قائلاً: "إننى وابنى فى خدمة جلالتك حتى الموت"؛ وقد عاد الإمبراطور لمعانقته مرة أخرى، قائلاً: "إننى أعلم ذلك جيداً ".

ولنعد من جديد إلى السيد لويس فاخاردو، الذى كنا نتحدث عنه، إنه بحق واحد من أشجع رجال إسبانيا؛ بل وغيرها من البلاد، ونرى أنه من المناسب أن نذكر قيمة هذا الرجل ونبله، على الرغم من أننا سوف نخرج هكذا من سياق الحديث عن قصتنا، وسوف نتحدث عنه باقتضاب قدر المستطاع، فقد تركنا ماركيز مونديخار ينتظر فى ألبانيويلاس، وسوف نتحدث عن هذا فى فصل آخر من الكتاب فلا بد أن نعرف أن الماركيز السيد لويس كان رجلاً رشيقًا: يبلغ من الطول اثنى عشر شبراً، وكان شديدا وقويا، فقد كان يبلغ عرض ظهره ثلاثة أشبار ومثلهم عرض صدره، كان قوى الذراعين والساقين، فقد كانت ساقاه ضخمتين ومناسبتين لهيئته القوية، ولم يكن هناك فراغ بين ساقيه، لدرجة أنه لم يكن باستطاعته ارتداء حذاء برقبة مصنوع من جلد الماعز ومحكم، وكان مقاس قدميه يبلغ ثلاث عشرة بوصة وأكثر، كان طويل القامة لدرجة تسمح له برؤية أى شىء عال دون أية معاناة. كان أسمر اللون ذا عينين واسعتين، بياض عينيه به عروق من الدم تُفزع منْ يراها؛ وكانت له لحية كثة وأنيقة، وكان له تأثير عظيم على منْ يراه، فإذا نظر إلى أحدٍ بغضب يُخيل إليه أن ناراً تخرج من عينيه، وكان سريع الحركة، وشجاعًا، ويكره الكذب، ويعامل خدمه معاملة جيدة، إذا كان هؤلاء الخدم يستحقون هذه المعاملة. كان لديه أسير لمدة عشرين عامًا، وكان يقدم له الطعام، عندما كان الماركيز يغضب كان يسب أهل الأسير، ولكن بعد أن يذهب عنه الغضب كان يأسف على ما بدر منه وما قاله، ويطلب العفو منه، قائلاً إنه لم يكن يعى ما يقول، لأن الغضب جعله يفقد

صوابه. وكان رجلاً عظيمًا يجيد ركوب الخيل، كان يستخدم اللجام دائمًا، وكان يبدو وهو على ظهر الجواد وكأنه صخرة راسخة، وعندما كان يقفز على ظهر الجواد كان يجعله يرتعش خوفًا ويتبول؛ كان يدرك جيداً كل طريقة لإيقاف الفرس، وكان يرتدى زيا خـاصا بالجبل من قماش من اللون الأخـضـر والبنفسـجي، وكان يرتدى أحـذية برقبة طويلة بيضـاء اللون ومفتوحة، تغلق فقط عن طـريق أربطة، وكـان عـظيم الإنفاق؛ فـقـد كـان لديه أربع مخازن للأغـذية ينفق عليهـا الكثير، واحـداً فـي بيليـث البـلانـكو (Vélez el Blanco)، وواحـداً فـى بيليث الروبـــيو (Vélez el Rubio)، وآخـر فى لاس كـويبـاس (Las Cuevas)، والأخـيـر فـى ألحـامـة (Alhama)، وكان حكيمًا وحصيفًا سواء فى موقف الجد أو الهزل، وكان من عادته الذهاب إلى القداس فى تمام الواحدة ظهرًا والسـاعة الثانية عشرة ليلاً، بمواظبة يصعب على الكهان تحملها، وكان يأكل مـرة واحدة فى اليوم وليس أكثر، وكـان طعامـه فـى تلك الوجبـة يكفى إطعام أربـعة من الرجال الأشداء. وكان لا يشرب فى أثناء تناوله الطعام سوى مرة واحدة، وكان يتناول طعامًا جيدًا، مـاءً ونبيذًا باعتدال، وكان ذلك دائمًا فى نهاية الوجبة. وكـان نشـاطه فى الليل. لذا فقد كان يذهب للنوم حين كان يستيقظ الآخرون، وكان يسير دائمًا مرتديًا عباءة تغطى ظهره فقط، حـاملاً سيفًا وخنجرًا، هكذا كانت هيئته فى المسـاء. أما فى الصبـاح فقد كان ينشـغل دائمًا بالتدريب على الرماية، سواء بالبندقية أو بالقوس على هدف حى، إذا كـان صيفًا، وكان يسير دائمًا دون قبعة، أما فى الشتاء، فقد كان يرتدى قبعة الجبال مخيطة بغرز واضحة، وكذلك كان ثوبه أيضًا . وكان مبـارزًا بارعًا، وكان يحرص على حمل قلم صغير دائمًا معه، وكـان منظره على الجواد جميلاً ومميزًا بحيث يُتعرف عليه من بين مائة رجل، وكان مظهره من الخلف يبدو أجمل من رؤيته من الأمام، وكذلك أيضًا كان مميزًا إذا سار على قدميه وفى صحبة غيره من الرجال. وكان عنقه ورأسه لهما مظهر جميل. ويبدو بين الرجال السيد الحكيم لشخصيته ومظهره الجاد وفروسية هيئته. فى إحدى المرات كان فى الميناء يتريض، وكان حوله العديد من الرجال بعضـهم يمتطى ظهور الخيل والبعض الآخر مترجل، فإذا بقائد السفينة يقفز على الأرض، ويصـل حيث يوجد الماركيـز، وينظر حـوله، ينظر الرجـال الواقـفـين على أقدامـهم والآخرين الذين يركبـون الخيل، وعلى الرغم من أنه كان يوجد رجال ذوو مظهر جميل وتبدو عليهم الجدية والحكمة، فإن القائد توجه إلى الماركيز قائلاً: "إنك قائد كل هؤلاء الرجال"؛ وقد تعجب الجميع من ذلك. وقد اشترك فى العديد من المعارك ضد الأتراك ونال منهم الكثير؛ ففى معـركة بورمـان (Porman) أصـاب بيديه أكثر من خمسين رجلاً؛ وكان دائمًا يجيـد الضـربة العكسـية؛ فـقـد كـان يحمل دائمًا القوس مـربوطًا حـول مـعصـمـه برباط سـميك من الحـرير

الأخضر، وكانت أسهمه دقيقة الصنع. فى إحدى المرات اشترك فى معركة ضد الأتراك فى قرطاجنة، حيث هاجمها أكثر من ألفى جندى، وقد أطلقت عليه طلقة نار فى ظهره، وكان الدرع الذى يرتديه محكمًا فلم تصل إليه الطلقة. وكان الرمح الذى يستخدمه ثقيلاً لدرجة أن خادمه كان يحمله على كتفه، بينما يوجهه الماركيز ببراعة وكأنه عصا رفيعة. وفى تلك المرة التى نتحدث عنها وهو فى قرطاجنة كان هناك مرتد[٤] قد تعرف عليه وهو يسير فى المعركة، وقال له فى وضوح، بحيث سمعه الجميع: "إن الماركيز هنا، لذا لن نستطيع أن نستولى على قرطاجنة"، وقد فاقت شهرة الماركيز الآفاق، حتى إنه فى القصر الملكى بالجزائر قد قاموا برسمه وهو مسلح برمح فى يديه وفى طرف الرمح رأس رجل تركى، وقد قاموا أيضًا فى القسطنطينية برسمه على الطريقة التى رسموه بها فى قرطاجنة فى إحدى صالات منزل نيكولاس غارى (Nicolás Garri)، وأخيرًا، فقد كان لديه الكثير من الكلاب ومن الطيور، وكان يهوى اقتناء الخيول، وعندما كان يذهب إلى الجبال كان ينتظر إذا كان الجو سيئًا، أو كانت السماء تمطر أو الجليد يسقط أو الرياح عنيفة حتى يحافظ على صحة رجاله مثل صحته تمامًا، وكان من عادته الاستعداد الجيد قبل الذهاب إلى الصيد.

ولكن لنترك هذا جانبًا كى نعود إلى ما كنا فيه من الحديث عن الحرب؛ فقد حكينا لكم كيف أن جيش فاخاردو الشجاع كان يتقدم، وراياته مرفوعة، وعندما وصل إلى نهر المنصورة، وكان فى المقدمة، كما قلنا، جيش لوركا، وقد استعدت للمعركة توتانا وألحامة وقرى أخرى كثيرة، وكان الماركيز ومعه كاركابا وثيخين ومولا فى مؤخرة الجيش، وعندما خرجوا من لوس بيليث، كان يحمل اللواء رجل، وابن غير شرعى للماركيز، حتى حمله فيما بعد أحد الفرسان المهمين وكان يُدعى بنابيديس (Venavides).

وقد وصل الماركيز بجيشه إلى أوريا (Oria)، وهو موقع خطير جدا وضيق، وقد عبر من هناك إلى أوليلا التابعة لبورتشينا، وبعد عبوره جبال فيلابريس وصل إلى تابيرناس (Tavernas)، وهى قرية على بُعْد أربعة فراسخ من ألمرية؛ وكان مسلمو هذه القرية ورجال الجبال بها قد أعلنوا العصيان، وعندما وصل الماركيز إلى هناك، لم يكن هناك مسلم واحد على قيد الحياة، فقد تم الاستيلاء على القرية وكانت شبه محترقة، فقد هدمت الكنيسة

(٤) يقصد هنا المسيحى الذى دخل فى الإسلام . (المراجع).

الموجودة بها واحترقت، وقد كان من الصعب رؤية كل هذا الدمار والتخريب. وهناك علم الماركيز بأن المسلمين قد ألحقوا الأذى بغيثيخا (Guecija)، وكيف أنهم قد أحرقوا هناك ديرًا تابعًا لرهبانية القديس أغسطين، وقد قتلوا جميع الرهبان الذين كانوا يقيمون فيه، وقد استبد الغضب بالماركيز، ورحل من تابيرناس وهو ينوى معاقبة المسلمين على ما قاموا به من شرور، وهكذا وصل تركى (Rerque)، وهى قرية قريبة من غيثيخا، وقد وجد هناك أعداداً غفيرة من المسلمين، الذين عندما علموا بقدوم الماركيز تراجعوا إلى غيثيخا كى يكونوا على مقربة من الجبال، وهناك قرروا أن ينتظروا الماركيز ويقوموا بمقاومته. وعندما علم الماركيز بأن المسلمين ينتظرون قدومه، تحرك نحو غيثيخا كى يدخل معهم فى معركة، وهكذا، أحكم نظام جيشه وواصل السير حتى وصل قريباً من المسلمين، الذين كانوا قد نظموا صفوفهم قدر الإمكان كى يقاوموه. ولكن، من المناسب، أن نترك هذا الحديث الآن حتى نعاوده فى حينه، كى نتحدث عن ماركيز مونديخار الذى تركناه وهو على وشك الحرب ضد المسلمين فى ألبانيولاس. ولكن سنذكر أولاً حتى لا نخالف أسلوبنا، قصيدة عن خروج الماركيز من لوس بيليث حتى وصوله نهرى المنصورة وألمرية :

" قصيدة تتحدث عن خروج ماركيز بيليث "

فى عجالة

كان السيد لويس الشهير

الذى يحمل أيضا لقب فاخاردو

يقرأ رسالة مفاجئة

تقول إن ماركيز لوس بيليث

الذى هو حاكم لمورثيا

جاء من مدينة ألمرية

بهذه الرسالة

التى بعثها إليه الأسقف

وقد خرج سريعًا فيما بعد

بكل أسلحته ومعه جنوده

وسار بجيش منظم

مستعداً ويقظًا

لأن مسلمى هذه الأسقفية

قد أعلنوا التمرد والحرب

وقاموا بأعمال خطيرة

فقد أحرقوا الكنائس

وحطموا تماثيل القديسين

ولأنه قائد عظيم

على الحدود مع

مملكة غرناطة المسلمة

خرج وكله حماس

وبشجاعة القائد

بحث عن حل لهذا الضرر

لم يكونوا قد قرءوا الرسالة بعد

عندما جاء البريد

وعلموا أن فيليبى العظيم قد أرسل

بأمر آخر جديد

بأن يخرج للقاء المسلمين

الذين أعلنوا العصيان

وقد قام الماركيز الشجاع

بكل ما عُرف عنه من حزم

باستدعاء القوم

من كل أنحاء مملكة مورثيا

وطلب منهم أن يستعدوا بكل أسلحتهم

وأن يأتوا إليه حيث ينتظرهم

فى مدينته بيليث

التى يطلقون عليها البلانكو

وقد تحركت كل المملكة

كى تنفذ هذا الأمر

وكلها رغبة فى الحرب

لذا فقد استعد الشعب كله

وقد خرج من كاراباكا

أكثر من أربعمائة جندى

وكان خوان دى ليون

قائداً لهم

أما القائد العام

فقد كان أندريس دى بورا

الذى تم اختياره

لهذا المنصب

لجدارته وشجاعته

فى معركة فلانديس

وقد خرج من ثيخين

مائتا جندى آخرون

وكان قائدهم كارينيو

وهو رجل حرب بارع

أما فرانثيسكو دى ميلغاريخو دى مولا

فقد خرج على رأس فصيلة قوية

من مدينة الماركيز

وهى أفضل مدن المملكة

وكانت تتكون من ثلاثمائة جندى

من أفضل الرجال وأشرفهم

ومن عائلات نبيلة

معروفة وشهيرة

وقد خرج من توتانا مائتا جندى

وهم جاهزون ومستعدون

وفي قمة تسلحهم

وكان قائدهم خوان دى مورا

قائد هذا الجيش العظيم

وقد خرج من ألحامة

مائة رجل ليسوا أقل استعداداً

وكان قائد هؤلاء الجنود

بدرو كايويلا

ومن مدينة مورثيا النبيلة

خرج جيش عظيم

من أشجع المحاربين

المسلحين والبارعين

وفي شجاعة عظيمة

عندما سطعت أشعة الشمس

خرج ثلاثة من القادة

والفرسان الماهرين :

أحدهم هو ألونسو غالتيرو

بقيمته ومميزاته الرائعة

والثاني هو نوفرى رويث

وهو جندى وفارس نبيل

والأخير هو السيد خوان باتشيكو

وهو فارس عظيم

ورجل له قيمته

وكان لديه على صدره

علامة حمراء أصابته بها

السحلية الشهيرة فى سانتياغو

وقد خرجت من لوركا فرقة عظيمة

من ألف رجل شجاع

مسلحين جيداً

وقد خرج على رأس هذا الجيش

ستة من أشجع القواد

أحدهم كان خوان كينيو نيرو

القريب الصلة بالماركيز

والثانى هو خوان ماتيو

المعروف بغيبارا

أما ثالثهم فكان ألونسو

ديل كاستيو

وخوان فيليثيس

فقد كان واحداً من هؤلاء القادة

وهو معروف ومشهور

وخامسهم كان إرنان بيريث دى توديلا

وهو فارس شهير

أما سادسهم فقد كان أدريان ليونيس

وكان يطلق عليه صاحب البِركة

لأنه كان مجاوراً لها

وقد خرج كل هؤلاء

مع قومهم وهم مستعدون

لتقديم خدماتهم للماركيز

الذى كان فى انتظارهم

وقد تجمع من مورثيا وغيرها

ثلاثة آلاف رجل

وكان معهم الماركيز الطيب

وكان قد خرج من بيليث البلانكو

ولكن وقت خروجهم

كانت مورثيا ولوركا قد اختلفتا

حول منْ يكون فى طليعة

هذا الجيش فى أثناء المعركة

وكان السيد خوان قد تحقق

لأنه قائد الجيش

بأن ذلك اليوم سوف

تجتمع رايتا مورثيا ولوركا

الشهيرتان كما سبق وحكيت

ولأنه كان يعلم ذلك

فقد خرج الجيش ولم يتوقف

حتى وصل النهر

الذى يعرف بنهر ألمرية

وقد عسكر الجند هناك

فقد كان فى غيثيخا

عدد كبير من المسلمين فى انتظارهم

كى يدخلوا معهم فى معركة

ضد الماركيز وجنوده

وقد جهز الماركيز قواته

واهتم كثيراً بنظامهم

كى يقضى على المسلمين

كما ستعرفون فيما بعد

"خاتمة"

الفصل الخامس

والذى نتحدث فيه عن مواجهة بين ماركيز مونديخار ومسلمى ألبونيولاس، وأحداث أخرى وقعت، وكيف استطاع المالح أن يقوم بهجوم عنيف ضد موريسكيى كانتوريا (Cantoria)، وكيف دافع المسلمون عن أنفسهم.

استمعتم فى الفصل الثالث الذى تركناه وراءنا أن ماركيز مونديخار ومعه جيشه المتزايد العظيم الذى يزينه قواد وجنود أندلوثيون، بخاصة من قرطبة وما حولها، وعلى رأسه قائد شجاع هو السيد دييغو دى أرغوتى(Diego de Argote)، وهو فارس ذو أصل عريق ونبيل، إذ كان هناك تحت راية القيصر الرومانى قائد شجاع يُدعى أرغوتى، وهو أحد أسلاف السيد دييغو أرغوتى الذى أشرنا إليه، ومع هذا القائد كان لدى الماركيز قائد آخر متميز، يُدعى السيد لويس بونثى دى ليون، وهو ينتمى إلى عائلة دوق أركوس (Arcos)، والذى تمتد أصوله حتى ليون الفرنسية، طبقًا لروايات فرنسية، ولروايات أخرى إسبانية أيضًا. نرجح أن هؤلاء الرجال ينحدرون من إتور الطروادى (Etor el Troyano)، والذى كان دائمًا يصارع أسدًا بالسلاح. كان الأسد أحمر اللون بينما السلاح مصنوع من الفضة، وهذا بالضبط ما يضعه هؤلاء الفرسان كشعار لعائلاتهم. وقد اشتُق اسم فرانكونيا (Franconia) من فرانثيون (Francíón)، وكان ابنا لأتور فرانكونيا (Etor Franconia)، والذى كان يُدعى دوق فاراموندو. وكان ابنا لماركوميرو (Marco Miro) أحد أمراء ألمانيا. وعندما فقد الغاليون ملكهم اختاروا فاراموندو ملكا لهم، لنبل أصوله وعراقته. ولأن فاراموندو أصبح يحمل لقب دوق فرانكونيا أُطلِق على الغاليين اسم فرانكوس (Francos) وأصبحوا الآن يُطلَق عليهم الفرنسيين. وكان ليون ملك فرنسا لديه أسد يستخدمه للدفاع، كما قلنا، وذلك إعلاءً لذكرى المؤسس أو المؤسسين لفرنسا وهو فاراموندو أو بعض أحفاده. وكان أسلاف هؤلاء الرجال المنتمين لبونثيس ملوكًا لليونان وسادة عائلة بياغارثيا (Villagarcía)، وكانت القضبان الدموية الموجودة فى شعاره المُذَهب نتيجة ضربات رمح، وكان قد أهداها له لعظمته وجدارته ملك أراغون نفسه، وقد مسح بيده على الشعار المذهب وقال له: "هذا سيكون سلاحك، وقد حصلت عليه بكل

شرف"، وقد ترك على الشعار المذهب آثار دماء من أصابعه الأربعة، ولهذا كان هؤلاء الفرسان يحملون الشعار وهو مقسم إلى قسمين: فى أحد جوانبه الشعار القديم للأسد المستسلم، وفى الآخر، فى الجزء المذهب، رايات أراغون الحمراء، وهو شعار عريق جدا. وقد استخدم الفرنسيون الأسود كشعار لهم أزمانا طويلة، ثم استخدموا بعدها الضفادع البرية الخمس، ثم الخمس زهرات المعروفة بالزنابق، وهى تأتى من السماء، ومنْ يريد أن يعرف أكثر عن دوق فرانكونيا يمكنه قراءة "دوق الإمارة " *(Duque del infantado)*، ونهاية "تاريخ طروادة" *(Crónica Troyana)*، وهناك سيجد أشياء ذكرناها هنا.

ولنترك هذا جانباً، لأنه ليس له علاقة بحكايتنا. قلنا إن الماركيز وصل إلى ألبانيويلاس ثم أمر بإعلان منشور بألا يلحق أحد أذى بالموريسكيين أو قراهم، ومنْ يقوم بذلك سيتعرض لعقاب شديد، وقد أمر بذلك بنية الخير وليس الشر، ولكن موريسكيى ألبانيويلاس وغيرها من القرى رأوا أن تحت شعار السلام قد نالهم أذى عظيم من المسيحيين، كما قلنا سابقًا، لذا قرروا أن يدافعوا عن أنفسهم، وهكذا عندما وصل الماركيز وجيشه إلى ألبانيويلاس، هجم المسلمون بشجاعة على المسيحيين، وأوقعوا بهم أضراراً عظيمة. وعندما رأى المسيحيون مقاومة المسلمين، وهو أمر كانوا يتمنونه، لم ينتظروا أوامر الماركيز بل سارعوا بالهجوم بشجاعة على المسلمين. وقد قَتَلَ خيرونثيو، وهو قائد مسلم شجاع، أكثر من ثلاثين جنديا من جنود الماركيز، ولهذا قام المسيحيون يملؤهم الغضب وهم يهتفون باسم القديس سانتياغو، بإيقاع الأذى الشديد فى صفوف المسلمين. وكان خيرونثيو لا يطلق رصاصة واحدة دون قتل أحد الرجال، فقد كان راميًا ماهرًا بخاصة بالبندقية، وكان يستخدمها زمنًا طويلاً حين كان قناصًا لدى الماركيز، ولو كان كل الموريسكيين مثل خيرونثيو هذا وكان لديهم نفس سلاحه، ما بقى فى جيش الماركيز رجل حى. وقد قام ساريه (Zarrea) الشجاع فى هذه المعركة بأعاجيب ضد المسيحيين، وعندما رأى المسلمون أن هذين القائدين يحاربان بكل هذه الشجاعة، حاربوا هم أيضًا باستبسال شديد: بعضهم ببنادق قديمة، وآخرون بأقواس من الفولاذ والخشب، بعضهم بسيوف مشقوقة، وآخرون كانوا يلقون بالحجارة بكل عنف وقسوة بحيث تؤذى منْ تصل إليه أذىً شديداً، وكان البعض الآخر يلقى بالحراب الحادة المزعجة، وآخرون كانوا يلقون بالصخور الكبيرة الضخمة، ولم يكن الرجال المسلمون فقط هم الذين يقومون بهذه الأعمال الدفاعية الشديدة؛ بل أيضًا كانت النساء المسلمات يلقين بكمية كبيرة من الأحجار ملحقين الأذى بصفوف المسيحيين. وقد قام المسيحيون بإطلاق النار على كثيرين من المسلمين وقتلهم.

كان هناك جانب يهتف "لسانتياغو"، وجانب آخر يهتف "محمد، محمد"، و"الحرية، الحرية". وهكذا دارت المعركة، بحيث إنه لو كان المسلمون مسلحين تسليحًا جيدًا لكان خطر عظيم أحاط بالماركيز وجيشه، ولكن لأن المسيحيين كانوا مسلحين جيدًا وراغبين فى هذه المعركة؛ فقد دخلوا الحرب دون انتظار أوامر قوادهم، ملبين نداء سانتياغو. وعندما رأى المسلمون كل هؤلاء الناس المسلحين المنتمين لسانتياغو لم يجرءوا على مواصلة غضبهم الدامى، وهكذا انسحبوا من ميدان المعركة، وآثروا الهروب والرجوع إلى غواخاراس (Guajarras)، حيث كانت قرى قوية ومنيعة، وتركوا ألبانيويلاس حيث كان المسيحيون قد توقفوا عن القتال تاركين الفرصة أمام المسلمين للهروب. وقد قاموا حينئذٍ باغتصاب البلدة، دون رغبة من الماركيز، وأخذوا الكثير من النساء والأطفال الموريسكيين، وتركوا القرية بعد أن حلَّ عليها خراب شامل. على الرغم من أنهم فى الحقيقة احترامًا للماركيز لم يقوموا بأضرار جسيمة كان يمكنهم القيام بها. وقد تراجع المسلمون، كما سبق وقلت، إلى لاس غواخاراس، وعندما عبروا جسر تابليتى (Tablete) القديم قاموا بتحطيمه حتى لا يتمكن المسيحيون من عبوره. بينما انتظر الماركيز فى ألبانيويلاس رسالة سلام من قبل المسلمين، ولكن لم يحضر أحد منهم؛ بل إنهم ضاعفوا عدد قواتهم فى لاس غواخاراس وأعادوا بناءها. وعندما علم الماركيز بهذا تحرك بقواته إلى لاس غواخاراس، ولكن عندما وصل إلى جسر تابليتى وجده محطمًا ومهدمًا وقد أحزنه كثيرًا إعاقته عن السير، وهكذا توقف الجيش، وأمر الماركيز بإصلاح الجسر، حيث لم يكن هناك طريق للسير سوى التعرض للجبال ووعورتها وحيث تنتشر مجارى السيول التى يصعب عبورها.

ولنترك الماركيز هنا ومعه جيشه حيث أعطى الأمر بالسير، ولنواصل الآن الحديث عن الملك الصغير، الذى كان محاطًا برجال حرب على قدر من الشجاعة.

عندما علم الملك الصغير أن ماركيز مونديخار قد وصل إلى ألبانيويلاس ومعه جيشه وقد واجه أتباعه فى معركة، وأن أتباعه قد تراجعوا إلى غواخاراس، وعندما علم بقوة غواخاراس، بعث إلى سارية، قائد الجيش الذى كان لا يزال محافظًا على قوته، بعث إليه بمائة تركى ومعهم أكثر من ألف رجل من رجال الجبال، وذلك لزيادة قوة الجيش الذى يرأسه، وكان هؤلاء الرجال مسلحين جيدًا، وقد فعل هذا، عندما علم أن ماركيز لوس بيليث قد خرج من أرضه وصل إلى تيركى (Terque) ولديه رغبة فى الدخول فى معركة ضد قاطنى نهر ألمرية، فى الحال بعث إلى القائد "المالح" والذى كان قد توجه فى صحبة ألف جندى إلى كانتوريا واستولى عليها

وأجبر الموريسكيين القاطنين فيها على الثورة بالقوة، وقد فعل نفس الشيء مع موريسكيي أوريا (Oria) وبوكس (Box) وبارتالوبا (Partaloba) وكل القرى التابعة للماركيز. فيما بعد توجه المالح الشجاع عائدًا إلى كانتوريا، وقد أخذ معه من بورتشينا أناسًا كثيرة مسلحة كي يقوى من كانتوريا ويجعلها تعلن الثورة بالقوة، وعندما وصل، لم يرغب فى البداية فى المواجهة، بل توجه إليهم بالكلمات الطيبة كى يشجعهم على التمرد. وعندما علم أهل كانتوريا بمجىء الماركيز، قاموا بإغلاق أبواب المدينة، مؤكدين على نيتهم بالحفاظ على ولائهم وإخلاصهم للملك وللماركيز. وقد وصل المالح ومعه خمسة عشر جنديا إلى سور المدينة، بالقرب من بابها، حاملاً فى إحدى يديه رمحًا وفى الأخرى راية بيضاء كإشارة للسلام. وقد وضع اثنان من قواد كانتوريا، الذين قد تم اختيارهم لشجاعتهما، وضعا صدريهما فوق السور وفى أيديهما راية بيضاء، وقد وجها إلى المالح سؤالاً، وكانا يعرفانه جيدًا، سألاه عما يبحث وماذا يريد من كانتوريا. وقد تحدث إليهما المالح، الذى كان يعرفهما جيدًا، فأحدهما يُدعى ابن عياش (Avenayx) والآخر الموثابان (Almoçavan)، وهما رجلان على قدر من الشجاعة والعقل، تحدث إليهما قائلا:

"حديث القائد "المالح" إلى القائد ابن عياش قائد كانتوريا"

"أيها القائد الشجاع ابن عياش، إنك قوى وتنتمى إلى عائلة عريقة، وأنت يا الموثابان، يا قريب "محمد"، حيث تنحدر من نسل فاطمة ابنته: أنصتا جيدًا لما أقوله لكما، لأن به سوف تصلان إلى مجد عظيم وإلى حرية وطنكما. تعلمان جيدًا، أيها الفارسان أن الأسباب الرئيسية لحرب مملكة غرناطة وأهلها كانت تعود فى المقام الأول إلى المسيحيين لما أحدثوه من شرور وما قاموا به من أذى دائم لنا وإساءة بالغة، حتى إنهم قد جعلونا ندفع ألفين من الجزية، ندفعها من دمائنا، وإذا لم يوافق أحدنا على الدفع عاقبوه أشد العقاب، وهم فى منتهى الخطورة إذا تواجدوا فى مملكتنا وفي بيوتنا، فقد حرمونا من خيولنا، وهم يريدون أن نكون عبيدهم، وكذلك أيضًا حَرموا علينا ارتداء أزيائنا الخاصة واستخدام لغتنا، وهو أمر غير عادل ولا نستطيع تحمله؛ وهكذا أراد الله أن يخلصنا من كل ذلك، بعد أن تعرضت مملكة غرناطة لإهانة شديدة وقاسية من قبل الجانب المسيحى الظالم المتوحش، كى نأخذ أسلحتنا وندافع عن أنفسنا وندافع عن حقنا العادل. وقد جاء إلينا من الجزائر الغوث والنجدة وأكثر من ذلك أراد الله أن يعيد إسبانيا إلى شريعتنا، وهكذا استعدت المملكة كلها بالسلاح يملؤها أمل حقيقى،

وسيستخدم هذا السلاح فى القرى التابعة لفاخاردو، رغم شعور أهلها بالخجل من سيدهم. ولهذا أرسلنى الملك الآن إلى هذه المدينة كى أقول لكم إن عليكم أن تطيعوا أوامره، وأن تعينوا قواته وهكذا تكونون من رعاياه الصالحين فتنعموا برضاه وهو يعدكم بتقديم عطاياه الجزيلة، كما ينبغى أن يفعل مع القرى التى سوف تتبعه، وإذا رفضتم ذلك يعدكم بعقاب شديد وبنار حامية تحطم أسوار مدينتكم، وتقضى عليكم. ولهذا أتيت إليكم، وإنه ليسعدنى، يا ابن عياش الشجاع، بأن تلبوا أوامر الملك، فهو يعدكم بصداقته وعطاياه برجاء متواضع".

هذا ما قاله القائد مالح للقائدين الشجاعين وهما على أسوار كانتوريا، وقد انتظر الإجابة فى صمت. وقد كان ابن عياش منتبهًا لكل ما قاله مالح، ومعجبًا بحديثه، ولكن لأنه رجل فاضل، وكان عازمًا على الإخلاص والولاء للملك فيليبى ولسيده الماركين، وكان يفضل الموت على خيانتهما، فقد أجاب المالح قائلاً:

"رد القائد ابن عياش على المالح"

"كنتُ مصغيًا لكل ما قلته يا مالح، ومعجبًا بكل ما قمت به أنت ومنْ معك فى الحروب الظالمة التى تعرضتم لها، وكيف أنكم قد تحركتم لسبب صعب وشاق، ولكن دون أساس من الصحة. هل اعتقدتم أن ملك قشتالة وإسبانيا، الذى رفعتم رايات العصيان الهزيلة ضده ليس لديه قوة ؟هل تعتقدون أنه، على الرغم من حضور الأتراك، كما تقول، بكل قوتهم، تستطيعون التغلب على الملك وعلى أتباعه الإسبان؟ [1] ألا تعتبرون أنه، من سوء طالعكم، أن الملك فيليبى، ملك إسبانيا تخضع له أهم بلاد العالم، وأن بلاد الهند على بُعدها وعلى جهل الناس بها، لم يصعب عليه السيطرة عليها؟ ألا تعلمون أن إيطاليا كلها تقبع تحت قدميه، وأنه حتى داخل إفريقيا الحصينة وبحر ليبيا لديه قوات وقلاع منيعة، على الرغم من وجود الأتراك وكل البلاد الإسلامية؟ إذا كان هذا هو الحال، فكيف تعتقد أنت والملك الصغير الذى أرسلك بأنكم يمكنكم التغلب على قوة عظيمة مثل قوة فيليبى وأنتم ليس لديكم ما تحتمون به سوى الجبال التى يكسوها الجليد والكهوف المظلمة ؟ سوف تكتوون بالنار، وسوف تهلكون. إنكم تحاربون من أجل الحرية وأنتم تعيشون فى أسر كبير: سوف تضيعون بين الجبال، وسوف يهلك أبناؤكم

---

(١) هذا معناه أن الموريسكى ابن عياش لا يرى نفسه إسبانيا، طبقا لرواية بيريث دى إيتا. (المراجع).

ونساؤكم من الجوع والبرد فى الجبال، وإذا وقعوا فى أيدى الأتراك فسوف تُنتهك أعراضهم، سوف تعانون من كل ذلك لأنهم لن يتركوكم، وفى النهاية سوف تلقون أنتم وهم حتفكم بطريقة مزرية، فالبعض سيموت، بينما يقع البعض الآخر فى الأسر، وسوف تفقدون أموالكم. الحق إننى أتألم من أجل الأطفال الصغار، الذين سوف يعيشون دون أمهاتهم، وأتألم من أجل الأمهات، اللاتى سيفقدن أبناءهن وأزواجهن، وأتألم من أجلكم، لأنكم ستفقدون أبناءكم ونساءكم، وسوف تتشتتون وتنفون فى أراضٍ غريبة عليكم. كم من الدموع سوف تُذرف من أجل أهالى غرناطة ! سوف تقول الأمهات: آه يا أولادى!، وسوف يقول الأبناء: آه يا أماه!، وسوف يقول الأخوات: آه على إخوانى!، وسوف يقول الإخوان: آه على إخوتى! وكم من المرات سوف تعودون تتنهدون وتقولون: آه، يا ربى، آه على أرضى! وكم ستشتاقون إلى بيوتكم، وأموالكم وإلى المياه العذبة الباردة، وإلى الفواكه الكثيرة واللآلئ والثروات العظيمة! كم ستشتاقون لحفلاتكم وأفراحكم كما تعودتم! وأكثر شىء يؤلمنى هو أنكم قد تركتم دين المسيح، وأنكم قد قمتم ألف مرة بتدنيس القديسين بأيديكم، وسرقتم دون وجه حق ملابس الكنائس وزيناتها، والأدوات التى بها، وهى مصنوعة من الفضة والذهب والحرير، وحطمتم الأجراس. كل هذا سيكون جزءًا من العقاب الشديد الذى سينزله بكم الله، بأيدى المسيحيين الذين بعثهم إليكم لانتهاككم حُرماته. اذهب يا مالح، وقل للملك (المسلم) ألا يكون لديه أمل فى هذه الأراضى؛ قل له ما قلته لك، وإنه من الأفضل أن تطلبوا العفو من الملك، وألا تواصلوا الحرب دون فائدة، وإذا لم ترغب في الرحيل، فافعل ما تريد، إذا كنت ترغب فى معركة، سوف نحاربك هنا، وإذا كنت لا تريد الحرب ففى يدك القرار: اختر ما تريد، فسوف تجدنا مستعدين له".

هذا هو ما أجاب به القائد ابن عياش على القائد مالح، الذى – عندما استمع لهذه الإجابة التى استمعتم إليها– تراجع إلى الخلف ونزع الراية البيضاء من الرمح، وقال: "الآن سوف ترى، يا قائد كانتوريا، ما أنوى أن أفعله، فإن حسابًا عسيرًا ينتظرنى لدى الملك إذا لم أقم بما أمرنى به". وعندما قال ذلك توجه إلى جماعته، وبعدما قام بتنظيمها، أمر بالهجوم على كانتوريا من ثلاث جهات، وهذا ما قام به جيشه بكل شجاعة، تدمير كانتوريا وكأن العالم على وشك الدمار من فرط الضوضاء. كان جيش المالح مسلحًا جيدًا، وكانت المدينة تدافع عن نفسها ببسالة. وقد تحولت المعركة بعد ذلك إلى حرب دموية حيث وقع الكثير من الجرحى من الجانبين، ولكن من جانب المالح كانت أعداد الجرحى أكثر، لأن أهل كانتوريا كانوا يحتمون

بالسور وشرفاته ويلقون برماحهم. وقد تساقطت أحجار كثيرة على المالح، بشكل عجيب. هكذا كانت المعركة بحيث كانت تُسمع ضوضاؤها فى بورتشينا وكل القرى الواقعة حول النهر. وقد أراد المسيحيون فى قوات أوريا أن يخرجوا لنجدة كانتوريا، بعد ما علموا بما يحدث، ولكنهم لم يقوموا بهذا الغوث خوفًا من أن يثور مسلمو أوريا عندما يعلمون بذلك، وأيضًا حتى لا يتركوا أوريا دون حراسة ومعرضة لخطر ضياعها. وقد تراجع المالح ثلاث مرات ومعه جيشه، ومرات أخرى كان يعاود الهجوم أملاً فى تحقيق هدفه، ولكن محاولاته باءت بالفشل، فكلما هاجم وجد مقاومة شديدة من أهل كانتوريا، وقد اقترب أكثر فى هجومه من باب المدينة الرئيسى، لأنه لو استطاع الفوز به لأصبح الأمر سهلاً، ولهذا كانت هناك مقاومة شديدة ودفاع مستميت عن هذا المكان: فقد كان هناك مسيحيون قدامى كثيرو العدد، وكانوا جيرانًا للموريسكيين فى القرية، وقد قام هؤلاء بالدفاع بشجاعة عن هذه المنطقة بحيث واجه المسلمون مقاومة شديدة فى هذا المكان؛ وكان وسط هؤلاء المسيحيين القدامى أحد الرجال النبلاء يُدعى فيرناندو دى ألمودوبار (Fernando de Almodóvar)، وكان رجلاً شجاعا. وكان ألمودوبار هذا سليل عائلة ألمودوبار القاطنة فى مورثيا، وقريبا لها، وعلى الرغم من أنه قد تزوج هو وأبوه وجده من عائلات مسيحية جديدة، لم يفقدوا نبل ألقابهم[٢] ولم يتخلوا عن استخدام السلاح، الذى لم يتركوه قط لأنهم، كما قلت، كانوا مسيحيين قدامى ومعروفين بذلك. وقد قام ألمودوبار هذا وأحد عشر مسيحيا آخر بمعجزات فى تلك المعركة ضد قوات المالح، وسوف نتحدث عن فيرناندو دى ألمودوبار فى مناسبة طيبة كهذه، وسوف يكون خيراً أن نذكر المسيحيين القدامى الآخرين الذين كانوا معه، فلم يكونوا أقل شجاعة منه فى دفاعهم عن مدينة كانتوريا، وهكذا سوف نضعهم فى القائمة هنا وهم: المستفيد[٣] غوميث (Gómez)، والمستفيد خوان مائيسو (Juan Maeso) واثنان من أبناء إخوته، وهم فرانثيسكو سانشيث (Francisco Sánchez)، وبارتولومى غارثيا (Bartolomé García)، وفرانثيسكو لوثانو (Francisco Luzano)، وبدرو دى توروسا (Pedro de Torosa) ابن قائد أوريا، وفرانثيسكو دى كايثيدو (Francisco de Cayce do) ولويس دى كارديناس (Luys de Cárdenas) وبدرو دى بالكيبينادا (Pedro de Valquevenada)

(٢) كان الموريسكى مواطنًا من الدرجة الثانية، وكان مجرد الزواج من موريسكية يهبط بصاحبه إلى درجة اجتماعية أقل. (المراجع).

(٣) "المستفيد" هو شخص كان يتقاضى من الكنيسة نظير قيامه بأعمال معينة. (المراجع).

من قــرطاجنة، وبدرو مــارتينيث (Pedro Martînez) من قــارطـاجنة أيضـا، وفـيــرناندو دى ألمودوبار، الذى، كما قلنا، من مورثيا. وقد كانوا جميعًا أربعة عشر مسيحيا، من الرجال الشجعان، وهذا هو ما أكدوه ذلك اليوم. الحق أن أهل كانتوريا لم يكونوا مسلحين بالدرجة التى كان عليها رجال المالح، ولكن على الرغم من هذا فقد قاوموا المالح بالحجارة وبعض الأسلحة الأخرى، وعندما رأى المالح أن محاولته بلا جدوى أمر بتراجع رايات الحرب ورفع راية السلام، وقد تقدم هو نفسه نحو السور وطلب منهم أن يسلموه بعض السيدات الموريسكيات اللاتى بعث بهن ماركيز بيليث، وأنه سوف يرحل فيما بعد دون الاستمرار فى الحرب. ولأن أهل كانتوريا كانت الحاجة تعصرهم ورغبة منهم فى الهروب من الهزيمة، فهم يدركون تمامًا أنه إذا استمر المالح فى مكانه خارج المدينة أيامًا كثيرة فسوف يقع بهم ضرر عظيم، لذا، فقد فكروا فى تسليم السيدات الموريسكيات اللاتى طلبهن المالح. وكانت هؤلاء السيدات المسلمات قد بعث بهن ماركيز بيليث فعندما وصل إلى تيركى، وقبل الدخول فى معركة غيثيخا، كان العديد من الجنود قد أغاروا دون انتظار الأوامر على بعض القرى ونهبوها وقد أخذوا معهم هؤلاء النسوة، وقد أمر الماركيز بإرسال هؤلاء السيدات إلى كانتوريا حتى يكنّ فى مأمن. وهكذا أخذ المالح السيدات المسلمات، وانسحب وقواته فى نفس تلك الليلة. آنذاك، عندما رأت قوات أوريا إشارات الدخان التى كان يرسلها أهل كانتوريا طالبين الإغاثة، لم يكونوا يعرفون ماذا عليهم أن يفعلوا حيال هذا، أيخرجون لإغاثتهم ويتركوا أوريا دون قوة، وكان هذا يفزعهم كثيرًا، وكان سببًا فى توقفهم وعدم خروجهم، على الرغم من رغبتهم فى نجدة أصدقائهم المحاصرين فى كانتوريا. وهم على هذا الحال من التردد، قام السيد لويس فاخاردو، وهو ابن غير شرعى لماركيز بيليث، على الرغم من حداثة سنه حيث كان يبلغ اثنتى عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة، قام بتشجيعهم على الذهاب، وهكذا، تركوا من ورائهم قوة معقولة، وخرج معه عدد من الجنود ومعهم عدد كبير من الموريسكيين الموجودين فى القرية، كانوا جميعًا شبابًا ومسلحين بأقصى درجات الاستعداد، وقد خرجوا ليلاً ولم يتوقفوا حتى وصلوا إلى مدينة كانتوريا عند الفجر، وهم يعتقدون أنهم سيقابلوا هناك عدوهم، ولكنهم وجدوه قد انسحب. وقد دخلوا ذلك اليوم كانتوريا وهم يتعجبون من المقاومة الشديدة لهذه المدينة، فقد شاهدوا القتلى من قوات المالح، التى كانت كثيرة العدد، وعندما رأى أهل أوريا أن المالح قد رحل، ارتابوا فى ذهابه إلى أوريا وتحريض أهلها على الثورة، لذا عادوا فى نفس تلك الليلة إلى أوريا. وعندما رأى المالح المقاومة الشديدة التى دافعت بها كانتوريا عن نفسها، استبد به الغضب وهاجم قرى عديدة تابعة للماركيز. وقد أعلنت هذه القرى عصيانها وهى

مجبرة، وكانت تلك القرى هي كارتالوبا (Cartalova)، البوكس (El Box)، وألبورياس (Alboreas)، وألبانشيث (Alvanchez)، وخومويتين (Jumuytín) وبنيتاغلا (Venitagla) وقرى أخرى قريبة من النهر. وعندما علم القائد المسلم أن أهل أوريا قد خرجوا لنجدة كانتوريا غضب أشد الغضب منهم، وهكذا هجم ومعه عشرة آلاف رجل مسلحين جيداً على هذه المدينة وحاصرها عدة أيام، وقطع عنها الماء، وذلك بمحاصرته لعين ماء كانت قريبة منها. وقد بعث أهل أوريا فيما بعد إلى لوركا طالبين الغوث وأخبروا هذه القرية بأمر وقوعهم تحت الحصار، وقد أرسلت لوركا إليهم بالعون، وقد وصلتهم أيضاً نجدة من غيسكار (Guescar) . وعندما علم المالح بأمر النجدة، فيما بعد، ثار وذهب إلى بورتشينا، التي كانت حصنا له. وقد دبر أهالي أوريا أمرهم من خلال بعض القطع الحربية التي وجدوها في الحصن والتي ساعدتهم على إيقاع أذى شديد في صفوف المالح وجيشه. وعندما وصل المالح إلى بورتشينا، أرسل إلى الملك الصغير يخبره بكل ما حدث. وقد أرسل إليه الملك الصغير بأن يعيد تنظيم رجاله ويضم إليه آخرين، وأن يعيد الهجوم على كانتوريا وألا يرفع عنها الحصار حتى يستولي عليها. وعندما علم أهل كانتوريا بذلك، طلبوا العون من بيليث البلانكو ومن لوركا ومن بيرا. ولكن لوركا كانت خالية من السكان لخروجهم جميعاً إلى الحرب، ولم تستطع أن تشارك في هذا الغوث. وقد علم أهل بيرا، من جانبهم، بأن الملك الصغير يريد الهجوم عليها لذا لم يجرءوا على إرسال مدد إلى كانتوريا. أما أهل بيليث فلم يكن هناك من يذهب منهم إلى النجدة، وهكذا اتفقوا مع مسيحيي كانتوريا بأن يتركوا أراضيهم ويرحلوا إلى أراضٍ مسيحية، تاركين موريسكيي أوريا في يد القدر في انتظار ما سيحدث لهم. وهكذا لم يتأخر المالح كثيراً في الخروج إلى كانتوريا ومعه عشرة آلاف رجل. وعندما رأى أهل كانتوريا القوة الكبيرة التي أحضرها، وعندما رأوا أن المدد المسيحي لم يصل قرروا الاستسلام، وهكذا سقطت قوات أوريا أمام المسلمين، وقد أحزن ذلك ماركيز بيليث كثيراً وكل القرى القريبة من المسيحيين، بخاصة وقد علموا بمدى الضرر الذي يمكن أن يأتي إليهم من هناك؛ وعندما استولى المالح على كانتوريا، كتبت هذه القصيدة:

" قصيدة حول استيلاء المالح على كانتوريا "

خرج المالح الشجاع

من بورتشينا

حاملاً ثلاث رايات مختلفة

وكان معه جيش كبير

كانت إحدى الرايات حمراء

والثانية صفراء

والثالثة زرقاء وبيضاء

وقد رسم فيها قلعة حصينة

عاد إلى كانتوريا

كما أمره الملك الصغير

وقد أطاع المالح

أوامر مليكه وقائده

وهو يعلم تماماً

أن كانتوريا سوف تقاوم

وقد عزم على الاستيلاء عليها

عندما وصل إليها

لقد أراد أن تستسلم له كانتوريا

ولكنه لم يستطع أن يفعل

لأن أيكس الشجاع

لم يرد أن يسلم له المكان

وقد غضب المالح غضباً شديداً

عندما رأى أن غايته مستحيلة

فأمر بمحاربتها

بكل غضب وشدة،

وهاجمها من ثلاث جهات

بكل شجاعة وبسالة،

ولكن أهل كانتوريا دافعوا عنها

بكل قوة وبسالة

وقتلوا الكثير من قوات المالح

وجرحوا كثيرين آخرين

وبدا له أن ينسحب

حتى لا يلقى حتفه هناك

هجم ثلاث مرات

ولكنهم قاوموه

وتراجع المالح

بكل الألم والأسى

وطلب أن يسلموه بعض السيدات

اللاتى أحضرهن الماركيز

وقد رفع الحصار عنهم

بعد أن قاسوا منه كثيراً

وأعطى أهل كانتوريا

النساء إليه حتى لا يصيبهم الأذى

ورحل المالح فيما بعد

وهو غاضب أشد الغضب

لأنه لم يحقق هدفه

الذى من أجله جاء

وقد خرج المسيحيون

من كانتوريا وهم خائفون

وطلب الباقون الغوث

الذى لم يصل إليهم قط

وعاد المالح إلى أوريا

ولكن هذا لم يكن من ورائه طائل

فقد جاء إليها

من لوركا مدد عظيم

وانسحب المالح

وأرسل إلى الملك الصغير

يخبره بما حدث فى كانتوريا

وأنه لم يستطع القيام سوى بالقليل

وأمره الملك الصغير

بأن يعود إلى كانتوريا

بجيش أعظم

وقد قام بما وعد

ولم يمر وقت طويل

إلا وكانت كانتوريا

قد وقعت تحت حصار المالح من جديد

وكانت لديه قوة عظيمة

ولم تستطع كانتوريا المقاومة

فالمدد لم يصل إليها

"خاتمة"

الفصل السادس

الذى يتحدث عن مواجهة بين ماركيز بيليث ومسلمى غيثيخا وما حدث فيما بعد.

ذكرنا كيف أن فاخاردو الشجاع ماركيز بيليث سار مع جيشه حتى وصل إلى نهر ألمرية فى موقع يُعرف بسانتا كروث (Santa Cruz)، وهو قريب من قرية غيثيخا، وهى بلدة ثرية غنية بكل شىء.

توقف الماركيز عند سانتا كروث لمدة يوم وليلة كى يعرف فقط ماذا حدث فى هذه المناطق. فى ذلك الوقت قام بعض الجنود، يدفعهم الطمع، بالبحث عن بعض القرى وسرقتها وأسروا بعض السيدات المسلمات دون إذن من الماركيز، ولكنهم لم يستطيعوا إخفاء ذلك عن الماركيز، الذى علم بما فعلوه فأخذ منهم المسلمات وكل ما استولوا عليه جراء السرقة، وقد أرسل السيدات المسلمات إلى كانتوريا حتى يكنَّ فى مأمن هناك، كما سبق وقلنا.

وعندما علم الماركيز أنه يوجد فى غيثيخا أكثر من عشرة آلاف مسلم ينتظرونهم، أمر بأن يتحرك جيشه نحو غيثيخا. كان المسلمون يعسكرون فى المناطق العالية، وعندما رأوا أن المسيحيين بدءوا فى الصعود صاحوا بصوت عظيم وبدءوا فى الهجوم عليهم، وكان جنود المقدمة يحملون راية لوركا، وقد أبلوا بلاءً حسنًا فى تلك المعركة فى قتالهم ضد المسلمين. ولم يكن المسلمون قلة كما أنهم لم يكن لديهم سلاح بسيط، وقد قاوموا صعود المسيحيين لتلك المناطق المليئة بأشجار الزيتون مقاومة باسلة. من ناحيتهم، واصل جنود لوركا الصعود بكل شجاعة ولم يتمكن الجنود المتطين الجياد من الصعود لأن المسلمين قطعوا عليهم كل الطرق، وقد تمكنوا من الصعود إلى القرية على مراحل، بعد أن كدسوا فروع أشجار الزيتون والأشجار الأخرى وصعدوا عليها ولولا ذلك لكان لزامًا عليهم اجتياز ساقية كبيرة تمد كل هذه الحقول بالماء، بحيث إن الخيول وكذلك المترجلين كانوا يتقدمون بصعوبة ورغمًا عنهم. ولأن المسلمين كانوا عالمين بالطرق؛ فقد كانوا يتحركون بكل خفة ونشاط، ملقين بكميات كبيرة من الحجارة بالمقاليع، ويطلقون سهامهم وطلقات بنادقهم العتيقة بشكل عنيف، على الرغم من قلة

هذه الأسلحة، كان المسلمون يتحركون فى كل مكان بحيث أبدوا مقاومة شديدة. وعندما رأى الماركيز ما يحدث أمر بأن يخرج جنود كاراكابا وثيخين للاشتراك فى المعركة. وقد تحرك هؤلاء الجنود سريعًا تنفيذًا لأوامر قائدهم العام، وهم يطلقون النار محدثين ضجيجًا عنيفًا. ولكن المسلمين كان عددهم أكثر من عشرة آلاف رجل يرغبون فى القتال، وقد قاوموا مقاومة شديدة، وكأن الشيطان كان يساعدهم، فعلى الرغم من إطلاق النار عليهم بكثافة لم يسقط منهم قتلى. وهكذا كان المسيحيون يتقدمون شيئًا فشيئًا، وكان المسلمون يتراجعون وهم يقاتلون باستبسال. وكان دخان البارود يتصاعد بكثافة لدرجة كان يصعب معها تمييز الجانب المسيحى من المسلم، خاصة فى تلك الحقول. وعندما رأى الماركيز أن المعركة أصبحت غير واضحة، وأن الصعود قد تأخر كثيرًا، وأن الملك الصغير لن يحضر إلا ومعه أكثر من خمسة عشر ألف من رجاله؛ طلب من القديس سانتياغو العون، وطلب جنود كل من لوركا وتوتانا وألحامة وغيرها من القرى العون من سانتياغو، وبدءوا فى صعود حقول الزيتون، وهم يهتفون له، وأخذ كل جندى طريقه متجاوزين الخنادق التى أعدها المسلمون بحيث استطاعت الجياد الصعود. وعندما رأى المسلمون أن جيش الماركيز يهتف لسانتياغو، تراجعوا إلى القرية وهم يحاربون بشجاعة، ولكن جنود لوركا تحركوا سريعًا بحيث لم يتركوا لهم وقتًا للتوقف والمقاومة. وهكذا رأى المسلمون أنهم لن يستطيعوا حماية القرية أو النساء، فتوجهوا نحو الجبال التى كانت على مقربة منهم. وفى ذلك الوقت وصل جنود كاراكابا بكل استعدادهم وقوتهم وبدأ المسلمون الهروب. وقد طاردهم الفرسان على الخيول فقتلوا منهم الكثير وأصابوا الكثير بجراح، وعندما وصل المسلمون إلى أعالى الجبال لم يستطع الفرسان اللحاق بهم، وعادت المشاة تلاحقهم وتقتل وتجرح الكثيرين منهم، ومن فوق الجبال حارب المسلمون كالأسود بكل بسالة. وقد استمرت هذه المعركة حتى دخول المساء، حتى أمر الماركيز بعودة الفرسان وقوات المشاة، وحمل المحاربون راياتهم ثم قام الجنود بنهب القرية، على الرغم من أن الماركيز قد منع هذا. وقد استولوا هناك على أعداد كبيرة من النساء والأطفال وأشياء أخرى كثيرة، حتى إن السيد خوان فاخاردو، وهو أخو الماركيز قد امتلأت يداه مما استولى عليه الجنود عندما أراد أن يأخذ منهم غنائمهم. وكنا قد قلنا إنه سرعان ما اقتسم الرجال المحاربون النساء فيما بينهم. ولكن الماركيز لم يرض بذلك لأنه أمر فيما بعد بجمع كل السيدات الموريسكيات وكذلك الصبية وأمر بنقلهم ومعهم قوة إلى بيليث وإلى مدينة مولا (Mula) وإلى كانتوريا حفظًا لهم دون أن يعطى أيًا منهن لرجال جيشه، مما أغضب الرجال فأقسموا على ألا يتركوا أى مسلم حيا من الآن فصاعدًا، سواء كان طفلاً أو امرأة، وقد قاموا

بتنفيذ هذا، كما سنقول فيما بعد. وقد تألم المسلمون كثيراً لعدم استطاعتهم الدفاع عن غيثيخا ولتراجعهم إلى الجبال، فأمروا بالتجمع فى فيليكس التى كانت قريبة من البحر، حيث تجمع هناك أناس كثيرون من أربع أو خمس قرى، وكان بينهم أعداد كبيرة من النساء المسلمات والأطفال والرجال المسلمين، وقد قرروا جميعًا انتظار الماركيز والدخول فى معركة ضده، ولكن كيف يحارب هؤلاء المساكين وليس لديهم سلاح؟ والماركيز لديه جيش من ستة آلاف محارب جميعهم مسلحون جيداً، ويجيدون التصويب، وكل يوم ينضم إليه أعداد أخرى! فى ذلك الوقت، علم السيد غارثيا (García)، وكان قائدا عاما لألمرية، بأن ماركيز بيليث دخل فى معركة ضد مسلمي غيثيخا وأنه استولى عليها سريعًا، فقرر أن يذهب إلى فيليكس ليحارب المسلمين المجتمعين فيها، وهكذا ترك قوة حراسة فى ألمرية، وخرج منها ومعه خمسمائة رجل مسلحون جيداً، وبعض الفرسان على خيولهم، وكان بصحبته قائد يُدعى بياررويل((Villaroel)، وهو رجل شجاع ومحارب عظيم. ولكنهم عندما وصلوا إلى فيليكس أصدروا أوامرهم بالدخول فى معركة ضد المسلمين، ولأن المسلمين لم يكن لديهم شىء فقد خرجوا للقائهم حيث بدأ الاشتباك الشديد، ولكن السيد غارثيا اعترف بأن المسلمين كثيرون، وأنه لن يستطيع أن يظفر من ورائهم بشىء، لذا فقد أمر بالانسحاب، وهكذا ترك المسلمين ورحل من فيليكس فى نظام عائداً إلى غيثيخا كي يقابل الماركيز ويخبره عن المسلمين المتجمعين فى فيليكس. أما هؤلاء المسلمون المتجمعون فى فيليكس عندما رأوا أن أهل ألمرية قد انسحبوا وعادوا إلى غيثيخا، لم يرغبوا فى اللحاق بهم، خشية وجود كمائن، وهكذا بقوا فى أماكنهم منتظرين وصول جيش الماركيز، الذى كان مرابطًا فى غيثيخا، والذى كان ينضم إليه كل يوم أعداد غفيرة من المحاربين المسلحين. وقد انتظر الماركيز هناك أيامًا كثيرة أوامر صاحب الجلالة؛ وفى أثناء ذلك، كان رجال جيشه يقومون بالإغارة على القرى الواقعة على النهر؛ وكان هذا أمر لا يرضى عنه الماركيز. وهكذا أصدر أمراً بألا يخرج أى جندى من المعسكر وإلا تعرض لعقوبة الموت، ولكن استمر الكثيرون فى الخروج للإغارة على القرى ولم يعودوا مرة أخرى لأن المسلمين كانوا يقتلونهم، وهناك كثيرون كانوا يحملون ما حصلوا عليه من غنائم ويرحلون إلى لوركا، على الرغم من خطورة المرور فى أراضى الأعداء. وعندما علم الماركيز بذلك، أصدر تعليماته إلى شرطة لوركا ومورثيا وأخبرهم بما يحدث وأمرهم بعقاب أى متسلل من الجيش كائنًا منْ كان وإعادته إلى الجيش، وهكذا اهتمت الشرطة بهذا الأمر، وهكذا خاف الكثيرون من تركهم الجيش واستقروا بين صفوفه. وكان عدد الجيش حينئذٍ ثمانية آلاف جندى. آنذاك قام القائد الأسود فرج ومعه مائة من رجال الجبل بأعمال خطيرة فى لوركا، فقد قتلوا أناسًا كثيرة

وأسروا الكثير فى الحقول والطرق، وبعد أن استولى المالح على كانتوريا، توغل بثقة فى أراضى المسيحيين، وألحق بها أذى عظيماً، لدرجة أن اسمه قد أصبح مثيراً للخوف من هول ما قام به من أعمال، حتى إنه لم يكن هناك من باستطاعته الرحيل من بيرا إلى لوركا دون حراسة، وكان هذا الطريق لا غنى لأهل بيرا عنه، وكذلك أهالى القرى المجاورة، وقد أقام فرج هذا حصنًا فى كورخينا (Curgena)، أسفل كانتوريا، وقريباً من النهر ومن الكهوف، وكان هذا القائد الأسود معروفًا بشجاعته وجرأته، وقد اتخذ حصنًا هناك حتى يكون قريباً من الأراضى المسيحية حتى يستطيع أن يهاجمها قدر استطاعته، وهكذا فى يوم ما توغل بكل جرأة فى حقول لوركا من الجزء الذى يقع فيه مجرى السيل المعروف بنوغالتى (Nogalte)، وحيث توجد المنطقة التى يطلق عليها إسباراغال (Esparragal)، وهناك أرهب بعض الرعاة واستولى على مواشيهم، وقد قام هذا المسلم الأسود بهجومه هذا الساعة التاسعة مساء فتوجه راعٍ صغير من أبناء لوركا سريعًا ووصل إلى قريته فى ساعة ونصف ساعة، حيث جرى نحو ثلاثة فراسخ، وفى تمام الحادية عشرة كان أهالى لوركا قد تجمعوا وبلغوا نحو ثلاثين رجلاً على الخيول وستين مترجلين وكلهم مسلحون جيداً، وقد رحلوا فيما بقى من الليل. وعند انبلاج الفجر كانوا قد عثروا على المسلمين ومعهم الغنائم، ولم يتوقفوا عن الجرى، وقد وصلوا إليهم عند أشجار الزيتون الموجودة فى أوبيرا (Overa)، وهناك، استطاعوا بطلقات الرصاص والرماح الاستيلاء على الغنائم. وقد أسرع المسلمون بالهرب ولم يتوقفوا حتى وصلوا كورخينا التى بها معقلهم. ولم يجرؤ أهالى لوركا على تتبعهم حتى الدخول فى أراضى الأعداء، حتى لا يعرضوا حياتهم للخطر. فى ذلك اليوم قتل أهالى لوركا اثنين من الرعاة المسيحيين وهم يعتقدون أنهما مسلمان: كان أحدهما يُدعى خوان ديل بوثو (Juan del Pozo)، أما الآخر فلا أتذكر اسمه. وقد اشترك فى هذا الهجوم مارتين دى ليون ريخيدور (Martín de León Regidor)، ولويس بونثى دى غيبارا (Luys Ponçe de Guevara)، ومارتين دى لوريتا (Martín de Lorita)، وأدريان ليونيس دى غيبارا (Adrián Leones de Guevara) وفرسان نبلاء غيرهم كثيرون من لوركا. ولم يحدث على الإطلاق مواجهة بمثل هذا النشاط وذلك التأثير مثل تلك الحادثة التى ذكرناها.

وقد غضب القائد الأسود فرج غضباً شديداً لاستيلاء أهالى لوركا على الغنائم وللدرس القاسى الذى لقنوه لرجاله، ولذا عاد وجمع رجاله، وبجرأة شيطانية خرج من كورخينا، حيث معقله واجتاز حقول غيركال، ورحل إلى ميناء لوركا حيث كانت هناك أحواض مليئة بمحصول

القمح والشعير، مكومة فى انتظار درسها وقد أشعل هذا الشرير الدنىء النار فى كل ذلك. وقد احترق بعض الرجال الذين كانوا نائمين وسط أكوام القمح والشعير. ومن هناك رحل القائد الأسود فرج ومعه رجاله خلال مجرى للسيل يُعرف بغواثامارا (Guazamara)، ووصل إلى نبع يُسمى بولبى (Pulpi)، وهناك مكث ينتظر أن يعبر المسافرون الطريق ما بين لوركا وبيرا، ولم يمر وقت طويل إلا ومرت من هناك كوكبة من الحراس أتت من بيرا وقرى أخرى مسلمة بهدف الاستيلاء على الأشياء التى تركها الآخرون، وكان أعضاء هذه الفرقة يسيرون فى غفلة لا يتوقعون أى خطر حيث كانوا يعلمون أن مسلمى البشرات مشغولون بالحرب، وهكذا كانوا يسيرون واضعين أسلحتهم مع أمتعتهم، وعندما وصلوا إلى نبع بولبى خرج إليهم الشرير فرج وأخذ هو ورجاله يقتلون المسيحيين بكل قوة. وقد أراد المسيحيون أن يأخذوا أسلحتهم ليدافعوا عن أنفسهم ويهاجموا أعداءهم، إلا أن الأعداء لم يعطوا لهم هذه الفرصة، فقد هجموا عليهم بحيث قتلوا الكثيرين منهم، وترك الكثيرون متاعهم وآثروا الهروب، فتوجه بعضهم إلى بيرا، والبعض الآخر عاد إلى لوركا؛ وهناك قتل المسلمون أحد الرهبان التابعين لرهبانية "سيدة العطايا" وكان يُدعى خوان ترويل (Juan Tiruel)، الذى بكى عليه الكثيرون فى لوركا حيث كان من أبنائها. وكان هذا الراهب قد جاء من بيرا لشراء بعض الأشياء للدير الذى يقيم فيه، من زبيب وتين ولوز، حيث كان جنود بيرا يبيعون تلك الأشياء، التى كانوا يعثرون عليها فى قرى المسلمين، فقد كان هناك رجال يستولون على كل شىء حتى على القطط، وأشياء أخرى من هذا القبيل، وذلك حتى لا يضيعوا على أنفسهم فرصة السلب والنهب. ولن أقول هنا منْ الذين كانوا يفعلون ذلك؛ فقد قام الجميع بالسرقة، وكنت أنا أولهم. وهكذا تسبب هذا الطمع فى موت الكثير من المسيحيين كما سنقول فيما بعد. وبعد أن قام القائد الأسود بعمليته الخطيرة هذه عاد إلى مجرى السيل الذى يُعرف بغواثاخارا بكل سرعة، وذلك لأنه علم بمجىء بعض الفرسان على خيولهم، وكان يعتقد أنهم كثيرون، ولولا مجىء هؤلاء الفرسان، لحمل القائد الأسود كل الأمتعة الخاصة بالقوة السابقة. أما الفرسان فكانوا سبعة رجال من بيرا، كانوا قد وصلوا، وعندما رأوا الحادثة حيث الرجال القتلى والراهب المسكين، تراجعوا وأخذوا يصيحون حتى يعود الهاربون من أعضاء الفرقة المسلحة، الذين عندما رأوا الخيول تشجعوا، وتجمع نحو ثلاثين رجلاً، وقاموا بتجميع الأمتعة وذهبوا إلى لوركا، ليخبروا الناس بما حدث، ومن لوركا خرج فيما بعد أناس كثيرون كى يحضروا جثث القتلى، وهكذا أحضروا الراهب تيرويل، الذى بكت عليه لوركا كلها، كما سبق وقلنا. هذا هو ما قام به القائد الأسود فرج، وهو ليس محل مدح، فقد لقى حتفه فى نفس ذلك المكان ومعه ستون من أتباعه،

كما سنقول لاحقًا، حيث قتله أهل بيرا ولوركا. ومن المناسب هنا أن نعود لماركيز مونديخار، الذى تركناه عند جسر تابليتى المهدم هو وجيشه، والذى حكيناه فى هذا الفصل، كتبت عنه القصيدة التالية:

"قصيدة حول المعركة التى واجه فيها ماركيز بيليث مسلمى غيثيخا، وما فعله القائد فرج"

بين الأشجار الخضراء

وحقل الذهب المطبوع

نشر راياته

ونظم قواته

فقد أراد أن يحارب

مسلمى غيثيخا

وكان أهالى لوركا

النبلاء فى مقدمة الجيش

فى معركة ثيخين

كان معه أهل كاراباكا

فى المؤخرة كان القائد القوى

ومعه أهل ألحامة وتوتانا

والكثير من الفرسان

الشجعان المميزين

فالجيش قوى وأمين

مع هذه المؤخرة القوية

لأن الماركيز كان يخشى

وجود كمين للمسلمين

وقد صدح النفير

ومعه النايات والطبول

وقد أخذ أهالى لوركا فى الصعود

إلى مرتفع مليء بالناس

وسط أشجار الزيتون الكبيرة

حيث كان ينتظرهم آلاف الجنود

وكان هناك الكثير من الخنادق

المحفورة فى الأرض

والمغطاة بفروع الشجر

قام بتجهيزها المسلمون

كى تقيهم شر الفرسان

حتى لا يستطيعوا إيذاءهم

وأيضًا ليعوقوا مرور الجيش

ملئوا الحقول بالماء

ولكن الجيش كان شجاعًا

وسرعان ما بدأت المعركة

الشديدة والعنيفة

بين القوات المسلمة والمسيحيين

دافع المسلمون عن أنفسهم

ببسالة غير متوقعة

ولكن أهل لوركا

استطاعوا الدخول إليهم

ليس لجرأتهم وجسارتهم

بل للمقاومة الشديدة للمسلمين

الذين دافعوا عن مدينتهم

وعندما رأى الماركيز ذلك

فى الوقت المناسب أمر

بخروج قوات من ثيخين

وهم مستعدون للقتال

وأيضًا قوات كاراكابا

وقد بدأ الهجوم مرة أخرى

وصعد المسلمون إلى أعلى

حيث غيثيخا

لكى يدافعوا عن قريتهم

بكل بسالة

وقد أمر الماركيز

بأن تخرج مؤخرة الجيش

وأن تهتف بسانتياغو

وأن يهاجموا بكل قوة

وقد خرجت المؤخرة

وعلى رأسها الماركيز

وذهب المسيحيون جميعًا

وقد تعددت راياتهم

وآثر المسلمون

الانسحاب من الميدان

وأن يعودوا نحو الأرض

التى تُسمى غادور

وقد لحق بهم الفرسان

بكل الغضب والشجاعة

وعندما وصلوا إلى المسلمين

أعملوا فى كثير منهم السيوف

ولكنهم لجئوا إلى الجبال

ولم تستطيع الخيول الوصول إليهم

ولكن وصل إليهم المشاة

دون عراقيل

وهكذا حلَّ المساء

فقد غابت الشمس

وآثروا العودة

كما أمرهم الماركيز

وفى الوقت المحدد قرعت الطبول

كإشارة للعودة

التى يحترمها كل جندى

وعادوا إلى ألويتهم

التى كانت معسكرة

وقد نهبت القرية

على أيدى جماعة من العسكر

حملوا أثاث الموريسكيين .

وملابسهم المصنوعة من الحرير

وحملوا الكثير من الذهب واللآلئ

الصغيرة والكبيرة

وخاف الماركيز على المسلمات

ولم يسمح لأحد بأن يأخذ منهن واحدة

وقد غضب الجيش كله

لأن الماركيز لم يوزع

عليهم النساء والمتاع
كما كان مألوفًا
وأقسم كل الجنود
بالصليب المرسوم على سيوفهم
بألا يتركوا أحدا حيا
فى أى معركة قادمة
وقد قام فرج القوى
وهو القائد الأسود الشهير
بجرأة غير عادية
بالتوغل مرتين
فى حقول لوركا
وقد ذاعت شهرته لذلك
وسوف نعود إلى تابلاتى
حيث ينتظر كونت تينديبا
"خاتمة "

الفصل السابع

الذى يتحدث عن معركة خطيرة بين ماركيز مونديخار والمسلمين فى لاس غواخاراس، ووفاة السيد الشجاع لويس بونثى دى ليون.

حكينا فى الفصول السابقة كيف أن ماركيز مونديخار قد خرج ومعه جيشه الشجاع لملاحقة المسلمين حتى وصل إلى جسر تابلاتى Tablate، والذى وجده قد تهدم، بفعل المسلمين حتى لا يتمكن المسيحيون من اللحاق بهم. وكان عبور تابلاتى أمرا ضروريا للوصول إلى البشرات فقد تم بناؤه فى أضيق مكان تمر فيه السيول حيث يصل عمق الأرض فيه إلى مسافة مرعبة، وحتى لا يتم الدوران حول أجزاء كبيرة من الأراضى، أقام سكان البشرات هذا الجسر. عندما رأى الماركيز أن العبور أصبح مستحيلاً، أمر بإصلاح الجسر بكل سرعة وعلى الفور حضر أناس من الجيش وقاموا بإصلاح جزء من الجسر حتى يتمكنوا من العبور ولو بمشقة كبيرة، وعندما أرادوا العبور لم يستطيعوا، لأن الملك الصغير قد وصل ومعه أكثر من ستة آلاف رجل فى كامل استعدادهم، وبينهم الأتراك الذين جاءوا من الجزائر، وبكل اندفاع هبطوا إلى أعمق أجزاء الجسر وبشجاعة عظيمة اشتبكوا مع المسيحيين كى يمنعوهم من المرور من هذا المضيق وهو نقطة العبور الوحيدة بحيث إنه حتى يستطيع المسيحيون العبور منه والمسلمون الدفاع عنه دارت بينهم معركة طاحنة. وبهذه الطريقة وقع من الجانبين المسيحى والمسلم أعداد كبيرة من الجنود قتلى. وقد تعالى الصخب ما بين أصوات النفير وأصداء القتال (التى وصلت إلى أعالى الجبال بطريقة تعبر عن شدة القتال) الدائر فى تلك المنطقة. وقد أعد آنذاك ماركيز مونديخار صدرية قوية كان يرتديها، خشية أن تصل إليه رصاصة تُنهى حياته، ولم يمض وقت طويل إلا وانطلقت رصاصة تجاه الماركيز بحيث إنه لولا هذه الصدرية لأنهت الرصاصة حياة الماركيز. وبدا وكأن الوحى الإلهى قد ألهمه ارتداء هذا الدرع القوى. وكان الملك الصغير يتقدم بشجاعة، وكان يقول لأتباعه: "هيا، يا أسود إسبانيا، فهكذا أنتم، حاربوا بكل بسالة كرجال، واعلموا أن الجانب المسيحى ضعيف وواهن وليس معتاداً على الحرب، ولا يعرف ماذا يعنى الحر أو البرد، ولا اتخاذ السلاح أو استعماله! لذا لا تهتموا بهم، دافعوا جيداً، فلن يمضى

وقت طويل إلا ونكون قد استعدنا غرناطة، بل وكل أندلوثيا". عند سماعهم هذه الكلمات حارب المسلمون بكل حماس وكأنهم أسود ودافعوا بضراوة عن هذا المعبرَ الضيق الموجود عند الجسر. أما الماركيز، فمن جانبه، لم يكن يسير وهو ضعيف الهمة، بل كان ينتقل من جانب إلى آخر وهو يشجع قواته، قائلاً لهم إنهم لا بد أن يتذكروا أمجاد جدودهم، الذين استطاعوا في مرات سابقة غزو البشرات بكل شجاعة وإنهم لا يقلون قيمة أو شجاعة عن أسلافهم، لذا لا بد أن يعبروا هذا الجسر، لأنهم لو عبروه لظفروا بالبشرات كلها. وقد أثارت كلمات الماركيز حماس القادة الشجعان، الذين جازفوا بحياتهم من أجل عبور الجسر، وهكذا قام السيد لويس بونثى دى ليون والسيد خوان بيارويل ومعهم أربعة من قادة قرطبة وهم: دييغو دى أرغوتى (Diego de Argote)، والسيد بدرو أثيبيدو (Pedro Acevedo) والسيد كوسمى دى أرمينتا (Cosme de Armenta)، والسيد فرانثيسكو سيمانكاس (Francisco Semancas)، ومعهم قادة آخرون، قاموا جميعًا بالاندفاع نحو الجسر مخاطرين بحياتهم وبالسقوط من الجسر إلى هذه الهوة السحيقة وباحتمال إصابتهم بطلقات نارية، ولكنهم كانوا على ثقة بالرب وبأمه المباركة وبقيمة حماسهم لذا اندفعوا نحو الجسر، ومعهم الكثيرون واستطاعوا اجتيازه بقوة السلاح، وقد أراد الرب ألا يُصابوا بأية طلقة نارية. وهناك كانت فى انتظارهم الغنيمة الكبرى: فالمسلمون كانوا يحاولون ألا يعبر الجسر عدد كبير من المسيحيين؛ بينما تكاتف المسيحيون رغبة فى العبور بحيث لا يتم استخدام الأسلحة النارية بل استعمال السيوف والرماح والسيوف القصيرة. واستطاع المسيحيون بشجاعتهم العبور، على الرغم من الجنود المسلمين الذين اخترقتهم أعداد غفيرة من المسيحيين. وعندما رأى سيد البالور هذا أعطى إشارته بانسحاب القوات الموريسكية التى انسحبت نحو الجبال وهم لا يزالون يحاربون بشراسة. ولأنه فى ذلك الوقت كانت الليالى مظلمة، أمر الماركيز بأن يعسكر جيشه فى نفس المكان وأعلن عقوبة الموت لمنْ يخالف أوامره. وقد نصح البعض الماركيز بالخروج من هذه الأعماق على الرغم من ظلام الليل لأن تواجد الجيش بها يمكن أن يعرضه لخطر داهم، لأن المسلمين يستطيعون إلحاق الأذى بهم، وهكذا على الرغم من الليل، أمر الماركيز بتحرك الجيش نحو قرية تُعرف بدوركال (Durcal)، كى يستطيع أن يعسكر هناك حتى اليوم التالى؛ وعندما وصلوا إلى دوركال وجدوا أن فرقة عظيمة من المسلمين قد دخلت القرية. وهكذا، تدافع عدد كبير من المسيحيين إلى هذه القرية رغبة منهم فى القضاء على هؤلاء المسلمين الأوغاد وبدءوا فى محاربتهم، وحضرت أعداد غفيرة من المسيحيين واشتبكوا مع المسلمين فى معركة. ولأن الوقت كان ليلاً، فقد حدث وتقاتل مسيحيون مع مسيحيين دون أن يلحظوا ذلك. وقد أمر

الماركيز ومعه القادة بألا يتقدم أحد أكثر من ذلك، خشية أن يحدث ما لا تُحمد عقباه. ولكن لم يكن هناك حل لهذه الاشتباكات، ذلك أنه عندما بدأ المسيحيون يتعارفون فيما بينهم ويرتفع هتافهم: "إسبانيا، إسبانيا، سانتياغو، سانتياغو"، كان قد وقع منهم أربعمائة قتيل ضحية المسلمين ولإخوانهم المسيحيين. أما المسلمون فقد سقط منهم أكثر من خمسمائة موريسكى، ولكن لم يكن موتاهم يحملون أسلحة لأن زملاءهم كانوا يجردونهم منها بعد قتلهم. وقد غضب الماركيز أشد الغضب لهذا الحادث وأمر بمتابعة العدو، وعندما أراد تنفيذ هذا الأمر، وجد أن كثيراً من جنود جيشه قد خرجوا، فتوعدهم بإنزال أشد العقوبة بهم، وقد وصف الجنود الباقين بالجبناء لأنهم تركوا أسلحتهم وذهبوا إلى أراضيهم، وقال إنه هو وحده يكفى للدخول فى أية حرب. وقد استمع الجنود لهذه الكلمات بهدوء وعادوا إلى ألويتهم. بعد ذلك تحرك الجيش للبحث عن ابن أمية، الذى ذهب إلى لانخارون (Lanjarón)، وهو فى قمة الألم لأن المسيحيين عبروا جسر تابلاتى بقوة أسلحتهم. وهناك أعاد تكوين قواته بحيث انضم إليه أناس من ألمونييكار (Almuñecar) ومن كاريليس دى أثيتونو (Carriles de Azeytuno)، وقد أمر الملك الصغير القائدين الشجاعين، سارية وخيرونثيو، بأن يحميا بلدة غواخاراس ويدافعا عنها ومعهما عشرة آلاف جندى وأن يتخذوا منها معقلا وينتظروا جيش المسيحيين، ويحاربونهم بضراوة، وقد أطاع سارية وخيرونثيو أمر الملك، ووضعا فى لاس غواخاراس جيشاً مسلحاً، باستطاعته أن يدافع بكل حماسة عن هذا المعقل الذى لم يستول عليه الماركيز. وعندما علم الماركيز بهذا التجمع المسلم فى لاس غواخاراس، أمر جيشه بالتوجه إلى هذا الحصن، وعندما كان الجيش على وشك الوصول، أراد الماركيز أن يؤجل المعركة ليوم آخر، ولكن عند وصول الجيش بدأت معركة طاحنة وشاقة، لأن الأرض هناك زراعية ولم يكن من الممكن التقدم دون مشقة، وهكذا بدأ المسيحيون صعود هذا المرتفع، وعندما رأى المسلمون ذلك فى وقت معين بدءوا فى تحريك بعض الصخور الضخمة وكأنها صخور طاحونة، وبهذه الطريقة أخذت هذه الصخور فى التدحرج إلى أسفل وكأنها تجذب العالم خلفها من هول الضجيج الذى تحدثه فى هذه السهول وتلك الجبال، محدثة أذى كبيراً فى صفوف المسيحيين، فقد كانت كل صخرة تحطم فى طريقها ما لا يقل عن مائتى مسيحى، وكان من الصعب رؤية هذه القسوة المميتة التى لم يوضع لها حل، وغير ذلك كانت تنهمر على الجانب المسيحى الطلقات والسهام وأيضاً الأحجار التى كانت تقذف بها المقالع، التى ألحقت أذى عظيماً بالمسيحيين ليس أقل من تأثير الصخور المتدحرجة. وقد صعد كل من القائد لويس بونثى دى ليون ومعه السيد خوان دى بيارويل، وكان جنديا شجاعا، والسيد فرانثيسكو دى سيمانكاس،

بحماس شديد هذا المرتفع كي يرفعوا من معنويات جنودهم. وعندما رأى المسلمون أن هؤلاء القادة استطاعوا الصعود واقتربوا من الأسوار، قاموا بتحريك كمية ضخمة من الصخور في اتجاه الطريق الذى سلكه القادة مع جنودهم، ولأن هذه الصخور كانت ضخمة، وقد تحركت بسرعة، ولم يستطع الجنود الصاعدون إبعادها لأن المرتفع كان جافا، وكان من الصعب الصعود والتقدم عليه، قتلت الصخور أعداداً ضخمة من الجنود المسيحيين. وقد اندفعت إحدى هذه الصخور بشدة على يمين السيد لويس بونثى دى ليون، الذى - على الرغم من رؤيته إياها وهى قادمة - لم يستطع أن يبتعد عن طريقها نظراً لسرعتها فى الهبوط، وهكذا تمزق جسد هذا القائد الشجاع إلى مائتى جزء أخذتها الصخرة فى طريقها للهبوط. وقد حدث نفس الشيء مع السيد خوان دى بياروبل والسيد فرانثيسكو دى سيمانكا، وكان شابا شجاعا. ولم يكتف المسلمون بهذه الصخور؛ بل دافعوا عن أنفسهم أيضاً بأسلحة أخرى. وقد كان حماس المسيحيين عظيماً، فعلى الرغم من ضراوة دفاع المسلمين استطاعوا الوصول إلى أعلى هذه الصخور التى كانت تلتصق بأسوار المدينة. وقد قام بهذا العمل أربعة من القادة الغرناطيين، الذين ذكرنا أسماءهم آنفًا، لجئوا إلى بعض الصخور التى تشبه الكهوف واحتموا بها بحيث لا ينالهم أذى. وهكذا حلَّ الليل المظلم والمطير، الذى لم ينقصه ماء أو جليد، وهكذا توقف القتال ذلك اليوم، وكل الناس يعانون من الطقس السيئ. فى تلك الليلة العاصفة فكر المسلمون فى اتباع نصيحة عجوز مسلم منهم يُدعى علاء الدين (Haladino) بأن يحملوا كل ثرواتهم ويخرجوا بها بحيث لو وقعت المدينة تحت حصار المسيحيين لا يستولى المسيحيون على هذه الثروات. وكانت هناك عدة آراء حول هذا، ولكن القائد سارية قال لهم إن هذه فكرة جيدة، وقاموا بتنفيذها. وفى تلك الليلة بكى العديد من النساء والأطفال ولكن دون أن يشعر بهم المسيحيون فى الخارج. وقد خرج بعض الفتيان المسلمين يحملون الأموال خارج غواخاراس، وقد تعلقوا ببعض الصخور للنزول إلى سفح الجبل، وبدءوا فى السير نحو أنداراكس، ولكن لم يستطيعوا التخفى إذ شعر بهم المسيحيون الذين، على الرغم من الليلة المظلمة المطيرة، أحاطوا بهم من كل جانب وقتلوا منهم الكثيرين بينما هرب منهم الكثيرون أيضاً. وعندما عاد المسيحيون إلى جيشهم، كانوا يعتقدون أن العدو قد جاء للإغارة عليهم. وعندما حلَّ الصباح، كان لدى القادة القرطبيين الأربعة، الذين بقوا بالقرب من الأسوار، عدد كبير من الجنود، التابعين لهم وغيرهم ممنْ ينتمون إلى ألوية أخرى. بعد ذلك بدأ الهجوم الضارى كاليوم السابق: ولكن المسيحيين بعون من الرب وبحماسهم الشديد استطاعوا دخول القرية تحت وطأة النيران والدماء، ولم يتركوا أحدا حيا. وهنا أصيب الفارس خيرونيمو دى باديا

(Gerónymo de Padilla)، بجراح خطيرة، وهو أحد الجنود البواسل. وقد هرب القائدان سارية وخيرونثيو ومعهما بعض الجنود، تاركين بقية الناس تلقى حتفها على يد المسيحيين. وهنا كان شيئًا يدعو للشفقة سماع صرخات النساء البسطاء والأطفال الأبرياء؛ فقد عملت السيوف فى أجساد الأطفال. وعندما شعر الماركيز بالبكاء ونواح المتألمين من الأطفال والنساء، وعندما سمع أصوات الأسلحة تحركت مشاعره بالشفقة جراء هذه القسوة فأمر بتوقف عمليات النهب وما أحدثته من أضرار، وهذا ما تم فيما بعد، ولكن بعد أن تم أسر الكثير من الموريسكيات ونهب الكثير من الثروات على الرغم من أن أفضل هذه الثروات قد حملها المسلمون الذين خرجوا من لاس غواخاراس. ويحق علينا الآن أن نتحدث عن ماركيز بيليث، الذى ينتظرنا فى غيثيخا، فقد حكينا عن المعركة الشرسة فى غواخاراس التى من أجلها ألفت هذه القصيدة:

" قصيدة

حول المعركة التى دارت بين ماركيز مونديخار ومسلمى لاس غواخاراس "

رحل ماركيز مونديخار الشجاع

من ألبانيويلاس

بحثًا عن العدو

ووصل إلى جسر تابلاتى

وكان الجسر مهدمًا

بحيث لا يمكن عبوره

فقد حطمه المسلمون

تحريضًا من إله الحرب

وكان الماركيز الطيب يسعى إليهم

بكل غضب وشجاعة

وعندما وصل هناك

أمر بإصلاح الجسر

كى يعبر عليه الجيش

وكان على الجانب الآخر من الهاوية

يقف الملك الصغير وأتباعه

فقد جاء ليعطل عبورهم

وكانت الهاوية سحيقة

ولم يستطيعوا إصلاح

هذا الجسر العتيق

الذى بنوه بمهارة وفن

ولكن أتباع الماركيز

استطاعوا إصلاح جزء من الجسر

على الرغم من ضيقه وتهدمه

كى يستطيع الجيش العبور

ولأن المسلمين كانوا يعرقلون هذا العبور

لم يجرؤ أحد

على اجتياز ذلك الجسر

خوفًا من السقوط

وهناك دارت المعركة

لأن كل طرف كان يريد

أن يظهر شجاعته

فى تلك الواقعة

وأن يتصرف بمهارة

وقد تراجع المسلم فى النهاية

تاركًا نقطة العبور مفتوحة

على الرغم من تفوقه

فى استخدام السلاح

ومهارته فى القتال

وقد ذهب المسلمون إلى بالور

فى محاولة للانتقام

وقد استعدت لاس غواخاراس

بمسلمى هذا المكان

من بينهم القائد سارية

الشجاع وكأنه إله حرب

ومعه خيرونثييو

الجدير بكل احترام

فهو قناص شجاع

يجيد استخدام البندقية

وقد أطلق النار على الماركيز

وهو على جسر تابلاتى

ولولا الدرع السميك

الذى كان يرتديه

لمات على الفور

وقد استبد الغضب بالماركيز

ولم يرغب فى التأخر

فسار نحو غواخاراس

وراياته مرفوعة

وهناك دارت معركة

لم يسبق لإله الحرب الاشتراك فى مثلها

وهناك مات الكثيرون من الجانبين

بين الدفاع والهجوم

وهناك قتل السيد لويس

الذى كان يُطلق عليه بونثى

وأيضًا السيد خوان دى بيارويل

الجدير بكل احترام

لأنه واحد من الشجعان

الموجودين هناك

وأخيراً استولى الماركيز

على غواخاراس

وأشعل فيها الجنود

ناراً حامية وأسالوا فيها الدماء

"خاتمة"

الفصل الثامن

الذى يتحدث عن المعركة التى دارت بين ماركيز بيليث ومسلمى فيليكس، والتى كانت من أعنف المعارك التى وقعت فى البشرات، وغير ذلك من الأحداث.

عندما أمر ماركيز مونديخار بوضع نهاية لمعركة لاس غواخاراس الدموية، أمر بدفن القتلى المسيحيين، والبحث عن السيد لويس بونثى دى ليون والسيد خوان دى بياروبل، والفرسان الآخرين الذين سقطوا فى المعركة وبعث بهم إلى غرناطة حيث تم دفنهم بكل الاحترام والهيبة التى تليق بمقام هؤلاء القادة. وقد كتب على قبر لويس بونثى هذه القصيدة:

" فى رثاء السيد لويس بونثى دى ليون "

هنا يرقد السيد لويس

بونثى دى ليون

ذو الشهرة والفضيلة

هكذا كان لو تعرفونه

يطول بقامته بطل بيبار[١]

لقد قتله إله الحرب

(١) يشير إلى رودريغو دياث دى بيبار أو السيد القمبيطور كما يرد فى المصادر العربية. حول ذلك البطل الأسطورى انظر كتاب أستاذنا الدكتور الطاهر مكى "ملحمة السيد" دار المعارف، القاهرة. (المراجع).

حسداً من شجاعته

وقد سقط لواؤه

وعلى الرغم من قوته

سيظل منتصراً فى أى مكان

لأن شهرته العظيمة

ستحيطه بالمجد دوماً

فالعالم كله يعرف

مقدار شجاعته

وعظمته الخالدة

وفى جانب آخر من القبر، كانت هناك لوحة مكتوب عليها هذه القصيدة:

" ذكرى موت القائد الشجاع السيد لويس بونثى دى ليون الأليمة "

فى مرتفعات لاس غواخاراس

توجد قرية تتسلح بالصخور

عندها جُرح السيد

لويس بونثى دى ليون

فقد أصابته صخرة

أُلقيت عليه من أعلى

عندما كان يتسلق هذه المرتفعات

كجندى شجاع

وعندما أصابته الصخرة

لم يفكر بغضب

بل حاول القيام

بكل حماس عظيم

ولكن دماءه قد سالت

وامتلأت بها الأرض

ورأى الموت قريباً

فتوجه بعينيه نحو جيشه

فرأى الرايات ممزقة

والجيش مشتتًا

ونظر إلى الفرسان

لم يتبق منهم سوى جواد واحد

ونظر إلى رجاله الشجعان

فلم يجد منهم أى جندى

فذرف الدموع من عينيه

وقال لهم:

"إلى أين تذهب يا مندوثا الطيب؟

أين فرسانك؟

أين جنودك؟

أين قوادك ؟

الذين أتيت بهم من قرطبة

أين لوائى الجميل ؟

الذى أحضرته من إشبيلية

وأين رايتى

المطرَّزة بالزينة ؟

وأين حامل لوائى الشجاع ؟

الذى سلمته له بيدى

وداعًا يا وطنى الحبيب !

وداعًا يا دوق أركوس !

الذى أنتمى إليه

يا جدى القريب !

لا أريد أن أرى أى شىء آخر

يا وطنى يا بلدى !

آه يا مريم العذراء

يا أم المسيح

سيدتى .. امنحينى حمايتك

فى هذا الموقف العصيب

وأنت يا يسوع

اغفر لى خطاياى

لأننى حماية لدينك

وصلت إلى هذه الحالة

ليس طمعًا فى الذهب

ولا من أجل الغنائم

فلدىَّ منها الكثير

رزقتنى إياها يا سيدى"

وعندما قال هذه الكلمات

أنهى الموت القاسى

حياة ذلك الرجل

الشجاع الشهير

" خاتمة "

تعلو قبر البطل رايته الجميلة المشغولة بالذهب حيث يحتل وسطها الأسد المستسلم، كرمز لشعار عائلته النبيلة، وفى الجانب الآخر من الراية رسمت أسلحته بخيوط من الذهب، وقد رُسم درعه الحديدى بشكل زخرفى وهو محطم وممزق إلى قطع صغيرة من وطأة ضربات الصخور القوية التى تلقاها، وإلى جانب هذا القبر الشريف، كان لحد السيد خوان دى بيارويل الشجاع، وهو رجل جدير بكل احترام؛ فهو جندى عظيم أثبت جدارته فى كل المعارك التى قادها خدمة للإمبراطور كارلوس الخامس، وقد كُتبت أعلى القبر هذه الكلمات:

"ذكرى موت السيد خوان دى بيارويل، القائد الشجاع"

يرقد هنا السيد خوان

دى بيارويل الشجاع

الذى ملأت شهرته الآفاق

والذى صمد بقوة

أمام اختبارات القدر

قتلته الصخور القوية

فلم يمت بيد جندى شجاع

ولكن هذا لن يكون سببًا

يجعل منْ يكتبون عن شجاعته

يغفلون قدره العظيم

فذكراه العظيمة

ستبقى دائمًا حية

فقد كان فارسًا عظيمًا

تستحق قيمته الهائلة

أن يحفظها التاريخ

وقد رُفعت فوق اللحد الشريف راية جميلة ذات ألوان خلابة، وإلى جانبها أسلحة السيد خوان دى بيارويل القوية. وهناك شىء أستطيع أن أقوله: إن موت هذين الرجلين العظيمين قد فجر أحزانًا شديدة فى كل مكان، بخاصة فى إشبيلية وأركوس وذلك لشجاعة لويس بونثى دى ليون الفارس العظيم. فلم تكن هناك سيدة فى إشبيلية لم تلبس الحداد عدة أيام، وذلك ما فعله أيضًا رجال من أقاربه وأصدقائه.

والآن نترك كل هذا، لنعود إلى ماركيز مونديخار فقد انتهى من الاستيلاء على غواخاراس كغنيمة عظيمة لمعركته، ثم خرج لملاحقة العدو كى يدركه قبل أن يحصن نفسه ويستعيد قوته، وهكذا تابع الأعداء حتى وصل إلى لانخارون، حيث كان قائد البالور قد ترك أناساً كثيرة لحمايتها بينما انتقل هو إلى أنداراكس. وقد توجه المسلمون الهاربون من غواخاراس إلى باتيرنا (Paterna)، وهى قرية حصينة، محاولين أن يدافعوا عن أنفسهم هناك ضد المسيحيين. وعند وصول الماركيز إلى لانخارون، دارت بينه وبين المسلمين معركة، مات فيها الكثيرون، وهرب بعضهم إلى خوبيليس (Jubiles)، وهناك لاحقهم الماركيز ووقعت بينه وبينهم معركة شرسة، تعرض فيها الماركيز للهزيمة نتيجة سوء تصرف جنوده وطمعهم وعصيانهم أوامره، ولكن فى النهاية مُنى المسلمون بالهزيمة، فقاموا بالهروب إلى الجبال، واعتقد الماركيز أنهم قد تراجعوا إلى أوغيخار (Oguijar)، فذهب إلى هناك، ولكن لم يعثر على مسلم واحد هناك، بل وجد القرية قد تم نهبها. ومن هناك توجه الماركيز إلى قرية تعرف بباترنا، حيث وجد فيها عددا كبيراً من المسلمين، وكانوا قد استعدوا للدفاع عن أنفسهم، فقرر الماركيز أن يحاربهم، وسوف نتحدث عن هذه المعركة فيما بعد، فى معرض حديثنا عن معركة ماركيز بيليث فى فيليكس (Felix)، والتى كانت دموية إلى أقصى حد.

قلنا إن فاخاردو الشجاع قد حارب المسلمين فى غيثيخا وبعد هروبهم تم نهب القرية، وقد أرسل المسلمون الذين بقوا فيها إلى أراضى الماركيز حتى يكونوا فى مأمن. وقد أحدث هذا غضباً شديداً فى صفوف الجنود الذين أقسموا على الإجهاز على حياة كل منْ يجدونه من المسلمين، بخاصة وأن الماركيز لم يعطهم نصيبهم من الغنائم، وقد رأوا أن المسلمين قد قاموا بفظائع فى الدير، كما سبق وقلنا، والذى كان قد تم بناؤه تخليدا لذكرى الدكتور أغسطين، والذى ذبح الموريسكيون كل رهبانه المساكين وألقوا بجثثهم فى الزيت، وأحرقوا الدير وحطموا تماثيل القديسين ومذابح الدير المقدسة. وبسبب هذه الوحشية وغيرها قرر المسيحيون ألا يتركوا مسلماً أو مسلمة أحياء، هذا إلى جانب الغضب الشديد الذى شعروا به لعدم إعطاء الماركيز لهم جزءاً من الغنائم كما سبق وقلنا. كانوا على هذه الحال حين وصلت إلى القائد القوى أخبار عن فيليكس وكيف تجمع بها عدد من القوات الموريسكية المسلحة فى انتظار وصول الماركيز حتى يحاربوه. وعندما علم الماركيز بذلك، أمر على الفور بأن يتوجه الجيش مساءً نحو فيليكس (Felix)، وقد فعل ذلك حتى لا يعلم الجواسيس المرابطين بالجبال إلى أين يتوجه الجيش؛ وهكذا تحرك الجيش عند غروب الشمس، وتقابل مع السيد غارثيا، قائد ألمرية،

الذى جاء من فيليكس حيث لم يجرؤ على محاربة المسلمين المتجمعين هناك، وقد أخبر السيد غارثيا الماركيز بما حدث مع مسلمي فيليكس، وقد استمر الجيش فى تحركه حتى وصل مع الليل إلى منطقة سهول بها جدول ماء، وهناك عثروا على جثة رجل مسلم تعرَّف عليه بعضهم. عسكر الجيش هناك، وكان من السهل رؤية المشاعل التى كانت تبدو صغيرة، ولكن سرعان ما هبت عاصفة مطيرة أطفأت كل المشاعل، وانقلبت الأجواء، مما سبب معاناة كبيرة للجيش تلك الليلة، بخاصة الجنود الذين لم يكن لديهم ما يحتموا به سوى بنادقهم القديمة، ولكن جاء الصباح مشرقًا، فأمر الماركيز بإعطاء الجنود البارود لتعبئة بنادقهم بطلقات تكفى للقتال مدة ست ساعات. بعد ذلك استعد الجيش كله بكل حماس. وكان ذلك اليوم هو السابق على الاحتفال بالقديس سيباستيان الذى اتخذه الجيش كله شعارًا له كى يقوم بما يجب أن يقوم به. كانت لوركا فى المقدمة، وكاراباكا (Caravaca) فى قلب الهجوم وتوتانا (Totana) وثيخين (Zehegin) وغيرها من القرى فى مؤخرة الجيش. وقد سار الجيش بنظام وتنسيق. وقد حمل بيرق الماركيز ذلك اليوم ألبارو دى مويا (Alvaro de Moya)، وهو أحد نبلاء كاراباكا لأن حامل لوائه السيد رودريغو دى بينابيدس (Rodrigo de Venavides)، لم يكن مستعداً، وكان السيد بينابيدس هذا أحد أقارب السيد خابالكينتو (Xavalquinto) .وكان بيرق الماركيز مصنوعًا من الحرير الأحمر، وله شرائط من الذهب والفضة، فى حاشيته بعض الحروف البيضاء المصنوعة من الفضة، كانت حروف "ميم" لاتينية متصلة ببعض حروف "الواو" التى كانت أيضًا بيضاء اللون، ومصنوعة من الفضة. كانت الحروف جميعها متناسقة وبين الحرفين كانت هناك زخارف بيضاء، وكلها تعنى "ذكرى أحزانى". والحق أنها كانت كلها رمزًا رائعًا وجميلاً. وقد استخدم الماركيز هذا الرمز بعد وفاة زوجته السيدة ليونور (Leonor) سيدة قرطبة وإشبيلية، ابنة كونت كابرا، التى كان الماركيز يحبها حبا شديدا ولم يرغب فى العودة للزواج مرة أخرى بعد موتها. بالطبع فهو رجل مهذب وعاقل. وهكذا سار الجيش، كما قلت، ووصل قريبًا من فيليكس وأمر الماركيز بأن يعتلى الجيش المرتفع حتى لا يتخذ المسلمون منه حصنًا لهم. ومن هذا المرتفع كان بوسعهم استكشاف كل ساحل ألمرية وسهول دالياس (Dalías) وعندما رأى الماركيز المكان واستعداده للانطلاق منه، أمر بهبوط الجيش منه إلى السهل حيث تقبع القرية. وقد قام الجيش بهذا بكل شجاعة بخاصة عندما رأت طليعة الجيش كيف ينتظر المسلمون قدومهم قرب القرية لمحاربتهم.

امتدت المعركة إلى أقصى امتداد لها، وكان فى الصفوف الأربعة الأولى جندى يُدعى فرانثيسكو سانشيث ((Francesco Sánchez)، وكان أخًا لقسيس يُدعى ميغيل سانشيث (Miguel Sánchez)، قتلته النساء المسلمات بالمُدى كما قلنا فى البداية. كان يصاحب فرانثيسكو هذا أكثر من عشرين من أبناء عمومته وإخوته وأقربائه، ولأنه كان يتذكر دائمًا ما فعله المسلمون ونساؤهم فى أخيه، صاح بكل ألم فى أقاربه قائلاً: "حان الوقت، كى يدفع هؤلاء الكلاب ثمن ما فعلوه بأخى الحبيب، فقد عاملوه بمنتهى الوحشية". وعندما قال ذلك بدأ فى إطلاق النار على القوات الموريسكية. وقام أقاربه أيضًا بإطلاق النار، وخرجوا من الصفوف دون نظام منطلقين بالهجوم من أجل الثأر وهم يقولون: "عليك بهم يا سانتياغو". وعندما رأى ذلك بقية أفراد الطليعة اعتقدوا أنه قد تم تنفيذًا لأوامر القائد العام، فلم ينتظروا أكثر من ذلك ليبدءوا هجومهم على الموريسكيين، وهم يهتفون لسانتياغو. ولم يستطع المسلمون تحمل هذا الهجوم المسيحى وهم ينظرون إلى حجم قواتهم، فلم ينتظروا إلا قليلاً ثم بدءوا فى الانسحاب السريع. توجهوا نحو مرتفع صغير كان قريبًا من الميدان وكان به برج صغير وحاولوا المقاومة من هناك. وعندما رأى الماركيز أن طليعة جيشه لم تنتظر أمره بالهجوم بل بادرت به هاتفة لسانتياغو، امتلأ بالغضب لعدم نظامهم، فأطلق صيحات غاضبة إلى بايارتى (Vayarte) بطريقة كما لو كان هناك برق ورعد جعلا الأرض تهتز خوفًا، وقد توجه نحو الطليعة محاولاً الوصول إلى قادتها، ولكن الناس كان قد استبد بهم الخلل وعدم النظام فلم يعاونوه على تحقيق هدفه. كانت الضوضاء رهيبة، فقد اجتمع صوت الأبواق مع الطبول وتعالت الصيحات، وكأن السماء قد أصبحت على وشك السقوط، والجبال على وشك الانهيار. وعندما رأى الماركيز أن هؤلاء الجنود الطائشون أصبحوا يتحركون دون نظام، وأنه ليس هناك أملٌ فى عودتهم لصوابهم، أمر بملاحقة الجيش المسلم، أما عن الجانب المسلم، فقد توجه الجزء الأكبر منه إلى البحر، هربًا من المعركة، وقد لاحقه جنود الماركيز، وهناك استطاع الماركيز أن يفرغ طاقة غضبه فقتل الكثير من المسلمين. أما بقية سلاح الفرسان، فعندما رأى الماركيز قد واصل سيره فى تعقب المسلمين، وقد فعل بنفسه فيهم الأعاجيب، قام الفرسان بقتل وجرح الكثير من المسلمين قدر استطاعتهم، وقد ملأ الرعب قلوب المسلمين من غضب الفرسان، فتوجهوا إلى ثلاثة اتجاهات: فبعضهم عاد نحو البحر، وقد تم القضاء على هؤلاء بيد سلاح الفرسان، وبعض المشاة الذين لاحقوهم. وقد توجه البعض الآخر نحو سفح الجبل، وهؤلاء استطاعوا الهرب لأنهم كانوا كثيرين. أما الجزء الأخير منهم فتوجه نحو المرتفع الذى سبق وتحدثنا عنه،

وهناك بدءوا القتال بكل شجاعة، وكان بينهم عدد كبير من النساء، اللائى كنَّ يتخذن مظهر الرجال، وقمن بإلقاء الصخور والأحجار على المسيحيين، حتى لا يستطيعوا صعود المرتفع، ولكن هذه المقاومة كانت بلا جدوى، ذلك أن جنود لوركا البواسل، من فرط غضبهم كانوا يصعدون الربوة وكأنهم يطيرون، وأخذوا يقتلون ويجرحون كل منْ تواجد أمامهم بكل قسوة، فكانوا يبدون كشعاع برق يخترق صفوف المسلمين والمسلمات، وقد أصاب الفزع النساء المسلمات، وكنَّ لا يرغبن فى الوقوع فى الأسر؛ فلم يجرؤن على انتظار هذه الضربات القاسية المتوحشة، لذا فقد توجهن نحو حافة البحر وتحصنَّ بمجموعة صخور عالية فى مواجهة البحر وبقيت مجموعة النساء هناك، وهنَّ يبكين بألم ومرارة، ويصرخن بأصوات عالية، ثم قمن بإلقاء أنفسهن من هذا المرتفع الصخرى نحو الهاوية. وهكذا لقين مصرعهن مهشمات ألف قطعة. وقد قامت بعض النسوة من ضعيفات النفس بعمل صلبان من بعض العصى خوفًا من الهجوم الوحشى، وثقة فى استدرار عطف المسيحيين، وكنَّ يبكين بألم وهنَّ يقلن: "إننى مسيحية يا سيدى، إننى مسيحية!". ولكن الجيش المتوحش لم يتأثر بهؤلاء التعيسات ولم يأخذهن بعين الشفقة، فأعملوا فيهن السيوف ومزقوهنَّ آلاف القطع وألقوا ببعضهن بالقوة من فوق المرتفع. يا لها من وحشية مسيحية، لم تحدث من قبل فى إسبانيا!، وأى غضب قاسى يجعلك تقوم بكل هذا التوحش وتتخلى عن الرحمة؟ إننى لا أقول شيئًا عن الرجال المسلمين أعداء الدين، ولكنى أتحدث عن النساء الضعيفات اللاتى عوملن بحد السيف!. إنها وحشية رهيبة بلا شك. ما ذنب طفل حديث الولادة أو طفل يبلغ من العمر ستة أشهر أو عام واحد أو اثنين أو ثلاثة أعوام أو أربعة أو حتى اثنى عشر عامًا كى تُسحق أجسادهم بكل الغضب المحموم تحت الصخور القاسية ؟ والفتيات التعيسات، أى شر اقترفنه كى لا يُنظر إليهن ويُعاملن بالشفقة اللازمة؟. أقول إن غضبا شيطانيا كان يسير وسط السلاح، من دون ذلك الغضب لم تكن تلك الوحشية لتحدث. تلك الوحشية التى لا يتحملها أحد، فالجنود الذين كانوا يتحركون فى المعركة، لا يمكن أن تصف بشاعة وحشيتهم، فبعد سرقة المنازل ونهبها لم يتركوا أحدا حيا، حتى القطط والكلاب مزقوا أجسادها دون رحمة. حقا يمكن أن نقول إن موت القس ميغيل سانشيث قد انتقم من أجله، فلكى يتم الانتقام لموته تم قتل أكثر من ستة آلاف شخص خلال ساعتين ما بين رجال ونساء وأطفال، أطفال تتفاوت أعمارهم ما بين عام واحد حتى عشرة أعوام ويصل عددهم إلى ألف طفل ذبحوا دون رحمة. لقد رأيت أنا بعينىَّ هاتين وحشية لم يرها أحد من

الناس: سيدة موريسكية قتيلة، بأكثر من عشرة ضربات سيف بالقرب من القرية، وحولها ستة أبناء قتلى، بنات وصبيان؛ فقد حاولت الأم المسكينة الهروب بأبنائها كى تحفظ حياتهم، وهناك عند أحد أحواض الزرع وصلت إليها الأسلحة القاسية. هكذا قتلت السيدة المسكينة وذبح أبناؤها الستة، وكانت المسكينة تحاول الدفاع عن رضيع يبلغ من العمر عامًا ونصف عام، كانت تحمله بين ذراعيها، فمالت عليه برأسها وجسدها، وقد قتلت على هذا الوضع، وقد نال جسد الرضيع بعض الوحشية؛ فعلى الرغم من أن السلاح قد اخترق دثاره إلا أنه لم يصل إلى جسده، وقد استحم جسد الرضيع من الدماء التى انفجرت من جروحه ومن جروح أمه، وقد كانت كثيرة، وهكذا تركه الجنود الذين كانوا يمرون عليه عندما رأوه مكسواً بالدم والجراح ولم يعالجوه. وقد فاضت روح الأم بعد معاناتها زفرات الموت، وقد زحف الرضيع قدر استطاعته، ولم يكن يفكر فى شىء آخر سوى تناول رضعته، وقد فعل هذا بثدى أمه، فقد أخذ يرضع اللبن الذى كان يصل إليه ومعه كمية كبيرة من دم الأم الذى كان ينبثق من جروحها التى امتلأ بها ثديها. لقد أراد الحظ التعس أو الطيب، أن أكون هناك، وأن أشاهد هذا المنظر الدموى وهذه الوحشية الرهيبة، وقد دفعتنى الرحمة إلى أن أخذ الطفل، فقد كان المساء يقترب، وقد حملته إلى القرية وظللت أبحث عن زملائى حتى وجدتهم فى فندق للمبيت. ولأن رفقائى هؤلاء كانوا رجالاً شرفاء تمتلئ قلوبهم بالرحمة؛ فقد قاموا بحماية الكثير من السيدات الموريسكيات اللاتى أراد الله أن ينقذهن من هذا الهجوم الوحشى، وقد أحزن الطفل هؤلاء السيدات ، ولأنهم علموا بقصته انفجرن فى بكاء حزين، وربما كان من بين هؤلاء النسوة منْ قامت برعاية الطفل وتربيته. وكان هناك أيضًا الكثير من الجنود الشرفاء الذين قاموا بحماية العديد من السيدات بدافع الشفقة. أقول عن نفسى، إننى شخصيا قد حميت أكثر من عشرين سيدة، وبين هؤلاء اللاتى اجتمعن فيما بين مكان وآخر وصل عدد هؤلاء السيدات الموريسكيات إلى مائتى سيدة مسلمة. كانت هذه هى النهاية الدموية لتلك المعركة.

أما معركة اليوم الآخر أى عيد القديس سباستيان، فقد خرج أناس كثيرون حيث كانت تتواجد ممتلكات القتلى، من ملابس وقلائد وأقراط وشيلان وأسلحة وأشياء أخرى كثيرة. وقد استبد الفزع بهم من هول ما رأوا من وحشية ومن عدد القتلى. وقد جاء، آنذاك، إلى فيليكس أناس كثيرون من مورثيا، لم يكونوا قد استطاعوا الوصول قبل ذلك، مما أسعد الماركيز. وقد اندهش أهل مورثيا من العدد الهائل للقتلى فى ذلك الزمن الوجيز. وقد أمر الماركيز، بعد أن تذكر خروج طليعة الجيش عن النظام فى المعركة السابقة، أمر باستدعاء القادة، وتحدث معهم

بشدة مذكراً إياهم بخطئهم الكبير ذلك اليوم. وقد أثبت القادة عدم مسئوليتهم عن ذلك الخلل، وعندما تحرى الماركيز عن الواقعة، وجد أن الجُرم يقع على عاتق أحد جنود لوركا، وكان يُدعى بالوماريس (Palomares)، وقد أمر الماركيز باستدعائه وإعدامه. وعندما علم جنود لوركا بهذا، وكانوا أكثر من ثلاثة آلاف جندى شجاع ومجهزين جيداً بالسلاح، لم يوافقوا على إعدام الجندى وأعلنوا عن استعدادهم للموت من أجل ذلك، ولهذا فقد اجتمعوا فى مكان ما بالميدان. وعندما علم قادة لوركا بتحرك هذه الثورة العارمة، وحتى لا تتحول إلى ثورة بالفعل، طلبوا لقاء الماركيز والتحدث معه حول تخفيف حكمه بإعدام بالوماريس حيث كان رجلاً شريفًا وجنديا شجاعًا من جنود لوركا ومن عائلة غنية وصالحة، بخاصة أن إعدامه سيُحدث غضبًا كبيراً. وقال الماركيز، وقد تملكه الغضب، إنه لن يتنازل عن إعدام بالوماريس حتى ولو ذهب ثلث أهل لوركا. وقد توسل القادة والفرسان القادمين من مورثيا للماركيز بأن يصفح عن بالوماريس، ولكن الماركيز كان مصممًا على تنفيذ أمره. وهكذا أمر بإعدام بالوماريس فيما بعد. وعند العزم على التنفيذ، بدأ أهل لوركا بالتحرك وإطلاق صيحات عالية، وقد استعد الجميع بالسلاح وهم يقولون لو أعدم بالوماريس سوف يضيع الجيش كله. وقد ذهب إلى الماركيز بكل سرعة دييغو ماتيو دى غيبارا (Diego Mateo de Guevara) مراجع لوركا ووالد القائد دييغو ماتيو دى غيبارا، وكان رجلاً شجاعًا ومُقدراً من الجميع، ذهب إلى الماركيز بصحبة السيد خوان باتشيكو (Juan Pacheco)، قائد فرسان مورثيا وبعض الرجال، توجهوا جميعًا إلى مقر الماركيز والذى كان قد أمر بعدم فتح الباب لأحد. وعند وصول السيد خوان باتشيكو، وكرجل شجاع، وعلى الرغم من وجود حرس للماركيز، استطاع الدخول إلى حجرة الماركيز ، وكان معه دييغو ماتيو دى غيبارا؛ حيث وجدا الماركيز، وبعد أن توسلا للماركيز كى يوقف أمر الإعدام لأن ثلث الجيش من لوركا قد تحرك للدفاع عن بالوماريس، وأن ذلك سوف يُحدث ضرراً عظيماً فى المعسكر. وعندما رأى دييغو ماتيو دى غيبارا بأن السيد خوان قد تحدث مع الماركيز، وأن الماركيز لا يزال مصمماً على قراره، تحدث إليه قائلاً:

"حديث دييغو ماتيو دى غيبارا للماركيز السيد لويس فاخاردو"

"إننى أعترف يا سيدى العظيم بأن العدالة فضيلة طيبة فى كل وقت، بخاصة وقت الحرب، وإن لم تصفح سريعًا سوف يضيع هذا الجيش العظيم، وهكذا أقول إن الخطأ يقع على عاتق بالوماريس وإنه يستحق العقاب، ولكن لو تذكرتم أن توقيع العقوبة على بالوماريس

سوف يجعل أقاربه وأصدقاءه يسعون للانتقام، مما يعرض فيليكس للتمزق والتشتت، ولأنهم جنود مبتدئون، لا يقدرون عواقب غضبهم للعقوبة التى ستقع على قريبهم، وأن هذا سيشتت قوة الجيش، وإذا تنبهنا إلى أن هذه القرية كان يسكنها أعداء أشداء لديانتنا الكاثوليكية المقدسة، أعتقد أنه من الصواب عدم تنفيذ عقوبة الشنق على بالوماريس مثلما أمرتم، وسوف تلاحظون سيادتكم كيف أن هذا سيكون موافقًا مع الشفقة التى يشعر بها قادة الجيش نحوه، ذلك لأن بالوماريس لم يخالف النظام العسكرى ولم يخالفه أبناء بلده، لأنه حديث العهد بالجندية، وأن هذا العقاب جدير بجندى آخر قضى زمنًا طويلاً فى العسكرية، ويعلم جيداً قوانينها، وحتى مع جندى كهذا لا بد أن تسبق رحمة القائد الكريم عقابه، لأن القائد لا بد أن يأخذ فى الاعتبار عدم فقد الجيش لأى جندى من جنوده، لأنه لو قتل الأعداء جنديا وفقد القائد جنديا آخر عاقبه بالموت لأصبح المفقود اثنين من الجنود كان بوسعهما خدمة القائد بمهارة فى أى معركة يدخلها. وتعلمون جيداً، يا صاحب السعادة، أن سيدنا الإمبراطور كارلوس الخامس، الذى قدمتَ لرايته وجيشه الخدمات العظيمة لسنين طويلة، كان دائمًا يعمل بتلك الحكمة مع رجال جيشه، ولهذا كان محبوبًا دائمًا من الشعب الإسبانى كما تعرفون، وكلنا نعلم أنه كان يقدم الرحمة على العدل فى معاملته لقواد جيشه. فليُرحم، يا صاحب السعادة، الجندى من أجل ذكرى الإسكندر الأعظم (Magno Alexandro)، الذى قام أحد جنوده بجُرم فادح حيث جلس على عرشه الملكى وأدركه النُعاس فنام وهو جالس، وهو ذنب يستحق الموت، وعندما وصل الإسكندر وجد عرشه يجلس عليه جندى؛ فقام القادة والفرسان الذين حضروا معه بمحاولة إيقاظ الجندى لقتله، ولكن الإسكندر مدَّ يده إليهم قائلاً: "دعوه ينام، ففى وقتٍ آخر سوف يسهر كى يحمينى، والجندى الماهر لا يستحق جائزة سيئة، وقد نام هذا الجندى لكثرة سهره على خدمتى، والحق أنه لم يجد سريراً أكثر راحة من مقعد عرشى، وسوف يقوم فى مناسبة أخرى بحماية عرشى وهو شاهر السيف مفتوح العين". حقا إنه قول جدير بملك كريم وقائد شجاع، حيث لم ينظر إلى الخطأ الذى يستحق الموت، ولم يعاقب جنديه، بل أمر بأن يتركوه نائمًا. فيا سيدى العظيم، نرجو منك بعضًا من هذا الكرم وتلك الشفقة التى عامل بها الإسكندر جنده، مثلما علمنا وجربنا. لقد كان خطأ بالوماريس فادحًا، ولكن فلتأخذ بالاعتبار براءته قبل خطئه، فربما عندما تسير الحرب وتتقدم يقوم بالوماريس وأقاربه بخدمات جليلة لسعادتكم وربما تنال رضاكم، وإذا كان بالوماريس لا يستحق هذا العفو، فإن والديه وأجداده يستحقونه فقد خدموا أسلافكم طويلاً، وحتى لو لم يكن أسلافه يستحقونه، فيكفى أن السيد خوان باتشيكو قد توسل إليكم من أجله، وإذا كان السيد خوان

باتشيكو لا يستحق، فلوركا تستحق، وهى البلدة التى ولد فيها بالوماريس، وكم من خدمات عظيمة قدمتها جعلت بيتكم وعائلتكم تصل للمرتبة العالية التى هى عليها الآن، وإذا كان هناك قواد فى مورثيا، ومملكتها تمت بصلة قرابة لعائلتكم، فإن لوركا كانت دائما جزءا مهما من جيشكم، فإذا كان رجالكم قد انتصروا فى اثنين وعشرين موقعة ضد المسلمين وفازوا باثنين وستين مدينة وقلعة حصينة تحت راية قشتالة وليون، فإن أهالى لوركا قد ساهموا فى كل هذا. وإذا كانت عظمة عائلتكم وشهرتها التى حققتها ولا تزال تتمتع بها، فإن لوركا كانت سببًا لذلك. ولهذا، أتوسل لسعادتكم بألا يلاقى بالوماريس، وهو ابن اللوركا وأحد رجالها الشرفاء، هذه الميتة الشنعاء. أحذر معاليكم بأن هناك ثلاثة آلاف رجل من لوركا يرفعون أسلحتهم وهم مستعدون للموت من أجل إطلاق سراح بالوماريس. ولينظر معاليك ويحسم ذلك الأمر، بعد أن أوضحته له بإسهاب، وليأمر معاليكم بالعقاب الذى أستحقه أنا وآبائى بعد الخدمات التى قمنا بها لعائلتكم العظيمة ".

هكذا أنهى السيد دييغو ماتيو دى غيبارا حديثه، كذلك حاول كل من السيد خوان باتشيكو وألونسو غالتيرو (Alonso Galtero) ونوفرى رويث (Nofri Ruiz) وأندريس دى مورا (Andrés de Mora)، والسيد رودريغو دى بنابيديس (Rodrigo de Venavides)، حامل لواء الماركيز ورجال آخرون من مورثيا، وقادة من لوركا، كل هؤلاء حاولوا أن يجعلوا الماركيز يعفو عن بالوماريس. وقد انتشر هذا الخبر بين صفوف الجيش، وقد لاقى ترحيبًا كبيرًا، بخاصة من أهالى لوركا. وقد وصلت فى ذلك الوقت دفعة كبيرة من أبناء لوركا لا تقل عن أربعمائة جندى مسلحين، وكان قائدهم رجلاً شجاعًا يُدعى خوان ماتيوس روندون دى لا لونا (Juan Mateos Rendón de la Luna)، وهو من النبلاء. وعندما وصل خبر هذه الفرقة من الجنود إلى الماركيز، سُرَّ به سرورًا عظيمًا وخرج إلى باب مسكنه، وقد أرضاه تسليح هذه الفرقة العظيم. وهنا كان الماركيز قد بقى بضعة أيام فى انتظار أوامر الملك، لذا أمر بإرسال النساء المسلمات إلى الكنيسة، حيث أراد أن يقسمهن على القواد والجنود وهذا ما فعله. وقد تم إرسال السيدات المسلمات، بعضهن إلى بيليث وأخريات إلى لوركا وأخريات إلى أماكن أخرى. وحتى لا تنتظر الملك الصغير وماركيز مونديخار، سوف ننهى هذا الفصل قائلين أولاً هذه القصيدة التى تتحدث عما ذكرناه سابقًا.

"قصيدة حول المعركة التى قادها ماركيز بيليث فى فيليكس، والتى كانت شرسة"

قوات الجاليقى
الذى يُدعى فاخاردو
تحركت من غيثيخا بنظام
بعد أن انتصف اليوم
سار بنظام
كل صف يتكون من خمسة جنود
وهناك عند غروب الشمس
وجد السيد غارثيا
الذى جاء من فيليكس
لكى يستطلع قوات المسلمين
وأعلن الماركيز
عن وصوله
دون أن يجرؤ على محاربة
القوات الموريسكية
تقدم الماركيز إلى الأمام
وقد انفصل عن السيد غارثيا
وقد عسكر الجيش فى مرتفع
وكانت الليلة باردة

وقد هَبت عاصفة مطيرة

عاصفة شديدة صاحبها الجليد

عانى منها الجيش

أشد معاناة

وعندما لاح الفجر

كان الضوء يبدو ساطعًا

أمر الماركيز

بتزويد الجيش بالذخيرة

وأعطى البارود لكل الجيش

بارود يكفى ثلاثة أيام أو أربعة

وتوجه الجيش نحو فيليكس

بكل شجاعة وإقدام

كانت لوركا فى المقدمة

جند مورثيا فى قلب الهجوم

جند ثيخين وكاراباكا

يديرون المؤخرة

وكان الجيش مكشوفًا من فيليكس

من هذا الجبل الذى وصل إليه

فأمر الماركيز بأن يهبط

الجيش من هذا المرتفع

وأن يقيم فى السفح

وهكذا سار مثلما ذهب

ولكن بالقرب من القرية

كانت هناك فرقة

من الموريسكيين

حضرت بكل شجاعة

تنتظر المعركة

وكان الماركيز يرغب فى قتالهم

فأرسل إليهم المقدمة

ولكنهم تحركوا دون انتظار أوامره

وقد أطلق عليهم الموريسكيون

جم أسلحتهم

ولم يستطيعوا تعمير أسلحتهم

بالذخيرة مرة أخرى

لأنهم انزعجوا من هذه الفرقة المسيحية

ومن أسلحتها الشديدة

التى رآها المسلمون

فتراجعوا نحو القرية

فربما استطاعوا تحسين وضعهم

وقد ضيَّق المسيحيون عليهم النطاق

وكانوا يهتفون لسانتياغو

وقد هرب المسلمون

كل واحد كيفما استطاع

بعضهم صعد إلى مرتفع

كان قريبًا من البلدة

وصعد آخرون الجبل

الذى كان يُدعى غادور

وبعضهم توجه إلى البحر

عن طريق نحو اليمين

وعندما رأى الماركيز ذلك

ووصل فرسه إلى الميدان

اندس بين صفوف المسلمين

وبكل شجاعة حاربهم

وتبعه الفرسان

وتسابقوا فى المعركة

وقتلوا الكثير من المسلمين

الذين ذهبوا إلى البحر

ونهبوا القرية

ولم يتركوا فردا حيا

بكل وحشية وقسوة

قتلت القوات المسيحية

أكثر من ثمانية آلاف

من هؤلاء المسلمين الأوغاد

ما بين أطفال ونساء

وكانت هذه وصمة عار

فلم يكونوا رجال حرب

منْ قتلوا فى ذلك اليوم

«خاتمة»

الفصل التاسع

الذى يتحدث عن الملك الصغير وكيف شكل مجلسًا للحرب، وماذا جاء فى الاتفاق، وما الذى فعله ماركيز مونديخار، وكيف لاحقه وكيف دارت بينهما معركة فى باتيرنا.

حكينا كيف أن ابن أمية خرج فزعًا من جسر تابلاتى، وكيف أن ذلك الجسر الخطير قد استولى عليه ماركيز مونديخار بالقوة ودفع الكثير من أجل الفوز به. وعندما عبر الملك الصغير الجسر ذهب إلى غواخاراس، حيث ترك هناك سارية الشجاع ومعه خيرونتثيو، وبعض القادة الشجعان بينما توغل هو إلى أنداراكس ومعه جيش كبير، وكان لديه أمل بأن يبعث إليه الأتراك بالعون، كما جاء فى خطابات أولوج على ملك الجزائر وأخيه السيد لويس. وهكذا، فى يوم ما أمر بجمع قادة جيشه، وهناك وهم مجتمعون، وحوله القواد ورجال الحرب، أخرج خطابات أولوج على القادمة من الجزائر. وعندما قرأها أدرك سرعة وصول مساعدة الأتراك. وقد تحدث مع الجميع بهذه الطريقة التى تتضح منها قوة الشخصية التى يجب أن يتمتع بها الملك، على الرغم من أنه غير جدير بها بسبب شروره؛ فبدأ الحديث هكذا:

" أيها القادة الشجعان، بفضل من الله ومن محمد أصبحنا فيما نحن فيه الآن من حال، على وشك الفوز بحريتنا والخروج من سجن المسيحيين الخائنين الذى عانينا منه لسنوات طويلة ونحن نشعر بالظلم والعبودية فكأننا عبيد ولسنا أسيادا؛ فليكن لدينا السلاح الذى ندافع به عن أنفسنا وندفع به شرهم، لا بد أن نعترف بأن هناك تحسنًا عظيمًا قد حققناه، مثل السلاح الذى تلقيناه، بخاصة وأن من الجانب الشرقى سوف يصل إلينا المدد من الصدر الأعظم، كما توضح ذلك خطابات صديقنا أولوج على ملك الجزائر. ومن المناسب أن نكتب الآن إلى أماكن أخرى فى المغرب وفاس وإلى أهلى وأقاربى، ملوك هذه المناطق، لا بد أن نأخذ فى الاعتبار وضعنا فى الحرب، ولا بد أن نطلب العون منهم؛ فمن مصلحتنا أن يقدم هذا القريب عونه وتأييده لنا، وهكذا قريبًا من مملكة فالنسيا سوف يصل إلينا العون الذى وعدونا به؛ وسوف ينضم إلينا أيضًا أصدقاؤنا فى البيازين وحينئذٍ لن ينقصنا شىء، وبكل هذه القوات

أثق فى أن الله سوف يساعدنا فى استعادة الجزء الأكبر من إسبانيا فى غضون أيام قلائل، وهكذا تعود إمبراطوريتنا إلى ما كانت عليه سابقًا. ولهذا، يا أصدقائى المخلصين، لا أريدكم أن تفزعوا لأن أعداءنا قد تفوقوا علينا عند موقعة جسر تابلاتى؛ لا بد أن تثقوا فى أن ذلك كان فيه مصلحتنا، لأن تواجد العدو فى البشرات وداخلها سوف يجعله فريسة سهلة لهجومنا لأنه، كما تعرفون، تحيط المنطقة مداخل ومخارج وطرق وعرة وشاقة، وهكذا سوف يكون له السيطرة على الداخل بينما ستقع المخارج تحت قبضتنا، وهكذا نستطيع أن نهاجمه دون أن يتمكن هو من إيذائنا ولن تنالنا أسلحته، وعلى الرغم من ذهابه إلى غواخاراس، فإنه ليس آمنا هناك فقد خسر فيها أكثر مما كسب، فهناك فقد العديد من قواده الشجعان، وكما عرفنا أنه قد فقد الكثير من سلاح، فكيف ستكون خسارته وهو يواجه البشرات التى تحتلها عن آخرها جيوش إفريقية مجهزة وقوية وتجيد فنون الحرب واستخدام السلاح ؟. ومن أجل القوم الذين سيأتون لنجدتنا، لا بد أن نضع رايتنا بحيث يسهل رؤيتها فى مدينة بيرا (Vera)، ولا بد أن يعطى الأمر لفتحها بقوة سلاحنا الظافرة، حتى يجد أصدقاؤنا ميناءً مناسبًا ترسو عليه سفنهم وتكون فى مأمن من تقلبات البحر وأعماقه وأمواجه العاتية، لأنه قريبًا من شاطئ بيرا يوجد ميناءان شهيران يناسبان هذا الأمر: الميناء الأول، هو ميناء لاس أغيلاس (Las Aguilas)، والآخر يُطلق عليه لوس تيريروس بلانكوس (Tereros Blancos)؛ وهذان الميناءان يقعان جهة الشرق (Levante)، أما فى الغرب (Poniente)، فيوجد ميناء فرايون (Farallón) وميناء أغوا أمارغا (Agua Amarga)، الشهير. إنها موانئ كافية كى ترسو عليها السفن الليبية، وبعد ذلك، طاعة لمحمد سنتقدم فى معاركنا، ونستولى على ميناء قرطاجنة (Cartagena) الشهير، فإذا استولينا عليه، سوف تخضع لنا إسبانيا كلها، وكل ما أقوله لكم أيها الجنود الشجعان لا يحتمل التأخير، لأن فى التأخير يكمن الخطر. ولهذا، سوف نراسل فاس ونبعث إليهم برسولنا ليخبرهم أن يكونوا مخلصين لنا، وأن يبعثوا لنا ببعض الأسلحة والسيوف من هناك لأنهم يجيدون صنعها، وسوف نطلب البنادق والأقواس من الجزائر، وسوف يمدوننا بها، أما الصديق الذى سيتوجه بهذه الرسائل الآن إلى فاس مقدمًا خدمة مخلصة لنا، أعده بشرف تاجى أن أمنحه جائزة عظيمة وعطايا كثيرة تجعله يعيش شريفًا وعفيفًا طوال حياته".

وعندما أنهى ابن أمية حديثه، تدافع القادة نحو ليأكدوا له استعدادهم لخدمته حتى الموت، وقد طلب منه الجميع إعطاء الأمر بالتوجه نحو بيرا وغزوها، لأن هذا الحصن سيكون

ضروريا لإنزال السفن القادمة من إفريقيا ولكى تُبحر منه السفن التى تحمل الأسرى الإسبان[1] الذين من المتوقع أسرهم. وبعد تحديد هذا الاتفاق، قام أحد الموريسكيين، وهو من أبناء تورى (Ture)، وكان قريبًا لأصحاب قلعة موخاكار، نهض على قدميه وقال إنه وأخ له يملكان سفينة عظيمة وكبيرة تحمل عشرين رجلاً مجهزين، وأنهما مستعدان للعبور بها إلى فاس وحمل هذه الرسائل. وقد شكر له ابن أمية موقفه هذا، واعتبره رجل ثقة وأمانة، وأمر باختيار عشرين رجلاً ليصاحبوه فى تلك الرحلة، وفى يوم آخر كتب الملك الصغير إلى ملك المغرب وفاس. فيما بعد، غادر رجل مسلم يُدعى أمبريل (Hambrel)، ومعه زملاؤه المكان وتوجهوا إلى موخاكار، وفى سرية تامة عبر منطقة الكابيثو دى لاكاربونيرا (el Cabezode la Carbonera)، وهناك قريبًا من مجرى سيل كانت له باخرة عظيمة بها كل ما يحتاجه لاجتياز البحر، وبعد حملها إلى البحر، استعد بكل ما هو ضرورى، واتخذ طريق الغرب، فى طريقه إلى تطوان (Tetuán)، وسوف نتحدث عن أمبريل هذا ورحلته فى مكان آخر. وقد مكث الملك الصغير فى أنداراكس وأعطى أوامره بما يجب أن يتم فى حالة الحرب، وقد اتفق على أن يكتب إلى مسلمى الجبال فى مالقة ورونده معطيًا إياهم الأمل فى وصول عون من قبل ملك الجزائر فقد وعدهم بهذا وأيضًا من قبل الأتراك، وأنه قريبًا سيحصل على وعد من فاس والمغرب بتقديم المدد لهم؛ فليقوموا على الفور وليستعدوا. ولكى يكونوا على ثقة مما يقول، أرسل إليهم الخطابات التى أرسلها إليه أولوج على. ولكل هذه الأسباب، ولرؤيتهم الخطابات بأعينهم، ثار مسلمو هذه المناطق، فى وادى مالقة وفى جبال روندة، وتسببوا فى أذى عظيم لأهالى هذه المقاطعات، كما سنقول فى حينه.

فى تلك الفترة كان ماركيز مونديخار، ومعه جيشه، فى أوغيخار (Oguijar)، حيث لم يعثر على أى مسلم، ورغبة منه فى إنهاء هذه الحرب، إذا استطاع، على وجهها الأكمل، طلب من بعض الموريسكيين ما يستطيعون فعله، وقال الكثير منهم إنهم يريدون العودة إلى أراضيهم والبقاء فى خدمة الملك كما تعودوا. ولكن كان هناك آخرون لهم رأى آخر، أما المسيحيون فلم يوافقوا على هذا، وخرجوا عن الجيش رغبة فى السرقة؛ وفى الخفاء قاموا بكل

[1] يرى ماركيث بيانويبا أن قادة إسبانيا كانوا يعلمون استحالة وصول إمدادات عسكرية مهمة من تركيا وأنهم أشاعوا هذه الفكرة لأغراض سياسية. انظر كتابه "القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى" ترجمة عائشة سويلم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥ . (المراجع).

ما استطاعوا من شرور فى القرى الموريسكية. وقد رأى الموريسكيون أنه بدعوى السلام نالهم منا أذى عظيم، ولعدم ثقتهم فى العيش آمنين عادوا للثورة والتمرد. وقد قام الماركيز، ولديه رغبة تماثل رغباتهم، وبعد تلقيه نصائح من رجاله، بالخروج للبحث عن الملك الصغير ومحاولة الإمساك به، لأنه إذا انتهى أمر ذلك الملك انتهت الحرب كلها، وهكذا بأمر من الماركيز أعلن من جديد عن مكافأة (تصل إلى عشرين ألف دوقية) لمنْ يستطع الإيقاع بسيد البالور حيا أو ميتا. وقد تحرك الجميع من أجل الفوز بالجائزة، ولكن لم يتحرك أحد من المسلمين من أجل ذلك؛ بل كان الذين تحركوا كلهم من المسيحيين، كما سنقول فيما بعد. وقد وصل إلى الماركيز بعد ذلك خبر يفيد بأن ابن أمية يتواجد فى مكان يعرف بباتيرنا ومعه أناس كثيرون مسلحون جيداً، فأمر بأن يستعد الجيش ويتحرك فى اتجاه باتيرنا، وحين وصل إليها الجيش، وجد المسلمين الذين كانوا فى انتظارهم قد خرجوا لمواجهتهم فى الطريق وهم منقسمون إلى أربعة أجزاء وحاربوهم بكل شراسة. وعندما رأى الماركيز هذه الطريقة الشرسة فى الهجوم، أظهر شجاعة عظيمة، وبادر المسلمين بالهجوم وهو يهتف لسانتياغو. وقد حارب المسيحيون كالأسود، واستطاعوا الاستيلاء على حصن صغير، الذى كلَّف الدفاع عنه المسلمين أرواحًا كثيرة منهم، فقد قُتل الكثير منهم على أيدى المسيحيين. ودارت المعركة بحماس شديد، فى النهاية انتصر المسيحيون لشجاعتهم، وانسحب ابن أمية، ولكن ليس هروبًا ودون نظام، بل محاربًا، ولقدوم الليل، لم يكن لديه مكان للراحة، فتوجه إلى قريته بالور. وقد نهب المسيحيون باتيرنا، دون اعتبار لأوامر الماركيز الذى لم يكن يرغب فى سرقة ونهب القرى، وقد وجدوا فى باتيرنا أشياء كثيرة تستحق السرقة، ولكن لم يعثروا على مسلمين بها، إذ كانوا غادروها إلى قرى أخرى. وهناك مكث الماركيز يومين ثم رحل إلى أنداراكس ومعه جيشه معتقدًا أنه سيجد بها الملك الصغير، وهكذا وصل الجيش إلى أنداراكس ولم يجد بها أى شيء حى، وقد جاء إلى هناك مسلمون كثيرون رافعين راية السلام، وعوملوا نفس المعاملة التى تلقاها أهالى أورخيبا (Orgiva) عندما طلبوا السلام. ورحل الماركيز إلى أورخيبا، وهناك لم يجد أى إنسان فمكث الجيش هناك لعدة أيام، وهناك جاء الكثير من الموريسكيين يطلبون السلام، وقد وعدهم الماركيز بالسلام وبالبقاء آمنين، وأعطى كل قرية طلبت السلام بطاقة تحمل توقيعه حتى لا يتعرض لها قائد أو جندى مسيحى. وكانت إحدى القرى التى طلبت السلام يُطلق عليها اسم روليس (Roles)، والأخرى ألكولايار (Alcolayar)، والأخرى تحمل اسم بيتشينا (Pichina)، وغير ذلك كانت هناك العديد من القرى تحمل بطاقة الماركيز دون أن يتعرض لها الجنود. ولكن الماركيز خدع لأن جنوده كانوا يخرجون ليلاً ودون أمر منه ويسطون على هذه القرى التى

كانوا قد وعدوها بالأمان. وهكذا خرج قائد يُدعى بيالكا (Villalca) من غواديكس (Guadix) ومعه أناس كثيرون وفى سرية تامة عبر ميناء راغوا (Ragua) وذهب إلى قرية روليس، وارتكب مذبحة قتل خلالها تقريبًا كل المسلمين الآمنين هناك وأسر كل السيدات والأطفال وعاد إلى مدينته. وعندما علم الملك بهذا أمر بعقابه أشد العقاب.

وكان هناك قائد آخر من تينيانا (Tiñana)، وكان يُدعى كويباس (Cuevas)، توغل ومعه أناس كثيرون حتى وصل إلى قرية ألكولايار، فقتل كل سكانها المسلمين وأسر كل النساء والأطفال ليلاً.

وقائد آخر لا أعرف اسمه، تجرأ على الدخول حتى وصل إلى قرية بيتشينا (Pichina)، وقام بنهبها ليلاً، ولكن هذا القائد لم يفز بشىء من هجومه هذا لأن القائد غورى (Gorri)، ومعه ألف من الموريسكيين المسلحين قد تصدوا له وقتلوا مائة من رجاله، وأصابوا آخرين استطاعوا الهروب بجروح خطيرة وقد ترك الجميع أسلحتهم ليستولى عليها أعداؤهم، وقد هرب القائد الجبان على جواده ولم يتوقف حتى وصل بعد عدة أيام إلى أدرا (Adra) وقد حدث الكثير من هذه الغارات فى كل البشرات، وكانت سببًا جعل المسلمين الذين عانوا منها كثيرًا لا يثقون فى أى سلام، وهكذا نقول إن السلام الذى أقامه ماركيز مونديخار لم يكن سلامًا؛ بل خدعة كبيرة[٢] ، لأنه بعد إعطاء القرى بطاقة عليها توقيعه ومعاهدات سلام، كان جنوده يهاجمون القرى وينهبونها ويقتلون سكانها ويأخذون سبايا من الأطفال والنساء، ويرتكبون الكثير من الفظائع. ولهذا ثارت كل البشرات وحاولت الحصول على أسلحة تدافع بها عن أرواح أبنائها وتحارب بها المسيحيين. ولم يكن الماركيز يعلم أى شىء عن هذا، وعندما علم بأنه لم يعد يُجدى أى حل لهذه المشكلة، شعر بحزن شديد. وقد عيَّن حُراسًا على الطرق حتى لا يسمحوا للجنود بالخروج، ولكن هؤلاء الحراس لم يكونوا أقل دناءة وسفالة من الآخرين الذين يخرجون للسلب والقتل. ويشهد الله على أنه لو كان الأمر بيدى لأنزلت بالمسيحيين أشد العقاب الذى يمكن تخيله لأنهم كانوا سببًا لأن يلقى ١٣ ألف رجل مسيحى مصرعه فى معارك لا طائل من ورائها مع عدو غير مستعد وغير مسلح، فقط لكى يستمروا فى السطو والنهب تحقيقًا لمطامعهم[٣] أما التعساء الذين كانوا ضحايا سرقاتهم فلم يكن لديهم شىء مفيد بل

(٢) نلمح فى بعض أجزاء كتاب بيريث دى إيتا رغبةً فى النقد الذاتى، لكن الكتاب فى مجمله بعيد عن الموضوعية. (المراجع).

(٣) واضح هنا أن المؤلف يأسف لموت عدد كبير من المسيحيين فى معارك كان يمكن تجنبها . (المراجع).

تحول كل ما يملكونه إلى تراب ودخان، فلم يكونوا يعرفون منْ يقوم بسرقتهم، ولماذا يفعل ذلك، فقط استمرت هذه المعارك الدنيئة تستنزف أموال الملك والخطأ يقع على عاتق أشرار لم يريدوا أن يطفئوا النيران المشتعلة؛ بل كانوا يزيدون من اشتعالها، والذى عُرف عن هذه الحرب هو موت أعداد كبيرة من المسيحيين على يد بعض المسلمين غير المسلحين.

ونعود إلى الماركيز، الذى لم يكن لديه علم بكل هذه الغارات، فى يوم ما، عندما كان الجيش معسكرًا فى أورخيبا كما قلنا، وإذا بأحد الموريسكيين يأتى مسرعًا هاربًا؛ وكان يبدو أنه قد علق أعلى عصاه التى يحملها قطعة قماش بيضاء، إشارة للسلام، وعندما رآه الماركيز قادمًا أمر برفع راية بيضاء على رمح، لأن الرجل المسلم قد وقف منتظرًا أن تصدر هذه الإشارة كى يصل إلى الجيش، وعندما رأى المسلم أنهم رفعوا راية بيضاء، اطمئن واستأنف السير ولم يتوقف حتى وصل إلى داخل المعسكر، وهو يشعر بالتعب، ويتصبب منه العرق، سأل أين الماركيز وألقى العصا التى تحمل الراية على الأرض وذهب إلى حيث يوجد الماركيز ودون أن يبدى أية علامة للاحترام والتوقير، نظر فى وجهه وعيناه تمتلآن بالدموع، وقال الرجل المسلم للماركيز:

" اسمعنى، أيها الماركيز، إذا كنت بالفعل تتمتع بهذا اللقب: لا بد أن تعلم أن الاسم يجبرك على عمل أشياء نبيلة، وإذا لم يقم الرجل النبيل بأعمال نبيلة، لن يكن نبيلاً. عندما أنعم الملك فيرناندو على جدك بمفاتيح قصر الحمراء الشهير، لم يعطه إياه فقط لنبل عائلته، بل لأنه رجل نبيل ولا بد أن يقوم بخدمة الملك فيما هو نبيل. وقد واصل والدك أعمال جدك، ولأنه نبيل فقد تصرف بكل نبل. ولأن هذه المملكة التعيسة قد كانت مشهورة بنبلها وبحريتها العظيمة، وبعيداً عن قصر الحمراء الشهير، وبعيداً عن غوطتها الجميلة، وبعيدًا عن هوائها المنعش، وبعيداً عن متعها الرائعة، بعيداً عن كل هذا، لنبل هذه المملكة لم يكن أهلها ورجالها معتادين على الرضوخ تحت نير الظلم والعبودية والضرائب الباهظة، وأن تطأ أرض المملكة دولاً أجنبية، لقد قامت الكثير من حركات التمرد والثورة ضد المسيحيين، والتى سقط خلالها العديد من القتلى، والتى تسببت فى الكثير من الفضائح والاضطرابات التى تستحق أشد عقاب. وقد استطاع أبوك، كرجل نبيل، أن يسكِّن هذه الثورات، وأن يهدئ المتمردين، وأن يعيد إلى مملكته الشاسعة الرحمة والعفو، وجعل كل تمرد يمر فى سلام. كل ما فعله أبوك، فعلت أنت عكسه تمامًا، لأنك بدلاً من البحث عن السلام، بحثتَ عن الحرب طمعًا فى ٣ آلاف دوقية تعيسة طلبتها من أجل ابنك السيد لويس، وقد دفعناها لك عن طيب خاطر، ولكنك أردت أن تحصل

عليها دائمًا بالقوة، واستخدمت لذلك بطاقة عليها توقيع مليك، ولكن مليك كحكيم كاثوليكى، يعلم جيدًا الأحمال التى تثقل كاهلنا، وما تريده أنت فى النهاية أكثر مما نحتمل؛ فقد أعطاك البطاقة حتى ندفع لك الدوقيات الثلاثة آلاف ، إذا استطاع الموريسكيون أن يدفعوها، وإذا لم يرغبوا فى دفعها، لا يدفعوها. وأنت، أيها الماركيز، أعلنت بيانًا ضد الموريسكيين، وتركت نبل عائلتك واتجهت إلى القسوة من أجل مصلحتك. فقد أمرت بإخراج المؤن القديمة التى كانت لدينا بمملكة غرناطية، ومنعتنا من شراء السلاح، وحرمتنا من عادتنا الخاصة بالحمامات، وألا يكون لدينا خيل أو عبيد، وألا نسير بأزيائنا، وألا نتحدث بلغتنا، لم يعد هناك سوى حظر كل عادتنا التى كنا عليها فى تلك المملكة التعيسة. كل هذه الأمور قد قام أبوك وجدك بمثلها ولكنهم قد تخلوا عنها لنبل أخلاقهما، ولكى يرحموا الشعب الموريسكى (٤) . ولكنك قمت بعكس ذلك؛ فقد أصدرت أمرًا وجعلت الملك يؤكده، وكرجل قوى، جعلت هذا الأمر يُعلن بموافقة المجلس الملكى. ويشعر الآن الغرناطيون بالأسى وعدم الرضا تجاهك، وأشياء أخرى كثيرة. لقد أعلنتم الحرب. وكقائد عام أخذت القرار، وقد سرنا وراء الرايات المشرعة. فَعِدنا بالسلام، واطفئ نار الحرب. فقد أعطيتَ بطاْقات موقعة باسمك وعليها ختمك. وعملت على نشر الأمن فى القرى بهذه البطاقات. وعندما حل السلام على القرى بعثت إليها بقوادك الذين قاموا بنهبها دون موعد. وقاموا بقتل الرجال وأسر النساء والأطفال. وسرقوا الأموال وأشعلوا النيران فى البيوت. كل هذه الأفعال لا يقوم بها رجل نبيل ولا تدل على النبل. وهناك شىء آخر. لن يثق الموريسكيون أبدًا فى شخصك، ولا فى بطاقاتك، لأنها مليئة بالخداع، فقد قرر الشعب كله ألا يقيم سلامًا معك، بل أن يحاول البحث عن السلاح ويطلب الانتقام للضرر الذى لحق به. لا بد أن تعلم، أيها الماركيز، أننى يُطلقون علىَّ اسم بورتشينى (Purcheni)، وهكذا كانوا يسمون والدى، الذى كان حكيمًا وعالمًا فى الفن والطب، وكانت له مزايا كثيرة فى هذين العلمين، وكان يعرف الكثير عن النجوم. وقد علمنى هذا العلم، وفى هذا أستطيع أن أقول لك بعض الأشياء التى مرت على ذاكرتى. لتعلم أن هذه الحرب سوف تنتهى بعد أن يُدفع ثمنها غاليًا من الدم المسيحى ومن أموال الملك، وأن مملكة غرناطة سوف تضيع، وسوف يُنفى أهلها

(٤) لعل المؤلف هنا يلخص الشكوى التى تقدم بها المحامى الموريسكى نونييث مولاى تعبيرًا عن تطلعات الأمة الموريسكية، وفى الوقت نفسه يوجه انتقادات لماركيز مونديخار لم يوجهها أورتادو دى مندوثا الذى انتقد الجميع. (المراجع).

فى أراضٍ غريبة، وستبقى المملكة ضائعة مع ضياع أملاك الملك وأمواله وسوف تجبر على الخروج من إسبانيا، على الرغم من لقبك الشريف الذى تحمله، وسوف يحمل مفاتيح الحمراء الحبيب رجل آخر. وسوف يدفع الأبناء ثمن ما اقترفه الآباء. لن أقول لك منْ، ففى حالتك تهددك السماء بمصير ليس من السهل التكهن بصاحبه، لقد قلت الكثير بلسانى الجرىء: أعلم جيداً أننى أستحق العقاب لأننى أفضت فى الحديث أمامكم، وحتى لا تتمكن من معاقبتى، سوف أنهى حياتى بنفسى، وابدأ أنت معركتك ".

وعندما قال ذلك، أخرج الموريسكى بكل سرعة من حقيبة كرة صغيرة وكأنها طلقة رصاص ووضعها فى فمه ثم تمدد على الأرض ورأسه نحو أسفل ولم يتحرك. وقد تعجب الماركيز من وضعه هذا، فأمر أحد الجنود بأن يأتى كى يجعله ينهض. وقد جاء جندى وأخذه من ذراعه محاولاً رفعه من الأرض، ولكنه لم يستطع لأن الرجل المسلم كان ميتًا. وقد أثار موته إعجاب الجميع، فقد مات فزعًا من كل ما قاله، وقد أستقر المسلم فى هدوء هناك، بينما توجه الماركيز إلى الجميع قائلاً:

"حديث ماركيز مونديخار إلى قادة وفرسان جيشه"

" لقد أوقعنى حديث الرجل المسلم فى حيرة شديدة، أيها السادة الأفاضل، وكيف ألقى كلماته دون خجل أو استحياء، لقد قال الحقيقة فى بعض المواقف، وفى مواقف أخرى جانبه الصواب، عندما قال إن جلالة الملك قد فرض الدوقيات الثلاثة آلاف مقسمة على البشرات لكى يساعد فى نفقات السيد لويس، الحق أنهم قد طلب منهم دفعها، ولكن الموريسكيين أبدوا استياءهم فلم يستمر جمعها بالبطاقة، وقوله إنه بسبب هذا غضبت على الموريسكيين، ولكى أنتقم منهم أعلنت القوانين القديمة ضدهم، لم يحدث هذا. أقسم كفارس، أن هذا كان باتفاق المجلس الملكى وبإذنه، وأن رئيس كهنة غرناطة السيد بدرو غيريرو (Pedro Guerrero) وبعض الأساقفة وشخصيات مهمة من المجلس الملكى، رغبة فى جعل هؤلاء الموريسكيين يدينون بالمسيحية، ونزعهم من عاداتهم الموريسكية، قد فعلوا هذا، إننى لم أتوقف عن قول رأيى فى هذا: إذا كان هذا يمكن فعله بالحديد، فلست وحدى منْ يملك الحديد، وهذا يعنى أننى قد أعطيت بطاقات موقعة باسمى ومختومة بختمى، من الواضح أننى أعطيتها، ولكن هذا لا يعنى أنه بأمر منى هاجم الجنود قرى كانت بيننا وبينها سلام. إن هذا كذب، وهذا زعم يزعمه

الموريسكيون لأن الله يشهد أن ما حدث لهم قد أحزن روحى، وأقسم بحياة صاحب الجلالة، أنه لو وقع قائد أو جندى ممنْ خرجوا على أوامرى لأمرت بإعدامهم حتى لو كانوا من عائلات نبيلة ولديهم مميزات عديدة، لأنه ليس من المعقول أن يقوم الجندى الشرير بمثل هذه الشرور وأن يُلحق العار بالقائد العام".

وعندما أنهى الماركيز حديثه، أمر بإعلان بيان بألا يخرج أى جندى أو قائد من الجيش دون أمر، وأن منْ يفعل ذلك سيُعاقب بالإعدام. وفيما بعد، تم نشر هذا البيان فى كل الجيش، ثم أمر الماركيز بأن يتحصن الجيش ويستعد لأنه قد انقضت بضعة أيام وهم ينتظرون الرد من جلالة الملك على بعض رسائله التى بعث بها إليه.

وهكذا، من المناسب أن نترك ماركيز مونديخار فى أورخيبا مع جيشه وأن نعود إلى ماركيز بيليث الذى كان فى فيليكس، ولكن فى البداية نقول هذه القصيدة التى تتحدث عن الأشياء التى حدثت فى هذا الفصل الذى انتهى:

" قصيدة تتحدث عن ملاحقة ماركيز مونديخار لابن أمية، وعن معركته ضد المسلمين فى باتيرنا "

لاحق ماركيز مونديخار

الملك الصغير الملعون

الذى رحل إلى أوخيبا وأنداراكس

ولكنه لم يصل إليه قط

لأن ابن أمية

انسحب بعيداً

وعلى الرغم من عودة المسلم

ومكوثه فى أنداراكس

حيث كان هناك مجلسه

كما حكينا من قبل

وصل الماركيز إلى باتيرنا

حيث وجد الجيش مشكلاً

من المسلمين المستعدين

والذين كانوا ينتظرونه

كى يبدءوا هذه المعركة

إذا جاء إلى هذا السهل

وقد نظم الماركيز جيشه

كما كان معتاداً

ودارت المعركة

ورُفعت الرايات

وارتفع صوت الصافرة من جانب

ومن الجانب الآخر صوت النفير

وعلا صوت المعركة

وصوت النفير والطبول

لم يتوقف فى الخلف

وبدأت المعركة

وكانت دموية فى كل جانب

ولكن المسيحيين كانوا كثيرين

وقد تحسن وضع جيشهم

وقتلوا الكثيرين من المسلمين

بكل شجاعة وبسالة

وهرب المسلمون

من القرية التى كانوا يحمونها

ولاحقهم المسيحيون

بكل الغضب

وقتلوا كثيراً من

المسلمين حينما وصلوا إليهم

ونهبوا القرية

واستولوا على غنائم عظيمة

ورحل الماركيز من هناك

ووصل إلى أورخيبا

حيث عسكر جيشه هناك

ومكث فى انتظار رسالة

سوف يبعثها له الملك

وأصدر أمراً

لأنه لا يريد أن يتصرف

أفراد جيشه دون نظام

"خاتمة"

الفصل العاشر

الذى يتحدث عن المعركة التى دارت بين ماركيز بيليث ومسلمى أوهانييث (Ohánez)، وما حدث فى ذلك اليوم من سطو جنود السفن التى رست فى ألمرية على قرية إينوكس (Inox)، حيث وقعت معركة.

شعر ماركيز مونديخار بغضب شديد لأنه بسبب تصرفات جنوده وعدم طاعتهم والتزامهم النظام أصبح الموريسكيون يرون أنه رجلٌ لا يلتزم بعهوده، ولذا قرروا ألا يعقدوا معه أية معاهدة للسلام. وكان هذا يعنى لدى الماركيز خطرًا جسيمًا لأنه كان عازمًا على إنهاء هذه الثورة بطريقة سلمية كى يتجنب الأضرار العظيمة المنتظرة لهذا التمرد، وكان لدى الماركيز كل الحق فى شعوره هذا؛ فقد وقعت بالفعل شرور عظيمة على الموريسكيين نتيجة تمردهم، ولم يكن للماركيز ذنب فيما حدث لهم، فقد أقسم أكثر من مرة بحياة الملك ونبل عائلته بأنهم هم الذين قاموا بالثورة وتمردوا عليه، وعندما يُقسم رجلٌ مثله هذا القسم يعنى أنه ملتزم بما أقسم به، ولكننى أتفهم أن الماركيز كانت لديه أسبابه، كما سنقول لاحقًا.

ولكن لنترك الحديث عن هذا حتى نصل إليه فى حينه، ونعود إلى ماركيز بيليث، الذى تركناه فى فيليكس، كما قلنا ومعه كل جيشه.

كث ماركيز بيليث الشجاع فى فيليكس، بعد أن اشتبك فى معركة دموية، حتى الأيام الأخيرة من شهر يناير، وفى نهايتها أمر بتحرك الجيش من فيليكس وعودته إلى قرية تُدعى أوهانييث، وكانت تقع عند نهاية نهر ألمرية، الذى ينبع بالقرب من الجبال الثلجية[1] وقد تحرك الجيش، وفيما بعد هبط من تلك الجبال مسلمون كثيرون من الذين سبق لهم الهروب من المعركة الشرسة. وكان بعضهم يبحث عن نسائه، والبعض الآخر يبحث عن أطفاله، والبعض

(١) ربما يقصد سييرا نيبادا أو جبل شلير كما كانت تسمى قبل ذلك، لكنه استخدم لفظ sierra nevada la فآثرنا احترام النص. (المراجع).

يبحث عن إخوانهم وأقاربهم وأصدقائهم؛ ولكنهم لم يجدوا أى شىء سوى بعض العظام المبعثرة فى تلك الحقول، لأن الباقى التهمته الذئاب، بل وحتى الكلاب، من فرط جوعها. وعندما رأى المسلمون هذا الإيذاء الذى ألحقه المسيحيون بهم، إذ إنهم لم يجدوا أى كائن حى؛ بل وجدوا كل القرية قد تم نهبها ثم حرقها، أصابهم غَمٌّ عظيم وبكوا بكاءً مريراً، وهم يرفعون أيديهم ويكررون أسماء منْ يعتقدونه قد فقد من ذويهم. هكذا كان البعض يقول: "آه يا أولادى!"، وكان البعض الآخر يقول: "آه يا زوجتى!"، وآخرون كانوا ينادون على إخوتهم وأخواتهم. كان لهذا البكاء الحارتأثيره حتى على الكلاب التى كانت تطوف بالحقول وهى تشعر بفقدان أصحابها، وهكذا ردت الكلاب بعواء حزين، صاحب البكاء المرير للمسلمين، دون أن يجرؤ المسلمون على الذهاب إلى القرية للتعرف على منازلهم، بسبب البنادق والمدافع. من جانبى، أرى أن ما قام به المسيحيون من أفعال تعد وحشية فاقت كل الحدود؛ فقد ذبحوا فى فيليكس أطفالاً صغاراً كثيرين (وأعنى بهم الذين لم يتم تعميدهم، وهكذا ماتوا دون خطيئة ارتكبوها)، لأن أى ذنب أو خطيئة تقع على عاتق طفل عمره عام واحد أو حتى عشرة أعوام إذا كان هناك أطفال ولدوا فى أثناء الحرب وإذا كانوا لم يتم تعميدهم فذلك لعدم وجود قساوسة، لا أدرى إذا كان يمكننى أن أقرر أنهم قد تم تعميد دمائهم، لأنهم كانوا أبناء أناس جرى تعميدهم؛ ولكنى لا أستطيع أن أحل هذه المسألة، وأحيلها إلى علماء الكنيسة، لأنهم أعلم منى بذلك.

ونعود إلى ماركيز بيليث الذى قلت إنه قد خرج بجيشه حتى وصل إلى حافة هاوية سحيقة، فعسكر هناك لمدة ليلة، وفى اليوم التالى أمر بإعدام بعض الجنود لأنهم خرجوا من المعسكر دون إذن. وقد تحرك الجيش من هناك حتى وصل إلى مكان يُعرف بكانخايار (Canjáyar) فمكث فيه يوماً آخر. وفى تلك الليلة التى وصل فيها الجيش إلى كانخايار، قام المسلمون بذبح أكثر من ثلاثين مسيحيا بكل قسوة، كانوا تحت قبضتهم، وقد فعلوا هذا تنفيذاً لنصيحة قدمتها لهم مسلمة عجوز ساحرة، قالت لهم إنهم إذا لم يذبحوا هؤلاء المسيحيين فسرعان ما سيُهزم المسلمون ويُقتلون، وإنه يجب قتل هؤلاء المسيحيين انتقاماً لما قام به الماركيز من ذبح الكثير من المسلمين فى فيليكس، وإنهم أيضاً عليهم أن يذبحوا أى مسيحى تطوله أيديهم. وهكذا، لهذا السبب قام مسلمو أوهانيث بذبح المسيحيين هناك، وكانت بينهم فتاتان أو ثلاثة فتيات، من أجمل البنات اللاتى كنَّ يعشن على نهر ألمرية، وقد قامت الساحرة العجوز بقتلهن بنفسها، وكانت من أبناء قرية تُسمى أوراكا (Uraca)، بجانب نهر المنصورة،

وهى المنطقة التى كان يقطنها أسوأ الموريسكيين الكلاب الهراطقة، كما سنقول فيما بعد. وقد علم الماركيز بنبأ هذا الحادث الذى آلمه أشد الألم، لذا أصدر أمراً إلى القائد الأكبر أندريس دى مورا بأن يعبر بالجيش النهر الذى يبدأ من أنداراكس، والذى يُسمى نهر توها دى بلاتا (Toha de Plata) وقد نفذ القائد أمر الماركيز، وبعد عبور الجيش هذا النهر وصل إلى قرية كانخايار، حيث لم يعثروا على أحد، وبالقرب من هذه القرية كانت هناك قرية أخرى تُسمى نيكليس (Nicles)، ثم بعدها كانت قرية المانثاتا (Almançata)، وكانت جميعها قرى غنية وكبيرة، تحتوى على الكثير من الشمع والعسل، وكان ساكنو هذه القرى مجتمعين كلهم فى أوهانييث وربما كانوا مسلحين أيضاً، وكانوا ينتظرون قدوم الماركيز للدخول ضده فى معركة وهم على ثقة مما تنبأت به الساحرة العجوز، ابنة أوراكا، كما قلت. وصل الماركيز مع جيشه قريباً من أوهانيث. مكث الجيش كله فى جانب وعر، وكان المسلمون يمكثون فوق جرف عال به الكثير من الصخور وهم ينتظرون قدوم المسيحيين، وكان هذا يصعب من وصول المسيحيين إلى تلك المنطقة. وعندما رأى الماركيز ذلك أمر بإعداد أربع طلقات خاصة، كما كان معتاداً أن يفعل فى مثل هذه الظروف، وعندما كانت هذه الطلقات الأربع على وشك الانطلاق، أمر الماركيز بأن يركع كل الجيش ويصلى، وبعد الصلاة أمر بأن يهتف كل الجيش لسانتياغو، وقد أُطلقت فى البداية هذه الطلقات التى أحدثت دويا هائلا اهتزت له كل الوديان، والجبال، مما أنزل الرعب فى قلوب المسلمين الذين لم يتبق من كتائبهم فرد واحد؛ بل أطلق كل منهم بعض الرصاصات ثم بدءوا فى الهروب متخذين الدروب والجبال حسب معرفة كل واحد منهم بها. بينما بدأ المسيحيون وهم يهتفون لسانتياغو بالصعود إلى هذا المرتفع بكل سرعة ملاحقين المسلمين، وفى منتصف المرتفع كان هناك غدير ماء صافٍ، ولأن المسيحيين كانوا يصعدون المرتفع وهم يواصلون إطلاق النار على المسلمين الذين كانوا متواجدين بالقرب من القرية مدافعين عن طريق الصعود، أدرك هؤلاء المسيحيين العطش والتعب فأرادوا أن يشربوا من ماء هذا الغدير الصافى، ولكن علت صيحة عظيمة فى الجنود تحذرهم من عدم شرب الماء لأنه مسمم، وهكذا، قاوم المسيحيون عطشهم، وواصلوا سيرهم حتى وصلوا إلى القرية ثم بدءوا فى نهبها. وقد خرج المسلمون الذين كانوا بالقرية هاربين فى البساتين التى حولها، ولكن المسيحيين خرجوا وراءهم يتعقبونهم، وقتلوا الكثيرين منهم، ولم يتركوا أى عجوز حية حتى وصلوا إلى الساحرة العجوز فقتلوها ومزقوا جسدها إرباً. وقد استغرق تعقبهم للمسلمين أكثر من أربع ساعات لأن المساء كان قد حلَّ عندما عاد الكثيرون من المسيحيين محملين بالغنائم وبالنساء المسلمات الجميلات، وقد أخذ الجنود هؤلاء السيدات حسب إرادتهم أكثر من

خمسة عشر يوماً، بعدها أمر الماركيز بحملهن إلى الكنيسة. وبعد دخول الماركيز القرية بيوم واحد، تم دفن المسيحيين الذين ذبحوا بيد المسلمين فى الكنيسة التى أشعل فيها هؤلاء الهراطقة النار، وكان هذا حدثاً مثيراً للألم والحزن، أما بعض المسلمين الذين أخذهم المسيحيون فقد أمر الماركيز بإعدامهم وذلك بعد أن أطلق عليهم "خائنون للملك". وقد وافق دخول الماركيز أوهانيث عيد تطهير العذراء candaleria، وقد صادف أيضاً فى نفس اليوم وصول السفن من نابولى إلى مدينة ألمرية، وكانت تحمل الكثير من الجنود، وقد اتفق قائد ألمرية، السيد غارثيا، مع قائد السفن، وكان يُدعى السيد بدرو دى ليبا (Pedro de Leyva) بأن ترسو السفن على هذا الشاطئ حتى يراها ساكنو القرى الأخرى مثل قرية إينوكس وغيبرو (Guebro)، وأن ترفع هذه السفن أشرعتها على الطريقة التركية، وأن ينطلق فى ألمرية خبر وصول المدد من الجزائر لملكة غرناطة ومعه السلاح والجنود. وقد قامت السفن بتنفيذ هذا الاتفاق، وقامت بوضع الأشرعة على الطريقة التركية، وكان هذا يعنى أن تكون الأشرعة منخفضة وأن ترفع أطراف الأشرعة رايات بيضاء وزرقاء، مرسوم بها الهلال، وفى النهاية كان بالسفن عدد من القناصين الشجعان. وقد رست السفن على هذه الطريقة يومين فى تلك الشواطئ، وقد انتشر الخبر فى ألمرية بكل سرعة، وكان هناك منْ يقول إن هذه السفن سفن تركية وإنها أتت بالمدد للمسلمين فى مملكة غرناطة.

انتشرت هذه الأكذوبة فى كل قرى الساحل. وقد اعتقد المسلمون فى صدق هذا الخبر، بخاصة وأن السفن قد رست على الأرض، وأنها لم تقم بأى رحلة فكل مجاديفها كانت زاهية اللون، وكذلك ممرات الجنود، مما أكد خبر انتسابها للترك. وعلى الفور، وثق المسلمون فى هذا الخبر، وتجمعوا فى إينوكس حيث اجتمع مسلموها مع مسلمى غيبرو وتورياس (Torrillas) ودالياس، حيث كانت إينوكس أقرب مكان يمكن أن تصل إليه السفن. وهناك بدأ أهالى هذه القرى فى الاحتفال على طريقتهم، معبرين عن فرحتهم لوصول المدد لهم، ولكنهم لم يكونوا يدركون أن هذه السفن قد وصلت فى ليلة مظلمة إلى ألمرية. وقد هبط منها ٤٠٠ جندى، كانوا جميعاً من القناصين، وقد انضم إليهم من ألمرية مائتا جندى آخرون، لم يرغبوا فى إنزال جنود آخرين حتى يُشعروا حراسها بالأمان. وقد رحلوا فى نفس تلك الليلة إلى جبال إينوكس، حيث كان المسلمون يشعرون بالأمان، نائمون وهم يعتقدون أن قد وصل إليهم كل خير العالم. ولم تقم الفرق المسيحية حين وصلت القرية بعمل أى ضوضاء حتى فاجأت المسلمين الغافلين وهى تهتف لسانتياغو، ثم بدءوا فى إفراغ بنادقهم بإطلاق الرصاص والبارود حتى بدا وكأن

العالم كله على وشك السقوط. وقد استيقظ المسلمون فزعين، وعندما رأوا حجم الجنود وقوة سلاحهم بدءوا فى الهروب نحو الجبال. وقد قامت النساء الموريسكيات بجمع كل ما له قيمة لديهن من ذهب وفضة وللآلئ ونقود وملابس وحرير ثم أخذن فى الفرار أيضًا نحو الجبال بكل سرعة. وفى ذلك اليوم، كى تكتمل الخدعة، ظهرت السفن فى البحر، قريبًا من الشاطئ وبدأت فى إطلاق النفير على عادة المسلمين لأن المسلمين كانوا دائمًا هم منْ يقومون بعزف الموسيقى فى السفن، ولهذا فقد عزفوا على طريقتهم بكل مهارة، لأن القادة قد أمروهم بهذا. وعندما رأى مسلمو إينوكس أن السفن قريبة من الشاطئ، وأنهم يعزفون النفير على عادة الموريسكيين، اعتقدوا أنهم قد جاءوا كى يأخذوهم ويحموهم، ولهذا عاد كل المسلمين ونساؤهم إلى البحر بكل سرعة. وعندما وجد الجنود على السفن أن خطتهم تسير فى الطريق الصحيح، وأن الخدعة قد انطلت على الموريسكيين، أنزلوا على الفور زوارق إلى البحر، وعليها عدد كبير من الجنود والمجدفون وهم يرتدون ملابس المسلمين. وقد ارتفعت صيحات المسلمين والمسلمات على الشاطئ، وتوجهوا إلى الشاطئ هربًا من المسيحيين الذين كانوا يلاحقونهم، حتى وصلوا إلى البحر، وبكل سرعة زجوا بأنفسهم في الزوارق، وعندما امتلأت بالمسلمين والمسلمات حملوها إلى السفن وعادوا بالزوارق إلى البحر مرة أخرى كى يأخذوا مسلمين أكثر، وبهذه الطريقة تم تحميل عدد كبير من المسلمين في السفن، وكان الجنود على السفينة يطلقون النار والمدفعية وكأنهم يطلقونها على المسيحيين، ولكن دون ذخيرة، وكذلك كان يفعل المسيحيون على أرض الشاطئ، بشكل كان يوحى بأن هناك معركة شرسة تدور بين الطرفين، ومع هذه الخدعة صعد كثير من المسلمين والمسلمات في السفن وكان يتبقى عدد قليل منهم في طريقهم للركوب عندما اكتشف مسلو إينوكس أنهم قد خُدعوا وأن السفن مسيحية، وقد علموا ذلك من خلال أحد الجنود الأتراك الذى كان على السفينة، وقد قال لهم ذلك بلغة عربية. بعد ذلك، بدأ الموريسكيون الذين كانوا قد صعدوا على السفن في إلقاء أنفسهم في البحر، ولأن الشاطئ كان قريبًا، فقد وصلوا إليه وهم يصرخون بلغتهم: "إلى أين تذهبون أيها التعساء؟ لقد خدعتم. إن السفن مسيحية، عودوا، عودوا بسرعة إلى الشاطئ، ولا تذهبوا إلى السفن". وعندما سمع الموريسكيون على السفن هذه الصيحات بدءوا في إلقاء أنفسهم إلى البحر، وقد وصل الكثير منهم إلى الشاطئ واستطاعوا الهروب. وعندما علم المسلمون الذين كانوا لا يزالون على الشاطئ بأمر الخدعة، سارعوا بالهروب، ولم يواصلوا طريقهم فى البحر بل توجهوا نحو الجبال. وعندما علم الجنود المسيحيون على الشاطئ أن المسلمين اكتشفوا الخدعة، وأنهم سوف يهربون إلى الجبال لاحقوهم وقاموا بأسر عدد كبير من المسلمات اللاتى بقين، فلم

يتمكن من الفرار سوى ست سيدات منهن. وعندما رأت السفن أنه لن يصعد إليها أكثر ممن صعد، توجهت إلى وسط البحر. بعد أن استطاعوا قتل الكثير من الرجال المسلمين وأسر عدد آخر من النساء، وعندما وصلوا إينوكس قاموا بنهبها والاستيلاء على الكثير من الغنائم والملابس الحريرية. وعادوا بكل هذا إلى ألمرية.

منْ يستطيع أن يصف لكم البكاء الحزين الذى كان يُسمع فى السفن من النساء المسلمات المخدوعات!. لقد كان شيئًا يثير الشفقة عندما ارتفع نحيبهن وهن يودعن أراضيهن، فلم تغادر أعينهن جبال إينوكس العالية، وكانت تملؤهن الحسرة. كان بكاء النساء والأطفال بهذه الحُرقة بحيث لم يكن يُسمع صفير عريف المجدفين. وبعد وصول السفن إلى ألمرية، تم توزيع الغنائم، وحصل أهل ألمرية على نصيبهم. وعادت السفن بنصيبها إلى منطقة الشرق. وعندما وصلت إلى قرطاجنة قاموا ببيع عدد كبير من الرجال والنساء المسلمين الذين كانوا يحملونهم، واستمروا فى بيع المسلمين فى كل ميناء كانت ترسو عليه سفنهم. ففى مايوركا بيع عدد كبير من المسلمين، وبهذه الطريقة عند وصولهم إلى نابولى، كان الباقى من الغنائم قد تم بيعه. وهكذا كان المصير المشئوم لموريسكيي إينوكس وغيرها من القرى القريبة منها.

والآن من الملائم أن نعود للحديث عن الماركيز الذى تركناه فى أوهانييث، والذى قام بتوزيع الغنائم أيضًا على جنوده الذين أسعدهم ذلك كثيرًا. عندما دخل الجيش إلى أوهانييث ليلاً، شرب الجنود ماءً مخلوطًا بالدماء لأن عددًا كبيرًا من المسلمين كانوا قد لقوا حتفهم فى الجزء المرتفع من القرية قريبًا من النهر الصغير الذى يمد القرية بالماء، وهكذا تحققت نبوءة العجوز المسلم، وهو حكيم غرناطة الشهير، الذى يُدعى ابن أمين، وهو نفس الرجل الذى أعلن نبوءة العراف ميرلين[٢] بعد إلحاح من الملك بدرو ملك قشتالة. وبعد توقف الجيش فى أوهانييث لمدة يومين، قدم إلى الماركيز مجموعة من القناصة يصل عددهم إلى أربعمائة جندى من أفضل جنود لوركا، وكان قائدهم يُدعى ألونسو دى ليبا مارين، وكان مراجعًا لمدينة لوركا،

(٢) ظهرت حكايات العراف أو الساحر ميرلين نحو عام ١٥٢٥، وإن كان هناك من يقول إنها ظهرت قبل ذلك. تقول الأسطورة إن مرلين ابن شيطان وفتاة عذراء وإنه كان نتاج خطة من الشياطين لينصبوا المنافس الشرير للمسيح لكن أم ميرلين شربت من المياه المقدسة وكنتيجة لهذا فقد ورث من أبيه قدراته الخارقة ولم يرث شره وكرهه للبشر واستطاع التكلم يوم مولده ونشأ وهو بإمكانه تغيير الأشكال ورؤية الماضى ومعرفة المستقبل والتنبؤات. من الواضح وجود نسخة إسبانية من الأسطورة . (المراجع).

وعندما كان الماركيز يتابع بسرور عظيم سير الفرقة من النافذة، انطلقت رصاصة فأصابت حافة النافذة، ولو كانت أعلى قليلاً لأصابت الماركيز فى مقتل، وقد تراجع الماركيز إلى الخلف من فرط الفزع، وأراد القائد إجراء تحقيق حول هذا الحادث ولكن لم يتم معرفة موقع انطلاق هذه الرصاصة لأنه كان هناك العديد من الرجال الذين خرجوا لتحية قائد الفرقة حين وصوله بإطلاق الرصاص. وقد مكث الماركيز هناك أيامًا عديدة، وصله خلالها خبر يفيد بأن ماركيز مونديخار قد استولى على أنداراكس وعلى أوخيخار، وعلى قرى أخرى قريبة، حيث لم يعد هناك شىء يُفعل أو قرى أخرى يُستولى عليها. ولهذا بدأ جنود ماركيز بيليث فى التسلل فى الخفاء والانسحاب من الجيش، لدرجة أنه حين أدرك الماركيز ذلك كانت هناك أعداد كبيرة من الجيش قد فرت منه، وقد آلم ذلك الماركيز كثيراً، وأغضبه أن الملك الصغير بدأ الهجوم عليهم من تلك الجبال ويتفوق عليهم. لذا، فقد أمر بهبوط الجيش إلى سفح كانخايار (Canjayar) حتى يستطيع سلاح الفرسان القتال إذا قام العدو بالهجوم. ومن هناك فرَّ أيضًا عدد كبير من الجنود من الجيش، وبهذه الطريقة تقلص كثيراً عدد جيش الماركيز الذى كان يمكن للمسلمين فى حالة الهجوم الانتصار عليه دون أدنى صعوبة. وقد أدرك الماركيز خطورة الموقف الذى هو عليه، لذا كتب إلى لوركا كى يبعثوا إليه بمدد من الجنود، وأن يقوموا بعقاب الذين فروا من جيشه ووصلوا إليهم. وقد وقع فى هذه المدينة فى ذلك الوقت حادث هام، ذلك أن عمدة المدينة، وكان يُدعى أرياغا دى ألاركون (Arriaga de Alarcón)، كان قد استعد بجمع المدد للماركيز بناءً على طلبه ولكن حدث أن تعرض أحد النبلاء وكان رجلا مسنا لحادث ضرب وشُجت رأسه بواسطة عصاه، وقد شعر أبناء الرجل بالغضب الشديد لأنهم رجال شرفاء، لما تعرض له والدهم من عار، لذا شهروا سلاحهم وهم يصيحون: "الموت للخائن"، ولم يكن العمدة يدرى ماذا يفعل مع أهل لوركا؛ فقد قام أكثر من ألف صبى بالهجوم عليه بالحجارة، وكأن السماء تمطرها؛ وقد قام أيضًا رجال كثيرون بالهتاف (الموت، الموت!)، بطريقة أجبرت أرياغا المسكين على البقاء فى منزله دون مغادرته حتى لا يتعرض للموت. وقد تسبب هذا الاضطراب فى مقتل بعض الأشخاص وإلى وقوع خسائر فى أملاك العمدة، والذى كان كمنْ يدفع ثمن جريمة لم يرتكبها، ولأن الملك لم يصدر عفوا عاما أصاب نصف لوركا أو لوركا كلها الاضطراب بسبب حماقة هذا العمدة الساذج، الذى كان فى استطاعته أن يخدم الملك ويساعد الماركيز دون ارتكاب حماقات. وأخيراً، تم إرسال معونة للماركيز من لوركا، ومعها أربع فرق عسكرية أخرى من ألباثيتى (Albacete) ومن تشينشيا (Chinchilla)، وكانوا فى قمة استعدادهم بالسلاح والعتاد، وقد سُرَّ الماركيز بهذا أكبر سرور، وعندما رأى نفسه محاطًا بهؤلاء الجنود

قرر عبور البشرات، وهكذا أمر باستعداد الجيش وبدأ مسيرته التى لم تتوقف حتى وصل إلى بيرخا (Verja) وهى قرية تطل على البحر، وهناك أمر جيشه بالمكوث وهو فى كامل تحصنه وقوته حتى لا يصل إليه ضرر من قبل العدو.

ونترك هؤلاء هنا كى نعود إلى ماركيز مونديخار، الذى تركناه فى أورخيبا، حيث سنتحدث عن مصرع القائد ألبارو دى فلوريس وفرقته، بعد أن نقول فى نهاية الفصل الذى تناولناه هذه القصيدة:

" قصيدة تتحدث عن المعركة التى دارت بين ماركيز بيليث فى أوهانييث
وعن هزيمة إينوكس وجنود "ألمرية".

لقد رحلت رايات

فاخاردو العظيم العالية

إلى حيث الجبال الجليدية

عبْر طريق أوهانييث

آه من أوهانييث !

وحملت معها ثمانية آلاف جندى

كل واحد منهم يشبه إله الحرب

وقد وصلوا إلى الهاوية السحيقة

وهناك عسكر الجيش مساءً

مساءً ! مساءً!

وقد تحرك الجيش فى أحد الأيام

عند شروق الشمس
ووصل الماركيز إلى كانخايار
حيث واديها الكبير
الكبير ! الكبير !
وعلم جيش المسلمين
أن الماركيز جاء باحثًا عنه
وتلك الليلة طالعوا النجوم
ليعرفوا إذا كان الحظ حليفهم
حليفهم !
وقرأت لهم الطالع عجوز مسلمة
وهى امرأة أشد شرا من الورم الخبيث
وقالت لهم إن باستطاعتهم
أن يدخلوا المعركة وينتصروا فيها
وينتصروا فيها !
ولكن لا بد فى البداية
أن يقتلوا مسيحيى أوهانييث
الذين أوقعوهم فى الأسر
وأن يريقوا دماءهم
آه يريقوها !
وقد قُتل المسيحيون

بأيدى هؤلاء اللئام

وذبحت ثلاث فتيات

أمام أعين أمهاتهن

أمهاتهن ! أمهاتهن !

وعلم جيش الملك

بهذه الوحشية الشنيعة

وأقسم الجميع على الانتقام

وعلى الحرب كالإله مارس

إله الحرب ! إله الحرب !

وفى صباح أحد الأيام

بدأت مسيرة الجيش

فعبروا فى البداية النهر

حتى يصعدوا إلى أوهانييث

آه أوهانييث !

وفى أحد السفوح الشاسعة

انتظر الجيش كله

قدوم القوات الموريسكية

التى كانت متحصنة

متحصنة !

فى منطقة مليئة بالصخور

تمركزت قوة كبيرة

وقد أطلق عليها الجيش

أربعة طلقات هائلة

آه هائلة !

وقد غادر جيش المسلمين

منطقة الصخور

وسارع بالهروب عبر الجبال

لكن المسيحيين لاحقوهم

وطاردوهم !

قتل المسيحيون الشجعان

الذين لاحقوهم

كثيراً من المسلمين

ولم تجد النساء فرصة للهروب

للهروب !

فقد تم أسرهن جميعًا

فلم يكن هناك حلٌّ آخر

وماتت الكثيرات منهن

اللاتى لم ينتظرن

آه لم ينتظرن !

لقد قتل الكثير من المسلمين

وامتلأ النهر بالدماء

وشرب منه المسيحيون

الذين لا عذر لهم

لا عذر لهم !

ورأى الماركيز

أن يمكث الجيش هناك

بضعة أيام

حتى يصدر الأمر بالذهاب أو الرحيل

الرحيل ! الرحيل !

وبقى الجيش هناك عدة أيام

وتفرق عنه أفراد كثيرون

ولهذا رأى الماركيز

أن يعود مرة أخرى للحرب

الحرب ! الحرب !

فتوجه إلى سهل كانخايار

وهبط إلى هناك لأنها منطقة واسعة

ولكى يستطيع سلاح الفرسان

الانتشار فى هذا الوادى

الانتشار !

وكانت إينوكس فى ذلك الوقت

تتعرض للنهب وللدمار

فقد توجه إليها جنود من ألمرية

واستولوا عليها بطريقة وحشية

آه استولوا عليها !

وكان هناك جنود فى السفن

جاءوا لنفس الهدف

خدعوا المسلمين خدعة عظيمة

صعد على إثرها المسلمون فى السفينة

صعدوا فى السفينة !

فقد اعتقدوا أن السفن التى ظهرت

سفن سلام

ولهذا صعد على ظهرها

الكثير من نساء المسلمين اللاتى احتمين بها

آه احتمين بها !

وعندما أدرك الأعداء هذه الخدعة

أرادوا النزول من السفن

ولكنهم لم يستطيعوا

الفكاك من المصيدة

الفكاك !

وقد عادت السفن إلى ألمرية

كى تقيم أفراحها

وهناك اقتسموا الغنيمة

التى كانت كبيرة وثمينة

كبيرة جدا !

وقد رفعت السفن شراعها

واتجهت نحو الشرق

وهى تحمل مسلمين ومسلمات

كانوا يبيعونهم فى كل مكان

كل مكان !

وقد توجه الماركيز

فى ذلك الوقت إلى البشرات

راجلاً من وادى كانخايار

وكان ذلك مساء يوم أحد

مساءً ! مساءً !

لأن أناسًا كثيرين قدموا إليه

من ألباثيتى ومن أماكن أخرى

ومن لوركا ومن تشينشيا

وتحسن بذلك وضع الجيش

تحسن !

كانت خمس فرق عسكرية

جاءت لتنضم بعضها إلى بعض

ووصل عددهم إلى ألف جندى

على استعدد للحرب فى أى مكان

أى مكان !

مع كل هؤلاء خرج الماركيز

مع أمر بالمسير توجه

نحو البشرات

وراياته مرفوعة وألويته مشرعة

ألويته !

وقد عبر الماركيز بعد ذلك

حتى وصل إلى بيرخا وعسكر فيها

حيث تركناه هناك

كى نكتب عن أحداث أخرى

« خاتمة »

الفصل الحادى عشر

حيث نتناول فيه مقتل القائد ألبارو دى فلوريس ببشاعة وهزيمة جنوده فى بالور، وكذلك هزيمة القائد فرج وموت كل أعوانه فى بولبى.

كان ماركيز مونديخار يشعر بالحزن واليأس والغضب لأن أفراد جيشه لم يستطيعوا إخماد التمرد الذى أعلنه الموريسكيون، ولأن كل يوم كان يمر تتحسن فيه أحوال الموريسكيين ويدعمون قواتهم بالأسلحة؛ فقد وصل إلى الملك الصغير مدد من الأفراد جاءوا إليه من كل الأنحاء من مالقة ومن جبال روندة؛ وحتى من بلاد البربر جاء إليه العديد من رجال الحرب، وأيضًا وصلت إليه أسلحة بحيث أن المسلمين الغرناطيين كانوا على قدر كبير من التسلح والاستعداد للدخول فى الحرب فى أية لحظة. وكان الماركيز فى انتظار أمر صاحب الجلالة الذى أرسله إليه كى ينهى هذه الحرب، ولأن الماركيز كان لديه أيضًا منافسين أخبروا الملك بأنه بسبب إهمال الماركيز أو ربما دون قصد منه، تأجلت الحرب فترة، استطاع المسلمون أثناءها تحسين أوضاعهم وتجهيز أسلحتهم، ولهذا أمر الملك بأن يترك الماركيز المعركة ويعود إلى غرناطة. وسوف نتحدث عن هذا فى مكانه وفى أوانه.

عندما رأى الملك الصغير نفسه محاطًا برجال محاربين ومسلحين جيدًا، حاول فيما بعد أن ينال قدر استطاعته من المسيحيين، وهكذا لجأ إلى خدعة ذكية كى يثبت قيمة رجاله وأيضًا يُلحق الأذى بجيش المسيحيين؛ فقام بإرسال أحد رجاله النابهين إلى جيش ماركيز مونديخار، وهو على أتم الاستعداد لما يفعل ويقول، كى يخبر الماركيز بأن ابن أمية ليس مستعدًا للحرب، حيث يفتقر جيشه للرجال، وأنه يمكنه القضاء عليه بسهولة. وكان الرجل الموريسكى الذى تم اختياره لهذه المهمة خبيثا وذكيا مثل سينيون (Sinón) الذى بعثه اليونانيون إلى جيش طروادة. وهكذا رحل المسلم الخبيث، دون ارتداء ثياب حسنة، بل لقد ظهر على هيئة رجل فقير بائس عندما وصل إلى جيش الماركيز، وقد حمل عصا طويلة واضعًا فى نهايتها رداءً أبيض كإشارة

للسلام. وأخبر رجال الجيش الماركيز بقدوم أحد المسلمين حاملاً راية السلام. وأمر الماركيز بالسماح له بالدخول. وعند وصول المسلم وقف أمام الماركيز، ثم جثا على ركبتيه وبدأ الحديث إلى الماركيز قائلاً:

" حديث المسلم اللئيم إلى الماركيز"

" اسمعنى ياسيدى الشجاع

يا منْ يمتد نسبه إلى القوط

يا صاحب الدم النقى(١)

يا زهرة إسبانيا يا أعلى زهرة

بعد الزهرة اليانعة للملك فيليبى

الذى تمتلك صولجانك منه وأيضًا حكمك

لقد حان الوقت أيها الماركيز العظيم

كى تنهى الحرب فى ضربة واحدة

وأن تخضع هذه القوات المتمردة

للجيش الموريسكى الخبيث

وأن تضع حدا لهذه الدموية الوحشية

التى تحدثها الحرب المستمرة

وأن تبعد الموت عن المسيحيين

فى هذه الجبال وفى البشرات

---

(١) أما الدماء النقية للماركيز ففيها نظر؛ بل هناك منْ يزعم أنه لم يكن ابنا شرعيا. (المراجع).

حيث يذهبون دون أن تأمرهم بذلك

ويقتلون بأيدى الأعداء المتمردين

الثائرين ضد الكاثوليكية وضد المسيح

تستطيع ياسيدى

أن تزيل بكاء النساء التعيسات

وبكاء الأطفال

تستطيع أن تزيل الجوع والعطش والموت

الذى تجلبه الحرب البائسة

والتى بسببها يتجمد البشر من النوم

حيث يهبط الجليد

حيث لا يوجد مأوى آمن لهم

وعندما يولد الأطفال هناك يتجمدون

حيث لا تجد الأمهات للولادة فراشًا

سوى فراش الجليد

فانتبه جيدًا لهذه الأمور

فالجميع يتمنى السلام ويتضرعون

بعيون باكية للسماء كى تستمع إليهم

إن ساكنى الجبال البائسين

يطلبون من سيد البالور البحث عن السلام

وأن يوقف الحرب الدامية

لأنهم لا يريدون هذه الحياة الحزينة

لكن الملك اللعين يعارض رغبة الجميع

ويقول لهم لا تحاولوا معى ثانية

وإذا حاول أحدهم أن يطلب السلام

يأمر جيشه بإعدامه

حدث هذا مع رجال كثيرين

دون أن يجرؤ أحد على لومه

إنهم يريدون قتلهولكنهم لا يجرءون

لأن جيش الأتراك يحميه

ويمنعهم حتى من لمس ردائه

وهكذا يشعر الموريسكيون بالحزن

ولا يعرفون ماذا يفعلون

فهم يرغبون فى السلام

ولكن الحرب تزداد اشتعالاً

ولا يجرءون على عمل شيء

خوفًا من الموت

سيدى الماركيز العظيم القوى

الآن تستطيع أن تقدم بيدك العلاج

لهؤلاء الموريسكيين النادمين

وذلك بأن تقتل الملك الصغير هناك

فى بالور حيث يعيش آمنًا بعيدًا عن المعركة

فهو ينام ملء جفنيه فوق فراشه الوثير

المصنوع من الحرير الرقيق المطرز

فابعث ياسيدى الطيب برجال محاربين

وليقتله أحد القادة الشجعان هناك

فإذا مات هذا الخائن

انتهت الحرب نهاية مجيدة وحلَّ السلام

وسوف تستعيد المملكة رشدها سريعًا

فسوف يعود المسلمون إلى بيوتهم

وسوف يدفعون لخزائن الملك فيليبى أرباحًا عظيمة

وأنت ياسيدى سوف يُخلد اسمك

فى كل العالم وسيُحاط بالمجد

وسوف يستريح الأطفال

والنساء التعيسات ويستعيدوا أوضاعهم

وسوف يمدحونك كثيراً

لأنك حققت رجاءهم

وإذا لم تقم بنجدتهم يا سيدى الماركيز

سوف ترى البشرات مدمرة

حيث ترتفع فيها الرايات الإفريقية

وسوف تكون إسبانيا على وشك الانهيار

لا تجعل هذه الأشياء تحدث، أستحلفك بالله

قدم العَون والمعروف لمنْ يطلبهما

اذهب أنت بنفسك لهذه المهمة

واقتل الرجل الذى ينتمى "لدين محمد"

سيكون المجد من نصيبك إذا فعلت هذا

فأنت وحدك الجدير به لا أحد غيرك

فلا ترسل أى قائد يزعم الوصول إليه

ماذا تنتظر ياسيدى الماركيز؟ ارحل الآن

لا تتأخر ففى الانتظار يكمن الخطر!

اذهب إلى بالور واظفر بهذا المجد

لأن الرب يريد أن تظفر أنت وحدك به

أسعدْ بذهابك هذا كل المملكة

وسوف تعلق رأس الملك الصغير

على أسوار الحمراء الشهيرة

وسوف يكتب تحتها هذه الكلمات

هذه هى رأس

الملك الصغير التعيس

التى اجتثها الماركيز السعيد

بعد أن انتصر عليه" .

هذا ما قاله الرجل المسلم الحذر، الأكثر مكرًا وخداعًا من "سينيون"، وما لبث إلا وذرف من عينيه دموعًا خادعة، وقد تركت كلماته أثرها على كل الموجودين، وألانت كلمات الرجل المسلم قلوب السامعين، فأعلنوا جميعًا رغبتهم فى وضع نهاية للحرب الدامية. وعندما نظر الماركيز إليهم، قال لهم إن هذه الفرصة لا يجب أن تضيع منا، فالملك الصغير غير مستعد، وأبدى رغبته فى أن يقود هو بنفسه هذه المهمة حتى يحظى بالشرف الرفيع، وقد أمر فيما بعد القائد الأعلى قواته بأن يستعد معه ألفٌ من الجنود المسلحون للسير فى نفس تلك الليلة إلى بالور وقتل الملك الصغير أو القبض عليه. وقد وضع كل الرجال الحاضرين أيديهم فوق يديه، وقالوا إنه ليس من الضرورى خروجه هو شخصيا على رأس هذه الحملة حتى لا يتعرض للخطر هو ومنْ معه من الرجال؛ فهناك قادة فى جيشه، وهم رجال شجعان، يستطيعون القيام بهذه المهمة، وسيكون ذلك أفضل، بينما قال آخرون إنه من الأفضل أن يخرج كل الجيش بحثًا عن العدو، لأن خروج عدد قليل من الرجال يجعلهم عرضة للهزيمة والهلاك. كل هذا كان يُقال فى جيش الماركيز، بين القواد وأعضاء مجلس الحرب، ولكن أحد القادة وكان رجلاً شجاعًا، يُدعى ألبارو دى فلوريس، توسل إلى الماركيز أن يستمع إليه لأنه يريد أن يقول رأيًا صائبًا حول هذا الموضوع. وقد التزم الماركيز وجميع القادة والفرسان الصمت، تاركين لألبارو دى فلوريس أن يتحدث فى هذا الأمر، لأنه كان موضع احترام الجميع. وعندما رأى ألبارو أن الجميع قد التزم الصمت انتظارًا لسماع رأيه، تحدث قائلاً:

" حديث القائد ألبارو دى فلوريس "

" أيها الماركيز الشجاع، قائد غرناطة الشهير، المكلف من قِبل صاحب الجلالة، لا بد أن ننظر إلى الأمور الخاصة بالحرب بنظرة واعية وناضجة، نظرة رجال لديهم خبرة عظيمة بالحرب، لأن الخبرة تجعلنا نصدر أحكاماً صائبة على أمور هامة وخطيرة مثل تلك التى نحن بصددها؛ فإذا كان سيد البالور فى حالة من الغفلة والإهمال مثلما يقول ذلك الرجل المسلم، فليس من الممكن أن يكون هذا صحيحاً وحوله جيشه من الأتراك، لأنهم فى النهاية قوم حرب ورجال عسكريون ولن يتركوه إلا وهو فى أمان، وليس من الصواب أن يخرج القائد العام لهذا الجيش، أى الماركيز، فى هذه المهمة ويذهب بنفسه للبحث عن سيد ألبالور، حيث يمكن أن يتعرض للخطر والهلاك لأنه لو أن الجيش كله خرج، فمن الطبيعى أن يعلم العدو بهذا ويمكنه الانسحاب إلى مكانٍ آخر ويكون البحث عنه دون جدوى، كما هو حادث حتى الآن، والحرب لا يمكن أن تطول أكثر من ذلك. وفى رأيى أنه لا بد من البحث عن الملك الصغير وأن نقتله، فإذا مات هذا الملك، كما يقول الرجل المسلم، سوف تهدأ المملكة كلها وسوف تخضع للتاج الملكى كما كان. ولكى يحدث هذا لا بد أن يتم البحث عن الملك الصغير ليلاً ويقوم بهذا عدد غير كبير من الرجال، لأنه لو خرج عدد كبير من الناس سيصل الخبر إلى الملك الصغير. وإننى مستعد للخروج بحثاً عنه والقبض عليه أو قتله، لأننى أعرف كل شبر على أرض البشرات، وسوف أدخل عليهم من ناحية أعلمها وبشكل سرى للغاية بحيث لا يشعر بى ولا يرانى أى موريسكى، ولكى أقوم بهذه المهمة لا أحتاج سوى لمائة جندى، أو أقل؛ حتى لا يشعر بنا أحد فى قرية ألبالور ويهاجمنا، وإنى أعدكم بأن أشعل النيران فى القرية بالمائة جندى وأن أعمل الخناجر فى رقاب سكانها، ولو عثرت على سيد ألبالور هناك، فلن يمكنه الهروب من أيدينا، لأننى أعرف جيداً مكان إقامته وأول شىء يجب أن أفعله هو محاصرته بحيث لا يمكنه الفرار، ويمكننا العودة بعد ذلك من طرق سرية إلى جيشنا، وبإذن الرب سنعود ظافرين. إننى مستعد لعمل كل ذلك، وإذا كان هناك أى قائد آخر يمكنه فعل هذا أو أفضل منه فليتقدم وليمنحه الرب الحظ السعيد الذى نتمناه جميعاً والذى يستحقه جيشنا العظيم".

هكذا أنهى القائد ألبارو دى فلوريس حديثه، وقد اختلفت حوله الآراء، لأن الكثير من القادة كانوا يتمنون الخروج لتلك المهمة أملاً فى نيل الفوز والشرف الرفيعان المنتظرين منها. ولكن فى النهاية أجمع القادة على خروج القائد ألبارو دى فلوريس لهذه المهمة، ولكن فى صحبة عدد من الجنود أكثر مما طلب هو، وهكذا تم الاتفاق على اصطحابه ٨٠٠ جندى مقاتل

وقناص، وقد تم استعدادهم فى نفس تلك الليلة وخرجوا إلى وجهتهم ومعهم الرجل المسلم وقد التزم ألبارو دى فلوريس السرية التامة، ورحل عند حلول الليل، واستمر فى المسير دون توقف حتى بزوغ الفجر ومعه فرقته التى واصلت الليل بالنهار فى طريقها إلى بالور. وقد مكثت الفرقة ساكنة طوال يومين وواصلت المسير طيلة ليلتين، وعند حلول الليلة الثالثة كانوا قد أصبحوا على مشارف بالور، كانوا يسيرون فى صمت، ومتخفين حتى لا يراهم العدو، وقد وصلوا إلى القرية؛ ولكن كان فى انتظارهم هناك أكثر من ألفى مقاتل مسلم مصطفين فى صفوف متقاربة كى يباغتوهم بالقتال فى الوقت المناسب، وهكذا دون أن يروهم ترك المسلمون الجنود المسيحيين يمرون حتى وصلوا إلى القرية، وعندما وصل ألبارو دى فلوريس أمر جنوده بمحاصرة بيت الملك الصغير لأنه كان يعرفه جيداً، ولكن هذا التصرف كان بلا فائدة، فلم يكن الملك الصغير موجوداً بمنزله ولم يكن بالقرية أى شىء آخر سوى عدد من النساء، تم تركهن هناك حتى ينشغل الجنود بنهب القرية وأسر هؤلاء النسوة، وقد اختفى الرجل المسلم سينيون بعد أن قاد المسيحيين إلى هناك، فلم يُدرك الجنود أين أو كيف اختفى. وكان الوقت يقترب من الفجر عندما أحكم المسيحيون حصارهم لبيت الملك الصغير وصاحوا هاتفين "سانتياغو!" وقاموا بإطلاق النار من بنادقهم بكثافة مما أحدث ضوضاء عارمة فى كل القرية. وقد كان ألبارو دى فلوريس ينتظر بيقظة شديدة أن يخرج الملك الصغير من أى مكان سواء من أحد الأبواب أو إحدى النوافذ، ولكن كان انتظاره دون جدوى، فالملك الصغير كان فى مكان آخر ينتظر الهلاك الذى سيقع على ألبارو دى فلوريس. وعندما وجد المسيحيون أن أبواب ونوافذ المنزل محكمة الغلق من الداخل قاموا بغضب شديد بتحطيمها ودخلوا المنزل رغبة فى نهب ما فيه، وهم يتعجبون لعدم وجود مسلمين يقاومون هجومهم، وهكذا استولوا على كل ما رغبوا فيه بما فى ذلك النساء اللاتى، بمكر شديد، مكثن فى القرية لإيقاع أكبر ضرر بالمسيحيين. وأخيراً طلعت الشمس بعد أن نهبت كل القرية وتم سبى النساء، ولم يُسر ألبارو دى فلوريس لما حدث لأنه رأى أن الهدف الذى جاء من أجله لم يتحقق، وأيضًا لأنه رأى كيف استغرق جنوده فى النهب والسلب، وقد شعر بالقلق من حدوث مفاجأة فأمر جنوده بالاستعداد وخرج الجنود الثمانمائة من البيوت عندما دقت طبول الحرب، وهكذا تجمعوا فى مكان ضيق، وهم يحملون النساء الموريسكيات الجميلات للغاية وأيضًا الحُلى والجواهر، وقد أمروا الموريسكيات بحمل الغنائم وبالتجمع كى يعاودوا السير. وقبل مغادرتهم المكان أطلقوا دفعات من الرصاص ومن أسلحة أخرى. ولأن النساء المسلمات كنّ يعرفن الاتفاق المسبق لم يبدين أية علامة للحزن لوقوعهن فى الأسر، وهكذا بدأت هذه الحملة فى السير فى طريق عودتها إلى المعسكر؛ الذى

كان بعيدا جدا عنها، وهم يعتقدون أنه ما من أحد سيعترض طريقهم، وأنهم سيعودون سالمين محملين بالغنائم العظيمة، ولكن لم يكن الأمر كما يعتقدون، فلم يتجاوزوا في المسير مقدار فرسخ، وعند ممر ضيق لا بد من عبوره وإلا ضاعوا في الطريق، ظهرت لهم فرقة عظيمة من الأتراك على رأسهم القائد الشجاع كاراكاتشا (Caracacha)، وعلى جانبي الطريق برز لهم أكثر من ألفي مقاتل مسلم، وفوق أعالي الجبال رأوا دخانًا كثيفًا استخدمه المسلمون كإشارة نداء لبقية جنودهم. وقد أدرك ألبارو دي فلوريس أن المضيق قد ازدحم بالجنود المسلمين وأصبح من المستحيل أن يعبره هو وفرقته دون وقوع خسائر جسيمة، فندم على خروجه لتلك المهمة وأراد الانسحاب إلى الخلف والعودة إلى بالور كي يتحصن بها، وبالفعل عاد للخلف وجعل من طليعة جيشه مؤخرة واتجه نحو بالور، ولكن خرج عليه فريق آخر من المسلمين لا يقل شجاعة ولا ضراوة عن الآخرين، وكان على رأسه القائد التركي زميل كاراكاتشا، والذي اتجه بكل سرعة كي يدرك المسيحيين؛ وهكذا أصبح جنود ألبارو دي فلوريس جميعهم محاصرين بالخطر من كل جانب. وقد أزاح الجميع النسوة المسلمات جانبًا واستعدوا بالأسلحة التي حملوها. وهكذا انتحت النساء جانبًا ومعهن الغنيمة، ولأنهن كنَّ على علم بما سيحدث فقد بدأن في التحرك والعودة إلى بالور حاملين معهن الملابس والغنائم التي استولى عليها الجنود المسيحيون؛ الذين على الرغم من رؤيتهم النساء وهنَّ ذاهبات بكل الغنائم لم يحركوا ساكنًا، لاستغراقهم في المعركة الدامية التي تنتظرهم. وعندما نظر ألبارو دي فلوريس ووجد أن الهلاك يحيط به من كل جانب، تحدث إلى جنوده قائلاً: "هيا ياأصدقائي، أيها الجنود البواسل، إنه يوم مجدنا!، لا تخافوا أعداءكم، على الرغم من كثرتهم، فهم ليسوا في نفس مهارتنا في استخدامهم للسلاح وليس لديهم شجاعتنا، ولهذا فسوف يعيننا الرب وسوف يمنحنا سانتياغو المدد، والاستعداد الطيب سيقودنا للانتصار". وعندما قال ذلك ألقى القائد الشجاع بنفسه على الأعداء وأطلق رصاص بندقيته، مظهرًا شجاعة فائقة، وقال: "اهجموا عليهم، لا تخافوا شيئًا!"، وقد فعل الجنود المسيحيون البواسل مثلما فعل قائدهم الشجاع، فأطلقوا نيرانًا كثيفة على جيش المسلمين، ولكنهم بعد ذلك لم يستطيعوا أن يشحنوا بنادقهم مرة أخرى بالرصاص بسبب المسلمين الذين سارعوا بالهجوم عليهم، فوضعوا أياديهم وراء ظهورهم، ولكن ما جدوى هذه الحركة الشجاعة؟ وما جدوى شحن بنادقهم؟ فقد قتل كاراكاتشا الشجاع بأول دفعة من بندقيته عددًا كبيرًا من المسيحيين. ففي طليعة القوة المسيحية حيث كان يتواجد ألبارو دي فلوريس، عندما أطلق كاراكاتشا نار بندقيته قتل عدداً كبيرًا من الجنود؛ والحق أن أول دفعة من الرصاص أطلقها المسيحيون قتلت أكثر من خمسين

مسلمًا؛ ولكن ما جدوى كل هذا ؟ ماذا تفعل فرقة صغيرة أمام جيش كبير؟. وهكذا بدأت مذبحة للمسيحيين. قاتل المسيحيون كالأسود، ولكن باءت جهودهم بالفشل أمام الأعداد الهائلة للمسلمين؛ فقد كانت الجبال تمطر رجالاً مسلمين، وأكثر الجنود الذين أوقعوا خسائر فى صفوف المسيحيين كانوا من الأتراك، فهم رجال حرب ماهرون. لذا، أقاموا مذبحة للمسيحيين، وقد أبلى فلوريس بلاءً حسنًا؛ ولكنه أُصيب إصابة بالغة فتنحى جانبًا وصعد أحد الجبال ومعه عدد قليل من المسيحيين الذين كانوا يساعدونه ويدافعون عنه ببسالة؛ وقد قتل كل الجنود المسيحيين حيث لم يستطع الهروب من تلك المعركة الدامية سوى ستة جنود من الثمانمائة الذين تكونت منهم الفرقة. لم يكن هناك فى كل الجبال المحيطة سوى أجساد المسيحيين الممزقة إلى أشلاء، لأن المسلمين على كثرة عددهم لم يكونوا يرضون بقتل المسيحيين فقط بل كانوا يمزقونهم بأسلحتهم، وهكذا لم يكن هناك مسيحى واحد ليس فى جسده أكثر من مائة جرح، ومع ذلك فقد قتل خلال تلك المعركة كثير من المسلمين، فقد سألتُ [٤] أحد المسلمين الذين اشتركوا فيها عن ذلك، فقال لى إنه قد قتل من الجانب المسلم أكثر من ثلاثمائة جندى كان بينهم خمسة وعشرون تركيًا، وليس هناك شك فى هذا، لأن المسيحيين كانوا يقاتلون ببسالة من لا أمل لديه، وعلى الرغم من أن المسلمين قد تكبدوا خسائر كبيرة فإن ذلك لا يمكن مقارنته بخسائر ألبارو دى فلوريس، فقد فرح المسلمون كثيرًا بما حصلوا عليه من أسلحة المسيحيين؛ فقد استولوا على ثمانمائة بندقية وعدد كبير من السيوف. وقد حمل المسلمون هذه الغنائم وتوجهوا نحو بالور، وهم يحملون أسلحة القائد ألبارو دى فلوريس، والذى كان لديه سيف وخنجر ثمينان، مزينان بزخارف ذهبية، وطوق من الحديد كان يحمله أحد خادميه. كل هذا تم حمله إلى الملك الصغير، وقد أخذ هذا السيف والخنجر قائلاً: "إن غنائم القائد ألبارو دى فلوريس تعنى الكثير"، وقد قال لى بعض الموريسكيين الذين حضروا هزيمة ألبارو دى فلوريس إنه فى أقل من ساعة واحدة تم قتل المسيحيين، وإن الملك الصغير كان يتابع المعركة من أحد الجبال المحيطة بالمكان. وكان فى صحبته أكثر من ألفى مقاتل مسلم، كانوا ينتظرون نهاية المعركة.

---

(٤) رغم أن بيريث دى إيتا اشترك بالفعل فى حرب البشرات، وكان شاهد عيان عليها فإن المعلومات التى يقدمها فى كتابه لا ترقى إلى مستوى المعلومات الواردة فى كتاب أورتادو دى مندوثا، الذى كان قريبًا من المعركة ولم يشترك فيها. (المراجع).

وبعد انتهاء المعركة وعودة سيد البالور إلى قريته، تجمع حول شارة الدخان أكثر من ١٥ ألف مسلم، لم يدركوا المعركة في حينها. وقد نظر الملك الصغير إلى جيشه ورأى عدده الكبير وأسلحة رجاله فقال لهم إنه لم يكن لديه خوف من الهزيمة، وإنه بعون من "محمد" سيصبح الملك المتوج على إسبانيا كما كان أسلافه. وقد بقي الملك الصغير في بالور عدة أيام يُعد أموراً خاصة بالحرب، وهو ممتلئ غروراً، مخدوعًا بأمانيه المزيفة، حتى أدار الحظ له ظهره، كما سنقول فيما بعد.

ولنترك إذن هذا البائس الآن في بالور ولنتحدث عن هزيمة أخرى للمسلمين على يد المسيحيين؛ فالحق أن القائد الأسود فرج قد توغل عدة مرات في حقول لوركا وبيرا، وقد استولى في أثناء ذلك على الكثير من الغنائم والعديد من الأسرى، وقد ذهب إلى الجزائر مرة أو مرتين حاملاً أسرى مسيحيين وجالبًا معه أسلحة للمسلمين، وقد أصاب السماء التعب من جراء شروره[٢] لذا قررت هلاكه، وهكذا منقاداً بأعماله الشريرة أراد القائد فرج الاستيلاء على غنائم من الأسرى المسيحيين كي يحملهم إلى الجزائر، كما اعتاد أن يفعل، ولكي يستولي على هذه الغنيمة ذهب في صحبة مائة جندي إلى مكان اعتاد الذهاب إليه بالقرب من نبع بولبي، بين بيرا ولوركا؛ ومكث في الخفاء في انتظار عبور بعض المسيحيين الطريق، واستطاعت أن تكتشف مكانه فرقة مراقبة تابعة للوركا كانت متواجدة هناك لحظة وصوله، وحتى لا يضيع عن نظرها فرج وفريقه، ابتعدت عن مكان وجوده، وأشعلت بعض النيران كإشارة تحذير بحيث لا يشعر بها أو يراها فرج وأصحابه. وقد رأت هذه الإشارة فرقة الحراسة الخاصة بلوركا المرابطة في برج ألفونسي، وأيضًا فرقة أخرى كانت تحتل برج بيرا لا بييخا (Vera la Vieja)، وبعد رؤية شارة الدخان انتظرت الفرقتان، ثم أعطيتا إنذارا بما يحدث، ودون تأخير خرج من لوركا وبيرا أناس كثيرة مسلحة جيداً، وبكل سرعة اتخذت المدينتان طريق نبع بولبي. وفي أقل من ساعتين كان أهالي لوركا قد عرفوا من الحرس بمكان وجود فرج، وأحاطوا به بحيث لا يستطيع أن يهرب عن المعركة. كان أهالي لوركا قد بعثوا بثمانين جنديا شجاعا، ولكي يجبروا هذا المسلم على الخروج من مخبأه، خرج من بين الثمانين جندي نحو ثلاثين وتوجهوا ناحية النبع وهم مستعدون بأسلحتهم وبنادقهم، وعندما وصلوا إلى النبع، اكتشف حرس فرج وجودهم وذهبوا إليه وقالوا له إنهم قد اكتشفوا بعض

---

(٢) قد يبدو هذا التعبير صادمًا لأي متدين، لكن بيريث دي إيتا يستخدمه، ولم يتدخل الرقيب لحذفه. (المراجع).

المسيحيين فى طريقهم إلى بيرا، وإن عددهم يتراوح ما بين عشرين وثلاثين فرداً، فمع سوء العدسات المقربة لم يستطيعوا عدهم بدقة ولأن فرج كان واثقًا من حظه الطيب ومن شجاعة رجاله، فقد خرج إلى الطريق وقسم رجاله إلى فريقين: فريق يتجه إلى لوركا، وفريق يتجه نحو بيرا، بحيث لا يستطيع المسيحيون الفرار.. وقد توجه المسيحيون الذين كانوا ينتظرون هذه العملية عند النبع إلى الجزء الذى يوجد فى طريق العودة إلى لوركا، وعندما رأى المسلمون المسيحيين قاموا بإطلاق نيران بنادقهم بكثافة شديدة ولم يكن رد فعل المسيحيين أقل شراسة فقد أطلقوا نيرانهم أيضًا وهم يهتفون "سانتياغو". وقد توجه المسلمون الذين كانوا فى طريق بيرا إلى هناك بكل سرعة عندما علموا بنشوب المعركة، وعندما وصلوا أصبح لديهم ثقة فى أن المسيحيين لن يفلتوا من أيديهم؛ ولكن كانت ثقتهم هذه خادعة لأن أهالى لوركا المختبئين عند مصب نهر غواثمارا (Guazamara)، خرجوا عليهم وهم يهتفون بقوة "سانتياغو عليك بهم"، وأطلقوا عليهم نيران بنادقهم بشجاعة، وعندما رأى المسلمون هذا الهجوم عليهم، وعلموا أنه لن تكون هناك فرصة للاختباء، أخذوا فى الانسحاب وهم يقاتلون من وراء ساتر، حيث اتخذوا من التلال ساترًا لهم، وكان يعلو هذا التل كهف كبير ملىء بالصخور، فأصبحوا فى مأمن من الخيول بخاصة، واستمروا يقاتلون المسيحيين بكل بسالة، وسقط من الجانبين العديد من القتلى والجرحى. وقد بدأ أهالى لوركا فى صعود التل، على الرغم من أنهم كانوا أقل عدداً من المسلمين؛ ولكن فى تلك اللحظة وصل أهالى بيرا، وكان بينهم ثلاثون جواداً وثمانين من المشاة، الذين سمعوا الضوضاء الحادثة من إطلاق النيران فجاءوا على وجه السرعة راغبين فى المشاركة فى هذه المعركة. ولم يستطع الفرسان الصعود بخيولهم، لذا أحاطوا بالجبل من كل جانب حتى لا يهرب منهم أى مسلم. أما المترجلون من بيرا ولوركا فقد بدءوا فى صعود الجبل. ولكن فراج، كقائد شجاع، أخذ يحفز جنوده فأخذوا يقاتلون فى شجاعة، وقد تجمع معظم المسلمين داخل هذا الكهف الكبير وظل بعضهم عند بابه، ولكن جهودهم باءت بالفشل لأن المسيحيين كانوا يحاربون بكل ضراوة وبحماسة شديدة، وعندما رأى المسيحيون أن المسلمين يقاومون بشدة، اتفقوا على إضرام النار حول التل، بخاصة وأن التل كان يمتلئ بالحلفا الجافة؛ وقد اشتعلت النيران فى كل أنحاء الجبل بشكل مخيف، حيث كان دخانها يمكن رؤيته من بُعْد من لوركا وبيرا. وعندما رأى المسلمون أنهم لن يستطيعوا الهروب بأية طريقة، ألقوا بيأس شديد بنادقهم فى النيران حتى لا يستولى عليها المسيحيون، ثم اندفعوا نحو النيران فى محاولة لإيجاد طريق لهم للفرار، ولكن بعضهم اختنق بفعل الدخان و احترق آخرون، حيث تساقطوا وسط النيران المشتعلة، ومن كان الحظ يسعده ويخرج سليمًا كانت

تتلقاه أيدى المسيحيين، وكانوا يقتلونه على الفور، وبهذه الطريقة قتلوا جميعًا ما عدا فرج اللعين الذى ساعده شيطان ملعون واستطاع الهروب وسط لهيب النيران. ولم يستطع الجنود أن يأسروه أو يقتلوه، ولم يستطع الفرسان أن يقبضوا عليه، لأن فرج طار فى الهواء وكان يسير دائمًا فى الأماكن التى لا تستطيع الخيول اللحاق به فيها، فقد استطاع عبور مساقط للأمطار، وقفز عبر هوات سحيقة واجتاز أشجار الزيتون البرى الكثيفة التى كانت تحيط بمجرى سيل غواثامارا، وهناك لم يستطع أحد أن يدركه، وهكذا استطاع هذا الكلب الهروب، تاركًا فرقته كلها قتيلة، بعضهم محترقًا وبعضهم ممزقة أشلاؤه. وقد حزن المسيحيون كثيرًا لهروب فرج هذا، وعندما علموا بأنه ليس هناك أملٌ فى العثور عليه قاموا بقطع رقاب جميع المسلمين الذين وصل عددهم ثمانين رأسًا لأن الباقين قد احترقوا مع أجسادهم. وقد اقتسم أهالى لوركا وبيرا الرءوس وأيضًا السلاح. وهكذا كانت نهاية فريق فرج، الذى توجه وهو نصف محترق إلى بورتشينا، حيث كان يتواجد القائد مالح، وهناك استرد صحته، التى كنا نتمنى ألا يمنحها الله له للأذى الشديد الذى قام به فيما بعد، لأن هذا المسلم فرج الذى تعافى، كانت لديه رغبة فى الانتقام من المسيحيين لذا توجه نحو الجزائر وشيَّد سفينة كبيرة وحمل فيها العديد من الرجال الأشداء وأخذ يسطو بها على موانئ إسبانيا مستوليًا على غنائم كبيرة وأعداد غفيرة من الأسرى، بينما اتخذ من الجزائر مقرًا لإقامته[٤].

والآن من المناسب أن نعود إلى ماركيز مونديخار، لكن قبل هذا سنلقى هذه القصيدة الآتية التى تتحدث عن الفصل الذى فرغنا منه توًا:

" قصيدة عن موت القائد الشجاع ألبارو دى فلوريس وهلاك رجال فريقه "

حضر العديد

من نبلاء أندلوثيا الشهيرة

---

(٤) قصة فرج هذا تذكرنا بقصة موريسكى آخر يُدعى بلانكيُو ألحق بالمسيحيين الإسبان أذى كثيرًا، وكان يتخفى فى ملابس القساوسة ويجمع التبرعات ثم يقتل الأعداء. نصبوا له عدة كمائن لكنه أفلت منها جميعًا. (المراجع).

إلى الجيش الذى يقوده

ماركيز تينديا وموندیخار

وفي يوم كانوا يتناقشون

حول ما يستطيعون أن يفعلوا

فى هذه الحرب الدنيئة

ضد أهالى غرناطة

فوصل إليهم رجل موريسكى

جاء من الجبال مهرولاً.

وعندما وقف أمام الماركيز

تحدث إليه بهذه الطريقة قائلاً:

"أيها القائد الشجاع

يا قائد غرناطة وما حولها

لقد حان الوقت إذا أردت

لخوض حرب مجيدة

وإحلال السلام

فى كل المملكة

كما كانت من قبل

تعلم ياسيدى أن الملك الصغير

يعيش محاطًا برجاله

وينعم بالهدوء فى بالور

سعيداً بنهاره وليله

لا تشغل الحرب باله

ولا الضرر الذى وقع على قضيته

فى كل المعارك الجبلية

هناك تستطيع الظفر به

إذا أردت اذهب بنفسك

أو أرسل بأحد قوادك

فأنت تعلم جيدا الخير العظيم

الذى سيجلبه موته"

عندما استمع الماركيز لهذا

أراد أن يخرج فى هذه الحملة

لكن نبلاء جيشه

اعترضوا على هذه الفكرة

لأن الأمر خطير

ومن الأفضل أن يخرج

أحد القادة لهذه المهمة

قال القائد ألبارو دى فلوريس

إنه مستعد للقيام بها

لأنه يعرف جيداً كل أراضى المنطقة
وقال الماركيز إنه
يستطيع الخروج
وأمره بأن يصطحب معه ألفين من الجنود
البواسل الأقوياء
وأن يكونوا مستعدين جيداً بالسلاح
خرج ألبارو فيما بعد
من الطرق التى يعرفها
وكان يختبئ خلال النهار
ويواصل السير ليلاً
وصل بعد ثلاثة أيام إلى بالور
وصلها فجر أحد الأيام
ومعه رجاله الأشداء
بدءوا فى الهجوم
ولكن لم يجدوا أى دفاع
ولم يعترضهم أحد
فيما عدا بعض النسوة
البائسات الفزعات
استحوذ الجنود على الغنائم

وأسروا النساء

ولم يعثروا على الملك الصغير

لأنه لم يكن موجوداً هناك

وهكذا رحل الفريق

بكل هذه الغنائم

عائداً إلى الجيش الملكى

ولكن لم يكن الأمر كما أرادوا

لأن المسلمين قطعوا عليهم

كل الطرق المحيطة

وبدأت المعركة

التى كانت شديدة الدموية

وقد قاتل المسيحيون ببسالة

وقتلوا أعداداً كبيرة من المسلمين

ولكن المسلمين كانوا كثيرين

يتصفون بجرأة عظيمة

وكان هناك مائة مسلم

مقابل مسيحى واحد

وكانوا يقاتلون بضراوة

فلم يبق مسيحى حيا

وقام ألبارو دى فلوريس

بما يجب أن يقوم به القائد الشجاع

فمات كرجل كريم

مظهراً شجاعة فائقة

الفصل الثانى عشر

الذى نتحدث فيه عن الأمر الذى أصدره صاحب الجلالة إلى ماركيز مونديخار بالخروج من البشرات، والذهاب إلى العاصمة، تاركًا فى القرى المهمة بعض الجنود محصنين، وكيف أن الملك الصغير قرر مواجهة ماركيز بيليث فى مدينة بيرخا ذات مساء.

على الرغم من قولنا فى القصيدة السابقة إن هزيمة القائد ألبارو دى فلوريس لم تبق رجلاً حيا بالنسبة للعدد الكبير الذى كان عليه الجنود؛ فإنه يكون من الملائم القول بهروب نحو ستة أو سبعة جنود خلال هذه المعركة. وقد وصل هذا الخبر فيما بعد إلى حيث ماركيز مونديخار وأيضًا جيش ماركيز بيليث. وقد أسف ماركيز مونديخار أشد الأسف لما حدث، ولم تمر سوى أيام قلائل عندما سارع صاحب الجلالة بإصدار أمر للماركيز بأن يترك الحرب ويتوجه إلى القصر الملكى، وأن يترك فى القرى المهمة أفرادًا محصنين، حتى يصدر أمرًا آخر لما يجب أن يفعل، وهكذا رحل الماركيز الطيب إلى غرناطة، تاركًا كل رجال جيشه فى أورخيبا وبعضهم متفرقين فى بعض الحصون الضرورية وبعض القادة ومعهم بعض المؤن الخاصة بالحرب من بارود وأسلحة، ثم رحل فيما بعد إلى المدينة حيث اكتشف أن منافسيه قد شكلوا جزءًا من هذه الفكرة، والتى أحزنت الماركيز كثيرًا بخاصة عندما علم ببقاء ماركيز بيليث فى البشرات بينما أمروه هو بالخروج منها تاركًا أحد أقاربه ويُدعى السيد خوان دى مندوثا بديلاً عنه.

كان الملك الصغير يشعر بالزهو والمجد لقضائه على فرقة عظيمة من المسيحيين، ولاستيلائه أيضًا على الكثير من الأسلحة، وقد علم أن ماركيز مونديخار قد رحل إلى العاصمة؛ فقد أخبره موريسكيو غرناطة بهذا، وقد رفع هذا الخبر من معنوياته، بخاصة بعد أن طلب منه موريسكيو غرناطة محاربة ماركيز بيليث والقضاء عليه لأن ذلك سيدعم قضيتهم لأن المسلمين القادمين من إفريقيا لا يجرءون على التوقف بسفنهم أو مدَّ يد العَوْن لهم فى السواحل خوفًا من بطش ماركيز بيليث، فإذا تم القضاء عليه سيتوافد عليهم الجنود والنقود

والأشياء الضرورية واللازمة للحرب. وعندما أدرك الملك الصغير ذلك فكر فى الذهاب إلى بيرخا للتصدى للماركيز والقضاء عليه إذا استطاع، فقد علم أن الماركيز ينقصه الجنود فليس معه سوى عدد قليل من الناس، وهكذا تحدث فى أحد الأيام مع اثنين من القادة الأتراك وأيضًا مع عدد آخر من أهالى بالور قائلاً:

"حديث ابن أمية لقواده"

" أيها الرجال الشجعان، والقادة البواسل، يا حاملى راية محمد الخالدة، ارفعوا أسماءكم المجيدة إلى النجوم فأنتم تعلمون جيدًا كيف ساندنا محمد[١] فى كل موقف صعب، فبفضله وعونه لم يخذلنا قط، فمنذ أيام قليلة حققتم انتصارًا عظيمًا على أعدائكم، الذين استولينا منهم على أسلحة سوف تساعدنا فى حروبنا ضد الجيوش المسيحية، والآن ترون كيف هرب من أمامنا عدونا الرئيسى وقد تفرقت بعيدًا عنه قواته المسلحة، وإذا كان هناك بعض من جنوده يمكثون فى بعض الحصون فهم قليلون وينقصهم السلاح والعتاد، وهم جنود كتبت عليهم لعنة العيش فى الجبال، والمعاناة من بردها القارس، وكثير منهم تركوا الحصون وهبطوا إلى أراضيهم بحثًا عن لقمة العيش، أما الذين يسيرون فى الطرقات فهم فى متناول أيدينا، حيث يمكننا الاستيلاء على أسلحتهم بعد القضاء عليهم، والآن أصبح حلفاؤنا مستعدين لمد يد العَونْ لنا بكل ما هو ضرورى للحرب من أجل إنقاذ أهلنا فى غرناطة. سيمدوننا بالمال وبالرجال وبأشياء أخرى، إذا استطعنا فقط القضاء على عقبة كبيرة تقف فى طريق آمالنا، وأقصد بها ماركيز بيليث وحاكم مورثيا؛ فهو يقيم الآن فى بيرخا ومعه عدد قليل من المحاربين لأن كثيرًا من الجنود غادروا جيشه، فإذا رأيتم ما أرى فى أنه من المناسب لنا التصدى له فى ليلةٍ ما برجال بواسل، حتى نوقع به الهزيمة التى تجبره على الانسحاب، فإذا انسحب أصبحت المملكة كلها خاضعة لنا وسوف نحقق أمنياتنا كلها دون أن يعوقنا شىء. ولهذا أعتقد، أيها القادة الشجعان، أننا يجب أن ننتهز الفرصة للهجوم عليه، لأن ذلك فى صالحنا".

---

(١) يعود بيريث دى إيتا للحديث عن نبى الإسلام كإله. (المراجع).

هذا ما قاله الملك الصغير، وقد وافق عليه كل القادة والمحاربين الذين كانوا معه، بدءوا فيما بعد فى الإعداد لهذه المعركة. واتفقوا على الهجوم على الماركيز من ثلاث جهات، فى كل جهة منها عدد كبير من الجنود، وعلى رأس الجبهة الأولى القائد الديرى (Derri)، وكان قائداً شجاعاً، وكان معروفاً عنه معارضته الشديدة للملك الصغير، وقد سبق له البحث عنه ومحاولة قتله طمعاً فى الدوقيات العشرة آلاف، وقد عفا عنه الملك الآن بعد رجاء كثير من المسلمين له بعد أن كان قد أمر بإعدامه. أما القائد الآخر فكان يُدعى الحبقى، وكان على رأس قوة مكونة من ثمانية آلاف جندى محارب ومدعم بالبنادق والسيوف الصغيرة وأسلحة أخرى. أما رجال الجبال، الذين قاموا بشرور كبيرة فى غرناطة ومملكتها، فقد كان عددهم يصل إلى ستة آلاف رجل مسلحين، وكان قائدهم يُدعى أبونفيلى (Abonvayle) من مواليد غواديكس. وهكذا تم تقسيم اثنين وعشرين ألف رجل بهذه الطريقة، وقد خرج الملك الصغير من بالور ومعه كل جيشه وعبر جبال البشرات حتى وصل إلى مسافة ستة فراسخ من بيرخا، حيث عسكر جيشه ثم أمر فيما بعد بخروج ثلاثة موريسكيين خفيفى الحركة وعلى دراية بأراضى المنطقة وطرقها السرية، كى يستكشفوا بيرخا ويعرفوا جيداً مكان جيش الماركيز. وقد خرج الرجال الثلاثة على الفور، كل واحد منهم على حده لتنفيذ هذا الأمر. فى ذلك الوقت كان الماركيز يتعجب لعدم ظهور الجيش الموريسكى وعدم ظهور أية علامة للحرب من جانب الموريسكيين، وعدم رغبة جنود ماركيز مونديخار فى التجول فى البشرات، وقد وصله أيضاً خبر هلاك ألبارو دى فلوريس، وترك ماركيز مونديخار الجيش، وقد أصابت الحيرة ماركيز بيليث من جراء هذه الأحداث فلم يكن يعلم ماذا عليه أن يفعل، إذا أراد السير نحو الأمام أو العودة للخلف، بخاصة وأن صاحب الجلالة لم يُصدر أى أمر ولا السيد خوان الذى كان موجوداً فى غرناطة أرسل إليه أمراً بالحرب كقائد أعلى للقوات، وكان الماركيز ينتظر هذا الأمر، وقد شعر بالقلق إزاء هذه الحرب التى لم يأته أمر بها، وكان الماركيز يعلم تماماً أنه بهذه الطريقة لن توضع نهاية لهذه الحرب، فالملك الصغير لا ينتظر أن يهاجمه المسيحيون ولا هو يريد بدء معركة، بينما الملك الصغير فى حقيقة الأمر كان يستعد للدخول فى معركة ضد الماركيز، وكان يبحث عن آثاره، وكان ينتقل من مكان إلى مكان آخر، ولهذا السبب لم تكن الحرب لتنتهى أبداً، إذا لم تكن هناك وسيلة أخرى لإنهائها، فقد كان انتشار الجيش فى الجبال من الصعب تحقيقه ومن الصعب السير فى هذه السلاسل الجبلية؛ ولكن المسلمين لأنهم ولدوا فى أماكن مشابهة لها ونشئوا فيها، كانوا يسيرون فيها بكل سهولة، وكانوا يبيتون أيضاً فى تلك الجبال، لأنهم كانوا يعرفون جيداً أماكن كهوف لم يصل إليها أحد قبلهم ولا يعرفها المسيحيون، وكان لديهم

فى هذه الكهوف مؤن تكفيهم عشرة أعوام، من القمح والشعير والذرة والزيت والعسل والملابس؛ ولهذا السبب كانت الحرب تمتد ولا تنتهى أبداً. وكان الماركيز منتظراً أمراً بما يجب أن يفعله ولديه رغبة فى معرفة ما يفعله الملك الصغير ومكان وجوده، ولهذا فقد بعث برجاله فى كل مكان من هذه الجبال كى يعرفوا أخبار العدو، ولم يمض وقت طويل إلا وقد حضر إليه أحد الموريسكيين قادماً على وجه السرعة، وعندما سأله الماركيز بعد أن مثل أمامه، قال له إن سيد البالور قد رحل ومعه كل جيشه قادماً إليه، وأنه قد مضى على رحيله أربعة أيام. وقد سأله الماركيز إذا كان يعلم شيئًا آخر، وأجاب الموريسكى بلا. وقد أمر الماركيز بعد ذلك باتخاذ اللازم، فأمر بالنداء على أخوين وكانا جنديين ماهرين، أحدهما يُدعى دييغو ثيربانتيس (Diego Zervantes)، والآخر فرانثيسكو ثيربانتيس (Francisco Zervantes)، وكانا قد سبق لهما الوقوع فى الأسر عدة سنوات تعلما خلالها اللغة التركية، طلب منهم أن يرتديا ملابسهما على الطريقة الإسلامية، وأن يذهبا ليستكشفا معسكر الأعداء ويخبرانه بذلك، وإذا استطاعا الحصول على أحد الجواسيس من الجانب الموريسكى فليفعلا. وقد توجه الأخوان ثيربانتس للقيام بما أمرهما به الماركيز، فرحلا إلى أنداراكس؛ فقد كانا يعرفان كل الطرق السرية. وظن الناس أن الأخوين من أتباع محمد، وقريبين من مورثيا؛ وقال آخرون إنهما من بيرا، وإنهما جنديان ماهران، وقد تعرفت أنا شخصيا خلال حرب غرناطة على فرق من بيرا والمرية قام فيها الجنديان بأعمال بطولية، حيث كان واحدٌ منهما قائداً بأمر من صاحب الجلالة. وهكذا رحل الأخوان ثيربانتيس وذهبا إلى جيش المسلمين مرتدين ملابسهما الإسلامية، وصعدا إلى أعالى الجبال، حيث وجدا طريقين غير مأهولين، قال دييغو ثيربانتيس لأخيه إنه سيتخذ أحد الطريقين وعلى أخيه أن يسير فى الآخر، وهكذا سارا بعد أن اتفقا على العودة للقاء فى فجر أحد الأيام، ولم يتحرك دييغو ثيربانتيس سوى نصف فرسخ عندما اكتشف طريقا جبليا مرتفعًا ومستديراً يعلوه جبل صغير، ولأنه كان رجلاً داهية وقد استخدم حيلاً مشابهة، أدرك أن الجبل مرصد للمراقبة لأنه من هناك يمكن كشف جزء كبير من الأرض، ولكى يظهر أنه لا يفكر فى شىء ، كان يركز نظراته دائمًا على أعلى الجبل الصغير، وعندما أصبح قريبًا ابتعد عن الطرق وتوجه نحو الجبل، وبالكاد لم يتقدم سوى ست خطوات إلا وسمع صفيراً من أعلى الجبل الصغير فرفع ثيربانتيس عينيه فرأى ثلاثة رجال من المسلمين كانوا فى برج المراقبة، وعندما وصل إليهم ثيربانتيس تحدث إليهم بلغة عربية حول أمور تتعلق بالحرب. و لم يضيع ثيربانتيس الشجاع الفرصة، فقد وثب عليهم بحيث قتل فى لحظة واحدة اثنين، وقد أراد الثالث الهروب ولكن ثيربانتيس الشجاع لم يتركه يهرب، فقد قيده وحمله معه فى طريق العودة

إلى جيشه. كان الوقت متأخرًا، وعندما وصل إلى النقطة التى يلتقى فيها الطريقان قرر أن ينتظر هذه الليلة وصول أخيه، كما سبق واتفقا، ولم يمر وقت طويل إلا وحضر أخوه، وكان فى صحبته موريسكى آخر مقيد وجريح. وكان هذا الموريسكى من بولودوى (Boloduy)، فتى له قامة وسيمة، وكان يعشق امرأة مسلمة جميلة، وكان يعلم أنها قد أسرت فى جيش الماركيز، لذا فقد قرر الموت، فخرج من جيش الملك الصغير وتوجه نحو بيرخا فقط ليعرف إذا كانت حبيبته لا تزال حية أم لاقت حتفها، وإذا كان يستطيع أن يراها أو يتحدث معها، وكان قادمًا من هذا الطريق السرى عندما تقابل مع فرانثيسكو ثيربانتيس، وعندما رآه هذا الأخير قادمًا وحيدًا هجم عليه، وحاول المسلم أن يدافع عن نفسه فأطلق بعض الطلقات النارية، ولأنه أخطأ الهدف لم يدع ثيربانتيس فرصة كى يعيد هذا العاشق ملأ بندقيته؛ فقد وجه سيفه إليه فأصابه بجرح ليس خطيرا. وعندما وجد المسلم نفسه مصابًا أخذ سيفًا صغيرًا بيده وأخذ يوجهه بكل جرأة وحماسة نحو ثيربانتيس، وهكذا استمر القتال بينهما بعض الوقت، وقد أظهر كلاهما شجاعة فائقة فى القتال، ولم يرغب ثيربانتيس فى قتل العاشق المسلم كى يحمله حيا إلى بيرخا، وقد شاء الحظ الطيب أن يجعل المسلم يفكر فى الظفر بالمسيحى طمعًا فى الغنيمة ويتعرقل فى بعض أعشاب الجبل فيقع على ظهره ويحاول أن يعود واقفًا مرة أخرى إلا أن ثيربانتيس، الذى رآه يسقط، وثب عليه بقوة الأسد وخفة الطائر الجارح وأخذ يكيل له الضربات حتى جعله يعود ويسقط مرة أخرى، ثم قال له: "إذا لم تستسلم سأقتلك على الفور بهذا الخنجر!"، وعندما أدرك المسلم شدة إصابته وسقوطه على الأرض وموقف هذا المسيحى القوى، خاف من الموت بهذه الطريقة القاسية، وهكذا تنهد بعمق، وألقى بسيفه الصغير من يديه، وقال بين دموعه: "إننى أستسلم لك أيها المسيحى الشجاع، ولكنى أقول لك إننى أفضل الموت على الحياة لأن الحظ كان دائمًا يقف ضدى، وقد وضعنى فى ذلك الموقف الصعب، ولا تعتقد أيها المسيحى الشجاع أننى قد هُزمت بسبب قوتك؛ بل بسبب سوء حظى[٢] ، فخذنى إلى حيث تريد، فإنك لن تستطيع أن تؤذينى بالقدر الذى أضرنى به سوء حظى، وعندما قال ذلك انطلق المسلم التعس فى بكاء حار، وقد تأثر فرانثيسكو ثيربانتيس وامتلأ عطفًا على

(٢) هنا يبتعد بيريث دى إيتا عن التاريخ ويُفسح مجالاً للأدب؛ فالفقرة المذكورة وردت فى رواية ابن سراج فى أثناء حديث الفارس ابن الرئيس إلى القائد المسيحى نارباييث. الجدير بالذكر أن ابن الرئيس كان فى طريقه للقاء محبوبته كما هو الحال هنا . (المراجع).

المسلم (وهو أمر طبيعي أن يشعر المسيحيون بالعطف على الأشخاص سيئى الحظ)، فتناول سيف المسلم وبندقيته، ومدَّ له يده ورفعه من الأرض، وحتى يبقى على طبيعة الحرب، أخذ حبل البندقية وقيَّد المسلم وأخذه معه في طريق عودته إلى بيرخا، حيث التقى وأخاه في المكان المحدد (كما سبق وقلنا)، وقد شعر الأخوان بسرور عظيم لرؤية بعضهما بعضًا، وقد اتفقا على العودة إلى بيرخا، التي وصلاها مساء. وقد سألهما الحراس الذين يراقبون خارج المدينة عن هويتهما، وجاءت إجابتهما أنهما الأخوان ثيربانتيس اللذان خرجا من بيرخا، وقد أذن لهما الماركيز بالدخول، وقد حضرا أمام الماركيز ومعهما الرجلان المسلمان، وقد فرح الماركيز بقدومهما، بخاصة عندما علم بأسرهما للرجلين المسلمين، وأمر بإعطائهما هدايا، وقد أمر الماركيز أيضًا بمعاملة أسيرى الأخوين ثيربانتيس معاملة سيئة تلك الليلة حتى يعترفا بالحقيقة عندما توجه إليهما الأسئلة، وقد بدءوا بالتحقيق مع المسلم الذى قبض عليه دييغو ثيربانتيس، والذى قال إنه لا يعرف أى شيء عن أمر الملك الصغير. وعندما رأى فاخاردو أن المسلم ينكر كل شيء، أمر بأن يُعذب بتقريب النار من قدميه بعد أن تُدهنان بالزيت، وهو إحدى طرائق التعذيب البالغة القسوة. وعندما رأى المسلم أنه سوف يحترق بهذه الطريقة الوحشية أعلن أنه سيقول الحقيقة وسيدلي بكل ما يعرف. وقد تم إبعاد النار عنه بأمر من الماركيز، وقد بدأ الرجل المسلم يتحدث قائلاً:

" اعتراف جاسوس ابن أمية "

"سوف تعرف، يا سيدى الماركيز الذى لا يُغلب، أننى من مواليد أنداراكس، وأننى أدعى ألوندين (Allondín)[٢]، ولأن الحرب الدائرة بدأت تتحرك في غير صالح الجانب المسيحى، التزمت أنا وثلاثة من إخوتى بالانخراط فى جيش الملك الصغير رغبة في الفوز بحريتنا وهى رغبة يشاركنا فيها كل أبناء المملكة الغرناطية. والآن، وبعد هزيمة ألبارو دى فلوريس، امتلأ ابن أمية شعوراً بالمجد والعظمة؛ فقد أدرك أن العالم كله أصبح أصغر من طموحه، وعندما رأى أن جيشه مسلح بشكل جيد، وأن رجال حرب شجعان يحيطون به، رأى أن يأتى للبحث

---

(٢) هذه الطريقة فى الحديث تذكرنا بروايات الصعاليك التى كانت رائجة فى إسبانيا حينذاك. مرة أخرى يتداخل الأدب مع التاريخ عند بيريث دى إيتا . (المراجع).

عنك للنيل منك، وقد أعد لذلك ثلاث فرق مجهزة بالسلاح والرجال المحاربين. يقود الفرقة الأولى قائد يُدعى ديرى، وهو رجل شجاع، وتتكون هذه الفرقة من ٨٠٠٠ جندى. وتتشكل الفرقة الثانية من ثمانية آلاف من الجنود أيضًا، وعلى رأسها قائد يُدعى أبونفيلى، وهو من مواليد غواديكس، وهو قائد شجاع. أما الفرقة الثالثة فجميع أفرادها من رجال الجبل، وهم رجال شجعان وتتكون من ٦٠٠٠ جندى، وكلهم رجال لا يعرفون الخوف وعلى رأسهم القائد الحبقى، الذى يقدر ابن أمية أشد تقدير، وقد صدرت لهم الأوامر بمهاجمة جيشك يا سيدى، بحيث تأتى إحدى الفرق من ناحية أوغيخار، وأن تأتى الأخرى من اتجاه دالياس، والأخيرة من ناحية أدرا، وسوف تقوم الفرق الثلاث بالهجوم عليك فى وقت محدد؛ فالفرقة القادمة من أوخيخار سوف تبدأ هجومها من طريق أغوا (Agua)، بحيث تكون قريبة من المكان الذى تُحتجز فيه المسلمات، وسوف تهاجم فرقة أدرا من ناحية حقول الزيتون بحيث تكون الثالثة قريبة من مكان الكنيسة. ليس عندى، يا سيدى، ما أقوله لك أكثر من ذلك، وهذه هى الحقيقة، التى سوف تأتى غداً صباحًا، وسوف يأتى الجنود متخفين حيث يتعرف بعضهم على بعض فى أثناء المعركة ".

عندما قال الجاسوس هذا، لم يتعجب الماركيز من قوة الملك الصغير، وقد أمر بإلقاء هذا المسلم خارجًا، وأن يحتفظوا به، ثم فيما بعد أمر بإحضار الرجل الآخر، وعندما مثل أمام الماركيز وسأله عن قرار الملك الصغير ومنْ حوله من الرجال وعن مكان تواجده، أجاب المسلم قائلاً:

"حديث واعتراف الجاسوس الآخر"

"سوف تعلم يا سيدى العظيم، أننى من بولودى وأن نسبى يمتد إلى بيت كويباس وبورتيا (Cuevas y Portilla)، وأننى أنتمى أيضًا إلى سلالة المروجى (Alijarines) العظيمة، ولا بد أنك قد سمعت عن نسبى وعائلتى لأنهم أبناء أرضك. وأنا، كفتى شاب، كما ترى، دفعنى إلى الحرب الثورة على الحروب الظالمة والرغبة فى حمل سلاح كى أظهر جدارة شخصيتى كما أظهرها أجدادى السابقون فى الحروب الماضية، فحملت سلاحى وأردت تقديم خدماتى لسيد البالور، الذى هو الآن ملكنا المتوج على هذه الولايات. ولأن الحرب لم تسر على النحو الذى أردناه، رأيت أن أذهب إلى لاس كويباس، حيث يعيش أقاربى فى سلام وهدوء؛ ولكن حظى التعس لم يعط لى الفرصة لتحقيق هذه الرغبة، لأننى وقعت أسيراً لحب منصورة الجميلة

(Almanzora)، التى تتواجد فى هذا المكان الذى نحن فيه الآن؛ فقد أرسلنى الملك كى أتفاوض حول أمور معينة هنا فى أدرا، وقد استطاعت المنصورة الجميلة عندئذٍ أن تأسرنى بنظراتها بحيث أصبحت أسيراً فى هذا المكان بسببها أكثر من السبب الذى جئت من أجله، وقد اتفقنا نحن الاثنان على الزواج، وقد استمتعت بهذا الاتفاق على الزواج عدة ساعات بحبها. وقد باعد اضطرارى العودة إلى مليكى بينى وبين سعادتى. فعدت إلى بالور (التى لم أكن أتمنى العودة إليها) حاملاً معى فى ذاكرتى صورة سيدتى منصورة، وكانت كل ساعة تمر علىَّ وأنا بعيد عنها بمثابة ألف عام؛ وكنت أنتظر بفارغ الصبر انتهاء الحرب حتى أعرف أين توقفت حبيبتى منصورة؛ وقد أرادت السماء أن تُؤذينى فيها أشد الأذى عندما وصل جنودك إلى هذا المكان حيث وقعت حبيبتى فى أيديهم. وعندما عرفت.أن بيرخا احتلها جيشك القوى، وأن حبيبتى لا أدرى عنها شيئًا ولا أعلم أين ذهبت، أصابنى اليأس، فليس لحياتى معنى دون منصورة، وقررت أن أسلم نفسى للموت أو للعبودية، وهكذا اتخذت طريقى نحو سعادتى حيث لم أتحمل أن أجد نفسى قريبًا من المكان الذى عشت فيه أيامًا سعيدة، لذا قررت إما أن أموت أو أقع أسيراً بين أيديكم. وكأحد العبيد خرجت من بالور واتخذت طريقى نحو بيرخا، وقد أراد القدر أن أتقابل مع أحد جنودكم، وكان شجاعًا كإله الحرب، الذى عندما رآنى مصابًا قبض علىَّ، وتعلم، أيها الماركيز الشجاع، أننى لم أبد أية مقاومة للأسر رغبة فى رؤية بيرخا ومعرفة أخبار عن حبيبتى، التى إن لم أعرف شيئًا عن أخبارها فسوف يكون ندمى شديداً، لأننى فيما قبل كنت أفضل الموت على وقوعى فى الأسر، ولكننى أتيت جريحًا ووقعت أسيراً لكم ولن أستطيع الهروب من أراضيك التى فيها والد أبواى وأجدادى. وإذا أردت، أيها الماركيز الطيب، أن تأمر بموتى، فإننى أتوسل إليك أن ترحمنى وتجعلنى أرى حبيبتى المنصورة قبل ذلك ثم أحكم علىَّ بعد ذلك بما تراه. وما تريد أن تعرفه عن الملك الصغير (هكذا كان يسميه المسيحيون)، فلتعلم، يا سيدى العظيم، أنه قد جاء ومعه ثلاث فرق عظيمة مجهزة بالبنادق كى يهجم عليك هجوماً شديداً، وكل فرقة سوف تدخل من مكان محدد لها، وإنك، يا سيدى، لا ينقصك الذكاء أو الخبرة بالحرب ولا الشجاعة، فانظر إلىَّ واصنع ما تشاء، فإننى أقدم نفسى لخدمتك بإخلاص حتى الموت، فإننى لا أرى لى مجدا سوى وأنا فى خدمتك وفى جيشك، فاقبل، أيها الماركيز العظيم، تطوعى لخدمتك".

هكذا أنهى الرجل المسلم حديثه تاركًا الماركيز فى دهشة عظيمة بعد سماع قصته. ولأن الماركيز كان رحيمًا كرجل نبيل وصاحب فضيلة، فقد أخذته الشفقة على هذا الرجل المسلم،

وأمر بحمله إلى حيث يُعالج بكل سرعة، وقد كان لديه كل الحق فى ذلك، فقد اعتبر أن ذلك المسلم فى النهاية ينتمى إلى دم نبيل وسليل عائلات نبيلة. وهكذا قام هذا المسلم بخدمة الماركيز حتى انتهت الحرب، واستمر فى خدمته حتى مات الماركيز، وقد تزوج منصورة ويعيش الآن هذا الموريسكى وزوجته فى بيانوييا دى ألكارديتى (Villa nueva de alcardete) مستمتعاً بحياة الأغنياء.

والآن نعود إلى الموضوع الأساسى. عندما علم الماركيز الشجاع عن طريق هذين الجاسوسين بأن الملك الصغير قد جاء بجيشه، أمر بأن يستعد الجيش كله ولكن فى سرية تامة، وأمر أيضًا بوضع أسلحة فى الميادين وبعض رجال الحرب، وأن يتم احتلال كل مداخل الشوارع والطرقات، وقد قام بهذا التقسيم لقواته بكل سرية.

كان لدى فاخاردو ثلاثة آلاف من الجنود معهم بعض الفرسان والمشاة المترجلين، وفى ذلك الوقت لم يكن معه من الرجال القادرين على حمل السلاح سوى ألفين لأن الباقين كانوا مرضى لا يستطيعون الحرب، وكانوا جميعًا موجودين فى الكنيسة، وكانوا رجالاً مهمين، أقول الفرسان الذين كانوا يتناولون الطعام على مائدته وكانوا يتمتعون بثقته.

وقد تعمَّد الماركيز أن يشترك فى تلك الحملة وأن يخرج أيضًا رجال من هؤلاء الفرسان، فخرج من مورثيا السيد خوان باتشيكو (Juan Pacheco) وألونسو لاثارو (Alonso Lázaro) وفرانثيسكو دى ليسون (Francisco de Lisón) وفرانثيسكو سالار (Francisco Salar)، وخوان دى تورديسياس (Juan de Tordesillas)، وبدرو دى بالبوا (Pedro de Balboa) ابن كونت لا كورونيا (La Coruña) .

من بين هؤلاء الفرسان الذين خرجوا يذكر أنه قد خرج من مورثيا أربعة فقط هم: بدرو دى بالبوا، وفرانثيسكو دى ليسون وخوان دى تورديسياس، أما الآخرون فقد بقوا مع الماركيز فى ميدان السلاح[٤] فى لوركا. وقد خرج فى الجيش الآخر: فيرنان بيريث دى توديلا (Frnán Pérez de Tudela)، وألونسو ديل كاستيو (Alonso del Castillo) وخوان ماتيوس دى

---

[٤] يطلق تعبير "ميدان السلاح" على القاعة الحصينة أو المكان الفسيح الذى تعرض فيه الأسلحة (المراجع).

غيبارا (Juan Mateos de Guevara) وخوان كينيونيرو (Juan Quiñonero)، على الرغم من أن ذلك الأخير لم يبتعد كثيراً عن المدينة لأنه قد صدر إليه أمر بأن يرابط لحراسة غالياس (Galias) وقد صدر أمر بأن يمكث نوفرى رويث وزملاؤه فى أدرا ومعه أهالى مورثيا.

وصدرت الأوامر بأن يرابط ألونسو غالتيرو مع فرقته فى ظهر الكنيسة، حيث كانت فى اتجاه أوخيخار وهو مكان كان يتعرض لخطر شديد. كما صدرت الأوامر بأن تبقى فرقة أخرى فى المكان الذى كانت تحتجز فيه السيدات المسلمات، وكان قادة هذه الفرق هم كانتوس (Cantos) وباريو نويبو (Barrionuevo) وكانياباتى (Cañavate).

كما صدرت الأوامر لبقية فرق لوركا بأن تحتل أبواب الطرقات التى تتجه نحو الميدان وكان قادة هذه الفرق: لويس دى غيبارا (Luys de Guevara) وخوان ماتيوس ريندون (Juan Mateos Rendón) وخوان نابارو دى ألبا (Juan Navarro de Alva) وخوان فيليبى دوكى (Juan Felipe Duque) وأدريان ليونيس بونثى (Adrián Leones Ponce).

وقد صدرت أوامر لفرق كاراباكا وثيخين ومولا وتوتانا والحامة بحراسة المدينة فى الأماكن التى يرون أنها تحتاج إلى هذه الحراسة، بخاصة وأن ميدان السلاح يمكن أن يتعرض لخطر داهم. وقد كان على رأس هذه الفرق القادة: فيرناندو دى مورا (Fernando de Mora) وخوان دى ليون كارينيو (Juan de León Carreño) وخوان ميلغاريخو (Juan Melga-rejo) وخوان دى مورا (Juan de Mora) وبدرو كايثيلا (Pedro Caycela)، وغيرهم من القادة والجنود الشجعان. وكان الماركيز ومعه سلاح الفرسان يرابطون فى ميدان السلاح، وكان شبيهًا بإله الحرب، مسلحًا بكل أنواع الأسلحة، ولم يكن أحد يعلم لماذا تتم كل هذه الاستعدادات، وكانوا مندهشين مما أمر الماركيز بعمله حتى قال القائد العام، أندريس دى مورا (Andrés de Mora) لكل القادة إنه من المنتظر وصول العدو هذا الفجر فى هجوم مباغت. وهكذا، مع هذا الإنذار أعلن الجيش كله حالة الطوارئ والاستعداد. وكان يصاحب الماركيز بعض الرجال النبلاء من مورثيا ومن أماكن أخرى؛ فكان متواجداً ابن كونت لا كورونيا والسيد دييغو دى ليبا. وأخيراً، كما قلت، جنود آخرون لهم قيمتهم، وكان الجميع مستعدين، ولديهم رغبة فى أن يحضر جيش المسلمين، لأن كل واحد منهم كان مصممًا على إظهار شجاعته فى هذه الفرصة العظيمة. وكان القائد الشجاع أندريس دى مورا ومساعده بينار دى لوايسا (Pinar de Loaysa)، كما تقتضى هذه الظروف، يقومان بواجبهما، ويعملان على حراسة كل الأماكن، ويسيران وهم يلقيان عبارات التشجيع على الجنود، ويذكر أن لهم نماذج

خالدة للبطولة والشرف فى المعارك. وعندما رأى القائد العام أن جيشه قد أتم استعداده ولم يعد ينقصه سوى مجيء الموريسكيين، ذهب إلى ميدان السلاح حيث ينتظر الماركيز ومعه عدد كبير من سلاح الفرسان، وقد أعطى للماركيز إشارة بأن الجيش على أتم الاستعداد للدخول فى معركة، وقد تم تحصين كل أبواب الشوارع بالجنود والعتاد. وقد بدأ فاخاردو الشجاع بعد أن شعر بالرضى لما أخبره به القائد العام بالحديث إلى كل الفرسان بخاصة القادة بكلمات تغلفها الجدية وبشجاعة عظيمة قائلاً:

"حديث الماركيز الشجاع للفرسان"

" أيها الفرسان الشجعان والقادة العظام، لقد خرجت ومعى جيشى فى خدمة صاحب الجلالة. والآن فى هذه المناسبة العظيمة لا بد أن يظهر كل واحد منا الشجاعة التى ورثها عن أجداده، بحيث تظهر شهرتهم الخالدة بكل عظمتها فى أعمالكم، كى يكون لهذه الشهرة فرصة جديدة للاحتفاء بها،

وانتبهوا أيها القادة الشجعان بأن الفوز على جنود ضعفاء سيكون عظيمًا. علينا أن نظهر أمجادنا الكبيرة، وأن لا يتعرض أحد منا للخطر على أيدى الأعداء قدر استطاعتنا. لقد علمنا أن اثنين وعشرين ألف جندى جاءوا للهجوم علينا، وهم مجهزون بالسلاح والعتاد، ونحن نبلغ ألفين، ولكن لا بد أن نأخذ فى اعتبارنا أن كل واحد منا يساوى ألفًا منهم، ومن جانبى أقول إننى أستطيع أن أهاجم ألفين من الجنود وأن ظهر جوادى يتسع لألفين آخرين، أما مشاة جيشنا الشجاع فهم كفيلون بتسعة آلاف، وأنتم أيها القادة الفرسان الشجعان، فإن حماسكم كفيل بتسعة آلاف آخرين، وهكذا نحن كفيلون بهم وزيادة ويكفى حماسة نفيرنا وطبولنا فصوتها كفيل بالقضاء على عشرة آلاف آخرين من أعدائنا. وهكذا نحن نتميز عنهم ونتفوق عليهم بوضوح، وسوف يكون النصر حليفنا، لذلك يجب أن يقوم كل واحد منا بواجب الفارس الأصيل، فهكذا لن نضيع ولن يضيع النصر منا فى مهمتنا الشريفة التى أصبحت فى متناول أيدينا".

هذا ما قاله القائد الشجاع لفريق الفرسان، الذى وعده بعمل كل ما يستطيع. وقد أمر صاحب السعادة الماركيز بألا يبتعد أى فارس عن ميدان السلاح حتى يأمر هو بذلك. وبعد أن أنهى حديثه، طلب أن يعطيه أحدهم رمحًا غليظًا ليستخدمه فيما بعد، وقد كان ثقيلاً لدرجة

تتعب منْ يحمله على كتفه. وعندما تلقى الماركيز الرمح، رسم به علامة بدء المعركة على الأرض، وانتظر جزءًا كبيرًا من الليل بالقرب منها فى انتظار وصول جيش الأعداء.

وكان يتبقى على بزوغ الفجر القليل من الوقت عندما جاء منْ يخبر الماركيز أن الطريق من ناحية أوخيخار يسمع فيه جلبة بشر. وقد أجاب الماركيز على هذا بأن أمر بأن يؤخذ هذا فى الاعتبار ويتم مراقبة هذا الجزء، وبعد هذا الإنذار بقليل، وصل إنذار آخر عن نفس الشيء ولكن على طريق دالياس. وقد أمر الماركيز بأن تستعد الفرق الموجودة فى هذا الطريق أشد استعدادها. ولم ينقض سوى نصف ساعة إلا وجاء إنذار آخر أيضًا عن الجزء الخاص بدالياس يفيد بأن قوة من الرجال ذوى الملابس البيضاء تتقدم بكل سرعة على الطريق. وقد أمر صاحب السعادة بالأخذ فى الاعتبار الزمن الذى يلزم هذه الفرقة للوصول إلى ساحة المعركة. وقد أتى إنذار يفيد بأن قوة من المسلمين قادمون على طريق أوخيخار وأنداراكس وكلهم يلبسون ثيابًا بيضاء ويُسرعون فى القدوم. وقد أجاب الماركيز بأن يضع الجنود الحبال على زناد البنادق، وأن ينتقل هذا الأمر فى سرية تامة من فم إلى آخر، وعندما أصدر الماركيز أمره هذا تم تنفيذه وتم تجهيز الجيش كله على النحو الذى أراده وأصبح الجميع على أهبة الاستعداد، ولم ينقض وقت طويل إلا وسمع على طريق دالياس هذا الإنذار المرعب، "سلاح، لقد جاء العدو!" وعلى الفور بدأ هجوم هذه الفرقة الغامضة من الموريسكيين بكل شراسة، فقد أطلقت شحنة كثيفة من الرصاص على الجيش المسيحى الموجود فى هذا المكان، وقد أبدى قواد هذا الفريق المسيحى مقاومة شديدة لهجوم الأعداء، وأطلق الجنود الشجعان رصاص بنادقهم، فأوقعوا خسائر فى صفوف المسلمين، قُتلوا منهم الكثيرين، ولكن لأن هذه الفرقة المسلمة كانت كبيرة جدا لم تتأثر بهذا العدد من القتلى، وقد استطاعوا اختراق الحراس حتى وصلوا إلى الفرقة التى كان يرأسها القادة باريونويبو وكانتوو كانياباتى، وقد دافع هؤلاء القادة بأنفسهم عن الأرض وحاولوا بشجاعة أن يصدوا هذا التوغل، ولو كان الجنود التابعين لهم على قدر شجاعتهم لما استطاع المسلمون أن يتقدموا خطوة واحدة، ولكن جنودهم كانوا جبناء، وقد تملكهم خوف عظيم جعلهم يلوذون بالفرار بعد أن خذلوا جيشهم، ولم يتوقفوا عن المسير حتى وصلوا إلى برج الكنيسة، ولهذا استطاع جيش المسلمين أن ينتصر على فريق القائد باريونويبو وأن يدهموا قائده، وعندما رأى القائد الشجاع كيف خذله جنوده وكيف تركوا أماكنهم لجيش الأعداء، وثب كالأسد على الفرقة الموريسكية، وهاجم معه بعض الجنود وأخذوا يطعنون الأعداء بخناجرهم فقتلوا بعضهم وأصابوا الآخرين بجروح حتى إنهم قتلوا

القائد التركى الذى كان يحمل راية المسلمين ومعه جنود مسلمين آخرين كانوا يدافعون عنه. وعندما وصل خبر هذه المعركة إلى الماركيز أمر بألا يتحرك أحد من الساحة. وفى ذلك الوقت سُمِعَ على طريق أوغيخار دَوى إطلاق نيران، وكان سبب ذلك قدوم فريق آخر من الأعداء، قدموا بهجوم شرس ولكنهم قوبلوا بهجوم أشرس منه من قبل القائد الشجاع ألونسو مارتينيث غالتيرو وضباطه وجنوده المرابطين فى تلك المنطقة. وقد دارت فى ذلك المكان معركة دامية قتل فيها عدد كبير من المسلمين على أيدى المسيحيين. على الرغم من ذلك فقد تم اختراق سلاح الحرس، ولكن جنود مورثيا قاموا بأعمال وبطولات عجيبة، ذلك أن جنود المسلمين قد أتوا بملابس بيضاء، وكان من السهل التعرف عليهم. لذا فقد استطاع جنود مورثيا أن يقطعوهم إربًا. فى تلك الساعة كان المكان مليئًا بجنود موريسكيين يقاتلون على الرغم من قتلاهم وجرحاهم. وقد دافع قادة لوركا وجنودها بأنفسهم عن الطرقات التى كانوا يرابطون فيها بكل شجاعة، فلم يسمحوا لأى جندى موريسكى بالوصول إلى ساحة السلاح، فقد دافع القائد الشجاع لويس دى غيبارا عن طريق أغوا، وكان هذا بمثابة معجزة، وقد أظهر هو شخصيا شجاعة عظيمة فقد قتل بيده وسيفه أكثر من خمسين مسلمًا. ولم يكن خوان ماتيوس ريندون أقل جسارة فى تصديه للعدو، فلم يستطع المسلمون التقدم خطوة واحدة من المكان الذى كان يرابط فيه هو وفرقته. وقد فعل كل من خوان نابارو دى ألبا وخوان فيليثيس روكى وأدريان ليونيس ديل البركة نفس الشىء. وأخيراً، قام كل قادة لوركا وجنودها بالتصدى للمسلمين بكل قوة، فقتلوا وجرحوا الكثيرين منهم. وفى أثناء ذلك كان المسلمون يقومون بتمزيق أجساد الحراس بكل نذالة مُنزلين بالمسيحيين أذى عظيماً. وقد قتلوا هناك المربى الذى قام برعاية ابن كونت لا كورونيا وبعض الجنود. وقد حافظ القائد نوفرى رويث على الجزء الخاص بأدرا، فقد تصدى للفرقة الثالثة للمسلمين الذين جاءوا من هذا الاتجاه، وهكذا حافظ على النظام والأمر الذى صدر كقائد شجاع وجندى جسور، على الرغم من أنه هو وجنوده كانوا يجيدون المشاركة فى المعركة التى ذكرناها سابقًا. وقد استمرت المعارك الضارية حتى ظهر ضوء النهار التالى، وعلى ضوء هذا النهار فعل المسيحيون فى المسلمين الأعاجيب. وقد علم الماركيز بالمعركة الشرسة، وكان يريد أن يخرج لملاقاة المسلمين ومعه سلاح الفرسان، ولكن علم بأن فرقتين فقط من المسلمين قد حضرتا، ولم تصل بعد الفرقة الثالثة، والتى كانت ستصل عن طريق أدرا، لذا قرر عدم ترك ساحة السلاح. وقد كان يُسمع للمعركة ضجيجٌ ودوىٌ هائلٌ حتى يُخيل للسامع أن سلاسل الجبال قد تساقطت هناك، وكان دخان البارود المتصاعد كثيفًا لدرجة كان يستحيل معها التمييز بين جانب وآخر. ولكن يجب أن أقول شيئًا:

إن المسلمين كانوا جنوداً ماهرين ولهم خبرتهم فى الحرب؛ فهناك تم القضاء على كل المسيحيين دون أن يهرب واحد منهم، لأن اثنين وعشرين ألفًا من الرجال المسلمين لن يفعلوا الكثير كى يسحقوا ألفين؛ ولكن أرادت رحمة الرب أن تنقذ من هذه الفضيحة ماركيز بيليث وبقية أفراد فرقته، فقد اشتعلت المعركة فى كل اتجاه، وانتشر خبر فوز المسلمين لكثرة عددهم، وهنا ارتفع صوت، لم يُعرف قط منْ صاحبه، يقول: "اهجموا عليهم، اهجموا، فالمسلمون سيفرون". لقد سمع المسيحيون هذا الصوت بكل حماس فهجموا على المسلمين، ولكنهم لم يستطيعوا أن يهتفوا لسانتياغو دون أمر من القائد العام. وعندما سمع المسلمون هذا الصوت أغشى عليهم وسارعوا بالخروج من القرية والهروب فى اتجاه أنداراكس. وعندما علم الماركيز ذلك، أمر بالمكوث فى أحد حقول الزيتون ناحية أدرا، وأن يبحثوا عن القائد نوفرى رويث ومعه جنوده، الذين كانوا قائمين بحراسة هذا المكان؛ وعلى الفور أخبروا الماركيز بأنه لا يظهر فى الساحة أى شيء، والحق أن نوفرى رويث قد حافظ على الأوامر التى صدرت له. فيما بعد أمر الماركيز بأن يترك نوفرى رويث مكانه وأن يخرج لملاحقة المسلمين؛ وقد نفذ نوفرى رويث هذا الأمر، وقد وصل هو وفرقته فى وقت مناسب بحيث أظهر هو وجنوده شجاعة فائقة وعزيمة جبارة؛ فقد دخل بين صفوف العدو بشجاعة. وبعد ذلك عندما تأكد للماركيز سلامة الجزء الخاص بأدرا (كما سبق وقلنا) أمر الجنود بأن يهتفوا لسانتياغو، وكان ذلك سببًا جعل قوى المسلمين تخور، ويُسرعون بالفرار على الفور، دون أن يحذروا أسلحة المسيحيين. وقد أمر الماركيز أيضًا بأن تُدق الطبول، وأن يعلو صوت النفير بكل قوة ضد المسلمين ووسط هذا كله بدأ سلاح الفرسان بالتدخل بين القوات المبعثرة، وهنا بدأ الماركيز يقتل ويجرح الكثير من المسلمين، وقد فعل نفس الشيء الفرسان على خيولهم والمشاة المترجلين، ولأن المسلمين كانوا معروفين؛ فقد قتلهم المسيحيون دون رحمة. وقد بدا المسلمون وهم يهربون وكأنهم يطيرون فى الهواء بحيث كانت الخيول تعجز عن اللحاق بهم، وهكذا هربوا بين سلاسل الجبال تاركين نحو ثلاثة آلاف من المسلمين ممددين على الأرض والطرقات. ولم ينس الماركيز الطيب أمر الفرقة المسلمة التى كانت ستأتى من ناحية أدرا، وقد أغضبه عدم وصولها، فأمر بتجمع الجيش، وهكذا تجمع كل الأفراد من فرسان ومشاة وعادوا إلى بيرخا؛ وقد أمر الماركيز الجنود الذين كانوا قد هربوا فى بداية المعركة ولجئوا إلى برج الكنيسة بأن يحملوا القتلى خارج الميدان ويشعلون النار فيهم. وقد عثروا هناك على أسلحة كثيرة

المسلمين، بنادق وسيوف صغيرة وأسلحة أخرى يمكن الاستفادة منها. وقد أمر الماركيز بأن يُدفن مربى ابن كونت لا كورونيا فى الكنيسة بكل توقير، وأن يُدفن معه أيضًا مسيحيون آخرون لقوا مصرعهم فى أثناء المعركة التى كانت دموية وتتسم بالشرف والمجد للمنتصرين.

ولأننا فى حاجة الآن للعودة إلى شئون غرناطة، سنترك ماركيز بيليث حتى يحين وقت الحديث عما حدث فى غرناطة؛ ولكن فى البداية نقول القصيدة الخاصة بالفصل الماضى، والتى ألفها أحد أتباع ماركيز بيليث ومولينا.

"قصيدة عن معركة بيرخا"

بعد الانتصار العظيم

الذى حققه الملك الصغير

على ألبارو دى فلوريس الطيب

والذى كان دمويا ومؤلما للغاية

بكل صلف وكبرياء

أمر بجمع مجلس الحرب

وقال إنه يريد أن يحارب

ماركيز بيليث بشراسة

وكان هذا سببًا للخروج للبحث عنه

هناك حيث كان يقيم فى بيرخا

وأن يدخل معه فى معركة قوية

فى سهول القرية وجبالها

فقد كان يعرف أن الماركيز

ليس لديه جنود كثيرة

وأن جنوده ليس لديهم سلاح

ونصفهم يعانى المرض

وقال له أعضاء المجلس

إن هذه المهمة صائبة

وتحسسوا الطريق

وعبروا الجبال

لقد شكل ثلاث فرق كبيرة

وخرج من بين جنوده

ثمانية آلاف جندى ومعهم ديرى

وكانوا يشكلون المقدمة

بينما قاد الحبقى ثمانية آلاف آخرين

لأنه خبير بالحرب

وخرج مع أبونفيلى ستة آلاف آخرون

من الجنود النشطين

وكان هناك رجال الجبال

وهم رجال دمويون وكلاب

وقد أشعلوا الحرب

دون سبب أو هدف

ورحل ابن أمية

مع كل هؤلاء البشر من بالور

وعبروا الجبال

ووصلوا إلى بيرخا

وعلى بُعْد ستة فراسخ منها

حيث كان الجيش معسكراً

بعث القائد ثلاثة جواسيس

كي يستكشفوا الأرض ويعرفوا

إذا كان جيش المسيحيين مستعداً للحرب

وعاد الجواسيس الثلاثة

للملك الصغير حاملين الأخبار

بأنه يمكنه الهجوم الآن

على ماركيز بيليث وجنوده

وشعر ماركيز بيليث بالحيرة

تجاه كل هذه الأحداث

فهو لم يكن يعرف أين المسلمون

وأين جيشهم

وكي يعرف شيئاً عن هذا

قام بحركة ذكية :

بعث بجاسوسين

مرتدين ملابس تركية

وكانوا يتحدثون اللغة العربية

- لأنهم ولدوا فى أرضها -

وقد أحضرا معهما اثنين من المسلمين

يعرفان الكثير عن أمر الحرب

وقاموا بتعذيب واحدٍ منهما

وعرفوا عن طريقه

أن ابن أمية قادم إليهم

كى يحاربهم حربًا شرسة

ومعه ثلاث فرق من الجنود

وأنهم أكثر من عشرين ألفًا

من الرجال قادمين للحرب

وقد استعد الماركيز

حتى بزوغ الفجر الجديد

لأن المسلم قد اعترف

بأنه قبل شروق الشمس

سيكون الهجوم موزعًا

على ثلاثة اتجاهات لبيرخا

وهكذا استعد الجيش بالسلاح

وهم على خبرة عظيمة بالحرب

ولم يتبق سوى ساعة واحدة

كى يبزغ الفجر

عندما وصل المسلمون

وهاجموا بيرخا هجومًا ضاريًا

ولكن المسيحيين الشجعان

ثبتوا فى المعركة

فقد كانت الحماسة تفيض عليهم

وهكذا حاربوا جنود ابن أمية

وعندما أشرق ضوء النهار

أصبحت المعركة أكثر دموية

ولكن الجنود المسيحيين أظهروا

شجاعة عظيمة

وتصدوا للأعداء

الذين سارعوا للهروب نحو الجبال

وقاد الماركيز الشجاع

مقدمة الجيش

وقتل وطعن بالرمح الكثيرين

الذين كانوا يظهرون أمامه

وقد قتل هو شخصيا

أكثر من ثمانين مسلماً

وقد وضع الفرسان

مولاى فى خزى عظيم

فقد قتلت جنوده

الذين بعثهم إلى بيرخا

وقتل أكثر من ثلاثة آلاف

موريسكى فى هذه المعركة

بينما هرب الباقون

متشرذمين إلى الجبال

وعاد الماركيز إلى بيرخا

بعد أن انتصر انتصاراً كبيراً

وسوف نتركه فى بيرخا

حتى نعود إليها مرة أخرى

"خاتمة"

الفصل الثالث عشر

الذى يتحدث عن ماركيز مونديخار وذهابه إلى العاصمة وكيف عاد إلى غرناطة بعد ثبوت براءته من الأشياء التى اتهمه بها منافسوه، وكيف اشتد غضب الملك الصغير لأن ماركيز بيليث قد حطم قواته، فأقام حصاراً حول بيرا ونهب قرية لاس كويباس وبقية القرى التابعة للماركيز.

سبق أن حكينا كيف أن ماركيز مونديخار خرج من أورخيبا تاركًا هناك الجيش لأن صاحب الجلالة أمره بذلك، وقد ترك فى القرى الأكثر أهمية جنوداً متحصنين. وعندما وصل الماركيز إلى العاصمة سُئل عن أمور لم يكن يعرف عنها شيئًا، وتم التحقيق معه. وقد أظهر الماركيز براءته. وبُعده عن كل ما نُسب إليه. وعندما أدرك صاحب الجلالة هذا، أمر بعودة الماركيز حرا إلى غرناطة، وأن يحتفظ هناك بمنصبه وأن يزود حصون البشرات من هناك بكل ما هو ضرورى. ولأن الماركيز كان مواطنًا مخلصًا، فقد عاد إلى غرناطة، حيث سنتركه هناك إلى أن يحين الوقت ونقول إن ابن أمية، الذى كان غاضبًا أشد الغضب لهزيمة جيشه، أمر بتدمير القرى التابعة لماركيز بيليث وحصار بيرا والاستيلاء عليها بالقوة، آخذًا فى الاعتبار أهمية تلك المدينة لتحقيق هدفه وذلك لقربها من البحر، حتى إذا جاءت المؤن من الجزائر أو فاس، يكون أمام السفن الإفريقية ميناء ترسو فيه دون أن تتعرض للخطر لأنه على الرغم من كون شاطئ بيرا ليس ميناءً فإنه يحتوى على أماكن لرسو السفن قريبًا من موانئ مثل أغيلاس Aguilas وتورِّيس بلانكوس (الأبراج البيضاء) Torres blancos وهى كبيرة وآمنة من عواصف البحر. وهكذا أمر ابن أمية بإعلان مجلس حرب كى يعرف آراء قواده ويعرف إذا كانوا على علم بأمر الحرب، وهنا نترك الملك الصغير مع رجاله فى مجلس الحرب ونتوجه إلى السفينة التى اتخذت طريقها فى اتجاه المغرب حيث ملك فاس طالبة المعونة والمدد لأهل غرناطة.

رحلت سفينة ميسا دى رولدان (Mesa de Roldán)، وعبرت بحر إسبانيا، ووصلت إلى شواطئ شمال إفريقيا، ثم دارت باتجاه المغرب حتى وصلت إلى نهر تطوان الشهير، وعندما

رست هناك، توجه اثنان فقط من ركابها إلى فاس والمغرب، وعندما مثلا أمام ملك فاس، عرضا رسائل ابن أمية، وقد استقبلهما ملك فاس، وفتح رسالة مكتوب فيها بالعربية ذات اللهجة الغرناطية:

"خطاب من الملك ابن أمية إلى ملك فاس"

" أبعث إليكم، أيها الملك القوى العزيز، وإلى بلدكم سلامًا من الله ومن محمد وبركات منه، وليمتعكم الله دائمًا بقوة منه وبعزم تاجكم وملككم فأنتم جديرون بهما. لتعلم، أيها الملك العزيز، أن الله تعالى برحمته أراد أن تعلن مملكة غرناطة، التى كانت تسكنها فيما قبل الشعوب الإفريقية، ثورتها ضد ملك قشتالة وثارت معها ثلاث ممالك أخرى، وهم على حق فى ثورتهم هذه، لأن هذا الملك جار عليهم وعانوا طويلاً من حالة العبودية المستمرة التى فرضها عليهم، والآن سعى سكان هذه المملكة، رغبة منهم فى نيل حريتهم، إلى استخدام القوة، ولأننى أحد الأبناء الذين ينحدرون من دمائكم الملكية الذكية، حيث يصل نسبى إلى دماء ابن أمية؛ فقد اختارونى ملكا شرعيا عليهم، باعتبار أن أسلافى كانوا ملوكًا لهذا البلد، ولكى نحقق ما نصبو إليه فإننى ألتمس عونكم ومددكم، الذى لم ترفضوا قط تقديمه لأجدادى، وبكل ثقة، لأننى أحد أقاربكم القريبين منكم جدا، حيث أنتمى لدمائكم الملكية، أرجو ألا ترفضوا طلبى هذا، فليس هناك سبب ترفضوا من أجله هذا الطلب. وأحيطكم علمًا بأن هناك أكثر من مائة ألف مقاتل من أبناء محمد يقاتلون تحت رايتى وهم مسلحون جيداً، وهناك أكثر من مائتى ألف آخرين ينتظرون الفرصة التى سيصل إليهم مددكم كى يعلنوا ثورتهم، وإننى على يقين من أنه إذا وصلنى مددكم الذى أنتظره من سيد عظيم مثلكم، فإن إسبانيا كلها سوف تخضع من جديد لراية الإفريقيين كما كان حالها من قبل.أتوسل إليكم ألا تبخل بالعطاء والمدد على أحد أقاربك، فإنك بهذا المدد سيعظم مجدك وسيعلو شرفك. من غرناطة، المخلص، ابن أمية، ملك غرناطة".

وقد تعجب ملك فاس، بعد قراءته هذا الخطاب من تمرد مملكة غرناطة وإعلانها الثورة على الملك فيليبى بقوته الساحقة، وكيف أن رجلاً له قيمته وراجح العقل يتخيل أن هذه الحرب يمكن أن تنتهى نهاية طيبة، لأن ملكًا بقوة الملك فيليبى، وهو أحد الملوك العظام فى العالم لا يمكن أن يقبل أن تستمر حربٌ بهذا الشكل وقتًا طويلاً على أرضه، وعندما أدرك هذا، وعلم النتائج التى سيوصل إليها، كتب إلى الملك الصغير وأعطى للرسل خطابه، ثم

جهزهم للرحيل وأعطاهم الكثير من الهدايا والعطايا للملك ابن أمية؛ فقد أعطاهم خاتمًا من الذهب، محفور عليه شعاره الملكى. وقد رحل الرسل الغرناطيون من فاس ولم يتوقفوا حتى وصولهم إلى المكان الذى تركوا فيه سفنهم وبقية زملائهم، الذين سعدوا جدا لرؤيتهم وعودتهم، وقد رحلوا بعد ذلك من المغرب حتى وصلوا إلى سورياس، وبعد أن رست سفنهم توغلوا فى الأراضى الإسبانية إلى الداخل حيث كانوا يعلمون أن الملك الصغير كان حاضرًا فى مجلس الحرب يناقش مسألة الذهاب إلى بيرا، كما سبق وقلنا. فيما بعد، علم ابن أمية بوصولهم، واستلم بكل سعادة خطاب ملك فاس ومعه الخاتم الملكى. وفتح الخطاب فيما بعد، وكان مكتوبًا فيه بلغة عربية الآتى:

"خطاب من محمد، ملك فاس، إلى الملك الصغير ابن أمية"

"بارك محمد دولتكم ومنحكم العَون لتحققوا أمنيتكم. لقد وصلتنى رسالتك، والتى طلبت خلالها عن طريق القرابة، ولأن تحرى الصواب يجبرنى على ذلك، مددًا كى تتوغل فى الممالك الإسبانية، وتعلن ثورتها معك ضد قوات الملك فيليبى. إنك تصبو إلى أمر صعب، ولا أتخيل أن ذلك يمكن أن يتحقق، لأن عصيان ذلك الملك الذى تركع تحت أقدامه كل الدنيا تقريبًا سيكون أمرا عسيرا، انظر جيدا ولاحظ ما تريد القيام به لأن الأمور التى لا يتم النظر إليها وحسابها جيدًا من البداية لن تكون نتائجها طيبة فى النهاية. فالزمن الآن ليس كما كان عليه أيام أسلافك عندما كانوا ملوكًا لإسبانيا كما قلت، فإسبانيا الآن لها ملك. وفى السابق لم يكن لها ملك، وإذا كان لها فلم يكن بقوة الملك الحالى ولا مكانته، والأسلحة التى تُستخدم الآن فى الحرب لم تكن موجودة فى الماضى؛ ورعايا ملك قشتالة أكثر من رعايا الملك رودريغو عندما فَقَدَ[1] إسبانيا، لذا فإن ملكًا لديه هذا الكم من الرعايا لن يكون من السهل غزو أراضيه؛ فلتقبل نصيحتى، يا ابن أمية، تصالح مع سيدك، فهكذا أسمِّيه، واخفض راياتك، وتواضع فى تفكيرك، ولا تترك العنان لهذا الهلاك التام، لو أردت أن تعيش فى حرية دون الخضوع لفيليبى، فإنك تستطيع، إذا تركت إسبانيا، وعبرت البحر، وجئت إلى إفريقيا حيث بلادى، وكقريب لى، تنحدر أصوله من دمائنا الملكية، سأمنحك ثقتى وأمانى وستكون مبجلاً لدينا ولديك حظوة من

(١) لا يمكن أن تكون هذه لغة ملك فاس ولا مصطلحاته. (المراجع).

قومى وممنْ يحيطون بى من رجالى؛ وإذا لم ترغب فى عمل ما أقوله لك وواصلت محاولتك، فربما يعاونك "محمد" فى تحقيق آمالك وتُسفر محاولتك عن نجاح عظيم وتتحسن أوضاعك، وربما يساعدك الله ويعطيك ما ترغب فيه، أما أنا فإننى مستعد لتقديم العَون لك لو جهزت لى بعض الموانئ فى إسبانيا لترسو عليها السفن، لأنه دون ذلك سيكون عونى لك مستحيلاً. فليحفظك الله وليباركك "محمد" لأنك تريد زيادة أتباعه.

من فاس، ومستعدون لكل ما يحميكم.

من محمد، ملك فاس".

قرأ الملك الصغير هذا الخطاب أمام مجلسه، ولم يكن راضيًا تمام الرضا عن العرض الذى قدمه ملك فاس ونصيحته له، فقال لقواده بأن يعطوا أوامرهم، لأنهم كانوا قد جهزوا جيشًا عظيمًا، بالاستيلاء على الموانئ القريبة من مدينة بيرا، لأنه بعد الاستيلاء عليها سوف ينفذ ملك فاس وعده دون شك، فقد أرسل إليهم بخاتمه الملكى. وقد أعلن القادة المسلمون موافقتهم على ما قاله الملك ورأوا أنه من الخير أن يُخضعوا هذه الموانئ لأنه إذا لم ينفذ ملك فاس وعده فلن يتخلى عنهم الله وسيبعث لهم مددًا من أى ملك آخر من الملوك الذين تخضع لهم سواحل ليبيا. ومفعمًا بتلك الرغبة، خرج ابن أمية من البشرات متخذًا طريق نهر المنصورة، وكان فى صحبته أهالى هذه القرى، ولم يتوقف عن السير حتى وصل إلى مدينة بورتشينا، حيث استقبله القائد المالح وأتباعه بكل ترحاب. وعندما أخبر الملك الصغير القائد المالح بما يزعم فعله، وجده مؤيدًا لفكرة الخروج إلى مدينة بيرا، وفيما بعد رحل الملك الصغير وكل جيشه قاصدًا مدينة بيرا، وكان الجيش يسير بمحاذاة النهر دائمًا حتى وصل بالقرب من ثورخينا (Zurgena)، وعندما ترك النهر سَلَكَ طريق العودة إلى بايبونا (Ballebona) ومن هناك أصبح على بُعد ساعات من الوصول إلى بيرا، التى وصلها خبر قدومه واستعدت للدفاع عن أرضها، وتم إغلاق موانئها وجهزت المؤن الضرورية. وعندما وصل الملك المسلم كان أول ما فعله إخضاع مكان بالقرب من الأسوار بمعاونة خمسة عشر جنديا من أتباعه، وقد وصل إلى ذلك بعد إطلاق مكثف للرصاص من جانب لآخر، وهكذا بدأ المسلمون فى الهجوم على المدينة بمعاونة القاذفات. وقد اعتلى أهالى بيرا الأسوار، وكانوا يطلقون نيران البنادق على أعدائهم المسلمين، ولهذا هدم المسلمون بيوتًا كثيرة كانت بالخارج فى ضاحية المدينة واتخذوا منها نوافذ لإطلاق النار على الأسوار. وقد قتل أحد جنود بيرا من فوق الأسوار. وعلت داخل المدينة ضوضاء مخيفة وغامضة بين النساء والجنود، وأصبح الجميع مضطربين وتملكهم الفزع. فقد

حاول الرجال الدفاع عن المدينة ومنع الأعداء من تجهيز سلالم للصعود على الأسوار، لأنه لو استطاع المسلمون تخطي الأسوار لتم الاستيلاء دون شك على بيرا. وقد ساعدت النساء رجالهن ولم يشغلهن شيء سوى وضع الرصاص فى بنادق الرجال، بينما انشغلت أخريات بتجهيز الطعام، سواء بعمله فى الأوانى أو بشوى اللحم، ولم يقم أحد بتوزيع الطعام، فقد أكل الجميع من الطعام المتواجد وهم لا يزالون يدافعون عن الأسوار ولم يغادروا أماكنهم من فوقه حتى لا يتمكن المسلمون من صعودها. وفى الليل أشعلوا نيرانًا فى كل الشوارع وفى الميدان، بحيث أصبحت المدينة مضيئة وكأنها فى النهار. وكان هناك ٦٠ فارسًا على خيولهم مرابطين داخل المدينة فى حالة دفاع عن المدينة، إذا ما تم دخولها. كان بعضهم يقول إنه من الأفضل الخروج للاشتباك مع العدو خارج المدينة؛ بينما يرى الآخرون أنه من الأفضل الانتظار لأن المسلمين كثيرون وسوف يسقط الكثير منهم صرعى بتأثير إطلاق النار عليهم. وبدأت طبول الحرب تدق، ويرد عليها النفير، وهكذا علا فى داخل المدينة ضجيج واضطراب عظيمان. وقد استمر حصار بيرا يومًا وليلة ويومًا آخر حتى منتصف النهار. وكان جيش المسلمين لديه مدفعٌ لإطلاق القذائف، وقد أطلقوا قذيفة أصابت برجًا إصابة بالغة، وأراد الله أن تكون تلك الطلقة هى الأولى والأخيرة لأن المدفع قد انشطر إلى نصفين بسبب الشحنة الكبيرة التى تم شحنه بها، لولا حدوث هذا لكانت المدينة قد تم دخولها ونهبها بعد إطلاق عدة قذائف ولهلك سكانها. وقد حدث هذا فى أول يوم أتى إليها المسلمون وهاجموها. وفى تلك الليلة تم الاتفاق فى بيرا على طلب المدد من لوركا على وجه السرعة، لأن المدينة تتعرض لخطر داهم. وعندما بزغ الفجر، فتح أحد أبواب المدينة وخرج ثلاثة فرسان على صهوة خيولهم، وهم عازمون على الموت أو الذهاب إلى لوركا طلبًا للمدد؛ وهكذا عند خروجهم كانت سيقانهم ملتصقة بالخيول، وبكل سرعة وقوة ساروا بين صفوف العدو بكل خفة وشجاعة وكأنهم شعاع ضوء. وقد أطلق المسلمون الرصاص عليهم؛ ولكن أراد الله ألا يُصاب أحد منهم بأى طلقة، وهكذا انطلقت الخيول متجهة إلى لوركا. وقد وصل الجندى الذى كان يعتلى أفضل جواد إلى لوركا فى تمام الساعة الحادية عشرة، وكان هذا يُعد سبقًا، فقد قطع الجواد مسافة أحد عشر فرسخًا[٢]

(٢) وحدة القياس التى استعملها المؤلف هنا هى legua وهى تزيد عن خمسة كيلومترات ونصف. (المراجع).

خلال ست ساعات فقط ، وقد وصل الجواد الثانى فى تمام الساعة الثانية عشرة. وفى أثناء تلك الساعة كانت مدينة لوركا قد اتفقت على الأمور التى سيقومون بها، فلم تكن لوركا مجبرة على مد يد العون لبيرا، ولكنهم اتفقوا على مساعدتها، وهكذا عندما دق جرس الاستنفار تجمع العديد من المحاربين فى الميدان، وقد أعطت المدينة رجالها بنادقًا، وقد شاء الله أن تأتى بعض العربات المحمَّلة بالبنادق من قرطاجنة فى طريقها إلى أويسكا (Huesca)، وكان المسئول عن هذه العملية لويس دى سالاثار، وكان يعمل كاتبا عموميا للوركا، وهكذا تم توزيع كل هذه البنادق على أهالى لوركا بكل سرعة. وقد وصل الجندى الثانى القادم من بيرا فى تمام الساعة الثانية عشرة، كما سبق وقلنا، وكان الأهالى منشغلين بتجهيز الرصاص والحبال من أجل هذه المهمة، وقد مرت ساعة أخرى، وصل بعدها الجواد الثالث منهكًا وذلك فى تمام الساعة الواحدة. وعندما رأت مدينة لوركا أن مدينة بيرا تطلب العون والمدد على وجه السرعة قامت باستدعاء القواد من فرسان ومشاة. وقد وضعوا دييغو ماتيو العجوز- الذى كان يُدعى غيبارا- على رأس الفرسان، وكان قد جاء مع جيش الماركيز. أما أدريان ليونيس البوركيركى فقد اختاروه قائداً للمشاة، وكان رجلا شجاعا. وقد تجمَّع فى ميدان لوركا ثمانمائة جندى من القناصين، وكان جميعهم من الشباب المستعد للحرب تحت أى ظروف، وتجمَّع ثمانون فارسًا بخيولهم، وكانوا جميعًا من خيرة الرجال والفرسان. وفى تمام الساعة الثانية خرج أهالى لوركا من باب نوغالتى (Nogalte) فى اتجاه بيرا. ولم يُرى قط على الإطلاق مدد يخرج بمثل هذه السرعة؛ فقد كان المشاة يسيرون وكأنهم يطيرون مثلهم مثل الفرسان بحيث وصلوا إلى نبع بولبى فاستراحوا قليلاً ثم واصلوا المسير دون التوقف لمدة دقيقة واحدة، وعند بزوغ الفجر كانوا قد وصلوا إلى أسوار بيرا وهم يهتفون "سانتياغو، سانتياغو" و"هذه لوركا قد جاءت للنجدة ". وعندما علم الملك الصغير الشرير أن بيرا طلبت العَون من لوركا، فقد أمله فى الاستيلاء على بيرا، ومع ذلك فقد حاربهم تلك الليلة بكل قوة رغبةً فى الاستيلاء عليها. وكى يعلم متى سيصل العَون من لوركا، وضع جواسيس على جبل يُدعى ألماغرو (Almagro) وأيضًا على سلاسل جبال ميناء لوركا. وعندما رأى المراقبون النجدة القادمة من لوركا أطلقوا إشارة الدخان الكثيف حتى يتراجع الملك الصغير، حيث كان الدخان هو الإنذار المتفق عليه. وقد ارتفع الدخان فى الوقت الذى بدأ فيه رجال لوركا عبور نبع بولبى، وعندما رأى الملك الصغير هذا الدخان، لم يجرؤ على انتظار أهالى لوركا، وقد دهش لسرعة وصول النجدة، وسرعان ما تراجع فى اتجاه المنصورة، وعندما وصل إلى لاس كويباس أمر بنهب وتخريب بستان يملكه الماركيز، وقطع كل أشجاره المثمرة، التى لم يكن لها مثيل فى أى مكان آخر. وقد

وصل المدد، كما قلنا، من لوركا إلى بيرا عند شروق الشمس، وكان الملك الصغير قد تراجع حتى لاس كويباس وسار ناحية بورتشينا. وعندما رأى أهالى بيرا أن النجدة قد وصلت على وجه السرعة، فتحوا أبواب المدينة على مصراعيها كى يدخل أهالى لوركا كى يستريحوا، ولكن جنود لوركا عندما علموا برحيل الملك الصغير قبل وصولهم بساعتين، اتفقوا على ملاحقته، وهكذا سرعان ما خرجوا خلفه، على الرغم من التعب الذى أدركهم لاستمرارهم فى السير طيلة الليل. وكانت طليعة جيش الملك الصغير قد غادرت بيرا، وبقيت خلفية الجيش عند نهر لاس كويباس، وهناك لحق بهم أهالى لوركا، وهاجموهم، ولكن لأن المسلمين كانوا يسيرون بسرعة لم يتوقفوا للقتال بل استمروا فى المسير وهم يطلقون النار. وقد عمل أهالى لوركا على عدم ترك الفرصة لطليعة جيش المسلمين كى يدوروا حول النهر لأعلى؛ فقد هاجموهم من المنتصف، لذا قرروا أن يتوجهوا إلى لاس كويباس، التى تم نهبها لأن سكانها كانوا قد خرجوا مع الملك الصغير. ومن هناك عادوا إلى بيرا، حيث استقبلهم أهلها استقبالاً عظيماً، وقدموا لهم الطعام والشراب الذى كانوا يستحقونه لما قاموا به من عمل. والآن لا بد أن نعرف أن فى الوقت الذى طلبت فيه بيرا النجدة من لوركا، لوقوعها تحت الحصار، كانت مورثيا قد وصلها الخبر، وقررت أن تسرع لنجدة بيرا، ولم يكن هذا لأن مورثيا يجب عليها ذلك، بل فقط كى تقدم خدماتها لصاحب الجلالة مثلما فعلت لوركا، وهكذا دقت الطبول وأجراس الاستنفار كى يتجمع الأهالى. وهذا الاستعداد على الرغم من سرعة القيام به، لم يتم عندما كان الأمر فى حاجة إليه وذلك بسبب المسافة الطويلة التى تفصل مورثيا عن بيرا، والسبب الآخر لأن حاكم مورثيا كان يميل إلى الثقافة والحكمة أكثر من أمور الحرب ولكن فى النهاية خرجت مورثيا النبيلة ومعها خمسة آلاف رجل مسلحين جيداً، وعندما وصلوا بيرا كان قد انقضى أربعة أيام، وقد تم فك الحصار من حول بيرا بفضل جنود لوركا، كما سبق وقلنا، ومع ذلك فقد قرروا المضى قدماً والوصول إلى بيرا، وملاحقة العدو هناك. وعندما علم جنود لوركا عزم أهالى مورثيا قرروا الخروج معهم، وهكذا استعد نحو ألفى رجل. وفى ذلك الوقت وصل إلى لوركا قوات من ثيخين ومولا، وكاراباكا وتوتانا (Totana) وألخامة، وكانوا جميعًا يريدون الخروج لنجدة بيرا، وكانوا يعلمون أن مورثيا ستكون على رأس هذه الحملة، وهكذا خرجت كل هذه الفرق من مورثيا مساءً. وقد وصل عدد كل هؤلاء الجنود إلى عشرة آلاف رجل. وأراد أهالى لوركا استعادة مكانتهم السابقة فى زمن الملوك السابقين حيث كانوا دائمًا فى طليعة الجيش عندما كان الجيش فى طريقه لغزو غرناطة. ولم توافق مورثيا على ذلك لأنها ترى نفسها رأس المملكة، وهكذا كان هناك خلافٌ بين المدينتين. وقد انحازت قوات ثيخين

وكاراباكا وتوتانا ومولا والحامة إلى جانب لوركا. وكان على رأس قوات مورثيا قاضٍ أقرب للمثقف منه إلى رجل الحرب، وكان يُدعى باريلا (Barela)، كان ضعيفًا فلم يصدر أمرًا كان لزامًا عليه حينئذٍ إصداره، فلو كان أمر بإعدام عشرة جنود من الذين أشعلوا نار الفتنة، لما وصل الأمر إلى ما وصل إليه فقد صمم أهالى لوركا على موقفهم، فاتخذوا مقدمة الجيش واصطفت وراءهم جيوش المدن التى سبق وذكرناها. وأراد أهالى مورثيا لغضبهم الشديد التراجع عن كل شيء إلا أنه كان بينهم قادة مهمون ورجال ذوو قيمة؛ فقد كان بينهم: السيد خوان باتشيكو (Juan Pacheco)، فارس رهبانية سانتياغو، وأخوه السيد فرانثيسكو باتشيكو (Francisco Pacheco)، وبدرو ريكيلمى (Pedro Riquelme)، والسيد بدرو كاريو ألبورنوث (Pedro Carillo Alpornoz)، وبدرو دى بالبوا (Pedro de Palboa) وكانوا جميعا قد حضروا لتوِّهم من جيش الماركيز، وغير هؤلاء كان يوجد أيضًا فرسان ونبلاء، الذين لن أذكر أسماءهم الآن، ولكن سوف نذكر أسماء بعضهم فى هذا الفصل. إذن، كان جيش لوركا فى الطليعة، كما قلنا، وعلى رأسه القائد خوان ليونيس، وهو رجل عظيم وفارس نبيل. على الرغم من تواجد عدد من أهالى لوركا بين صفوفهم، فإن أهالى لوركا احتفظوا بالمقدمة. وكان حامل راية لوركا فارس نبيل يُدعى خوان مارتين (Juan Martín)، وكان جنديا عريقا، وكان معه أيضًا خوان دى ميدينا (Juan de Medina)، وهو رجل له خبرة عظيمة بالحرب، وكان معهم الكثير من الفرسان النبلاء من أهالى لوركا مثل بونثيس دى ليون (Ponçes de León) وبونثيس دى غيبارا (Ponçes de Guevara) وغيرهم من النبلاء الذين لا يمكن إحصاؤهم جاءوا من مناطق مختلفة. وقد وصلوا سريعًا إلى نبع بولبى حيث عسكر جيش لوركا فى أفضل مكان بجانب النبع. وعندما وصل جنود لوركا أقاموا إلى جواره. وعندما وصلت كل القوات أقاموا إلى جوارهم ثم لم يلبث أن انطلقت رصاصة، وعلى الرغم من أنه كان إنذارًا كاذبًا إلا أنه سبب شعورًا بالضيق. الذى حدث هو أن أحد الجنود، وكان أسود اللون وطائشا، قد وصل إلى جيش لوركا، وكان قد تراجع ومعه قواته نحو مرتفع صغير وتركوا مكان معسكرهم، أراد أن يوقف سير زملائه لأنه كان قد نزل مع القائد بكل سرعة إلى المكان الذى أطلق فيه سلاحه لإيقاف زملائه، وكان هذا المكان باتجاه بيرا، وعندما أطلق هذا الجندى الأسود سلاحه بادره أحد جنود لوركا وأطلق عليه حربة أردته قتيلاً فى لحظتها. وهكذا واصلت القوات المسير مع قائدها حتى وصلوا إلى أعماق الجيش. وقد علموا، فيما بعد، أن الإنذار كان كاذبًا فعاد كل الأفراد فى كل الجهات إلى أماكن نومهم. وقد صعدت قوات لوركا إلى المرتفع الذى كانت قد وصلت إليه وهبطت منه. وعندما انتشر خبر مقتل الجندى الأسود

وكان أحد رجال الفارس خوان تيثون (Juan Tizón)، وعندما عرف سبب قتله، ولم يتمكنوا من معرفة قاتله، تركوا الأمر هكذا تلك الليلة. وقد خرج أحد جنود لوركا على ظهر جواد وتوجه نحو بيرا كي يستطلع أحوالها، وكان هذا بأمر من مدينة مورثيا لأنهم قرروا ألا يتحركوا من هناك دون معرفة أحوال بيرا. وكان الفارس الذى توجه إلى بيرا يُدعى فولخينثيو دى إسكيبيل (Fulgencio de Esquibel)، وكان شقيق لورينتى إسكيبيل (Lorente Esquibel) الشجاع، الذى كان آنذاك مساعداً للقائد العام للجيش؛ وقد وصل فولخينثيو إلى بيرا وقد أخبرهم بأن مورثيا قد جاءت لنجدتهم وأنهم يبيتون الليلة عند نبع بولبى. وقد شكر أهالى بيرا له هذا الصنيع، وعاد إسكيبيل ومعه قوات لوركا التى حطمت الحصار من حول بيرا، وانضموا جميعاً للقوات المتجمعة. وقد أخبر فولخينثيو إسكيبيل قائده بكل ما قاله وما رآه فى بيرا. وردَّ عليه القائد دون أن يدرك جيداً الأمر ردا أثار غضب السيد بدرو كاريبو فقال له إنه رجل جاحد الفضل وعديم الخبرة بالحرب، فقد قال هذا الحاكم للفارس النبيل إنه قد عرض حياته للخطر بذهابه إلى بيرا عبر طريق غير معروفة وأراضى يتواجد فيها الأعداء. وكان الرد الذى صدر عن الحاكم يتلخص فى قوله: "انظر مع منْ تعود الآن!"، ولهذا فقد غضب السيد بدرو منه أشد الغضب. وقد عمل فرسان مورثيا الكبار على ألا يتطور هذا النقاش وهذا الخلاف. وقد رأى أهالى مورثيا أن الجيش به جنود من خيرة الرجال، وأنهم مستعدون للحرب جيداً، ولأن بيرا قد أزاحت الحصار القائم حولها، لكل هذا رأوا أن يلاحقوا العدو، الذى كان على بُعد ستة فراسخ بالقرب من بورتشينا. وبعد الاتفاق على هذا، أخبروا بقية قادة الجيش بما اعتزموا فعله، وقد وافق الجميع عليه، وكى يرضوا الطرفين اتفق القادة على أن تخرج قوات مورثيا برايتها وتأخذ ناحية اليمين بينما تصطف قوات لوركا ورايتها ناحية اليسار، وأن تسير القوتان متوازيتين، وقد أعطى هذا الشرف لمورثيا لكونها رأس مملكة. وعلى الرغم من أن لوركا كانت لها مكانتها لدى الملوك السابقين حيث كانت فى أثناء الحروب الدائرة ضد غرناطة تحتل دائماً طليعة الجيش، إلا أنها فى تلك المهمة تنازلت عن هذا لمورثيا لأنها رأس المملكة، كما سبق وقلنا، ولأنها خرجت لمطاردة العدو. وبعد الاتفاق على هذا وتوثيقه فى مضبطة[٣] حيث اتفق على خروج الجيش فى صباح أحد الأيام متجهاً إلى المنصورة حيث يوجد الملك الصغير، وكان الجنود قد أقاموا احتفالاً كبيراً لهذا الخبر عشية خروجهم فى كل

(٣) حتى الأمور العارضة يتم توثيقها . أين نحن من التوثيق والمحافظة على الوثائق ؟ (المراجع) .

مكان فأوقدوا المشاعل وأشعلوا النيران بشكل عجيب. ولكن عند الصباح، وعندما حان وقت الرحيل، تغيرت الآراء، فقد رأت مورثيا أنه ليس من الصواب الخروج دون إذن من صاحب الجلالة وملاحقة الأعداء دون أمر منه؛ فعندما خرجوا من مورثيا كان ذلك بنية فك الحصار عن بيرا، وهي الآن غير محاصرة، لذا ليس هناك سبب للقيام بهذه المهمة. وقد حزن الجيش كله عندما علم بهذا الأمر وكان لديهم كل الحق فى ذلك لأن هذا الجيش لو سار والتقى بالملك الصغير لكان حطمه وقضى عليه ولانتهت الحرب تمامًا لأنه كان قد تجمع من مملكة مورثيا ١٢ ألف رجل حرب وجندى محارب، ولو أن رأس الجيش قد رأت شيئًا آخر غير ذلك الأمر غير الصائب لكانت معاناتهم قد انتهت وما عادوا لهذا الأمر بعد ذلك. وهكذا عادت كل القوات بكل قوادها إلى أراضيها وتركوا بيرا وقد تحررت من الحصار، وكان هذا بمثابة إنقاذ شجاع وسريع لهذه المدينة وهو من أنبل الأحداث التى وقعت فى أثناء حرب غرناطة فقد صاحبت أهالى لوركا ومورثيا شهرة خالدة جراء هذا العمل البطولى. والحق أن كلتا المدينتين، مورثيا ولوركا كان بينهما خلاف كبير فى أثناء تلك المهمة، ولكن فرسان مورثيا – لأنهم من أصول نبيلة وخوفًا من الأثر السيئ الذى يمكن أن يُحدثه هذا الخلاف – لم يحاولوا أن يعمقوه بل كانوا يقولون دائمًا إن كلتا المدينتين قد قامتا بعمل بطولى رائع وستبقى خالدة كل منها ودورها فى هذه الرحلة.

ولنترك الآن هذا جانبًا حيث أرى من الأفضل أن نذكر أسماء بعض الفرسان الذين شاركوا فى هذا الإنقاذ، من كل من مورثيا ولوركا، وكان هؤلاء:

- السيد خوان باتشيكو، فارس رهبانية سانتياغو.
- السيد فرانثيسكو باتشيكو، أخوه .
- بدرو ريكيلمى.
- السيد بدرو كاربيو.
- بدرو دى بالبوا .
- خوان تيثون .
- دييغو تيثون، ابنه.
- برناندو غالتيرو (Bernando Galtero).

- كريستوبال غالتيرو (Cristovál Galtero).
- فرانثيسكو غالتيرو (Francisco Galtero).
- فرانثيسكو غالتيرو آخر.
- فرسان أبالوس (Ávalos).
- ليسونيس (Lisones).
- أبيَّانيداس (Avillanedas).
- سانشو ريكيلمى، حامل اللواء الملكى.
- خينيس دى سيلبستري (Gines de Silvestre)، الضابط الأكبر.
- بيرناردينو غالتيرو (Bernardino Galtero).
- فرسان توماسيس (Tomases).
- بيراليخاس .
- أليمانيس بالوبريراس (Alemanes Valobreras).
- السيد خيرونيمو دى أيالا (Gerónimo de Ayala).
- السيد خيرونيمو دى سانتا كروث ((Gerónimo de Santacruz).
- فرانثيسكو فاخاردو[٤] (Francisco Faxardo).
- السيد خوان فاخاردو (Juan Faxardo).
- السيد خوان باثكيث (Juan Vázquez).
- السيد لويس باثكيث (Luis Vázquez).

(٤) تقول الأغانى الشعبية الإسبانية إن اسم فاخاردو مشتق من الاسم العربى "أبو الفخر" ، وإن المسيحى المنتصر قد استولى على الاسم الذى تحول إلى فاخاردو . (المراجع).

- رودريغو دى بوكسمارين (Rodrigo de Puxmarín).
- السيد إنريكى روكافول (Enrique Rocaful).
- خوان أورتادو دى غيبارا (Juan Hurtadode Guevara).
- خايميس (Jaymes).
- ثيلدرابس (Celdraves).
- غوثمانيس (Guzmanes).
- باخانيس (Pajanes).
- ماتيو بوراس (Mateo Borras).
- السيد بدرو دى بياسينيور (Vedro de Villaseñor).
- روداس (Rodas).
- خوفريس دى لوايسا (Jofres de Loaysa).
- خونتيرينيس (Juntrenes).
- ثابايوس (Zaballos).
- توردسيًّاس (Tordesillas).

ومن لوركا ساهم الآتى أسماؤهم:

- خوان ليونيس دى غيبارا
- خوان ميادو دى غيارا (Juan Mellado).
- لويس بونثى دى غيبارا.
- أدريان ليونيس ألبوركيركى (Adrián Leonés Al burquerque).
- مارتين ليونيس ألبوركيركى (Martín).
- أدريان ليونيس دى غيبارا (Adrián Leonés de Guevara).

- ألونسو دى ليبا بونثى (Leyva Ponce Alonso de).
- ألونسو دى ليبا مارين (Alonso de Leyva Marín).
- دييغو دى ليبا (Diego de Leyva).
- بدرو دى بورغوس مارين (Pedro de Burgos Marîn).
- والأخوة الفالكو نيتاس.
- والأخوة الريندونيس.
- ألونسو ترويل الكايدى (Alonso Teruel Alcayde).
- ألونسو تيرويل مارثيًّا (Alonso Tervul Marcilla).
- خوان دى تيرويل مارثيا (Juan de Teruel Marcilla).
- نوميراس (Numeras).
- كينيونيروس (Quiñoneros).
- بينيروس (Piñeros).
- بيريثمونيس (Perezmontes).
- مانشيرونيس (Manchirones).

وقد خرج كل هؤلاء الفرسان والنبلاء من مدينتى مورثيا ولوركا النبيلتين، ومعهم كثيرون لم تسعفنى الذاكرة بأسمائهم. وأيضًا خرج من كاراباكا قادة وحملة ألوية وكثير من الرجال النبلاء، وكذلك خرج من ثيخين وتوتانا وألحامة ومن مدينة مولا بعض الفرسان الذين نذكر منهم هؤلاء:

- بوراس (Borras).
- إيتاس دى أبيلا (Hitas de Avila).
- ريساليس (Resales).
- ميلغاريخوس (Melgarejos).

- داتوس (Datos).
- توريثيّاس (Torrecillas).
- لاثاروس لاسوس دى لا بيغا (Lázaros Lasos de la Vega).

وقد شارك أيضًا كثير من نبلاء مدينة مولا، وقد ذكرنا بينهم أبناء لاثارو دى لا بيغا الذين جاءوا إلى تلك المملكة، ولا بد أن نعرف أن أحد الفرسان، وكان يُدعى خوان لاثارو دى لابيغا، وهو حفيد لغارثيلاسو دى لابيغا [الذى أمر الملك بدرو بقتله في بورغوس]، وقد خرج من المدينة الملكية بسبب بعض المتاعب التى تعرض لها، وقد أرسله الملك خوان إلى مدينة مولا كى يخدم ويشارك في الدفاع عن حدودها بالسلاح ومعه بعض النبلاء الذين كانوا هناك. وقد تزوج خوان لاثارو دى لابيغا أى لاسو هذا من سيدة تُدعى بوتيا، وهى ذات أصول نبيلة وقد انحدر أبناء لاثاروس بيغاس الموجودون في مورثيا من هذا النسب، وأيضًا ينتمى إليه نفس أبناء العائلة فى مدينتى مولا ولوركا، وعن نبل أصلهم أعود فى هذا إلى شهادة شرف نسب رأيتها بعينى لدى كاتب عمومى فى بلدية كاراباكا، كان يُدعى أنطونيو لاثارو دى لابيغا.

ولنترك هذا جانبًا؛ فمن الضرورى أن نعود إلى موضوعنا، فقد خرج الفرسان والنبلاء الذين ذكرناهم من مورثيا ولوركا والمدن الأخرى التى ذكرناها لنجدة مدينة بيرا، وهو عمل بطولى نالت به تلك المدن شهرة خالدة ستبقى ذكراها.

ولنعد إلى الملك الصغير، فقد وصل إلى مدينة بورتشينا، وعندما وجد أن جيوش الإنقاذ من مورثيا ولوركا لم تلاحقه، قام بنهب كل القرى التابعة للماركيز، ولكنه لم يُلحق بهذه القرى أضرارا كبيرة لأن سكان هذه القرى كانوا قد خرجوا للحرب تحت راية القائد المالح؛ وكان أكثر الأماكن التى أصابها الضرر من جراء هجومه الحدائق والبيوت والكنائس وكانت تابعة للماركيز وكان عليه أن يصلحها فربما عاد مرة أخرى لحكم هذه القرى والمدن.

ولنترك الآن الملك الصغير ولنعد إلى ماركيز بيليث، الذى كان ينتظر فى بيرخا، ولكن لنقل الآن هذه القصيدة التى كتبت حول نجدة بيرا، وتقول أبياتها:

"قصيدة تتحدث عن الحصار الذى فرضه ابن أمية حول مدينة بيرا ومعه ١٥ ألف مسلم وتركى. والنجدة الشجاعة التى قامت بها"

جيوش مورثيا ولوركا ومدن أخرى من مملكة مورثيا

كان الغضب

يملأ قلب ابن أمية

لأن ماركيز بيليث

قد هزم جيشه فى المعركة

حيث قتل منهم ثلاثة آلاف رجل

من خيرة رجال غرناطة

وكان أكثر شيء ضايقه

فقدان أسلحته هناك

وهكذا بسبب تلك الإهانة

أقسم على تدمير الأراضى

وإخلائها من سكانها

ولكى ينجح فى محاولته

أمر كل جيشه

أن يرحل فى اتجاه بيرا

لأنه يريد أن يحاصرها

وهناك سيأتى مدد من الجزائر

وهناك ستتمكن السفن من الدخول

حيث سيرسو هناك ركابها

على شاطئها الواسع الكبير

وقد رحل الجيش فيما بعد

وترك البشرات

وذهب إلى نهر المنصورة

وسار بمحاذاة ضفته

ودمر فى طريقه بساتين

كان الماركيز يكنّ لها الإعجاب

ولم يترك حجراً فوق حجر

فى ثورخينا وبارتا لوبا

ترك فقط كانتوريا

لأنها قوية ومنيعة

ولم يأخذ فى اعتباره أوريا

التى كانت محصنة،

وأيضًا لم يهاجم بيليث

إذ كانت عليها حراسة مشددة

من سكانها

الذين كانوا يدافعون عنها بإخلاص

ومر من هناك الملك الصغير

ودخل معركة فى بيرا

ودخل من ناحية بيابونا

حيث كانت هناك فرقة مراقبة

وأقام حول بيرا حصاراً

فقد أراد الفوز بها

ولكن بيرا دافعت عن نفسها

لأن بها رجالا مسلحين

وخلال ثلاثة أيام من الحرب

لم يستطع المسلم أن يتقدم خطوة

وقد تعرضت بيرا للخطر

وحارب أهلها بشجاعة

من فوق أسوارها

ضد القوات المسلمة الجانية

وانشغلت النساء

بحشو الأسلحة بالرصاص

كى يساعدن الجنود

الذين كانوا يشاركون فى المعركة

وكانت بيرا ستتعرض للخطر

لو أن الحصار استمر

فقد كانت الأعداد كثيرة

وقد قاموا بحصارها

وطلب أهلها النجدة من لوركا

فعلى الرغم من شدة الحصار

خرج ثلاثة فرسان

واخترقوا صفوف القوات المعادية

التى أقامها الموريسكيون

وخرجوا فى مهمتهم

ونجحوا فى اجتياز العدو

بشجاعة نادرة

دون أن يصيبهم أى ضرر

على الرغم من إطلاق النار عليهم

وقد جروا طول الطريق

دون أن يتوقفوا للحظة

وصل فى البداية

الذى كان لديه جواد قوى

فى خمس ساعات وصل

وأصبح داخل لوركا

عند تمام الساعة الحادية عشرة

وقد أخبر الجميع بالرسالة التى يحملها

وفى تمام الثانية عشرة

وصل الثانى

ووصل الثالث فى تمام الواحدة

وقد خرجت قواتها فى تمام الثانية

وقد خرج ثمانمائة رجل

لأنهم كانوا كافيين

كى يحطموا الحصار

على الرغم من كثرة الأعداء

وكان هناك ثمانون فارساً

شاركوا فى تلك المهمة

ووصلوا بولبى ليلاً

وعند وصولهم بيرا بزغ الفجر

وقد رأى ابن أمية

هذه القوات قادمة

ففك الحصار عن بيرا

وسار حتى لاس كويباس

ولأن هناك أملاك الماركيز

فقد دمرها كلها وأحرقها

وسار نحو بورتشينا

جيش كان ينتظره المالح

وقد خرج أهالى لوركا لمتابعته

وأصيبت مؤخرة جيشه

ولاحقوه حتى وصل إلى النهر

ولكن من هناك غير اتجاهه

لأن الأعداء أصبحوا بعيدين

وقد عادوا إلى بيرا

وكلهم فرحة وسرور

وقد استقبلهم أهلها كالأبطال

وشكروهم كثيراً

على هذا الإنقاذ السريع

الذى كان له أهميته

وفى المساء خرجت

مورثيا النبيلة

كى تشارك فى هذه المهمة

وكانت قوتها تتشكل من خمسة آلاف رجل

وكانوا جميعهم رجال حرب

وخرج أيضاً رجال من كاراباكا

وثيخين ومولا النبيلة

وخرج أيضاً من توتانا وألهاما

ولأن مورثيا قد رأت

بأن تكون رأس المملكة

والحق أن لها فى كل أمر احترامها

ولكن عندما جاءت هذه القوات

كانت بيرا قد تحررت من الحصار

ولم يعد من الضرورى الحرب

ولكن ذلك لم يضيع

شرف ومجد كبيرين

فقد خرجت هذه القوات

وأظهرت جديتها وعظمتها

وكل فضيلة تتميز بها

" خاتمة "

الفصل الرابع عشر

الذى يتحدث عن عودة ماركيز بيليث إلى أدرا، ووصول ماركيز فابارا (Favara) ومعه أربعة آلاف محارب إلى هناك حيث استقبله ماركيز بيليث. ويتحدث كذلك عن هجوم القائد الأعلى - الذى أحضر جنودًا من جيش نابولى- على مسلمى بنتوميث (Bentomiz) وفريخيليانا (Frigiliana) وكيف قاوم المسلمون فى أثناء تلك المعركة ولكنهم هُزموا فى النهاية.

حكينا لكم كيف أن فاخاردو الشجاع، حاكم مورثيا، هزم قوات الملك الصغير، الذى هرب بعد أن فقد نحو ثلاثة آلاف رجل كان قد أرسلهم للمعركة، حيث ملئوا الميدان فى بيرخا، وقد أمر بحرق أجسادهم، ولكنه غضب لأن هذه المذبحة أسفرت عن بعض الأذى الذى لحق بجيشه، وقد أمر بانسحاب جيشه من هناك وأن يتوجه إلى أدرا، التى كانت على بُعد فرسخ واحدٍ، ولأنه كان يعلم أنه قد أصدر أمرًا بعمل ذلك لأن صاحب الجلالة قد أمر القائد الأعظم لليون السيد لويس دى ثونييغا إى ريكيسين (Luys de Zúñiga Requesen)، بالذهاب إلى هذا المكان ومعه جزء من جيش إيطاليا، وأن يقوم بتسليم هؤلاء الجنود إلى ماركيز بيليث حتى يستطيع بمعاونتهم أن ينهى الحرب فى البشرات؛ ومن أجل ذلك تم استدعاء القائد الأعلى الذى كان فى روما، وفى طريقه إلى نابولى استطاع أن يجمع ستة أو ثمانية آلاف رجل حرب من جيش إيطاليا، وقد سافر فى سفن من نابولى، ورحل معهم إلى إسبانيا، وبعد الوصول إلى برشلونة - حيث كان يملك فيها بيتًا- ضم إليه جماعة كبيرة من قطاع الطرق، الذين طلب لهم عفوا عاما عن كل جرائمهم السابقة ليذهبوا معه إلى معركة غرناطة. مع كل هذه الجماعة من الرجال الشجعان ومع غيرهم ممنْ حضروا معه، وصل فى السفن إلى بنتوميث وفريخليليانا وهما قريتان يسكنهما المسلمون. وقد أعلنوا الثورة وحملوا السلاح، وقد رأى القائد الأعلى أنه من المناسب أن يهاجموا هذه القرى فقد جاء معه جنود من جيش نابولى ومن مدن أخرى وهم جنود شجعان، وهكذا أمر بأن ترسو السفن وقد ذهب معها كى يهاجموا بنتوميث (Bentomiz) ، وكان الطريق إليها من الصعب الصعود عليه حيث توجد القرية فى أعلاه، وعندما انتظمت القوات هناك، أمر بأن يكون أهالى مالقة فى مقدمة الجيش ومعهم بعض الأهالى الذين جاءوا

للانتقام من الموريسكيين الذين أساءوا معاملتهم فى الماضى، وهكذا أمر القائد الأعلى بأن يهاجم هؤلاء الجنود من ناحية، وأن يهاجم الجنود القادمين على سفن من ناحية أخرى، وعندما حان وقت الهجوم، صعد المسيحيون عبر المرتفع بكل سرعة عازمين على الوصول إلى أعلى بكل قوة، ولكن المسلمين بدءوا فى الدفاع عن أنفسهم بإلقاء حجارة بشكل مكثف وبطريقة شيطانية منظمة، فقد كان لديهم أحجار تستخدم فى تشغيل الطواحين وقد وصلوا حجرين منهم بعصا خشبية غليظة وأخذوا يقذفون هذه الأحجار التى تشبه العجل على القوات المسيحية الصاعدة، ولم يكن هناك أى عجلة حجرية قد تم قذفها إلا وأخذت فى طريقها نحو خمسين جنديا مسيحيا، إذا وجدتهم أمامها حيث كانت تنطلق من أعلى المرتفع بكل سرعة وغضب وكأنها شعاع برق قد نزل من سحابة كثيفة، وقد أوقعت هذه العجلات ضرراً كبيراً فى صفوف القوات المسيحية، وكان رؤية هذا العدد الكبير من القتلى شيئًا يثير الشفقة، حتى إنه فى ساعات قليلة خسرت هذه القوات الكثير من جنودها، ولكن أهالى مالقة والقوات المصاحبة لهم أظهروا شجاعة نادرة حيث صعدوا إلى أعلى المرتفع واشتبكوا مع المسلمين فى معركة ضارية، ومع أن جنود نابولى قد أدركهم التعب بعد صعودهم المرتفع إلا أنهم أطلقوا نيراناً كثيفة من بنادقهم على المسلمين، وقد دافع المسلمون عن أنفسهم كالأسود، حيث قتلوا وجرحوا الكثير من المسيحيين، ولكن كانت مقاومتهم هذه بلا جدوى أمام شجاعة المسيحيين، الذين استطاعوا دخول القرية فى النهاية بعد أن قتلوا الكثير من المسلمين، وبعد هروب عدد آخر منهم من المعركة. وكانت المعركة عنيفة، وتم أسر عدد كبير من النساء المسلمات والأطفال، ولكن القوات المسيحية دفعت ثمناً باهظًا لهذا من الدماء المسيحية ومن أرواح الجنود الذين لقوا مصرعهم هناك.

وعندما تأكد انتصار المسيحيين، أمر القائد الأعلى بدفن الموتى وحمل الجرحى، ورحل فى السفن باتجاه مالقة التى امتلأت مستشفياتها بالمصابين فى هذه المعركة. وقد فضل القائد الأعلى البقاء فى مالقة عدة أيام يعالج خلالها جنوده وينظم صفوفه ثم يعود بعدها إلى ماركيز بيليث، الموجود فى أدرا، حيث يعسكر هناك جيشه، بينما ينتظر هو، كجندى شجاع وقائد عام، أوامر صاحب الجلالة. وفى ذلك الوقت، أمر الماركيز برحيل النساء المسلمات الأسرى إلى لاس كويباس، لكى يعشن هناك فى أمان، وقد انتقلن من هناك إلى بنتوميث، وكان أحد الرجال الذين صاحبوا هؤلاء السيدات فى رحلتهم مسلم يُدعى البِشارى الذى تحدثنا عنه من قبل حيث قلنا عنه إنه قد أصابه فرانثيسكو ثربانتيس بجراح وقد أحضره إلى الماركيز فى

بيرخا. وقد أخذ هذا المسلم حبيبته المنصورة على ظهر دابة بأمر من الملك، وكان يسير كأسعد رجل فى العالم؛ فهو يرى حبيبته الجميلة، ولم تكن السيدة أقل سعادة منه فهى تراه وتتحدث معه وتشعر بحبه العميق لها؛ ولولا وجود هذه القصة لما حكينا سوى عن ضربات الرأس والسلاح والمعارك، ولكى نكمل قصة حب هذين العاشقين نقول: فقط أستطيع أن أقول إنه عند وصول النسوة المسلمات إلى لاس كويباس، ذهب البِشارى مع الباقين إلى جيش الماركيز، واستمر فى خدمته بإخلاص حتى عاد الماركيز إلى بيته، ولأن إله الحرب ينتظرنا، نترك هذا الأمر جانبًا ونتحدث عن أشياء خاصة بالحرب ما زالت بين أيدينا. فقد انسحب ابن أمية ورجع إلى بورتشينا بعد فك الحصار الذى أقامه حول بيرا، ولم ينجح فى تحقيق هدفه، فعاد ومعه كل جيشه إلى بورتشينا، وقرر أن ينتظر هناك جيش مملكة مورثيا، إذا أراد أن يلاحقه، وعندما علم بأن لوركا ومورثيا لن يلاحقاه، قرر إقامة احتفالات مهيبة كى يدخل السرور على قلوب جنوده، وهكذا أمر بإقامة احتفالات بهذه الطريقة:

- منح المشارك فى المسابقات والألعاب بقوة وصلابة مائة دوقية ذهبية وأن يوضع على رأسه إكليل من الغار الأخضر.

- منح مائة دوقية ذهبية أخرى إلى كل منْ لعب برشاقة وخفة وسرعة، وكان من السابقين فى الميدان.

- منح مائة دوقية من الذهب للإسراع فى الوصول إلى الأرض خلال ثلاث وثبات.

- منح الذى يستطيع أن يحمل أثقالاً على كتفه مائة دوقية من الذهب وسيفًا صغيرًا جميلاً.

- منح أفضل راقص مع سيدة جميلة رداء من الحرير الناعم المصنوع فى الجزائر.

- منح السيدة بارعة الرقص رداءً جميلاً وأربعة مآزر.

- منح الرجل البارع فى العزف والغناء الموريسكى، صاحب أحسن أغنية وأفضل قصيدة، جوادًا مزينًا ومطعمًا.

- منح السيدة بارعة الغناء باللغة العربية، رداءً مشغولاً بالذهب.

- منح المسلم طليق الغناء ثلاثين دوقية من الذهب وسيفًا.

- منح المسلم البارع فى إطلاق الرصاص أو القوس عشر دوقيات من الذهب.

- منح المسلم البارع فى التصويب عشر دوقيات من الذهب.

كل هذه الحفلات والمسابقات أقيمت فى ميدان مدينة بورتشينا، حيث كان كبيرا ويتسع لهذه المسابقات، ولكى يُقام فيه كل هذا أمر الملك الصغير بتجهيز الميدان وفرشه بالرمال، وقد تغطت كل الجدران والنوافذ بأقمشة حريرية وأخرى بيضاء اللون ومشغولة؛ وقد أمر الملك الصغير بإقامة هذه الألعاب وغيرها لأنه لم يكن يسمح بإقامة مصارعة للثيران أو تجهيز الخيول وامتطاء ظهورها فى أثناء اللعب بالعصى؛ وهكذا بإقامة هذه الألعاب المختلفة بعضها عن بعض شعر أفراد جيشه بالسرور ومارسوا التدريب، وقد أقيمت هذه الاحتفاليات خلال اثنى عشر يومًا كان الملك الصغير يعلم تمام العلم أنه فى أمان بعيدًا عن هجوم المسيحيين، وكان يقظًا إلى أن ماركيز بيليث فى انتظار الأوامر فى أدرا، وأن جيش السيد خوان دى مندوثا، وكان نائبًا لماركيز مونديخار، كان فى أورخيبا أيضًا فى انتظار الأمر بما يجب عليه أن يفعله، وهكذا أعطى ابن أمية أوامره بإقامة الاحتفاليات التى سبق وتحدثنا عنها فى بورتشينا.

وحان وقت إقامة المصارعة الخطيرة بين أقوى شباب المسلمين المتواجدين فى الجيش، وقد أمر ابن أمية بإقامة مظلة من الحرير، ما بين قوائم من الخشب استولى عليها المسلمون من الكنائس، وقد وضع تحت هذه المظلة مقعدا مريحا ليجلس عليه الملك، ومقاعد أخرى أقل فخامة ليجلس عليها القادة والفرسان القريبون منه. وعندما جلس ابن أمية على مقعده الوثير، وعلى الجانبين جلس القادة والفرسان المحترمون، انطلقت بعض آلات الحرب كالنفير والطبول وغيرها من الآلات التى بعثت البهجة فى مثل هذه الاحتفالات. وقد امتلأت الشرفات والنوافذ بالسيدات المسلمات الجميلات، وقد امتلأ الميدان بالأهالى القادمين من جميع أنحاء البشرات ونهر المنصورة وألمرية ومن أماكن أخرى تابعة لمملكة غرناطة، وقد استعد الجميع بالأسلحة وكأنهم على وشك الدخول فى حرب، فهم كجنود ماهرين يستعدون بالسلاح فربما يكون من اللازم استخدامه فى أية لحظة. وكان ابن أمية ورجاله على الوضع الذى ذكرناه، عندما انطلقت الأغانى الموريسكية وظهر فى الميدان القائد الشجاع كاراكاتشا (Caracacha)، وبصحبته الكثير من الأتراك، وكلهم يحملون آلات موسيقية حربية كثيرة، مثل الطبول والمزامير والأبواق، وفى منتصف الدائرة، كان يقف القائد وجسده عارٍ تمامًا إلا من سروال صغير كان يرتديه. وكان جسده يبدو لامعًا من أثر الزيت الذى طلاه به حتى لا يستطيع غريمه أن يوقع به

بسهولة. وقد استعرض التركى الشجاع قوة أعضائه وصحة مظهره وعضلات ذراعيه وساقيه وصدره القوى العريض وظهره أيضًا. وكان كاراكاتشا رجلاً متوسط الطول ليس بالطويل ولا بالقصير، أعضاؤه متجانسة، ومفتول العضلات لدرجة يبدو معها أنه ذو قوة مضاعفة. وهكذا كان كل منْ ينظر إليه من الجمهور يهتف باسمه ويطالبه باستعراض قوته. وهكذا كان هذا التركى يسير فى كل الميدان مستعرضًا قوته، ثم وقف فى منتصف الميدان حيث يجب أن تقام المصارعة العنيفة. وبعد قليل خرج من أحد الطرقات إلى الميدان الواسع موسيقى عالية وعزف للطبول والأبواق ودخل الميدان خمسون جنديا مسلما يرتدون زيا جميلا أخضر اللون ومشغولاً بالفضة والذهب، وجميعهم يحملون البنادق. وعندما وصلوا إلى الميدان، قاموا بإطلاق النار من بنادقهم، ثم ذهبوا كما جاءوا، وفى منتصف الطريق ظهر القائد الشجاع المالح، وجسده عارٍ إلا من بعض قطع القماش الخفيفة المشغولة بالحرير والذهب، وكان يضع على رأسه قماشًا يساوى ثمنه الكثير؛ فهو يتكون من قطع من الحرير القرمزى ويهبط منها كرتان من الحرير القرمزى والفضة. وكان يتقدم القائد المالح وصيف يرتدى زيا أخضر اللون مزينًا بالفضة ويضع على رأسه بعض الريش الأخضر والأبيض الجميل ويضع فى ذراعه الأيسر درعًا مذهبًا منقسمًا إلى جزأين أحدهما لونه أزرق والجزء الآخر به هلال من فضة، يبدو من أحد طرفيه المدببين وكأنه يد سيدة جميلة، ومكتوب عليه باللغة العربية هذه الكلمات:

" فى أثناء انتظار قمرى لظهور القمر

يكون لدىَّ الأمل

حيث لا يؤثر جذر البحر ولا التقلب

فى حظى أبدًا" .

هذه الكلمات كان يحملها المالح الشجاع لأنها تشير إلى سيدة مسلمة جميلة تُدعى قمر، كان يثق دائمًا فى أنه لن يفقد حبها فى أى وقت من الأوقات. وكانت هذه السيدة تجلس ذلك اليوم فى إحدى الشرفات ومعها سيدات مسلمات جميلات، كى يشاهدن أحداث الاحتفال. وعندما دخل القائد الشجاع الميدان لم تفارق عيناها وجه حبيبها، فقد أخذت تتأمل جمال وكمال أعضائه، التى لم تكن بيضاء ولا سمراء، بل لها جمال أخاذ وتناسق بديع. وهكذا كان

الأهالى مندهشين للأعضاء القوية والعضلات المفتولة التى تغذيها شرايين زرقاء تأخذ شكلاً بديعًا. وكما ظهر القائد كاراكاتشا بصورة رائعة، لم تكن الهيئة التى ظهر عليها المالح أقل بهاءً وروعة، بخاصة بعد الدخول الرائع الذى صاحبه فيه قومه بموسيقاهم وأزيائهم الجميلة، على الرغم من أن دخول كاراكاتشا وأصحابه كان أيضًا مميزًا وجميلاً. وإذا كنا قد تحدثنا عن الكلمات الجميلة التى كان يحملها وصيف المالح، فلا بد أن نتحدث عن الأبيات التى ظهرت مع كاراكاتشا: وقد كتبت هذه الأبيات على درع مذهَّب، كانت خلفيته حمراء اللون وكأنها ياقوت، وفى المنتصف مرسوم عليه وجه فتاة تركية جميلة وكأنها ملاك، وقد مشطت شعرها بطريقة تركية بديعة أظهرت جمال شعرها الذهبى. وكانت ترتدى رداءً ذا فتحة واسعة تظهر جمال عنقها الأبيض الناعم[١] ، الذى يحوطه عقد جميل يبدو مصنوعًا من لآلئ شرقية وقطع من الذهب ويتدلى من أذنيها الجميلتين قرطان جميلان من الياقوت الرقيق. وقام بحفر الصورة على الطبيعة فنان جزائرى، وقد أحضرها كاراكاتشا معه إلى إسبانيا كتذكار جميل لحبيبته، وقد أخرجها فى ذلك اليوم على الملأ لأنه كان يعتقد أن وجود صورة حبيبته أمامه سوف يشجعه ويحفز معنوياته ويضاعف قوته، كما لو كانت الحبيبة أمامه بالفعل. وكان مكتوبًا أسفل الصورة باللغة التركية هذه الكلمات:

" ليس للشمس ولا للقمر

ولا للشهاب مثل هذا الجمال:

جمال وجه السيدة التى أحبها

أكثر من أى شىء فى الدنيا" .

ويبدو أن القائد كاراكاتشا قد أظهر هذه الصورة لغرض ذكى ذلك اليوم، حيث تتشابه أبياتها الشعرية مع الأبيات الموجودة على درع القائد المالح؛ بل وترد عليها أيضًا، لأنها تعنى أن جمال حبيبته يتفوق على جمال القمر، وهو الاسم الذى تحمله حبيبة المالح، الذى لم

---

(١) هذا الوصف يتعارض مع رغبة الموريسكيات فى إخفاء جمالهن اتباعًا لأوامر الإسلام. (المراجع).

ينتبه لما هو مكتوب بسبب بُعد المسافة، ولأنه قد دخل فى البداية إلى الميدان ومن ثم فقد ركز عينيه على الشرفة التى تجلس فيها حبيبته لأنه كان يعلم مسبقًا أين ستجلس، وعندما رآها تتطلع إليه خُيل إليه أنه ليس فقط يمكنه مصارعة كاراكاتشا؛ بل أيضًا مصارعة الثيديس (Alcides) نفسه الذى ذاعت شهرة قوته فى كل أنحاء العالم. وكانت السيدات الجالسات إلى جوار حبيبة المالح يرتدين ملابس غاية فى الجمال من الحرير بألوان مختلفة؛ فقد حيكت الملابس بكل دقة وعلى أروع مستوى لذلك العصر وجميعهن قد مشطن شعرهن بطريقة حديثة. ولم تكن قمر الجميلة أقل منهن زينة أو أناقة حيث كانت ترتدى زيا من الحرير المشغول بألوان متعددة وناعمة وكانت ترتدى فوقه زيا آخر من المخمل الأزرق والمخمل القرمزى، وقد تداخلت الألوان والأقمشة بطريقة بديعة لكى تنتج فى النهاية زيا كان يُعرف باسم [الصديرية]، وكان الجزء المخملى الأزرق مبطنًا بنسيج ناعم أصفر اللون، والجزء المخملى القرمزى كان مبطنًا بحرير فضى اللون فى تناسق جميل ومبهر. وكانت ترتدى حذاءً نصفه أزرق اللون والنصف الآخر ملونًا بألوان متعددة وبه من كل الجهات خيوط دقيقة مذهبة. وقد وضعت هذه السيدة الجميلة على جبهتها وعلى صدغيها شريطًا من الحرير بلون الصدف وقد علقت به لآلئ شرقية جميلة. أخيرًا، لقد كانت الجميلة قمر تبدو رائعة الجمال والفخامة بحيث لا يمكن مقاومة النظر إليها. وكان ابن أمية يختلس النظر إليها من حين لآخر. ولأنه كان يعرف قدرها لدى القائد المالح، كان يكتفى بمجرد النظر إليها، لأن محاولة أى شىء آخر كان يعنى فقدان أحد قادته الشجعان ومعه أكثر من عشرة آلاف جندى يحاربون تحت رايته.

وأخيرًا، نقول إنه عند دخول المالح إلى الميدان صَوَّب عينيه فى اتجاهها ثم فى اتجاه أتباعه، ثم سار أمام ابن أمية حيث قام بتحيته وأظهر له ولاءه ثم عاد إلى الناحية التى تجلس فيها النساء حيث حياهن. وقد قامت جميع النساء وأظهرن له الاحترام. وقام بالتحكيم القائد الحبقى الشجاع ومعه أحد أعمام ابن أمية، وقد أختارهم هو بنفسه للتحكيم فى هذه المسابقات، وعندما نظر الاثنان إلى الاستعداد الطيب للمالح قال الحبقى: "حقا يا صاحب المعالى، إن المالح يبدو فى هيئة طيبة ومستعدًا، وإن لم يخدعنى تفكيرى، إذا أجاد التصرف على المستوى الذى تبدو عليه أعضاؤه، فسوف يفوز دون شك على كاراكاتشا الذى أرى

هزيمته محققة"، وكذلك قال مثل قوله الكثير من القادة والفرسان الموجودين فى الساحة ثم نظر الجميع فوجدوا المالح وقد ترك أتباعه فى أحد جوانب الميدان، وتوجه خطوة خطوة بمظهر شجاع حتى وصل حيث وقف القائد كاراكاتشا، الذى كان ينظر إليه منذ دخوله الساحة، مندهشًا لهيئته الجميلة ومظهره الشجاع، وهو يعلم أن المالح رجل ذو قوة عظيمة وشهرة واسعة. ولم يكن المالح أقل تقديراً للإفريقى التركى، فقد كان يبدو له كرجل له قيمته وقوته. وهكذا، وصل إليه، وتبادل الاثنان التحية، وأخذ كل منهما باليد اليمنى للآخر. وقال الإفريقى للمالح: "إنه ليسعدنى، أيها القائد الشجاع، أن تكون منافسى لأنه يسعدنى أن أرى شجاعتك قد وصلت إلى مستوى شهرتك؛ فلأنك كنت مقيمًا فى الحصن القريب من نهر المنصورة، لم تصلنى أخبار كثيرة عنك، ولكن شهرتك بلغت الآفاق فى البشرات وموانئها". وقد أجاب المالح على هذه الكلمات قائلاً: "إثبات شجاعتى، أيها الإفريقى الشجاع، لن يجديك فى هذه الحالة، بل يجدر بك إثبات شجاعتك أنت، واعلم أن لهذا السبب قد اختاروك أيها القائد لهذه المصارعة، ولنرى إذا كانت قيمتك الشخصية ستكون على مستوى غرورك". بعد قولهما هذه الكلمات ربما وجه كل منهما عينيه نحو حبيبته، القائد التركى نحو الدرع الذى به صورة الحبيبة، الذى لم يبعد عنه سوى خطوات قليلة، وقد امتلأ غروراً وزهواً عندما رأى صورة الحبيبة التى لا يضاهى جمال الشمس ولا القمر ولا الشهاب المضىء جمالها، وقد عرف المالح أن القائد التركى قد أخرج هذا الدرع كمنافس لحبيبته الجميلة، فقام وقد امتلأ بالغضب بالتقدم للأمام قائلاً: "إذن إنها مناسبة الآن لإثبات قيمة ما يدعيه كل منا، ولكى أضع مزيداً من النار على الموضوع أود أن أسألك: قل، أيها الإفريقى[٢]، هل تعلم ما هو القمر؟ " فأجاب الإفريقى: " قل أنت، هل تعتقد أننى جاهل أو غبى حتى لا أعرف ما هو القمر؟. نحن الإفريقيين لا نضع في دروعنا شيئًا آخر سوى القمر، فهو بالنسبة لنا رمز للجمال السماوى الخالد ونرسمه دائمًا على أسلحتنا، التى تتحكم فى حظنا سواء فى الازدهار أو تقلبات الدهر" . "إذا كان الأمر كذلك، كما تقول، قل لماذا لم تعبر عن هذا الاحترام الذى تكنه للقمر، ووضعت بدلاً منه صورة حبيبتك على درعك، وهى صورة قاتمة وأشد ظلامًا من الليل إذا ما قورنت بالقمر الذى يضىء عينىّ؟. حقا يا كاراكاتشا إنك لا تعلم شيئًا عن القمر، ولكى تعلم ما هو القمر، الذى صورته فى درعك، انظر إلى تلك الشرفة الزرقاء الذهبية، وحيث يوجد هذا

(٢) يتردد المؤلف عند الحديث عن جنسية ذلك الفارس؛ فتارة يقول إنه تركى، وتارة يقول إنه إفريقى. (المراجع).

الرداء الرائع من المخمل الأخضر، سترى قمراً العفيفة الشريفة التى تستحق أن توضع فى شعار أى بطل حتى ولو كان الإسكندر الأكبر". وقد رفع القائد الإفريقى الشجاع عينيه صوب النافذة التى أشار إليها المالح، فرأى عدداً من السيدات المسلمات الجميلات حيث يبرز جمال واحدة منهن، وقد أدرك فيما بعد أن المالح يحدثه عن هذه السيدة، التى يعتبرها قمره، وقد شعر بالإهانة لأن المالح قد شبه صورة حبيبته بالليلة المظلمة، فقال له: " لقد استهنت كثيراً بصورة سيدتى، يا مالح، فلم يكن لديك الحق فيما قلت، ولا أتعجب لذلك، لأن عين المحب ترى المحبوب جميلاً دائماً حتى ولو كان قبيحاً. لقد شبهت سيدتى بالليلة المظلمة، فى الوقت الذى تشبه فيه حبيبتك الضباب المظلم إذا ما قورنت بسيدتى، لقد كتبت فى شعارك اسمها ورسمت يدها وهى تعزف على أوتار القمر الرقيقة؛ إذا كانت هذه هى طريقتك، فماذا عن الجائزة التى وعد الملك بها الفائز فى هذه المسابقة، وهو الذى يستطيع أن يسقط الآخر ثلاث مرات؛ فقد وعد الملك بأن يحمل الفائز شعار الآخر ويقدمه كتذكار للانتصار إلى حبيبته."

قال الإفريقى هذا وهو متأكد من أن النصر سيكون حليفه. وقد أجابه المالح قائلاً بصوت تملؤه السعادة: " أقسم لك بمحمد، أيها الشجاع كاراكاتشا، بأنك قد أدخلت السرور على نفسى بما قلته، على الرغم من إحساسى بالضيق لأن الانتصار عليك يجب أن يتأجل حتى السقطة الثالثة، ولكن أقسم لك بكل ما تكنُّ من حب لسيدتك، بأن يكون الانتصار من نصيبى من أول سقطة".

فى ذلك الوقت وصل إليهما الحبقى الطيب وكان حكماً فى تلك المصارعة، كى يعرف على أى شيء يتنازع الخصمان، وكان بصحبته كثير من القادة والفرسان، وعندما علموا سبب الخلاف بينهما اتفقوا على أن يكون الانتصار نظير السقطة الثالثة، وعندما انتهوا من هذا خرج الجميع من الساحة وتركوا المتنافسين وحدهما. وقام المالح وهو فى قمة غضبه من الإفريقى بالهجوم عليه، وهو يرغب فى إنهاء النزاع بينهما بالسلاح وليس فقط عن طريق المصارعة، ولكنه كان يعلم أن ذلك مستحيلٌ فتركه وهو يأمل أن يتيح له الزمن فرصة أفضل للانتقام منه، وهكذا التزم الصمت، وتغير لون وجهه وأصبحت عيناه كجذوتين من النار، وتوجه صوب التركى، الذى لم يكن أقل منه غضباً، واشتبك الغريمان الشرسان بالأذرع بكل قوة، وقد أخذ كل منهما يحكم قبضته على الآخر بيديه وكأنهما كلاَّبتان قويتان، وهكذا بدأ كل منهما يمتحن قوة الآخر وصلابته، وهما يتحركان فى كل مكان: أحياناً للخلف، وأحياناً للأمام وأحياناً يتحركان بطريقة دائرية، وكأنهما زوجاً من الخنازير البرية أو زوج من الثيران القوية

يملؤها الغضب. وقد استطاع الإفريقى الإمساك بالإسبانى[٣] بقوة، فى الوقت الذى لم يستطع الإسبانى الإمساك به بنفس القوة نظرًا للزيت الذى طلى به التركى جسده، والذى جعل الإمساك به أمرًا صعبًا، حيث كانت يداه تنزلقان من فوق جسده، بينما أمسك التركى به بقوة حيث كان جسد الإسبانى نظيفًا ويغطيه الشعر، فتمكن منه الآخر كما يريد. وقد شعر المالح بهذا فقرر أن يعالج الموقف بكل سرعة، فانتفض انتفاضة شديدة، أفلت على إثرها بصعوبة من يدى الإفريقى، حيث نزعت فى طريقها شعر جسده فى الأماكن التى كان يطبق عليها بيديه. وعندما رأى المالح أنه قد أصيب من جراء هذا الإمساك القوى، انحنى على الفور صوب الأرض وكأنه طائر من الجوارح ووضع يديه على الرمال، وكانت الرمال البيضاء تملأ ساحة المصارعة، ثم نهض واقفًا واتجه نحو الإفريقى، الذى كان متوجهًا نحوه راغبًا فى أن يوقعه على الأرض، وكان مسرعًا للغاية، بحيث إنه عندما وصل إلى الإسبانى كان هذا الأخير قد نهض فوضع الآخر يديه على الرمال التى كانت ناعمة جدا فانزلق فوقها الإفريقى ولم يستطع أن يتمالك نفسه فوقع بصدره على الأرض وتغطى جسده كله بالرمال البيضاء بفعل الزيت الذى كان وضعه. وعندما رآه المالح على هذا الوضع، قرر أن ينتهز الفرصة الطيبة التى سنحت له، فألقى بالرمال التى كانت فى يده على ظهر التركى، الذى كان يريد النهوض، ولكن الإسبانى الشجاع لم يعطه الفرصة لذلك؛ فقد ألقى بجسده عليه وجعله يدور مرة وأخرى حتى تمدد مرة أخرى على الرمال. وقد حاول الإفريقى النهوض مرة أخرى فتمسك بالتمرغ فى الرمال، وامتلأ جسده بها بحيث فقد الزيت تأثيره الناعم المنزلق. وعندما وجد المالح إصرار الإفريقى على النهوض، قال له: "إن أول سقطة يا كاراكاتشا لن تكون من نصيبك"، ثم ابتعد عنه حتى يعطى له الفرصة للنهوض؛ وعندما وقف على قدميه أراد أن يعاود الهجوم مرة أخرى على المالح، والغضب يملأ جوارحه، فقال له المالح إن هذا الهجوم سيكون من أجل السقطة الثانية، لأن الأولى قد فاز بها هو وأصبحت لصالحه. ولكن التركى قال له لا، إذا كنت قد سقطت على الأرض فلا يعنى هذا أنك هزمتنى لأن ذلك كان بتأثير الرمال الناعمة التى انزلقت فوقها وأفقدتنى توازنى، وليس بتأثير قوتك أنت. وعندما وصلا إلى هذه النقطة من المناقشة؛ تدخل الحكام، وحاولوا تحليل الموقف فوجدوا أن الرمال كانت عاملاً مساعداً لتفوق المالح وسقوط التركى، وأن التركى قد حاول الإمساك بالمالح بحيث يكون أسفل وهو أعلى منه، لذا

(٣) هذه من المرات القليلة التى يرى فيها بيريث دى إيتا أن الموريسكى إسبانى. (المراجع).

أدى وجود المالح أسفل إلى انزلاق الآخر وسقوطه. وعلى هذا أصبح المالح الفائز بهذا السقوط، وأعلن الحكام فوزه. وعلى الرغم من محاولة الإفريقى الدفاع عن موقفه، فإنه فى النهاية جاء الحكم لغير صالحه مما أثار غضبه بشكل عظيم؛ فقام بالهجوم على المالح، وبدأت المعركة بينهما مرة أخرى بكل عنف وقوة واستمر تشابكهما بالأيدى والأذرع ساعة كاملة، وقد وصل بهما الغضب والشجاعة مداهما، وبدأ كل منهما وكأنه يحمل جبلاً. وهنا اتضح للجميع رغبة كلا المتصارعين بأن تبلغ قوته مداها فى تلك الجولة الثانية من المصارعة، وقد أخذا يدوران فى كل اتجاه مثيرين كمية كبيرة من الرمال بحركة قدميهما، ولأن الزيت الذى دهن به التركى جسده قد فقد مفعوله، استطاع المالح أن يمسك به بكل قوة بحيث لم يستطع الإفريقى أن ينزلق بجسده كما فعل من قبل. وعلى هذا المنوال، مرَّ الوقت طويلاً، وأدرك التعب المتصارعين. فقد أخذ أحدهما برجل الآخر ودافع الآخر عن نفسه بكل قوة، واستخدم أحدهما الحيلة والذكاء وتحصن الآخر بالقوة. يا لها من شجاعة تلك التى أظهرها هذان الرجلان المسلمان!. لقد كان شيئًا يستحق المشاهدة هذا اللهاث وتلك الزفرات القوية، وهما يلتقطان أنفاسهما، وذلك اللعاب الذى كان يتساقط من فم كل منهما، والعَرق الغزير الذى كان يتساقط من جسديهما، وقد أخذ كل منهما يبحث عن طريقة جديدة يستطيع بها أن يظفر بغريمه؛ وقد حدث فى مرات عديدة أن أخذ أحدهما بجسد الآخر بكل قوة حتى لا يمكِّنه من الانفلات منه وغرس أظافره فى جسده بحيث تركت آثارها الدامية عليه. وهكذا استغرقت المصارعة بينهما جزءًا كبيرًا من اليوم، دون أن يُدركهما التعب، ولكن لأن قوة الإسبانى الشجاع كانت عظيمة، فقد نشأ فى مناخ أفضل من التركى، فقد منحته بيئته الإسبانية الانطلاق وخفة الحركة وغيرها من الصفات التى نعرفها جميعًا عن أهالى مملكة غرناطة، وكذلك عن الدماء الإسبانية التى امتزجت بالدماء القوطية[٤]، وهكذا أظهر تفوقًا ملحوظًا على الإفريقى، الذى على الرغم من القوة العظيمة التى أظهرها فى البداية، بدأ التعب ينال منه وبدأ بريقه يخبو شيئًا فشيئًا، وقد لاحظ الإسبانى الشجاع ذلك، فأحكم قبضته عليه، وهنا بدأ الفزع يظهر على وجه التركى الذى صاح قائلاً إن هذا ليس برجل بل شيطان جاء من الجحيم، فكلما مرَّ الوقت كلما

(٤) يذكرنا التغنى بالفضائل الإسبانية هنا بما فعله الأدباء الإسبان الذين مدحوا صفات المسلمين الإسبان فى القرن السادس عشر. انظر دراستنا "صدى سقوط غرناطة فى الأدب الإسبانى"، أعمال المؤتمر العالمى الخامس للدراسات الموريسكية، زغوان تونس، ١٩٩٣. (المراجع).

تضاعفت قوته، وقال لنفسه: " آه يا الله، ما هذا الهرقل العظيم الذى يضغط بكل قوته على جسدى!". وعندما قال ذلك؛ بدا أن قوته قد خذلته فدار بجسده حتى يلتقط أنفاسه، ويستعيد قوته، ثم أحكم قبضته على جسد الإسبانى ودار به جولتين قويتين إلا أن الإسبانى لم يتأثر كثيرًا بهما لأنه عندما رأى أن المصارعة قد استمرت وقتًا طويلاً دون أن يجنى ثمارها تملكه الغضب فاستعاد حماسه، وبكل قوة رفع التركى عن الأرض وكأنه الثيديس عندما رفع خيريون (Girión) من فوق الأرض، وعندما رفعه فى الهواء أظهر نيته فى إلقائه بكل قوة على جانبه الأيسر، وقد شعر الإفريقى بهذا فاستعد له بكل مهارة بحيث استطاع الوقوف على قدميه بكل ثبات، وهكذا لم تنته الحركة بالنتيجة التى كان يفكر فيها المالح، ولكنه شعر بأن التركى سوف يعاود الدفاع عن نفسه من هذا الجانب فأطبق على جسده بكل قوته وحاول ثنى جسده على الجانب الأيمن، ولكى لا يعطى التركى الفرصة لإلقائه على الأرض، أخذ يؤرجحه حتى لا يتمكن من الثبات، ثم ألقاه على الأرض بكل قوته حيث طبع جسده آثاره على الرمال، وهكذا تلقى الإفريقى ضربة رهيبة، وتراجع المالح إلى الوراء كى يشاهد غريمه وقد وقع، ولكن هذا الأخير قام ناهضًا وكأنه أسد ودون أن يفكر ماذا يجب أن يفعل فى تلك الحالة انقض على المالح بكل قوة. وعندما رآه المالح قادمًا عليه، عرف أن النصر سيكون حليفه، فقد أظهر له أنه يقف منتظرًا هجومه وقد وضع قدمه اليمنى أمامه وكأنه صخرة فى البحر تنتظر هجوم الريح، بينما توجه إليه التركى وقد أعماه الحماس فانطلق مسرعًا بكل قوة حيث تعرقل فى ساق المالح فسقط بكل سهولة ممددًا على الأرض. فى هذه اللحظة قام كل الجمهور الذى كان يشاهد المصارعة وهو يصيح: "يا له من قوى وشجاع المالح استطاع هزيمة خصم عظيم". وحينئذٍ عزفت الأبواق التابعة للقائد المالح موسيقاها بكل الفرحة ابتهاجًا بانتصار قائدها. وقد نهض التركى بسرعة البرق، وبكل الغضب أراد الهجوم على القائد المالح مرة أخرى، ولكنه لم يستطع حيث تدخل الحُكّام ومنعوه من ذلك لأن المالح قد انتصر بعد أن استطاع أن يُسقطه على الأرض ثلاث مرات. وهكذا خرج التركى من الساحة جريحًا وفى حالة سيئة، ولم يكن المالح أفضل منه حالاً لما أحدثته الأظافر من آثار فى جسده وتأثر أعضائه بالمصارعة ولكنه انتصر فى النهاية. وبكل سعادة طلب من الحُكام أن يعطوه شعار القائد كاراكاتشا لأنه فاز به. وقد أعطاه الحُكام شعار الإفريقى الذى حزن لذلك حزنًا شديدًا لأنه كان يتمنى أن يموت ولا يفقد الرمز المطبوع عليه صورة سيدته. ولكنه حاول إخفاء شعوره هذا قائلاً إن هذه هى

الحرب وهذا هو الحظ وربما استطاع في يوم أخر الانتصار. وهكذا أخذ المالح الشعار وخرج من الميدان على نغمات الأبواق والطبول، وتوجه في صحبة كل الجمهور إلى حيث يجلس الملك الصغير وقام بتحيته بكل خشوع. وقد ناداه الملك الصغير، وعندما وصل إليه، تناول الملك تاجًا من الغار كان موضوعًا على مائدة جميلة ووضعه على رأسه، وكانت هذه هي الجائزة التي وعد بها الفائز في المصارعة. وهنا عزفت موسيقى الجيش بكل قوتها، وهتف الجمهور "عاش القائد المالح!" إن الذي كان يرى القائد الإفريقي حينئذٍ كان يمكنه أن يرى الحزن الكبير الذي يشعر به في قلبه، وإذا كان هو يشعر بالحزن فلم يكن أفراد الجيش التركي أقل منه حزنًا وهم يرون هزيمة قائدهم أمام أحد الموريسكيين الإسبان، وهكذا توجهوا نحو قائدهم وأحاطوه بثوب رقيق وأخرجوه من الميدان يحيط به الكثير من القادة الذين كانوا يواسونه لأن الأمر لا يستحق الحزن فلا بد أن ينتصر أحد المصارعين بقوته على الآخر ولا بد أن يحدث ما أراد القدر حدوثه. وقد أظهر الإفريقي سعادته وقال إنه لا يشعر بأي ألم، ولكنه ندب حظه العاثر الذي جعله يسقط مرتين دون أن يلمسه المالح، وهكذا وصل إلى مكان إقامته، وهو يضمر الانتقام من المالح؛ الذي كان يشعر بسرور عظيم لأنه يحمل فوق رأسه تاجًا من الغار وضعه ابن أمية بنفسه على رأسه، وقد حمل الشعار الذي فاز به بين يديه وتوجه إلى حيث تجلس حبيبته ومعه عدد كبير من القادة، وعندما وصل إلى الشرفة، قال لحبيبته:

"قمر، أيتها الجميلة المشرقة، يا منْ يضيء بريق عينيها عيناي؛ إليكِ يا سيدتي، أهدي هذا الشعار الذي فزت به بفضلكِ، والذي كان من الصعب الفوز به لقوة غريمي الذي أراد أن يهين اسمكِ وجمالكِ، الذي تحسدك عليه الشمس، التي لم تسمح لأي شخص أن يهينك أو يؤذي مشاعركِ فوضعت قوتها في شخصي وفي عزمي كي أدافع عنكِ، على الرغم من أنكِ بمجرد نظرة منكِ يمكنكِ أن تجعلي الغريم يستسلم".

وعندما قال ذلك، رفع يده حاملة الشعار إلى الشرفة العالية، وقد شكرت له قمر الجميلة هديته وانحنت لتستلم منه الشعار بيديها البيضاويتين الجميلتين، وقد زادها الخجل جمالاً فوق جمالها إثر سماعها هذه الكلمات من المالح. وقد تبادلت السيدات اللاتي يحطن بالجميلة قمر الشعار فيما بينهن وأخذن ينظرن فيه ويتعجبن من جمال صاحبة الصورة وقلن إذا كانت السيدة التركية في جمال صورتها فلدى القائد التركي كل الحق في الدفاع عنها لأنها من أجمل الأشياء التي رأتها العين في العالم كله. وعندما علمت الجميلة قمر بالحزن الشديد الذي

يشعر به الإفريقى بعد فقدان هذا الشعار، أرسلت إليه مع أحد الخدم بالشعار الأصلى خوفًا عليه من احتمال ضياعه. وقد استقبل الإفريقى الشعار بكل سعادة، شاكرًا لها صنيعها، واعدًا إياها بأن يكون فى خدمتها سواء فى إسبانيا أو فى الجزائر أو فى أى مكان على وجه الأرض. أما القائد المالح فقد شعر بفرحة كبيرة بعد الانتصار فوقف فى منتصف الميدان حتى يعطى الفرصة لغيره من القادة فى إظهار براعتهم فى المصارعة. وهكذا خرج المالح وكله إحساس بالشرف والمجد إلى حيث محل إقامته، وقد أحاط به أفراد فرقته، وقد تقابل فى الطريق مع القائد كاراكاتشا الذى كان قد خرج من الميدان فى صحبة أفراد قوته ذاهبًا إلى غرفته. وعندما رأى كل منهما الآخر تذكر الأحداث الماضية فغلا الدم فى عروقهما، ولكن حيا كل منهما الآخر بعد أن استطاعا إخفاء حقيقة مشاعرهما؛ ولكن الحقيقة أن الإفريقى قد شعر بالكره نحو القائد المالح؛ ومنذ ذلك اليوم وهو يضمر له العداء. وعندما عاد كل منهما إلى ساحة المصارعة مرة أخرى بدأ كل منهما يتبادل الحديث مع القادة المتواجدين حول المصارعة التى أقيمت بينهما، وكلمة من هنا وكلمة من هناك، كانا على حافة الاشتباك الدامى من جديد لأن الإفريقى قال للإسبانى: "ليس هناك معنى لفوزك الذى حصلت عليه لسقوطى مرتين لحظى العاثر دون تدخل منك؛ فقد كان السبب لهذا يعود إلى الرمال، والحق أن قيمة الرجال لا يُحكم بها من مجرد مصارعة لأنها مجرد تدريبات وحشية وهمجية؛ بل يحكم بها السلاح الذى هو ماهر به وجدير باستعماله أكثر من كل أهالى مملكة غرناطة". وقد أجاب عليه المالح قائلاً: "ما كل هذا الزهو، وكل هذا الخيلاء التركى الذى هو عادة تركية قديمة؛ إن فى البشرات رجال قادرين على استخدام السلاح بمهارة لا يتصورها أحد، وأنه على استعداد لإثبات حقيقة ذلك. وأراد الإفريقى أن يرد عليه وأن يمتد الحديث إلى أكثر من ذلك، ولكن لوجود الملك ابن أمية هناك آثر الصمت قائلاً إنه يدع الحديث عن ذلك لوقت آخر. وهكذا كان هذان القائدان يسيران فى المعارك وكل منهما متحفز للآخر. وكان الوضع هكذا فى الميدان حين انطلقت الموسيقى من الأبواق والطبول معلنة وصول مامى أغا (Mamiaga)، وهو زميل ورفيق القائد كاراكاتشا، قادمًا من الجزائر وبصحبته قوة تركية أخرى، كما سبق وقلنا. وعندما وصل رفيق كاراكاتشا هذا إلى الميدان اصطحبه هذا الأخير إلى مسكنه، واستعد للمصارعة، وعاد فى صحبة قواته، كما قلنا، وهو مستعد للمعركة، شبه عار، مستعرضًا قوة أعضائه. وقد كان أفراد قوته يرتدون حُلة بنفسجية اللون، ويضعون ريشًا على عمائمهم من نفس اللون. وكانوا

جميعًا جنودًا قناصين وماهرين فى استخدام السلاح؛ وعندما جاء إلى مكان الملك ابن أمية، حياه باحترام، ثم حيا القادة من حوله؛ وهكذا سار للأمام، بينما حمل أحد خدامه شعارًا ذهبيا مرسوما عليه فى خلفية خضراء أسد أحمر اللون مقيدًا بسلسلة فضية تأخذها بين يديها فتاة تركية جميلة، وتحت الأسد مكتوبًا بحروف عربية هذه الأبيات:

" إن السلسلة لا تقيدنى

على الرغم من قوتها وشدتها

بل يقيدنى جمال هذه الفتاة

الذى سلبنى عقلى".

ألف القائد التركى الشجاع هذه الأبيات من أجل سيدة تركية جميلة أحبها من صميم قلبه، وكانت تعيش فى الجزائر. وعندما وصل إلى مركز الساحة، قام أفراد قوته بإطلاق النيران بشكل جميل ثم تراجعوا إلى أحد جوانب الميدان، تاركين التركى الشجاع على أهبة الاستعداد للمصارعة. وقد تطلع الحاضرون جميعًا إلى أعضائه القوية المتناسقة، ثم قال ابن أمية: " إن التركى قوته عظيمة، وأعلم أن هؤلاء الأتراك قد شعروا بالإهانة جراء فوز الغرناطى عليهم، ولكن من أجل 'محمد' لنخدعهم لأن الإسبان يكفيهم كونهم إسبانًا كى يكونوا شجعانًا فى النهاية!" قال الحبقى: "ربما يكونون ماهرين فى استخدام السلاح، ولكن فيما يتعلق بالشجاعة والقوة، رأيت فى أثناء الحرب أن الغرناطيين يظهرونها أكثر من الأتراك". ثم تقدم الحبقى نحو الأمام وهو يعد بعض هذه الأسلحة، ولكن قاطع مهمتهم صوت الأبواق والطبول التى دخلت الميدان، تحملها قوة مكوّنة من خمسين جنديا يرتدون جميعا زيا أخضر وأصفر وجميعهم من القناصين. كانوا جنودًا للقائد الخُريقى وهو من مواليد باثا (Baça)، وقد جاء شبه عارٍ كعادة المصارعين الأقوياء. وكان أحد أصدقائه يسير أمامه حاملاً شعارًا فضيا غاية فى الجمال؛ فعلى خلفية مذهبة رسم فى منتصفها رمانة خضراء اللون ذات عنقود فضى، عليه ورقتان خضراوتان وبيت شعر يقول:

" إذا تركت الرمانة مغلقة(٧)

سوف تبقى ذكرى باثا للأبد" .

أحضر المحارب المسلم هذا البيت من الشعر، لأن أجداده كانوا حكامًا على باثا. وكان هو يطمح فى أن يصبح كذلك فى يوم من الأيام. وعندما وصل إلى ميدان المصارعة، أطلق جنوده شحنة عظيمة من رصاص بنادقهم، ثم اتخذوا جانبًا تاركين للخُريقى المكان، وقد استعرض حينئذٍ شجاعته وقوة أعضائه، ثم اتجه نحو التركى، وقال له: " لقد أصبح الوقت متأخرًا، فلنبدأ الآن لأن هناك مصارعين آخرين مستعدين للنزال". وقال له التركى: " لقد جئت مسرعًا، ونستطيع أن ننهى المصارعة عند أول سقوط". فقال له الخُريقى إن هذا يسعده، وهكذا اشتبك كل منهما بالآخر بقوة هائلة تدعو إلى الفزع من فرط الغضب الذى بدا عليهما، حتى قال الحاضرون إذا كانت المعركة السابقة بدت رهيبة، فلن تكون هذه أقل منها فالغريمان لا يقلان قوة وشجاعة عن السابقين، وهكذا أخذوا يتابعون المصارعة والرعب يعلو الوجوه من فرط قوة وغضب الخصمين اللذين ظهرا وكأنهما ثوران يتصارعان، أو اثنين من الدببة؛ فكل منهما يرغب فى إلحاق الأذى بالآخر قدر استطاعته، ولكن لأن المصارع الإسبانى قد نشأ فى باثا فى بيئة تعلم فيها فنون الحرب على يد مورثيين وأندلسيين؛ فقد أظهر شجاعة فائقة، واستطاع إصابة الإفريقى أكثر من مرة، ولأن هذا الأخير كان رجلاً خبيثًا وذكيا وخبيرًا فى مثل هذه الأمور، فهو من مواليد اليونان، وابن لرجل تركى، لذا فقد أظهر مهارة عظيمة، لم يستطع الإسبانى الموريسكى أن يتغلب عليها، على الرغم من الشجاعة الفائقة التى أظهرها. وهكذا استمرت المصارعة بهذه الطريقة، حيث لم يتفوق أحدهما على الآخر، وقد أدرك الخُريقى أن جريه السريع كان بلا طائل، وأن الفوز يتعلق بسقوط واحد على الأرض، وأن الحظ يستطيع أن يمنحه لغريمه ففكر فى أن ما لا تستطيع القوة أن تضع نهاية له يستطيع الذكاء أن يحققه؛ ففى المصارعة يمكن استخدام كل شىء، وهكذا أفلت نفسه من غريمه ثم عاد كى يتشابك معه مرة أخرى بالأذرع مثلما كان عليه الوضع فى البداية وأخذا يدوران بقوة فى الميدان وكل منهما يحمل الآخر بقوة وشجاعة. وقد رأى الخُريقى أن التركى يبدو مخدوعًا

---

(٧) يتلاعب الشاعر بالألفاظ هنا، فالبيت يعنى أيضًا "إذا لم تُفتح غرناطة". (المراجع).

فى أثناء هذه الجولات فأطبق بقوة على غريمه بذراعيه كما لو كانا كلابتين هائلتين ثم ترك نفسه ليسقط على الأرض على ظهره وغريمه وراءه، وفى الوقت الذى جاء فيه التركى كى يهجم عليه وضع قدميه فى صدره، وهو ساقط على الأرض، ثم نهض سريعًا وألقى بنفسه على جزء آخر، فضرب برأس التركى ضربة شديدة على الأرض، بينما نهض هو بكل خفة ومهارة واقفًا على قدميه واتجه نحو التركى الذى سرعان ما نهض هو الآخر. ولكن الخُريقى لم يدع له فرصة للنهوض فقد سارع بالهجوم عليه بكل قوة وهزمه. فى تلك اللحظة نهض الحاضرون وصاحوا: "إذا كان لدى الخُريقى قوة عظيمة فلم ينقصه الذكاء أيضًا الذى هزم به غريما قويا كهذا، وقد أخذت أبواق وطبول القائد الخُريقى فى العزف بكل سعادة ابتهاجًا بفوز قائدها الشجاع. وقد نهض الإفريقى بكل غضب من الرمال البيضاء، وقد ظهر على وجهه من فرط الغضب نظرة شيطانية، وكأن عيناه ينطلق منهما شرار من نار، وقال بصوت مرتعش: " إن هذا ليس صنيع الرجال الأقوياء الواضحين؛ بل عمل الجبناء الأنذال الذين يريدون بالخداع أن يظفروا بالشرف والمجد، الجديرين بالرجال الشجعان الذين يظهرون بكل وضوح قوتهم وإنى لأشعر بالأسف لأنهم قد حكموا لك بالفوز وأعطوك المجد على حساب هزيمتى. لا بد من إرضاء شرفى باستخدام السلاح، لأنه ليس من الشهامة أن نترك الأمر يمر هكذا دون انتقام يقتضيه شرفى"، وفى هذه اللحظة وصل الحبقى الحكيم وكذلك عم ابن أمية، اللذان كانا الحكمين على المصارعة، وعندما علما بما يفكر فيه الإفريقى، أخرجاه من الميدان حتى لا تحدث فوضى وهما يقولان: "سوف نرى أمر هذه المصارعة، وسوف نتأنى فى إصدار الحُكم". وقد تحرك أفراد القوة التركية نحو الخُريقى يريدون الفتك به وقتله. وعندما شعر بذلك بعض القادة قالوا للملك الصغير إنه ليس من الصواب أن تستمر فى المصارعة لأنها من الممكن أن تُحدث فوضى وقطيعة بين القادة والجنود، وإن ظروف المملكة ليست مهيأة لمثل هذه الثورات فلتتوقف المصارعة ولتستمر بقية الألعاب الأخرى. وقد استمع ابن أمية لهذه النصيحة الطيبة. وهكذا أمر الخُريقى بالخروج من الميدان وأن يمثل أمامه. وقد ذهب الخُريقى إليه بعد أن قرر الحكمان أن أى ذكاء يُستخدم فى أثناء المصارعة هو أمر لا خلاف عليه. وهكذا تسلم الخُريقى جائزته وكانت تاجًا من الغار. وعلى صوت آلات موسيقية تم تغطيتها بقماش رقيق. أخرجوه من الساحة. منْ يستطيع أن يصف لكم غضب القادة الأتراك؟ لو استطاعوا لجمعوا أفراد قوتهم وقاطعوا الجيش كله، إلا أنهم اتفقوا على أن يخبروا أولوج على، ملك الجزائر، بالمعاملة السيئة التى تلقوها فى إسبانيا. وقد أمر ابن أمية أن يُعلن إلغاء المصارعات الأخرى؛ واستمرار الألعاب والمسابقات غير الخطيرة فقط. وقد استاء الكثير من القادة لهذا الخبر فقد

كانوا قد استعدوا للمصارعة وأعدوا لأفراد قوتهم الزى الخاص بهم وقد كلفهم هذا الكثير، وكان القادة هم:

ابن عياش (Abenayx) ، وسارية (Zarrea) ، والمظفر (Almoçavar)

وأبونفيلى (Abonvayle) ، والغورى (Al Gorri) ، وألهادرا (Alhadra)

وخيرونثييو (Gironcillo) ، والروكايمى (Alrocayme) ،

وبويرتوكاريرو (Puertocarrero) ، والدرى (El Derri).

وغير هؤلاء كان هناك الكثير من الموريسكيين الشجعان المستعدين للمصارعة بحيث كان يمكن أن تمتد مدة يومين؛ وقد تم الإعلان عن إقامة مسابقة تُختبر فيها قوة الرجال من خلال عدد قوالب الطوب التى يمكنهم رفعها بأيديهم، ومنْ يفوز سيُمنح جائزة طيبة، وهكذا استعد الميدان فى اليوم التالى كما كان الوضع فى اليوم الأول وامتلأت النوافذ والشرفات ووضعت الساحة بحيث يستطيع الجميع رؤيتها ووضع مائة قالب من الطوب كى يأخذ منها الرجال ما يستطيعون قذفه. وقد جلس ابن أمية على مقعده الملكى تحت مظلة جميلة، وبنفس النظام الذى دخل به المتصارعون فى اليوم السابق الميدان، أمر بأن يدخل المتسابقون كى يبرهنوا على قوتهم، وهو شىء جميل يستحق المشاهدة. وعندما صدر الأمر بذلك، لم يتأخر كثيراً ابن عياش بالدخول، وكان قائد كانتوريا ، وكان يرتدى زيا جميلاً بلون الرمان والفراولة مع مقاطع من الفضة، وقلنسوة من الحرير بنفس اللون، وريشة بيضاء وأخرى حمراء، وسيف قصير جميل. وكان يضع فى قدميه حذاء أزرق به مقاطع نارية اللون بحيث ظهر الموريسكى فى هيئة محارب جميل للغاية. وكان يرافقه أفراد من فرقته حاملين راية مرسوم عليها قلعة كانتوريا، ومكتوب عليها بيت الشعر التالى:

"إنها قوة من قوتى

وليست هناك قوة إلا هذه القوة".

إن بيت الشعر الذى كان يحمله ابن عياش كان يعنى أن قوة قلعة كانتوريا لا تماثلها أية قوة من المدن حول نهر المنصورة، وليس هناك رجل فى قوته. وعندما دخل إلى الساحة أخذ يستعرض قوته فقام بجولة، وحيا الملك الصغير باحترام، وترك قواته مصطفة بنظام بينما أخذ

يخطو بثقة المحارب، وحيا السيدات باحترام أيضًا، ثم وقف مستعدًا للقيام بالتجربة، حيث كان هناك قالبان من الطوب متوسطا الحجم، كل منهما يلتصق بالآخر، بحيث يبدوان من حيث الطول كقالب واحد، بينما وُضعت الأخشاب على الأرض، ووضعت فوقها قوالب الطوب التى يشعر كل متسابق بأنه قادر على رفعها، إذ كان لا بد للمتسابق الشجاع أن يحمل الخشب كى يثبت قوته. وعندما وصل ابن عياش الشجاع إلى هناك أخذ بيده عشرين قالبًا ووضع كلا منهم فوق الآخر فوق الأخشاب، وكان كل قالب يزن ثلاثة أرطال، وكان عليه أن يقذف كل هذه القوالب بيد واحدة بعد رفعها فى الهواء، دون أن يربط القوالب بحبل أو أى شىء آخر، وستكون خسارته عظيمة إذا لم يحقق هذا الرهان. وهكذا انحنى ابن عياش نحو الأرض ووضع يده تحت القوالب ثم جمع قوته ورفع العشرين قالبًا فى الهواء أعلى بكثير من الأرض بحيث استطاع الجميع رؤيته. وقد اندهش الحضور لهذه القوة الجبارة؛ فقد استطاع بيد واحدة أن يرفع ويقذف عشرين قالبًا يزنون أكثر من ستين رطلاً. وبعد أن قذف القوالب، عاد مرة أخرى ووضعهم على الخشب كما كانوا فيما قبل. كان هناك أحد المراقبين وأحد الكتاب، كى يسجلوا عدد القوالب التى رفعها كل متسابق. وبعدما أثبت ابن عياش قوته كما قلنا، استدار نحو فرقته المحاربة (التى كانت لا تزال واقفة فى نظام) وبنفس الطريقة التى دخل بها الميدان خرج منه، وقد أطلق أصحابه دفعة كبيرة من الرصاص، وقد شعر الحضور جميعًا بالسرور لهذه القوة المحاربة وللقوة التى أثبتها قائدهم. وقد اندهش ابن أمية لقدرة ابن عياش على رفع كل هذا الوزن بيد واحدة فى الهواء؛ فقال لقواده: "تستطيع كانتوريا أن تتباهى وتقول لدىَّ قائد بقوة وشجاعة ابن عياش"، وقال المالح الذى كان على مقربة منه: "اسألونى أنا عن هذا؛ فعندما أمرتنى يا صاحب السمو بالذهاب إلى كانتوريا، من هنا من نفس ذلك المكان، على رأس عشرة آلاف رجل، استطاع هذا القائد، الذى كان هناك ومعه عدد قليل جدا من المسيحيين القدامى من أصول مورثية، أن يقاومنى مقاومة شديدة، وبعد أن رأيت العديد من جنودى بين قتيل وجريح اضطررت للانسحاب دون أن أحقق شيئًا من الأهداف التى أرسلتنى سموكم لتحقيقها. ولو أن أهالى كانتوريا قد جاءهم المدد الذى كان المسيحيون قد أرسلوا فى طلبه، لما كانت كانتوريا اليوم خاضعة لحكمكم، وذلك بسبب قوة قوادها وشجاعة جنودها"، وقد توقف الحديث عند هذا الحد؛ فقد علا صوت طبول الحرب التى أعلنت وصول القائد كاراكاتشا ومعه فرقته التركية، وكان القائد الشجاع يرتدى ثوبًا أزرق من الحرير التركى الفاخر مزخرفا بمقاطع من الفضة، ويحمل عمامة بيضاء مزينة بالذهب، وقد وضع فيها ريشا أبيض وأزرق. وقد دخل كل أفراد قوته مرتدين نفس الزى إلا أن الجنود كانوا يرتدون أحذية حمراء بينما

حذاء كاراكاتشا كان فضيا. وقد حملوا راية جميلة ذات لون أزرق ومرسوم فى وسطها هلال فضى وبجانب الهلال مكتوب باللغة العربية هذه الأبيات:

"من البحر الليبى رحلت

ولن يدركها الخسوف أبداً

أما إذا فازت بغرناطة

فليست هناك راية أكثر استحقاقًا منها".

لقد وضع الإفريقى هذه الأبيات الشعرية على رايته كى يخبر الحاضرين بأن رايته لم تُهزم قط فى أية معركة حربية جرت فى إفريقيا ولم يتفوق أحد عليها، وإذا فازت غرناطة، فلن تكون أية راية غرناطية أكثر استحقاقًا من رايته، وسوف يناله المجد لهذا النصر. وقد تقدم التركى إلى الأمام، وقدم التحية لفيرناندو مولاى، وترك قوته على النظام الذى أتت به، وقد أظهر قوته، وكان يحمل فوق كتفه الأيمن حمالة سيف من المخمل الأخضر، وقد تعلق فيها سيف فضى قصير، ثم توجه نحو المكان الذى يوجد به قوالب الطوب حيث تركهم ابن عياش فوق العصى الخشب، وقد رأى أنه يمكن أن يتميز أكثر بوضع قالبين آخرين، فوضعهما فوق العشرين ثم انحنى إلى الأرض ووضع يده تحت القوالب، وقد وضع كل قوته فى ذراعه وحاول أن يقذف القوالب إلا أنه لم يستطع أن يحركها من مكانها، وعندما رأى ذلك أزاح واحداً من القوالب وحاول مرة أخرى ولم يفلح فأزاح القالب الآخر، وحاول للمرة الثالثة أن يرفع العشرين قالبًا من على الأرض، ونجح فى ذلك ولكن ليس بنفس القوة التى أظهرها ابن عياش فلم يرفعها عاليًا فى الهواء، وعندما أعاد القوالب إلى مكانها قال: "يا لحظى السيئ مع الإسبان؛ ففى مسابقتين ضدهم لم أستطع أن أفوز بأى شيء"، وعندما قال هذا استدار نحو رجاله، وبنفس الطريقة التى دخل بها الميدان عاد للخروج منه، وقد أطلق رجاله دفعة كبيرة من رصاص بنادقهم فقال ابن أمية: "إنه ماهر فى استخدام السلاح - أكثر من مهارته فى مسابقات القوة - إن الغرناطيين رجال يتسمون بالقوة، ولو أن هؤلاء الرجال لديهم الأسلحة الكافية لما استطاع أى جيش فى العالم هزيمتهم"، وأجابه الحبقى قائلاً: "هذه هى الحقيقة، وإذا استمرت الحرب سنتين أخريين لما أصبح فى العالم جيشًا فى مهارتهم فى استخدام السلاح". كانوا على هذا الوضع عندما دقت الطبول وارتفعت أصوات الأغانى الموريسكية، ثم

لم يلبث أن خرجت عليهم قوة حربية جميلة للغاية تابعة للقائد بويرتو كاريرو الشاب، وهو ابن عمدة خيرغال (Gérgal) وقد ظهر مرتديًا ثوبًا مزخرفًا بحبات الذهب وحذاء مزينًا مصنوعًا فى الجزائر وسيفًا صغيرًا أنيقًا يحمله على كتفه بحمالة سيف غاية فى الجمال. وكان يضع على رأسه عمامة تركية وبها ريشة بيضاء، ولم تكن رايته تحمل أبياتًا من الشعر، بل مرسوم عليها فقط هلال وعظمة طويلة. وكانت الراية حمراء اللون، ولكنه دخل إلى الميدان على الطريقة الإسبانية، كقائد محارب، رمح صغير فى يده، وأمامه الخادم بكل استعداد يحمل شعارًا جميلا ذا خلفية زرقاء وفى منتصفه أبيات تقول:

"لو كانت من تمنحنى القوة

والنجاح موجودة الآن أمامى

لتضاعفت قوتى".

وقد وضع بويرتو كاريرو المسلم هذه الأبيات، وهو يشعر بالمهانة التى يتعرض لها اسمه وعائلته لأنه قد شغف حبا بامرأة مسلمة من أبناء مدينته، وكانت تُدعى بالإسبانية بريانداو بالعربية " فاطمة"[٨] ؛ وكانت صاحبة أفضال عليه، وأراد أن يقول من خلال الأبيات إنه لو كانت موجودة أمامه لتضاعفت قوته، ولما استطاع أحد أن يهزمه. وقد أعجب الجميع بالقائد بويرتو كاريرو، وكما دخل من الميدان، دار بين جنباته، ومرَّ أمام ابن أمية وحياه بكل احترام، ثم ترك أفراد قوته منتظمين وذهب إلى المكان الموجود به قوالب الطوب، وكانت غير منتظمة، لأن كاراكاتشا شعر بالخجل لعدم استطاعته قذف قوالب أكثر من ابن عياش، فقذف بهم على الأرض. ولم يكن بويرتو كاريرو يعرف عدد القوالب التى تم رفعها فى الهواء، فوضع اثنا عشر قالبًا بنظام، ثم انحنى ووضع يده تحت الطوب وبجهد جهيد استطاع رفعها عن الأرض، ولم يكن حمل ٣٦ رطلاً بالشىء السيئ بخاصة بيد واحدة. ثم قام بكل عناية بوضع القوالب فى مكانها مرة أخرى، ثم استدار بويرتو كاريرو نحو جنوده وخرج بكل شجاعة من الساحة بعد إطلاق دفعة من رصاص بنادقهم ومقالعهم، وكانت شيئًا يستحق المشاهدة تلك البصمات

(٨) من الثابت أن الموريسكيين كانت لهم أسماء مسيحية فى الوثائق الرسمية، وأسماء عربية إسلامية فى بيوتهم وجماعاتهم. (المراجع).

العميقة التى خلفتها القاذفات. وقد قال ابن أمية: "إن الجنود القائمين على المقالع يبدون لى ماهرين، لأننى كملك أعتقد أنهم فى بعض المواقع يكونون على درجة كبيرة من الأهمية". فقال ابن جوهر (Abenchohar) : "إنهم حقا ماهرون، وفى العصور القديمة لم تكن تستخدم سوى المقالع وأقواس الفولاذ والعصى، ومع هذه الأسلحة كانوا يقومون بأعمال عظيمة لا نزال نذكرها لهم". فقال الحبقى: "إنها الحقيقة، ولكن الآن تحسن وضع المليشيات كثيراً، لأن هناك بنادق جيدة يمكن استخدامها بسرعة وسهولة"، وعندما كانوا على هذا الوضع دخل الميدان القائد المالح، الذى استعد جيداً من أجل إثبات قوته، وهكذا دخل مع جنوده مرتديًا ثوبًا بنفسجيا، وحاملاً عمامة ورياشا بنفس اللون وواضعًا فى قدميه حذاء أزرق مفضضاً؛ بينما يحمل على كتفه حمالة سيف زرقاء بها خطوط من الفضة ويتدلى منها سيفٌ قصير أنيق. وقد تجول فى الميدان ونشر رايته، وكانت بنفسجية اللون، وفى منتصفها هلال كبير من الفضة وتحته شمس ويبدو القمر وكأنه يحجب الضوء عن الشمس. وكان من عادة المسلمين احترام القمر احتراماً عظيماً. وكانت الراية تحمل أبياتًا من الشعر تقول:

" إذا كانت الشمس كوكبًا

يمنح غيره الضوء

فإن ضوء قمرى

يبدو أكثر إشراقًا" .

وكان المحارب المالح يحمل هذه الأبيات لأنه، كما قلنا سابقًا، له حبيبة تُسمى قمر، وكان دائمًا يقول إن إشعاع جمالها يطفئ نور الشمس، على الرغم من حصول بقية الكواكب على ضوئها من الشمس. وقد دخل المسلم إلى الميدان ومعه أفراد فرقته، وتجول فيه وحيا الملك باحترام، وكذلك السيدات، وترك جنوده على نظامهم الذى دخلوا به، ثم ذهب حيث القوالب، وقد وضع اثنين وعشرين قالبًا بنظام ورفعهم، على الرغم من عدم استطاعته رفعهم كثيراً من الأرض، ففى النهاية رفعهم مسافة شبر، ثم تركهم، وعاد إلى فرقته. وقد حلت الدهشة بالجميع عندما رأوه وقد رفع اثنين وعشرين قالبًا بيد واحدة، وقالوا: "إن القائد المالح شجاع وعظيم!"، وقد غادر الميدان بعد إطلاق دفعة من رصاص البنادق، وقد ترك مولاى وكل الحاضرين مأخوذين من هيئته وقوته. ثم دخل الميدان القائد سارية ومعه فرقته على أتم

الاستعداد وجميع أفرادها من القناصين يحملون رايته ذات اللونين الأصفر والأخضر ومكتوب عليها بالحروف العربية هذه الأبيات:

"أشعر باليأس

ولكنى آمل أن يغير الزمن الأمور

وأثق فى أن " آمال ".

سوف تعطينى ما أريد" .

لقد كان القائد المسلم يحمل هذه الأبيات لأنه كان يحب سيدة مسلمة، وعلى الرغم من أنها لم تبد له أى تجاوب، كان الرجل لديه أمل بأن رغبته سوف تتحقق. وقد دخل هذا القائد الميدان مرتدياً زيا من نفس لون رايته، واضعاً فى عمامته ريشتين، إحداهما صفراء والأخرى خضراء اللون؛ ويحمل سيفًا قصيراً جميلاً وحذاء أخضر ومفضض. وعندما دخل إلى الساحة، قدم تحيته لمولاى وللسيدات والقادة، ولكنه لم يستطع أن يرفع سوى ١٤ قالبًا من الطوب، وتأكد أنه لن يستطيع رفع أكثر من هذا، فتوجه إلى فرقته التى أطلقت الأعيرة النارية بطريقة جميلة ثم خرج من الساحة. ثم دخل بعده القائد غورى ومعه فريق من المحاربين، وهو فى المقدمة مرتديًا ثوبًا حريريا بنى اللون مزخرفًا بمقاطع من الذهب، وعمامة من نفس اللون ورياشاً بنية وبيضاء حاملاً سيفًا قصيراً جميلاً وحذاءً أنيقًا. وكانت رايته من اللون السماوى، مرسوم عليها نجوم ذهبية اللون وهلال فضى وأبيات من شعر مكتوبة باللغة العربية وبنفس اللون الفضى تقول:

" لن أشعر بأية سعادة

حتى أرى غرناطة

وقد استعادها المسلمون" .

كان القائد المسلم يحمل ثوبًا يتفق مع أفكاره التى تعبر عنها أبيات شعره. كان رجلاً كبير السن راجح العقل. وقد دخل إلى الميدان بطريقة أعجبت الجميع، بخاصة الحكمة والرغبة التى أعلنتها أبياته والتى يتمناها الجميع. وبعد أن قام بما يجب أن يقوم به عند دخوله

الساحة، ترك أفراد فرقته وتوجه إلى حيث مسابقة القوة، وقد استطاع أن يرفع ١٧ قالبًا من الطوب بيد واحدة بكل سهولة، وقد أظهر مهارة فائقة؛ فقد استدار بطريقة خطيرة نحو رجاله، الذين تجاوبوا معه بإطلاق الأعيرة النارية ثم استدار خارجًا من الساحة. وقد قال الملك حينئذ: "إن الغورى قائد لا تنقصه الشجاعة فهو فى النهاية رجل كبير السن ويفكر برجاحة عقل وهو كذلك قائد موثوق به وشجاع". قال الحبقى: "هذه هى الحقيقة؛ فهو شريف مسلم، وقد أظهر شجاعة فائقة فى كل المعارك الماضية، بخاصة فى معركة بيرخا، فلولاه لقضى المسيحيون على كل جيشنا تقريبًا". وهم على ذلك الوضع، دقت الطبول ودخل الميدان القائد ديرى، وهو رجل شجاع، وصاحبه فريق من المحاربين، وكان يرتدى زيا أزرق وريشًا وعمامة وحذاء من نفس اللون؛ ويحمل سيفًا قصيرًا على جانبه؛ وكانت رايته من اللون الأزرق ومرسوم عليها أربعة رءوس لمسيحيين كإشارة للقتلى الكثيرين الذين لقوا حتفهم على يديه، ومكتوب عليها بحروف عربية هذه الأبيات:

"إن المجد هو قتل المسيحيين

أما إظهارالقوة فى مسابقة

فليس بالمجد الذى يسعد صاحبه".

حقا كان لدى القائد المسلم حكمة بالغة فى تفكيره هذا لأن الرجال العاقلين لا يهتمون كثيرًا باستعراض قوتهم، قليلة كانت أم كبيرة، أمام أعدائهم أو أصدقائهم لأن كل منهم يعرف تمامًا مقدار قوة وشجاعة المتسابق. وهكذا دخل الديرى، القائد الهمام، الميدان وبعد أن تجول فى الساحة توجه إلى حيث مسابقة قوالب الطوب ووضع ١٢ قالبًا، واستطاع أن يرفعهم عن الأرض بشق الأنفس، وعندما رأى أنه لن يستطيع أن يحمل سواهم، قال غاضبًا: "إننى لا أهتم كثيرًا بالمسابقات؛ فالذكاء عندى أهم من القوة". ثم استدار حيث أفراد قوته التى استقبلته بإطلاق الأعيرة النارية وخرج من الساحة. ولم يكن ابن أمية يشعر بالارتياح نحو هذا القائد فقد لاحقه فى كل مكان طمعًا فى عشرة آلاف دوقية وعده إياها ماركيز مونديخار، ولم ينس له ابن أمية موقفه هذا على الرغم من أنه قد عفا عنه بعد تدخل وتوسل من القادة، ولكنه فيما بعد أعدمه، كما سنقول لاحقًا.

وبعد الديرى بقليل دخل الميدان خيرونثيو الغرناطى، وكان يرتدى زيا أحمر اللون مزخرفًا بالفضة وعمامة وريشًا من نفس اللون، وسيفًا قصيرًا مذهبًا يتدلى من كتفه الأيمن من حمالة سيف أنيقة لونها أخضر، ويضع حذاءً أخضر مفضضًا. وكان يحمل أيضًا بندقية جميلة فى كتفه كى يظهر أنه ماهر فى إطلاق الرصاص والحق أنه كان خبيرًا فى ذلك. كانت رايته ملونة ومرسوم بها قصر الحمراء الشهير، وأبيات شعر بالحروف القشتالية تقول:

"إذا شاء القدر والسماء

أريد أن أرقص فى ساحتك

يا قصر حمراء الحبيب".

لقد أدخلت هذه الأبيات السرور إلى قلوب كل المسلمين الحاضرين فى هذا الاحتفال، بخاصة فيرناندو مولاى. وصل خيرونثيو الساحة وحيا الملك الصغير والسيدات الحاضرات وبقية القادة المتواجدين باحترام، ثم ابتعد عن أفراد فرقته وتوجه إلى حيث مسابقة القوة. وبعد أن وضع قوالب الطوب بانتظام، استطاع أن يرفع ١٩ قالبًا. وقد سُرَّ الحاضرون لاجتياز خيرونثيو هذا السباق بهذا العدد من القوالب، فاستدار نحو فريقه الذى استقبله بإطلاق النيران، ثم خرج من الساحة بعد أن حاز على إعجاب الجميع لطريقته الأنيقة فى الدخول وشجاعته وقوته الفائقتين. وبعد خروج خيرونثيو، دخل قائد شجاع يُدعى "أبا نفيلى"، من مواليد غواديكس، وكان يبلغ من العمر أربعين عامًا ويتميز بالقوة الفائقة. كان أعضاء فريقه رجال محاربين ومسلحين جيدًا، وكانت رايته بها خطوط زرقاء وحمراء اللون ومكتوب فيه أبيات تقول:

"عندما ترى شجر الحور

الذى يملأ بلدى غواديكس

سيتحقق الأمل

ويستعيد المسلمون غرناطة".

سعد الجميع بما فيهم مولاى بما كتبه هذا القائد الشجاع من أبيات. كان "أبو نفيلى" الشجاع يرتدى زيا أخضر قاتمًا مزخرفًا بالمخمل الأسود، وبعد أن حيا الملك الصغير والقادة

الحاضرين، ذهب إلى حيث قوالب الطوب، وبعد أن تأمل ما يجب أن يقوم به فى اختبار القوة هذا، وضع ٢٤ قالبًا ورفعهم بيد واحدة دون أى مجهود، بطريقة توحى بأنه يستطيع رفع قالبين آخرين معهم. صاح الحاضرون صيحة عظيمة، وقالوا إن القائد أبا نفيلى قد رفع عدداً من القوالب أكثر من أى قائد آخر. وقد تعجب ابن أمية من قوته، وقال إنه لم ير شيئًا مثل هذا من قبل؛ فقال الحبقى وابن جوهر وغيرهم من القادة إنهم قد رأوه فيما قبل فى أحد المعارك، وقد ضرب بسيفه أحد المسيحيين فشقه من الكتف وحتى وسطه بضربة واحدة؛ وفى مرة أخرى ضرب أحد الأعداء ضربة شقه فيها نصفين دون أن يتوقف السيف. فقال ابن أمية: "إنه ذو قوة خارقة، كم يسعدنى لو تقابل مع بدرو ماثا، حاجب غرناطة الأكبر، كى ينتقم لى منه على مؤامرته التى استطاع خلالها أن يجردنى من سلاحى، ولكنى على ثقة بأنه سوف يدفع ثمن هذه الإهانة من عمره ومن ماله." وهكذا خرج أبو نفيلى من الساحة، بعد أن أطلقت الأعيرة النارية تحية له، وترك الجميع يملؤهم الإعجاب والدهشة لقوته. وبعد خروجه دخل قائد مسلم آخر يُدعى ألروكايمى (Alrrocayme)، وكان كبير السن، أشيب الشعر وكان من أبناء غواديكس أيضًا. كان طويل القامة، أسمر اللون، قويا ويُعد من أكبر أعداء المسيحيين، وقد جاء مرتديًا زيا تركيا به زخارف من الفضة التى حصل عليها من الكنائس التى تم الاستيلاء عليها ونهبها. دخل إلى الساحة، وقد علق بندقية فى كتفه، وكانت رايته صفراء اللون فى منتصفها مرسوم شعار أزرق به هلال فضى وأبيات شعر عربية تقول:

"إذا كان لا بد من استعراض القوة

فسريعًا ما تشاهدون فى السباق

من سيحصل على الجائزة

عن استحقاق وجدارة

ويأخذ الجوهرة".

جاء هذا القائد المسلم وهو واثق فى فوزه بالسباق وحصوله على الجائزة، وبعد أن دخل إلى الساحة وحيا ابن أمية وبقية القادة والسيدات اللاتى يشاهدن المسابقة من الشرفات والنوافذ، ذهب إلى مكان المسابقة، ولأنه رأى أن أبا نفيلى قد رفع ٢٤ قالبًا وضع هو ثلاثين قالبًا، وقال إنه إما أن يرفعهم كلهم أو يموت، وبعد أن وضع القوالب، خلع عنه بندقيته

وأعطاها لخادمه ثم مدَّ يده تحت القوالب وما لبث أن سرى بين الناس الحديث حيث قال بعضهم إن الروكايمى لن يستطيع أن يرفع هذا العدد من الأرض لأن ذلك مستحيل، وأخذ الهمس يتصاعد بينما فعل المسلم هذا المستحيل، فقد رأوه وقد رفع القوالب الثلاثين فى الهواء. وهكذا صاح الجميع صيحة مدوية قائلين: " الروكايمى هو الفائز، بحق محمد، إنها لقوة هائلة"، وقد أعاد الروكايمى القوالب إلى وضعها الأول ثم استدار نحو فرقته وظهر عليه السرور، واستقبله أفرادها بإطلاق الأعيرة النارية فى كل الساحة، وترك الجميع مندهشين من قوته الخارقة. وعاد ابن أمية إلى غرفته وبصحبته جميع القادة الذين كانوا محيطين به. وعادت السيدات أيضًا إلى غرفهن، وكان الجميع لا حديث لهم سوى قوة وشجاعة القادة الذين استعرضوها ذلك اليوم. وأمر ابن أمية بإعلان الروكايمى فائزًا ومنحه الجائزة الموعودة. فى تلك الليلة أقيم احتفال كبير، رقص فيه الرجال والسيدات حتى الصباح، واستمرت المسابقات بين الرجال حول قدرة كل منهم فى تحمل عمود من الرخام على كتفه أكبر وقت ممكن، وكان العمود يزن أربعة أرباع[٩] (arrobas).

صباح اليوم التالى، جلس ابن أمية فى قاعة الاستقبال ومعه كل قادة الجيش فى كامل هيئتهم. وقد اكتظت الساحة بالجمهور، وكذلك النوافذ والشرفات حيث كانت تجلس السيدات الجميلات. ثم أمر ابن أمية بإحضار قطعة من الرخام كان قد تم نزعها من إحدى الكنائس حيث كان عادة ما يُستخدم لتدعيم الحوض الذى كان يحتوى على المياه المباركة، وكان عبارة عن حجر كبير طوله ستة أقدام ويزن أربعة أرباع؛ وقد حمل هذا الحجر إلى الميدان، وقد استعد كل القادة للتسابق حول منْ يستطيع تحمله. وقد تم كتابة أسماء القادة جميعهم فى أوراق ووضعت فى كوب من الفضة حتى يخرج كل واحد منهم عندما يحين دوره وبنظام، وقد وضعت أيضًا ساعة رملية فوق مائدة جميلة. وكان القادة المستعدون للدخول فى هذه المسابقة هم الآتى أسماؤهم:

ابن عياش (Abenaix) ، والخُريقى (Aljorayque)،

والموثابان (Almozabán) ، والروكايمى (Alrocayme) ،

والغورى (Al Gorri) ، والحبقى (El Habaquí) ،

(٩) الرُبع arroba يعادل ٥ر١١ كيلو جرام تقريبًا. (المراجع)..

ويويرتوكاريرو (Puertocarrero) ، والديرى (El Derri) ،

وسنارية (Zarea) ، وخيرونثيو (Gironcillo) ،

والمالح (El Maleh) ، وكاراكاتشا (Caracacha) ،

وأبو نفيلى (Abonvayle) ، ومامى أغا (Mamiaga) .

كل أسماء هؤلاء القادة قد كتبت ووضعت فى كوب من الفضة كى يخرجوا حسب النظام؛ وقد عزفت الموسيقى وانطلقت الطبول والأبواق ابتهاجًا بالموقف، ثم قام ابن أمية تصاحبه الموسيقى الصارخة، بمد يده إلى الكوب وأخرج ورقة كان مكتوبًا عليها اسم الحبقى، توقفت الموسيقى، وأمر ابن أمية بإعلان الاسم، وهكذا على صوت نفير واحد أعلن بصوت عال واستمع الجميع لمنْ يقول: "فليخرج الحبقى". نهض القائد الشجاع قائمًا وسار نحو منتصف الساحة حيث كان عمود الرخام موضوعًا، وقد ساعده أحد الرجال، كى يضعه على كتفه الأيمن، وهو يشعر بثقله الهائل، ثم هبط بركبتيه حيث رآه الجميع وهو يحمل هذا الثقل على كتفه مدة ربع ساعة حسب الساعة الرملية، بعدها لم يستطع تحمله أكثر من ذلك فتركه على الأرض، وقد شعر بعد ما تخلص منه أنه قد تخلص من حمل جبل ضخم، وبعد أن أدى التحية عاد إلى مكانه وهو يقول إن هذه المسابقة قاسية. بعد هذا، أخرج ابن أمية على صوت الموسيقى والأغانى ورقة أخرى تحمل اسم سارية، الذى لم يتحمل عمود الرخام سوى نصف ربع ساعة، وتركه يسقط على الأرض وهو يقول إنه من الأفضل أن يتحمل على كتفه بندقية وليس هذا الحجر الضخم، وهكذا عاد إلى مكانه. بعد سارية خرج الديرى، وقد تحمل هذا أيضًا ثقل الحجر نصف ربع ساعة فقط. ثم خرج خيرونثيو، ولكنه لم يتحمل ولا حتى دقيقة واحدة بعدها تخلص من الحمل قائلاً إنه يفضل محاربة المسيحيين وقتلهم على هذا السباق الحيوانى. وقد خرج خيرونثيو بعد الغورى، ولكنه لم يصل إلى نصف ربع ساعة. وبعد الغورى خرج بويرتوكاريرو، ولكنه لم يتحمل الثقل مدة نصف ربع ساعة. وبعد بويرتوكاريرو خرج القائد المالح الشجاع، وبعد أن أخذ حجر الرخام استمر يحمله أكثر من ربع ساعة، ثم ظهر عليه الإجهاد ولم يتحمل أكثر من هذا فتركه يسقط على الأرض. وقد خرج الخُريقى بعد المالح، وقد تحمل الرخام نحو نصف الساعة، وقد اندهش الناس جميعًا لقوته وقالوا إنه رجل ذو قوة خارقة. وبعد مرور نصف الساعة ترك الحجر يسقط وذهب إلى حيث كان يجلس ثم خرج الروكايمى. وهكذا، ارتفع حديث الناس فيما بينهم وهم يقولون: "إن هذا القائد الشهير سوف

يفوز لأنه قد سبق له الفوز فى مسابقة قوالب الطوب"، وعندما وصل الروكايمى حمل على كتفه عمود الرخام ولم يتحرك من مكانه طيلة ثلاثة أرباع الساعة، وقد عانى خلال هذا الوقت أشد المعاناة، ولم يتحمل أكثر فترك الحجر يسقط على الأرض وعاد إلى حيث كان جالسًا، وقد تعجب كل الناس لهذه القدرة الهائلة ثم خرج بعد ذلك ابن عياش الشجاع، وقد تحمل الرخام ساعة وربع الساعة حيث تملك الجميع الدهشة من قوته الهائلة ثم خرج الموثابان الشجاع وقد تحمل الرخام ساعة ونصف الساعة دون تعب، وقد تعجب الجميع لذلك وتملكهم الفزع لأنه قد خرج من أنفه الدماء نتيجة ذلك. وبعد موثابان خرج القائد كاراكاتشا، وعندما رفع الثقل لم يتحمله سوى ربع الساعة. ثم خرج زميله مامى أغا ولم يتحمله سوى ربع الساعة ثم خرج القائد الشجاع أبو نفيلى، وعندما حمل الرخام على كتفه أخذ يسير به واستمر يحمله طيلة ساعتين من الزمن، وأخذ الناس من حوله يتصايحون ويهتفون حيث تأكدوا من فوز الأخير بالجائزة الموعودة لهذا الرخام الثقيل. ثم عزفت الأبواق والطبول بعد ذلك ابتهاجًا بفوز أبى نفيلى، وقد ذهب إليه بقية القادة وأخرجوه بفرحة كبيرة خارج الميدان. ثم أمر ابن أمية بإعطائه الجائزة الموعودة. لقد حاول كثيرون حمل الرخام، إلا أن أحداً منهم لم يستطع أن يبقيه زمنًا أكثر من أبى نفيلى. وقد توقفت الاحتفالية والمسابقة لهذا اليوم عند هذا. وفى صباح اليوم التالى، كان هناك سباق حول منْ يستطيع أن يقفز ثلاث قفزات، وهكذا استمر السباق والرقص والغناء ثم استعد الجميع فى اليوم التالى للقفز، وتم تسجيل أسماء القادة الأربعة عشر السابقين؛ وجلس ابن أمية فى القاعة وحوله القادة المهمين فى جيشه، وبدأت المسابقة على صوت الموسيقى التى عَمَّت المكان. كان القائد الغورى هو أول منْ خرج؛ وبعد أن قفز ثلاث قفزات كان قد قطع بهن ١٩ قدمًا لم يستطع أن يقفز أكثر من هذا فقد كانت قفزته الأولى فاشلة. ثم قفز بعد ذلك بويرتو كاريرو وقد قطع مسافة ٢٥ قدم، ولم يستطع أكثر من ذلك ثم قطع سارية مسافة ٢٤ قدم، وابن عياش ٢٦ قدم، والموثابان ٢٨ قدم، والمالح ثلاثين، وأبو نفيلى ٢٨ قدم، والخُريقى ٣٤ قدم، والروكايمى ٣٦ قدم، والحبقى ٣٩ قدم، والديرى ٣٠ قدم، وكاراكاتشا٣٢ قدم، وزميله ثلاثين قدم، وخيرونثيو الذى كان منطلقًا كالسهم قطع مسافة خمسين قدمًا. وقد فاز هذا بالجائزة الموعودة على صوت الأبواق والطبول. وقد انقضى ما تبقى من ذلك اليوم بين الاحتفال والابتهاج، وتأجل سباق الجرى إلى يوم آخر؛ وعندما حان ذلك اليوم، تم تعيين مكان السباق، وكان لمسافة نصف فرسخ يصل فى نهايته إلى الميدان الذى وضعت فيه الحُلى التى يجب الفوز بها. وكان من عادة الموريسكيين أن يتسابقوا شبه عُراة إلا من مئزر يحيط بوسطهم. وقد تجمع للجرى أكثر من مائة رجل، قادة، وغيرهم الكثير

من محترفى الجرى، وقد فاز بهذا السباق موريسكى من مدينة لاس كويباس، كان يُدعى البشارى (Abejari)، وكان من أكثر الشباب انطلاقًا فى مملكة غرناطة ثم تم منح جوائز إلى بويرتوكاريرو الذى أعطاه ابن أمية عشر دوقيات حيث وصل تقريبًا فى نفس وقت البشارى، ولكن هذا كان أسرع منه حيث مدَّ يده إلى العصا حاملة الحُلى.

وبعد ذلك اتفق على إقامة مسابقة أخرى حول منْ يستطيع قذف وزن يصل إلى أكثر من خمسة كيلو جرامات، وعندما حان السباق، جلس ابن أمية وحوله القادة، وقد امتلأ الميدان بجمهور كبير من الرجال والقادة، وبدأ المتسابقون اللعب، وقذف القادة وعدد كبير من الجنود الأشداء، وفاز فى هذا السباق جندى تركى قادم من الجزائر، وقد منحه فيرناندو مولاى الجائزة، وكانت عبارة عن ثلاثين دوقية وسط فرحة عظيمة للفريق التركى لفوز هذا التركى بهذا السباق فى إسبانيا. وكان التركى الفائز يُدعى مصطفى، من مواليد القسطنطينية. وعندما انقضى هذا اليوم، أقيم فى اليوم التالى له سباق حول منْ يستطيع الرمى بالمقلاع، ومنْ يستطيع أن يتقن رميتين به يفوز بعشر دوقيات.

وحين حان وقت السباق، استعرض القادة كلهم فرقهم وأخرجوا من بينهم الجنود القادرين على استخدام المقلاع، وكانوا قليلين، حسب مبادئ الحرب، فلم يكن هناك سوى مائة وأربعون جنديا فى كل الجيش من الماهرين فى استخدام المقلاع، وقد تجمع هؤلاء الجنود وكوَّنوا فريقًا، وقد اختاروا لهم قائدًا، ودخلوا إلى الميدان فى نظام بديع. وكان الميدان فى ذلك اليوم مثل غيره من الأيام مليئًا بالجمهور، والملك الصغير فى مكانه وحوله القادة والفرسان المهمين، وقد وضع على بُعد مائتى خطوة ترس مدوَّر كبير الحجم مصنوع من الخشب كى يُظهر مجهود الرُماة، وموضوع فوقه مائدة خشبية. كانت اللوحة الخشبية بيضاء اللون، وفى وسطها دائرة سوداء صغيرة، وفى مركزها نقطة بيضاء كى يفوز منْ يرمى داخل هذه النقطة البيضاء أو بالقرب منها، بالجائزة الموعودة وهى جوهرة تقدر بعشر دوقيات ممنوحة من فيرناندو مولاى. وقد قام الجنود بالرمى واحدًا تلو الآخر، وقد أظهر الكثير منهم مهارة كبيرة، فقد أصاب بعضهم الترس واقترب بعضهم منه بحيث كان هناك داخل الترس ٩٦ هدفًا تم رميهم بكل قوة بحيث أصبحت اللوحة الخشبية محطمة، وكان أقربهم للهدف الرمية التى قام بها شاب مسلم من أبناء أوهانييث يُدعى ألكولايار. وقد مُنح هذا جائزة الدوقيات العشر . ثم قام أفراد الفريق الموريسكى بعد ذلك بإطلاق مقالعهم دون هدف، مُحدثين ضجة عظيمة وكأنها ضوضاء ناتجة عن إطلاق الرصاص، وقد تعجب الجميع لهذا. وعندما خرج هذا الفريق من

الساحة قال مولاى: " لقد سرنى كثيراً رؤية هذا الفريق من رُماة المقلاع، وأعتقد أنهم يستطيعون فى أية معركة أن يقوموا بعمل بطولى". وقد أجمع القادة على أن هؤلاء الرُماة قد أحدثوا أذى كبيراً فى صفوف المسيحيين. وقد اتفق على قضاء ما تبقى من اليوم فى الرقص. وهكذا تزينت الساحة لهذا العرض؛ فقد فرشت الأبسطة حيث سيُقام الرقص، وقد جلس الرجال المهمون على شكل دائرة، بينما جلس ابن أمية على مقعده فى منصته، وكان هناك الكثير من الآلات الموسيقية كى يعزفوا عليها، ولكنهم وجدوا أن العود أفضل فى تلك المناسبة. وعندما بدأت الموسيقى بدأ الكثير من الشباب المسلم فى الخروج، وكانوا فى كامل زينتهم واستعدادهم، وقد أخذوا يرقصون بشكل بديع بحيث لم يستطع الحُكام أن يقرروا منْ منهم يرقص أفضل من الآخر. وكان القادة أيضًا يرقصون بمهارة؛ كان خيرونثيو يرقص ببراعة مع إحدى السيدات، وكانت هذه السيدة تُدعى ألمانثاتا (Almançata)، وقد أبدعت فى رقصها الذى نال إعجاب الجميع حتى إن الملك الصغير قد أمر بإعطائها عشر دوقيات وثوبًا من الحرير. ثم دخل بعد ذلك للرقص بويرتوكاريرو ومعه سيدة جميلة، وقد رقص هذا بمهارة أكثر من خيرونثيو، كما رقصت السيدة ببراعة، وقد أمر بمنح هذه السيدة أيضًا ثوبًا أنيقًا، وكان ثوبًا جميلاً من الحرير وعشرة دوقيات، ومنح بويرتوكاريرو جائزة الرقص.

بعد ذلك أمر ابن أمية بخروج السيدات وحدهن للرقص، وقد رقصت الكثيرات منهن ببراعة فائقة، وكانت آخر منْ قامت بالرقص هى الجميلة قمر ابنة بورتشينا. وكانت هذه السيدة ترتدى ثوبًا حريريا أنيقًا أخضر اللون مزخرفًا بثمرات الفراولة المذهبة، تحته سروال رقيق وحذاء من المخمل الأزرق المزخرف بالذهب، وكان جمالها يخطف الأبصار، وكانت قد مشطت شعرها بطريقة جميلة ووضعت فوقه طرحة شفافة لا تحجب رؤية ما تحتها بل تظهره جيداً؛ وقد وضعت بين يديها مئزراً مطرزا فى تونس من الحرير الرقيق وذا ألوان زاهية مما يدل على ثمنه الغالى. وقد رقصت هذه السيدة وحدها بكل براعة، وقد تركت الجمهور مبهوراً لفرط جمالها ومهارة رقصها. وفى أثناء أدائها لرقصتها حيَّت باحترام كلا من مولاى والقادة من حوله ثم ذهبت لتجلس مع بقية السيدات. وقد أمر فيرناندو مولاى فيما بعد بمنحها ثوبًا أنيقًا من المخمل الأزرق موشى بالذهب، ومطرزاً بأناقة، وكذلك أربعة مآزر أنيقة ومنح السيدات الأخريات مآزر أيضًا حتى لا يكون هناك حسد أو حقد بينهن، كما أمر بمنح كل واحدة منهن عشر دوقيات بحيث أصبحن جميعًا مسرورات. منْ يستطيع أن يصف فرحة القائد المالح لفوز سيدته وإجادتها الرقص؟. لقد كان شديد الفرح بهذه السيدة باهرة الجمال؛

ولكن هذه السعادة لم تدم طويلاً، كما سنقول فيما بعد، فقد لقيت هذه السيدة مصرعها على يد المسيحيين الذين لم يبالوا بجمالها. وبعد أن رقصت السيدات المسلمات أمر ابن أمية بأن تقام مسابقة للموسيقيين العازفين والمغنيين على الرغم من أنه لم يكن هناك كثيرون يجيدون هذا الفن، ولكن سوف نذكر منْ أفضل من غني وعزف. عزف القائد الديرى وغنى بمهارة، وكذلك فعل بويرتوكاريرو الذى كان محاربًا وعاشقًا، وغنى بالعربية هذه الأغنية:

أغـــنيــــة

يا غرناطة الجميلة البديعة

إلى أين سيتوجه قلبى

لو عدتٌ مرة أخرى

إلى جيش المسلمين

سوف أذهب إلى ضفاف أنهارك

فى "عين الدمع"

وضفة شنيل الوارفة

وسوف تخفق فى الحمراء راياتى

لو عدتٌ مرة أخرى إلى هذا الفريق

الذى تتمنين العودة إليه

هذا الفريق الذى يرأسه بجدارة

فيرناندو ابن أمية

منْ سيرقص رقصاتك

ويبعد عنكِ الحروب

وتمتلئ جنباتك يا قصر الحمراء الحبيب

بالسيدات المسلمات الجميلات

أنشد القائد بويرتوكاريرو هذه الأغنية وهو يعلم تمامًا ماذا تعنى غرناطة وجنباتها الوارفة؛ وقد أعجب الجميع بهذه الأغنية التى كانت تتحدث عن مشاعرهم جميعًا، ولم يكن ابن أمية أقل منهم إعجابًا بالأغنية التى داعبت رغباته. وعندما كان بويرتوكاريرو يغنى، كان يستمع إليه خيرونثيو وهو من مواليد غرناطة فشعر بالحنين لوطنه، وتذكر سنوات طفولته الجميلة فى غرناطة، وهذا الزمن الجميل الذى رحل، أخذ العود والدموع تترقرق فى عينيه، وكان خبيرًا بالعزف عليه، وحتى لا يفقد الخيط الذى بدأه بويرتوكاريرو. وبعد برهة من التأمل، بدأ العزف بشكل بديع ومؤثر، وبدأ يصاحب عزفه بغناء أدهش منْ حوله، وقد استمر يعزف ويغنى، وبعد فقرة بويرتوكاريرو أنشد هذه الأغنية:

أغـــنـــيـــة

لو عاد فيرناندو مولاى العظيم

إلى الحمراء

سيعود ملكًا متوَّجًا

تحت هذه الراية أو تلك

لو أن معركة البيازين العالى

والقلعة الشامخة

التى كان يحكمها الملك الصغير

انتهت نهاية سعيدة

لو أصبحنا المنتصرين

واستولينا على الغنائم والزخارف

من المسيحيين المهزومين

وعاد ابن أمية للحكم

لو استولى الفريق المسلم

على ثروة نهر حدرة

وأخذ ذهبه الكثير

لو قطفنا من المروج اليانعة

ثمارها الجميلة

وقتلنا المسيحيين الكلاب

الخبثاء شر قتلة

لو أصبح ابن أمية

ملكًا متوّجًا وقويا

وارتاح فى النعَيم

سوف ينال الجميع عطاياه

برع خيرونـثيو فى الغناء والعـزف لهذه الأغـنية لدرجة حازت إعجاب الجميع. وقد أنشد الكـثير من المسلمين بـبراعة وإحـساس؛ ولكن خيرونثيو حصل على الجائزة، وكانت عبارة عن جـواد جـميل وذلك لجـمـال أغنيتـه. وقـد أمـر ابن أمـيـة بعـد ذلك بأن تـغنى السـيدات الجميلات، ولأن هؤلاء السيـدات كنّ لا يجدن العـزف على العود، كان من الضـرورى البحث لهن عن دُف وقد عـزفت أخريات بالصنـوج على الطريقة الموريسـكية. وبعد أن استـعدت الكثيرات من السيدات للغـنـاء والعزف، كانت الجـميلة قمـر هى أول منْ غنت باللغة العربية هذه الأغنية:

أغـــنـيـــة:

من نهر المنصورة الحبيب

تنبت الزهور خالدة

لا تقبل الموت

وسوف تعود غرناطة

إلى أيام سعادتها السابقة

وسوف ينتصر المسلمون

ويعيدون لها تميزها .

وسوف يحتل القادة المسلمون

كل المراكز الهامة

ويعودون لاحترامهم السابق

ويعودون لثرواتهم وغناهم

وسوف تعود الموريسكيات كلهن

من هذه الجبال ومن البشرات

وسوف يعطيهن المسيحيون

أرغفة العيش عند زواجهن

وسوف يتوَج ابن أمية

على غرناطة كلها

ويستعيد دولته

ويصبح ملكًا عظيمًا مثل " تاربيا"

لقد كان ابن تاربيا هو نيرو (Nero) القاسى، ولأن قمر كانت تعرف العداوة القائمة بين ابن أمية وآخرين ممن لاحقوه فى أثناء هروبه، أرادت أن تذكره بأنه يستطيع أن ينتقم منهم عندما يصبح ملكًا. وقد لاحظ الملك الصغير ذلك فى أثناء متابعته للأغنية وسُرَّ به سرورًا عظيمًا. وهكذا أصرَّ على الانتقام، كما سنقول فيما بعد، ولم يكن ينبغى عليه فعل ذلك لأنه كان سببًا فى حرمانه من المُلك ومن الحياة. وبعد انتهاء أغنية قمر، قامت الكثيرات من السيدات بالغناء، ولكن لم يغنين بنفس مهارة قمر، لذا نالت هذه الأخيرة الثوب الموعود كجائزة. وقد رغبت الكثيرات فى الغناء حتى بعد إعلان قمر فائزة وذلك لم يكن حسدًا منهن؛ بل رغبة فى الغناء فحسب. وقد تركهن ابن أمية يغنين ومنحهن جوائز أخرى، بخاصة إحدى السيدات التى غنت ببراعة، وكانت ترتدى زيا قاتمًا لأنها كانت فى حداد حيث فقدت أباها وأربعة من إخوتها فى معركة بيرخا، ولذا كانت تشعر بالحزن. وكانت تلك السيدة من قرية تسمى الديرى (Deyre)، وقد قام المسيحيون بسلبها، وقد جاءت هى إلى بورتشينا مع أقارب لها. وبعد أن أعطيت الإذن للغناء، ناولوها الدُّف، ولكنها قالت إنها لا تستطيع العزف عليه، وطلبت طبقًا بحيث يُعطى صوتًا يصاحبها فى الغناء. وقد أعطوها الطبق فوضعته فوق مائدة صغيرة ثم بدأت تدق عليه بيدها. وقد بدأ الصحن يُصدر صوتًا حزينًا استدعى أحزان كل منْ كان يسمعه، وبعد ذلك وضعت المسلمة الشابة الجميلة عينيها المليئتين بالدموع صوب ابن أمية وبدأت تغنى بحزن وأسى من فرط العاطفة التى تشعر بها فى قلبها، وأنشدت بكلمات عربية هذه الأغنية:

أغــنــيــة:

لقد تسببت الدماء المراقة

من جسد أبى الحزين

فى أن تفقد أمى الحياة بعده

لقد فقدت إخوتى

فى معركة قاسية

لأن الانتصار

كان من حظ المسيحيين

لقد أصبحت وحيدة

وحيدة فى أرض الغير

انظروا وأنا كلى ألم

أنتظر أن تحملنى الموجة

إنها موجة الموت

التى سوف تحملنى

وستعرضنى لتجربة

أليمة للغاية

اتركونى أبكى

حظى التعيس

فى هذه الحرب القاسية

التى ستستدعى أحزانكم

فهذه الجبال البيضاء

وهذه الأنهار والينابيع

لن ترى بعد الآن

أناساً طيبين

حتى غرناطة

لن تشاهد الرقصات

فى قصر الحمراء الشهير

الذى نحبه جميعًا

ولن يسود البشرات

ولا نهرها الذهبى

ولا قمارش

حياة الإسلام

ولن ترى أنت

يا سيد فيرناندو

راياتك تعلو خفاقة

والمجد يحيط بجيشك

بل ستدمر قواتك

وسوف يستولى العدو

على غنائمك وسيتألم أصحابك

ويحملون للأسف

إلى أراضٍ غريبة

وستوضع الأغلال فى أيديهم

وسيشعرون بألم رهيب

وهم مسجونون فى الزنازين

فلن يرى الأبناء

أين اختفى الآباء

وستمضى الأيام على الأمهات

وهن يرفعن قضاياهن

وسيعشن فى بكاء دائم

لا ينقطع أبداً

بين سلاسل الجبال والروابى

لا يجدون علاجاً لجراحهم

وأنت يا سيد فيرناندو

سوف يصيبك أذى

من اثنين من رجالك

ينظران إليك الآن

لأن الشيطان الشرير

أراد أن يجعل أصدقاءك

يقضون على حياتك

ويتحولون إلى أعداء لك

وسيكون هناك ملك آخر

بائس وحزين

وسوف يهدد حياته الشيطان

كما سيُعرف فيما بعد

وأنت يا حبقى

حقا إنك حكيم

ولكنك ستموت أيضًا

يا لك من مسكين!

فالجيوش المسيحية

سوف تأتى بكل قوتها

وستعود منتصرة

تحمل كل الغنائم

وأنا أبكى الآن

بكل الحزن والأسى

الموت الرهيب

الذى ينتظرنى

بعد أن أنشدت الجميلة الحزينة هذه الأغنية، تنهدت بكل قوة، حتى بدا وكأن قلبها على وشك التمزق، وعلى مرأى من الجميع سقطت المرأة المسلمة ميتة من فرط الألم الذى شعرت به وهى تنشد أغنيتها، وقد اندهش الجميع من ذلك، بخاصة ابن أمية الذى شعر بالحرج نتيجة سماعه ما تنبأت له به المرأة فى أغنيتها من كونه سوف يموت على أيدى أصدقائه. وقال الفرسان والقادة إنه لا يجب أن يعطى بالاً لما قالته المرأة فى أغنيتها فليس من الحكمة أن نصدقها. وقد أمر ابن أمية بدفنها بكل احترام. وقد انفجرت المسلمات حينئذٍ فى البكاء حزنًا على موت السيدة وخوفًا من التعاسة التى تنبأت بها السيدة.

كان ابن أمية فى ذلك الموقف حين وصل إليه مسلم من البشرات يخبره بضرورة توجه الجيش إلى منطقة أنداراكس ولاس ألبانيويلاس وغواخاراس لأن غرناطة تعانى من ثورة عظيمة. وقد وصل إليها القائد الشجاع ثيسبيديس (Céspedes)، ولو ذهب جيش المسلمين إلى هذه الأراضى لاستطاع الاستيلاء على خيرات الأرض العظيمة التى تزخر بها المنطقة؛ فهى مليئة بأشجار التين والعنب والبندق والجوز واللوز وأبى فروة وغير ذلك من الثمار. ويمكن للمسلمين الحصول على كل هذا لأن المسيحيين لن يستفيدوا منه، وقد خرجوا هم من حصن أورخيبا للاستيلاء على هذه الخيرات التى يمكنهم الاعتماد عليها كغذاء يعينهم على الحياة. وعندما علم ابن أمية بذلك أمر بخروج الجيش ولم يرغب فى إنهاء الاحتفالات التى لم يتبق لها سوى مسابقات التنشين بالبنادق. وقد خرج الجيش فيما بعد ولم يتوقف عن المسير حتى وصل إلى بالور، ومن هناك عبر إلى قرية قريبة تسمى لوكاينينا (Lucaynena)، وهناك صدرت الأوامر بالاتفاق على خطة المعركة التى بين أيديهم. وقد اتفق على ذهاب ألفى مسلم إلى الجزء الخاص بلاس ألبانيويلاس وميناء راغوا (Ragua)، لأنهم علموا أن المسيحيين قد جمعوا فريقًا كبيرًا بأمر من السيد خوان دى مندوثا، وهناك رجال أقوياء سيقومون بالحراسة فى أثناء خروجهم لأن المسلمين فى تلك القرى يقفزون فوق الأسوار ويحصدون الثمار بينما الجيش الملكى المتواجد فى أورخيبا يعانى من الجوع ومن نقص فى الضروريات، ولهذا كان هناك فى ميناء راغوا وفى المناطق المرتفعة حملة من الجنود يصل عددهم إلى ٤٠٠ جندى من حاملى السلاح والقناصين يقومون بمهمة الحراسة هذه. وقد وصل المسلمون إلى هذه المنطقة وهاجموا المسيحيين، وانتصروا عليهم لكثرة عدد المسلمين فمات الكثير من المسيحيين وفرَّ الباقون، تاركين أراضيهم وأسلحتهم فى قبضة المسلمين، وقد توجه بعض الفارين إلى غرناطة، وفرَّ البعض الآخر إلى أورخيبا حيث الجيش وحيث يتواجد السيد خوان دى مندوثا، الذى حزن كثيرًا لما حدث. وقد جعله حظه العاثر يتعرض لمأساة أخرى؛ فقد كان القائد الشجاع ثيسبيديس على جسر تابليتى بأمر من السيد خوان دى أوستريا (Juan de Austria) يقوم بحراسته حتى لا يستطيع المسلمون من ساكنى الجبال الهبوط للهجوم على القرى القريبة الواقعة على طريق غرناطة. وعندما علم القائد الشجاع بهزيمة المسيحيين فى ميناء راغوا، أراد أن ينتقم لما حدث فصعد إلى أعالى الجبال بصحبة جنوده باحثًا عن العدو، وهو واثق من قوته. وكانت مهمته هذه حركة فردية منه لم يتلق الأوامر بالقيام بها، وهذا ما حدث. ولأن المسلمين كانوا يعلمون أن قوته المصاحبة له قليلة العدد؛ فقد هاجموه بشدة وهزموا القائد الشجاع وجنوده شر هزيمة وقتلوا هذا القائد بكل وحشية؛ فقد كانت

شهرة شجاعته سببًا لتمنى كل مسلم أن يقوم بجرحه بعدما قتل، ثم يحمل سيفه وبه آثار دمائه بكل سعادة. ولكن القائد الشجاع فقد حياته وهو يحارب المسلمين كرجل حرب ماهر وشجاع؛ فقد قام بتمزيق نحو مائة رجل مسلم إلى نصفين بسيفه، من عند الكتف وحتى الوسط بكل قوة ذراعه، فقد كان لديه سيف يُعد من أفضل السيوف المصنوعة فى العالم، فقد كان سيفًا فالنسيا طوله ذراع ونصف ذراع وعرضه يصل إلى ثلاثة أصابع؛ قوى ومتين، ويزن ١٤ رطلاً.

نعود إلى الواقعة؛ كان من الممكن ألا يُقتل القائد ولا يهلك فريقه لو أن السيد أنطونيو دى لونا، الذى قدم من الجيش المتواجد فى أورخيبا، قام بنجدته؛ فقد جاء بالقرب من هناك ورأى المعركة الدائرة بعينيه، كما روى روفو (Rufo) فى كتابه "أوستريادا" (Austriada)، ولكنه فضَّل عدم التدخل فى الأمر والخروج عن الأوامر التى صدرت إليه. ولكنه أساء التصرف، لماذا ؟ فمن يستطيع أن يرى معركة دائرة بين المسلمين والمسيحيين ولا يتدخل لمساعدة قومه ؟ ليس هناك رجل يفضل هذا حتى لو كان هناك أمر قد صدر له، وحتى لو كان جبانًا. إنه على الأقل، فى رأيى الشخصى، لم يكن شجاعًا أو جنديا ماهرًا. وليقل كل واحد رأيه حول الحادث.

ولنعد إلى قصتنا؛ فقد عاد المسلمون بعد انتصارهم مرتين إلى ملكهم الصغير، وهم يحملون السلاح والغنائم التى استولوا عليها من الجيش المسيحى ثم انتشر خبر ما حدث وما رويناه من قبل فى كل غرناطة، وقد أحزن هذا السيد خوان وماركيز مونديخار أشد الحزن، بعد ذلك كى ينهى ماركيز مونديخار الحرب ويقضى على الشرور الكثيرة الآخذة فى الحدوث أصدر أمرًا بإرسال عدد كبير من الرجال إلى ماركيز بيليث، وكان فى أدرا، كما قلنا سابقًا، ينتظر أوامر صاحب الجلالة.

الفصل الخامس عشر

الذى يحكى كيف تم إرسال محاربين شجعان إلى ماركيز بيليث وكم عددهم ومنْ سافر معهم، وكيف التقى ماركيز بيليث والقائد الأعلى فى اتفاق جمع بينهما، وكيف حدث سوء تفاهم بين الماركيز وماركيز فابارا حول مسألة تمس الشرف، وكيف دخل الجيش إلى أدرا.

علمت غرناطة كلها بهزيمة القائد الشجاع ثيسبيديس والموقف السيئ الذى اتخذه السيد أنطونيو دى لونا منه بعدم مساعدته، والذى بسببه خُلع من منصبه كقائد ومن رئاسته للمسيحيين المتواجدين فى ميناء راغوا، والذين أحزنهم ما حدث من هزيمة. فيما بعد أمر السيد خوان دى أوستريا (Juan de Austria) السيد رودريغو دى بنابيديس، وكان أحد أهم الفرسان، بالخروج من غرناطة بصحبة ستة آلاف جندى والذهاب إلى أورخيبا، حيث كان الجيش تحت قيادة السيد خوان دى مندوثا، وهذا ما فعله الجندى المطيع؛ فعندما وصل إلى غواديكس رأى حاجة المدينة إلى الحراسة، فأمر بأن يبقى بالمدينة ألف رجل كى يقوموا بحراستها ثم سافر إلى أورخيبا ومعه خمسة آلاف محارب، وكان هذا بقية عدد رجاله. وكان ماركيز فابارا قد خرج من غرناطة لنفس الغرض ومعه ٦٠٠ رجل مسلحون بكفاءة، كلهم من القناصين، وقد سافر بصحبته مائة فارس ونبيل من نبلاء مورثيا والقرى الأخرى. وعندما وصل هؤلاء الرجال إلى أورخيبا صدرت أوامر إلى السيد خوان دى مندوثا، القائد العام، بأن يذهب إلى أدرا حيث جيش ماركيز بيليث الذى يتكون من أربعة آلاف جندى، ومن أجل ذلك ذهب إلى موتريل، ومن هناك استقلوا السفن بهذا النظام. وقد أصدر خوان دى مندوثا أوامره بتحرك الجيش، وعبر البشرات من طرق وعرة وسيئة حتى وصلوا إلى موتريل حيث تقابل هناك مع السفن القادمة من نابولى، وأيضًا القائد الأعلى ومعه جنود السيد بدرو دى باديا (Pedro de Padilla)، والذين كانوا على درجة كبيرة من الشجاعة والمهارة الحربية. وقد ركب الجميع سفن إسبانيا ونابولى التى توجهت بهم إلى أدرا حيث كان ينتظرهم ماركيز بيليث. ثم بعد ذلك رست السفينة ثم نزلوا على الأرض وصدر أمرٌ بأن يصطفوا صفوفًا لـ يراهم ماركيز بيليث، وقد وقف ماركيز بيليث فى مكان يمكنه من رؤية الجنود، وقد سره

رؤية كل هؤلاء الجند من المشاة والمحاربين. وقد قفز ماركيز فابارا على الأرض، وكجندى شجاع ظهر أمام ماركيز بيليث وهو يقف أمام جنوده المسلحين، وعندما اقترب ماركيز فابارا من ماركيز بيليث حياه باحترام وقال له: " لقد أتيت إلى هنا ومعى ستمائة رجل من المحاربين لنكون فى خدمتكم عند قيام هذه الحرب"، ولم يبد ماركيز بيليث إعجابًا باللقب الذى خاطبه به ماركيز فابارا، إذ كان من الواجب أن يخاطبه بلقب "صاحب السيادة"، لذا أجابه قائلا: " الحمد لله على سلامتك، وكلنا هنا فى خدمة صاحب الجلالة ". وعندما أدرك ماركيز فابارا أن ماركيز بيليث احتقره ولم يخاطبه بتوقير أضمر له كرهًا مميتًا، ولم يتفق معه فيما بعد فى أى أمر من أموره، وهكذا تقدم مع جنوده. وقد وصل الجمع بعد ذلك إلى حيث جيش السيد بدرو دى باديا، وكان جميعهم من الجنود نوى الخبرة فى نابولى، الذين كانوا يثيرون إعجاب كل منْ يراهم ثم قفز القائد العام أمام ماركيز بيليث على الأرض، والذى طالبه بحسن التصرف فى موقعه الجديد. ثم أقيم بعد ذلك بعدة أيام مجلس الحرب حول ما يجب القيام به وما سيصدره صاحب الجلالة من أوامر. وقد حدث فى مجلس الحرب هذا، حسبما روى روفو فى "أوستريادا"، أن القائد الأعلى للجيش وماركيز بيليث قد وقع بينهما خلاف لأن ماركيز بيليث لم يكن أميرًا؛ بل كان الملك سيدًا له، ولكنه تجرأ على قول شىء لم يعجب الآخر على الإطلاق. وكان مجلس الحرب به رجال مهمون يستطيعون إبداء الرأى وحسم الأمر. وهكذا تم الاتفاق على ما يجب القيام به، وبعد ذلك رحل القائد الأعلى على السفن عائدًا إلى مالقة، تاركًا الماركيز ومعه ١١ ألف رجل من المشاة و ٨٠٠ فارس على خيولهم، وكانوا جميعًا من الجنود المختارين بعناية، وكان هذا مبعثًا لسرور ماركيز بيليث العظيم بهم. وبعد أن عرف الجنود ما عليهم فعله، صدرت الأوامر إلى الجيش بأن يرحل فى اتجاه لوكاينينا بحثًا عن العدو الذى كان ينتظرهم وهو يرتعد رعبًا عندما وصله خبر العدد الكبير من الجنود الذين جاءوا بصحبة الماركيز؛ ولكن هذا كله لم يكن له تأثيرٌ كبيرٌ لأن ابن أمية كان لديه جيش يصل عدد أفراده ٢٠ ألف مقاتل مسلح، إلى جانب أكثر من ثلاثين ألف آخرين متواجدين فى قراهم، وآخرين يتنقلون بين سلاسل الجبال ويستولون على الثمار، وكانوا كثيرين، كما قلنا من قبل. وهكذا أصدر الماركيز أوامره بتحرك الجيش وجعل مملكة مورثيا فى طليعة الجيش بحيث تكون أول منْ يواجه العدو، وهكذا سار الجيش إلى لوكاينينا بكل نظام، وعندما وصل إلى حيث يمكنه رؤية العدو لم يقوموا بأى شىء، سوى مراقبة المكان لاختيار أفضل موقع يمكن منه الهجوم على العدو وبدء المعركة. وعندما رأى الجنود المحنكين أن الماركيز قد أجَّل الهجوم على العدو، ولم يستعد بأى شىء، لم يدركوا الأسباب التى دفعته لذلك فبدءوا يتحدثون

عنه بسوء، ويقولون أشياء وقحة، وظهروا بمظهر الجنود المتكبرين المتغطرسين: "على الرغم من هذا، هل هذا هو الأسد الذى سيلتهم العدو ؟"، وقال آخرون: "هل هذا هو القائد الشجاع الذى طبقت شهرته الآفاق؟"، وقال آخرون: "إن هذا الرجل لا يساوى ريالاً؛ فقد رأى العدو ولم يحاول الهجوم عليه!". لقد قال جنود نابولى هذه الأقوال وغيرها، كما قال الأندلوثيون مثل قولهم وكذلك جنود ماركيز فابارا. وقد نما إلى علم فاخاردو كل هذه الأقاويل؛ بل وفى أحيان كثيرة سمعها بأذنيه، وكان هذا يملؤه بالغضب؛ فهو كرجل لم يكن معتاداً على هذه الإهانات، وقد أخفى مشاعره بكل حكمة وأمر كل الفرسان المهمين بأن يستعدوا لأداء مهمتهم الحربية وكذلك القادة وحملة اللواء والجنود وغيرهم من الفرسان المهمين، وعندما رآهم مجتمعين تجول بعينيه فى كل مكان ثم خاطبهم قائلاً:

"حديث ماركيز بيليث إلى جنوده"

" أيها القادة والجنود الشجعان، الذين يسعدهم الزحف خلف رايات إله الحرب الخفاقة: إنه ليسعدنى أن أكون مجرد جندى يرمى برمح أو يطلق رصاصة من بندقيته على أن أكون فى منصبى هذا كقائد عام للجيش وهو منصب يكلف صاحبه الكثير، وقد أنعم علىَّ به صاحب الجلالة، لأننى لو كنت جنديا لكان من السهل أن أظهر شجاعتى الشخصية فى أية مناسبة بالشكل المعروف عن كل جندى شجاع وبالتالى ينال الاحترام الذى لم أنله أنا كقائد عام للجيش المسيحى فقد أسأتم التفكير فىَّ وقلتم إننى تأخرت كثيراً فى اتخاذ قرار الحرب وإننى لا أقوم بما يجب علىَّ القيام به، ولكن الأمر ليس كما يبدو، وكما تتحدثون عنى، لأننى لا أتجاوز الأمر الذى صدر لى، فلو كان الأمر تابعاً لإرادتى، لكانت مملكة غرناطة كلها قد دمرت وسويت بالأرض، وكذلك كل إفريقيا، ولكى تعلموا أن الأمر لم يكن بيدى، كما أقول لكم، إليكم هذا الخطاب الذى وصلنى من صاحب الجلالة، وسوف ترون إذا كان ما أقوله هو الحقيقة".

وهكذا أعطى الماركيز الرسالة كى تُقرأ، وكانت تقول:

"رسالة من صاحب الجلالة إلى ماركيز بيليث"

"قريبى العزيز: إن الحرب التى بين يديك الآن لا بد وأن تسير بهذا النظام وهو معاملة القوم الثائرين بحكمة وروية لأننى يهمنى أن تنتهى هذه المعركة نهاية طيبة، وعندما يتأكد لك أنه ليس هناك بديلٌ آخر للحرب، تصرف كما يتراءى لك، من مدريد...".

كان هذا هو فحوى رسالة الملك، والتى أزالت عن الماركيز الكثير من النميمة التى كانت تحدث حوله، وبعد قراءة هذه الرسالة عاد فاخاردو مرة أخرى إلى حديثه، فقال: "لو أن أى رجل من الرجال أراد أن يعرف مدى شجاعتى، لما كنت أنا القائد العام للجيش، ولكنت تركت منصبى الذى ولانى إياه صاحب الجلالة، ولذهبت إلى بيليث حيث تتم محاسبتى وليفعل بى صاحب الجلالة ما يشاء". عندما قال هذا كان الشرر يتطاير من عينيه، وكانت نظراته لا يقوى أى رجل على تحملها إلا امتلأ رعبًا. وقد علت الدهشة وجوه القادة لما سمعوه من الماركيز، وقد أدرك الجميع أن ما قاله الماركيز هو الحقيقة وقد كان الأمر كذلك لأن الماركيز كان يعلم أن لديه منافسون فى الجيش. بعد ذلك بأيام، وضع الجيش كله فى حالة استعداد، ووصل إلى سهل كبير جدا فى لوكاينينا (Lucaynena)، حيث كان ظاهرًا لهم جيش المسلمين بأعداده الغفيرة وقوته الهائلة. وقد أخذ السيد خوان دى مندوثا دون أمر من الماركيز قيادة الطليعة. هكذا بدأت مملكة مورثيا والجزء الخاص بها المعركة، بعد ذلك بدأ إطلاق النار بكثافة لأن المسلمين كانوا كثيرين وكانوا موجودين على حافة مجرى سيل عميق، ومن هناك كانوا يهاجمون ويدافعون عن أنفسهم بكل ضراوة، ولكن المسيحيين كانوا غاية فى الشجاعة لدرجة أجبرت جيش المسلمين على التراجع إلى جزء آخر من الهاوية حيث كانوا يقاتلون بشراسة؛ ولكن كانت هذه الشجاعة دون جدوى حيث أجبروا بعد ذلك على الهروب نحو الجبال. وقد وصل الماركيز، وعندما رأى أن السيد خوان دى مندوثا، قد بدأ المعركة دون انتظار الأوامر، غضب غضبًا شديدًا ووجه له كلمات قاسية حيث قال له: "انظر، يا سيد خوان، إنك لم تتصرف اليوم كجندى مطيع، لأننى عندما أعطيت الطليعة لمملكة مورثيا، أخذتها أنت، ودون أمر منى قمت بالهجوم على العدو، دون أن تنظر إلى الضرر الذى يمكن أن يحدث، ولولا عون سانتياغو، لما عرف أحد عواقب الأمور بعدما خاطرت بالجيش كله الذى كان يمكن أن يضيع لعدم إدراكه سوء تصرفك، ولو كان هذا قد حدث لما وقع اللوم عليك؛ بل على القائد العام؛ ولكن لتعلم إن هذا الأرنب البرى لن يمكننا القبض عليه بالقوة بل بالصبر عليه، وإننى لأحذرك بعدم الهجوم مرة أخرى دون أمر منى وإلا كان لهذا عواقب وخيمة". بعد أن قال هذا رأى

الماركيز أن المسلمين قد تراجعوا وتوجهوا إلى بالور فذهب هو إلى غيخار حيث نزل ومكث يومًا؛ وفي اليوم التالي خرج لملاحقة العدو الذى وجده ينتظر المعركة بجيش قوى عند بالور (Valor) العالية. وقد سار الماركيز حيث اقترب كثيراً من العدو الذى كان يتمركز فى الأجزاء العالية، وهو على استعداد، كما قلنا. وقد خرج الماركيز ومعه قوتان كبيرتان من حاملى البنادق: وقد أعطى واحدة منهما للسيد بدرو دى باديا، وكانت على الجانب الأيسر، والأخرى قادها ماركيز فابارا. فى القوة المصاحبة للسيد بدرو دى باديا كان هناك فرسان من مورثيا، رجال على قدر كبير من الشجاعة وهم: ألونسو غالتيرو، ونوفرى رويث وسالبادور نابارو، الذى اختير بعدما كان حامل لواء فرسان مورثيا ليصبح قائدها، وكان هذا بسبب السيد خوان باتشيكو، الذى لم يكن مستعداً لمنصبه فعاد إلى مورثيا قادمًا من أدرا. وقد ذهب معه أخوه أندريس نابارو، وكان جنديا شجاعًا فلم تكن هناك حربٌ لم يشارك فيها، إما بالرمح وإما بالبندقية. وكان هذا الرجل يشارك على نفقته الخاصة؛ مقدمًا خدماته لصاحب الجلالة الملك، كان يشارك بجوادين وستة خدام، وكان هناك أيضًا غيره من الرجال أمثال خوان دى توريسياس وفرانثيسكو دى ليسون وألونسو لاثارو وكثيرون من مورثيا، رجال يتمتعون بالشجاعة والقوة وجنود ماهرون، كان بينهم نبيل من الأشراف يُدعى فرانثيسكو بينار، وكان جنديا كبيراً، وكانت الميمنة يقودها ماركيز فابارا ومعه جمع من الرجال الماهرين أما الباقون فقد تمركزوا فى وسط الجيش مع جنود السيد خوان دى مندوثا وجنود مملكة مورثيا ومعهم أهالى مدينة لوركا، وكان هذا الجزء من الجيش يُطلقون عليه الثلث القديم لأنه كان يتكون من أوائل الجنود الذين شاركوا فى جيش الماركيز، وكان لأسباب أخرى يسمى الثلث المعطوب لأنهم كانوا يهتمون بالعمل أكثر من اهتمامهم بالزينة وملابس التشريفة؛ فقد كانت زينتهم البارود والسلاح والرصاص، وكان الحبل الذى يربطون به بنادقهم أفضل لديهم من قمصانهم. ولاهتمامهم هذا بالجانب العسكرى أكثر من التشريفة أطلق على أهالى لوركا وجنودها "معطوبو لوركا" و "الجيش المعطوب". وفى رأيى أن هذه الأسماء أسماء خالدة ومناسبة لكل المعارك. وبعد أن قام الماركيز بتوزيع جنوده على النحو الذى ذكرناه، خرج لملاحقة العدو، الذى لم يكن أقل استعداداً منه للقاء الماركيز هو وجنوده مظهرين شجاعة فائقة. كان أول منْ قام بإطلاق النار هم جنود السيد بدرو دى باديا، فقد هاجموا بحماس كبير وكان شيئًا يستحق المشاهدة تمكنهم من إطلاق الرصاص وإعادة شحن البنادق. وقد أظهر ماركيز فابارا أيضًا شجاعة فائقة ومعه جنوده. وقد حاول قلب الهجوم والمؤخرة اختراق العدو من الوسط، وكان جنود نابولى هم المتقدمون، ولكن لأنهم جنود معتادون على الحرب السهلة والأراضى المستوية،

لم يستطيعوا أن يقوموا بما يجب عليهم فعله، لهذا قال لهم الماركيز وهو يتقدمهم: "إنكم تبدون فى تشريفة أكثر مما تبدون فى معركة؛ فأنتم كثيرون ومعكم جيش نابولى، ومع ذلك فلم تنتصروا على العدو بل هزمتم سمعتكم كجنود، إنكم لا تهتمون إلا بالحديث السيئ عن أناس لا تعرفونهم، كأنكم تجهلون مبدأ احترام منْ هم أفضل منكم، ولكن لكى يكون ما أقوله حقيقة واقعة، ويكون هناك عقاب للمتكبرين منهم انظروا إلى هؤلاء الناس الذين ليست لهم شهرة مثلكم". فيما بعد استدار القائد العام نحو قلب المعركة وأمر الجيش المعطوب بأن يتوجه نحو أعلى نقطة فى سفح الجبل وأن يهاجموا الأعداء من هناك بكل قوة. اضطر فاخاردو إلى اتخاذ هذا القرار، عندما خرج أهالى مملكة مورثيا فى قوة كبيرة مشكلة من ألفى رجل من أشجع الجنود ومعهم الجيش المعطوب، وكشعاع برق هاجموا العدو، الذى كان حتى هذه اللحظة يقاوم مقاومة شديدة، وعندما رأى هؤلاء الجنود يهاجمونه من هذا المكان، عرفوا جيداً أنهم جنود مورثيا ولوركا، الذين كانوا فى ذلك الوقت قد تقدموا، بعد ذلك غادر العدو المكان، وتراجع والرعب يملؤه، ذلك أيضًا لأنه كان هناك علاوة على ذلك بعض قطع من جيش الماركيز يهاجمونه وبكل عنف. وعندما رأى الماركيز أن العدو قد هرب من المعركة، أمر بخروج سلاح الفرسان الذى خرج على الفور لملاحقة العدو. أما السيد دييغو فاخاردو ابن الماركيز فقد جاءته الفرصة كي يبرهن على شجاعته. ألقى بنفسه كشعاع برق، ووضع نصب عينيه بيرق الملك الصغير فلم يضع من ناظريه، ولم يتوقف عن متابعته، وبهذه المثابرة أصبح الملك الصغير فى متناول يديه، وكاد أن يقبض عليه ويقتله لولا لجوء ابن أمية لخدعة كانت لصالحه؛ فقد ترك جواده وامتطى جواد أحد الخدم بكل خفة وعبر به أماكن لا تستطيع الخيول متابعته فيها. وقد أمر السيد دييغو الشجاع، وهو يشعر بالغضب لهروب الملك الصغير منه، أمر أحد خدامه يُدعى فيرو (Ferro) ، بأن ينزع الزينة من جواده حيث كان سرجه من المخمل القرمزى ومصنوع من حُلة القداس التى كانت موجودة فى إحدى الكنائس الفنية والجميلة؛ وكان يتخللها مقاطع من الذهب. وقد استطاع ابن أمية أن يهرب هو وجيشه إلى سلاسل الجبال، بعد أن لقى الكثير من جنوده حتفهم، وعندما تأكد ماركيز بيليث من الانتصار، أخذ نحو مائتى فارس، وبسرعة شديدة ترك الجيش، وكان تصرفه هذه فى رأيى، غير صائب ولم يكن عليه فعله، فقد أخذ هذه الخيول وذهب بهم إلى كالا أوراً (Calahorra)، فى ذلك الوقت أصبح الجيش بغير قائد؛ ولكن كان هناك العديد من القادة الذين كان لهم قيمتهم بحيث لم يبد هناك أى نقص لسفر قائدهم، وقد نزل هؤلاء القادة نصفهم فى بالور العالية والنصف الآخر فى بالور المنخفضة، وقد وزعوا الحراسة فى كل مكان كان فى حاجة إليها، وانتظروا قدوم ماركيز

بيليث والأسباب التى دفعته إلى الذهاب إلى كالا أورا وترك جيشه دون قائد. وكان السبب الذى دفع الماركيز إلى الذهاب، وفقًا لما استطعت أن أدركه فيما بعد، أنه كان فى كالا أورا مؤنة كافية للجيش، ولم تكن مع الجيش مؤن، وكان قد أخبر بذلك السيد خوان دى أوستريا، الذى كان موجوداً هناك، بأنه سيذهب إلى هذه المدينة ومعه جيشه. وقد وفر له السيد خوان ما احتاجه، ولكن لم يكن لديه عمالٌ يحملون الأمتعة فلم يستطع أن يرسلها إليهم، ولأن الجو كان مطيراً والمسافة التى يقطعها الطريق طويلة، ظلَّ الماركيز بلا إجابة طلبه، وسرعان ما عاد إلى جيشه، حيث وجده قد عسكر ونزل، كما قلنا، على الرغم من قلة المؤنة وعدم وجود فائدة. فى ذلك الوقت عاد مسلمو بادول وخيرغال، الذين كانوا فى حالة سلم إلى التمرد والثورة من جديد، وقد شكلوا جيشًا كبيراً وذهبوا لينضموا إلى جيش الملك الصغير. وقد علم الماركيز بهذا الخبر. فى ذلك الوقت كان بويرتو كاريرو قد قبض عليه المسيحيون وحملوه إلى غرناطة حيث تم تعذيبه لجرائمه وخيانته. وقد عاد الماركيز إلى كالا أورا ومعه كل الجيش حيث أصبح لديه مؤنة كافية لكل أفراد جيشه، وكان يشعر بالسعادة، على الرغم من تفشى بعض الأمراض فى الجيش ومرض بعض جنوده حتى أن المستشفيات قد امتلأت بالجنود المرضى الذين كان يعدهم الجيش للدخول فى الحرب. وعندما علم الماركيز بأمر تجمع المسلمين، غادر كالا أورا وتوجه إلى فينيانا (Fiñana)، وكان على طليعة الجيش السيد بدرو دى باديا. فى ذلك اليوم حدث اشتباك بسبب عبور الجيش للنهر عدة مرات، ولكن هذا الاشتباك لم يستمر سوى لمسافة تسع فراسخ، على الرغم من وصول الجيش مساءً؛ فقد كان المسلمون يحتلون هناك تسعة فراسخ أخرى ويعيدون تنظيم جيشهم بعد عزمهم على التصدى لماركيز بيليث وإنهاء الحرب معه أو الموت فى أثناء المعركة معه. وكان ابن أمية يشعر بسعادة غامرة لقوة جيشه، وكان يعتقد أنه لا أحد يستطيع التصدى له وأن انتصاره سوف يستمر طويلاً، وكان يريد أن ينتقم من الذين لاحقوه كى يقطعوا رأسه ويعطونها لرجل تينديبا، ولهذا فقد أعدم الكثير من الرجال، الذين وصل عددهم إلى ثلاثمائة وخمسين رجل، حسبما أخبرنى أحد الموريسكيين الذين كانوا يتابعون جيشه. وعلى هذا النهج سار الملك الصغير، الذى أضجر كل جيشه لقسوته الشديدة؛ وهكذا تركه الكثيرون ورحلوا إلى الجبال، وذهب آخرون إلى قراهم، ولكن على الرغم من هذا كان جيش ابن أمية لا يزال كبيراً ويتمتع بقوة هائلة لأنه كان مسلحًا ولديه القدرة على الدفاع عن نفسه أمام العدو. وقد تراجع خيرونثيو عن الجيش، ومعه قادة آخرون لأن ابن أمية قد أمر بإعدام القائد ديرى، لأنه قد لاحقه كثيراً من أجل الجائزة، فى بداية حكمه، كما سبق وقلنا. وعندما علم الماركيز الشجاع أن المسلمين أصبحوا أقوياء وأنهم

ينتظرون الدخول معه فى معركة، خرج من فينيانا فى اتجاه جيش الملك الصغير، الذى كان معسكراً بالقرب من بولودوى (Boloduy)، وعندما وصل خرج إليه جيش المسلمين لملاقاته. وكان فاخاردو الشجاع يتقدم المشاة الذين كانوا قلة، وعندما وصلوا كان التعب قد أدركهم. ولم ينتظر الماركيز وصول المشاة؛ فقد هاجم المسلمين الذين استخدموا الخداع، فقد وضعوا فى الطريق عدداً من النساء وبعض الغنائم التى استولوا عليها من بولودوى بحيث ينصرف الجنود إلى جمع الغنائم وسبى النساء وينسون الحرب. وقد أظهر المسلمون مقاومة ضعيفة ثم بدءوا بعد ذلك فى الانسحاب. وقد خرج سلاح الفرسان لملاحقتهم على وجه السرعة، وبعد مضى وقت من انسحاب المسلمين، عادوا بكل قوتهم وهاجموا الماركيز وجنوده وأوقعوا خسائر جسيمة بين صفوفهم؛ فقد كان المسلمون كثيرى العدد وجاهزين بالسلاح، لذا فقد أخبروا الفرسان على التراجع إلى الخلف، ولكن على الرغم من ذلك، خاض جنود مورثيا معركة ضارية فى ذلك اليوم. فقد دافع كل من القائد سالبادور نابارو وأندريس نابارو أخوه، وخوان تورديسياس وفرانثيسكو دى ليسون وغيرهم من قادة مورثيا وأيضاً غيرهم من جنود لوركا، دافعوا بقوة مع أبناء مملكتهم بحيث لم يستطع العدو أن يقضى عليهم أو يجعلهم يفقدوا جيشهم. وفى ذلك الوقت وصل مشاة لوركا، الذين كانوا فى المقدمة، ثم مشاة مورثيا ومملكتها، ووصل السيد بدرو دى باديا ومعه أفراد جيشه، وأيضاً ماركيز فابارا، وكانوا كثيرين فاستطاعوا أن يستعيدوا ما فقده الجيش فى البداية. وقد أسرع جيش المسلمين بالهروب تاركاً بولودوى للمسيحيين الذين بدءوا فى الاستيلاء على غنائمها مما أغضب الماركيز، الذى أخذ يقول إنه ليس من الصواب الانشغال بالغنائم بينما العدو لا يزال قريباً ويستطيع أن يهاجمهم فى أى وقت. ولكن الطمع والرغبة فى السلب كانا أكبر من أى شىء أخر؛ فلم يعى الجنود ما قاله الماركيز، ولو كانوا وعوه، لما أطاعوه. وعندما رأى العدو أن الجيش قد انهمك فى السرقة والنهب ونسى السلاح، كوَّن فرقة كبيرة من أكثر من أربعة آلاف مسلم وعادوا لمهاجمة الماركيز الذى كان يشعر بالحنق تجاه جنوده لأنهم انشغلوا تماماً بالنهب والسرقة، وكان يصرخ فيهم ويعنِّفهم، ثم أعاد تقوية فرقته وعاد لمحاربة المسلمين الذين كانوا يشعرون بالغضب الشديد وهم يرون نساءهم وأطفالهم يُحملون فقاوموا بشدة وحاربوا بعنف لدرجة جعلت فاخاردو يضطر إلى الانسحاب مع جنوده وهم يدافعون عن الغنائم التى استولوا عليها. وعندما رأى المسلمون الثمن الباهظ الذى دفعوه لتحرير غنائمهم، عادوا إلى بولودى وقد خسروا خسارة فادحة فى الأرواح وهم يشعرون بالحزن لعدم تمكنهم انتزاع موكب النساء والأطفال الذى كلف الاستيلاء عليه من قبل المسيحيين أرواح كثيرين منهم. وقد

عاد الماركيز إلى فينيانا (Fiñana) من حيث أتى ومكث بضعة أيام أعاد فيها تنظيم جيشه وأمده بما يحتاجه من ضروريات، وقام بعلاج المصابين فيه. فى أثناء ذلك، عاد ابن أمية إلى البشرات ووصل إلى أدرا حيث وجد فيها حامية، ونفس الشىء وجده فى بيرخا. وعندما رأى أن هاتين الحاميتين مجهزتان بالسلاح والعَتاد ذهب إلى أنداراكس ومكث هناك عدة أيام، ساعده حظه فى هذا لأن ماركيز بيليث كان خارج البشرات. فى أنداراكس مكث ابن أمية وجميع أفراد جيشه يشعرون بالغضب والحُنق تجاهه وذلك لقسوته وقد شاركهم ذلك الشعور الأتراك القادمون من الجزائر، ورحل الكثير من القادة عن جيشه. فقد تراجع ناقوس(Nacoz) وعاد إلى غرناطة وانسحب خيرونثييو والمالح والقائد غارال عند نهر ألمرية، وعند كانتوريا تراجع ابن عياش وغير هؤلاء الكثير من القادة الشجعان. وقد أغضب هذا الملك الصغير غضباً شديداً، وزاده غطرسة مع أصحابه. وهكذا كانت تصرفاته المتغطرسة سبباً لهلاكه، كما سنقول لاحقًا، وهنا نذكر القصيدة التى تروى الأشياء التى حكيناها.

"قصيدة تحكى أحداث الفصل الماضى وحتى هذه النقطة"

انتهت الاحتفالات

التى أقامها الملك الصغير فيرناندو

فى مدينة بورتشيتا

حيث تسلى كثيراً

وجاءه البريد

يتوسل إليه بأن يذهب

سريعًا إلى البشرات

حيث ينتظرون هناك

كى يحصلوا على الثمار

التى منحتها الأشجار

فالجنود يستولون عليها

بداية من حدود أورخيبا

رحل ابن أمية

ومعه جيشه على أتم الاستعداد

وعبروا سلاسل الجبال

حتى وصلوا إلى بالور

ومن هناك توجه إلى أنداراكس

لأن هذا يناسبه أكثر

وأرسل أربعة آلاف رجل

من الجنود الماهرين :

ألفين إلى ألبونيويلاس

وألفين إلى مكان آخر

وهو ميناء راغوا

وكانت هذه خطوة خطيرة

فهناك كان المسيحيون

مستعدين بكل قوتهم

لكن المسلمين هجموا عليهم

ودمروهم

ورفعت راية المسيحيين

فى أيادى الوثنيين

أما أهالى ألبونيويلاس

فقد التقوا معهم من جديد

فى معركة بالسلاح

ضد قائد شريف

هو ثيربانتس الشهير

كان قد عسكر فى تابلاتى

ومعه حرس كبير للدفاع

ضد هذه الخطوة الخطيرة

هذا القائد الشجاع

هاجم ومعه جنوده

جيش المرتدين

وأظهر شجاعة فائقة

لكن المسلمين كانوا كثيرين

وتفوقوا عليه فى الميدان

فلقى القائد الطيب مصرعه

وفاقت شهرته الآفاق

كرجل شجاع وشهير

أكثر من أى جندى آخر

ثم عرفت غرناطة

هذا الحادث الحزين

وقد وافق أوستريا

على إرسال نجدة للجيش

حيث كان ابن أورتيغاس

فى انتظار النجدة

كى يضع نهاية للحرب

التى استمرت وقتًا طويلا

وأرسل لويس دى ريكسيوس

هذه النجدة

وهو رجل له قيمته

وكان يحمل لقبًا شريفًا

فهو من قشتالة وليون

وهو قائد معين

وقد أحضر إلى الجيش

جنود نابولى وهم ماهرون فى الحرب

وقد وصل ماركيز فابارا

ومعه نجدة كبيرة:

سبعمائة رجل

جميعهم من النبلاء

وقدم السيد خوان دى مندوثا

ومعه عدد كبير

فهكذا أمر قائد الجيش

وقد أتم المهمة التى طلبت منه

فقد جاء ومعه ١١ ألف من المشاة

القائد القادم من مورثيا

وكان معهم أيضًا

ثمانمائة جواد وفارس

كل هؤلاء كانوا جنودًا شجعانًا

تم اختيارهم بعناية

وكان جنود مورثيا

هم أكثرهم تميزًا

بصحبة كل هؤلاء

خرج ماركيز بيليث من أدرا

بكل حماسة

وكان يبحث عن الملك الصغير

الذى كان جيشه قويا للغاية

وقد تقابلوا فى لوكاينيثا

وهناك دحروا المسلمين

ولاحقوهم حتى بالور

حيث تحصن الملك الصغير

وانتظر كرجل شجاع

وكجندى صالح

ولكنه تحطم تماماً

داهمين جيشه

وهرب هو إلى الجبال

أمام السيد دييغو فاخاردو

الذى خرج لملاحقته

ليقبض عليه أو يقتله

لكن المسلم ترك مقعده

على ظهر الجواد

ورمى بنفسه فى طريق وعر

لا تستطيع الخيل أن تسير فيه

وبهذه الطريقة استطاع الهروب

هذا الملك التعيس

أمام هذا الانتصار

سار الماركيز ومعه مائتا فارس

حتى وصل إلى كالا أورا

كى يعيد تنظيم الجيش

وكان الجيش فى بالور

فى حاجة إلى طعام

فعاد إليه الماركيز

ثم ذهب إلى كالا أورا

ومن هناك ذهب إلى فينيانا

فقد وصله خبر

أن المسلمين تجمعوا

فى خيرغال وبولودوى

ورحل الماركيز لملاقاتهم

ومعه جيش عظيم

حيث دارت معركة شرسة

وقد خرج الماركيز منتصراً

ومحملاً بالغنائم

التى استولى عليها من المسلمين

مع أن روفو فى "أوسترادا"

قال عكس ذلك

لكن ما قاله روفو عن هذه المعركة

كان غير حقيقى

لأن الانتصار كان من نصيب الماركيز والمسيحيين

وعاد الماركيز إلى فينيانا

حيث عسكر الجيش

بينما ذهب المسلمون إلى أنداراكس

ومعه كل جيشه

حيث سنحكى فيما بعد

ما حدث له في جيشه

" خاتمة "

الفصل السادس عشر

الذى نحكى فيه كيف أن ابن أمية عندما وجد نفسه قد أصبح قويا حاول الاستيلاء على موتريل (Motril)، وقد أحب زهراء (Zahara) المسلمة، وقد اتفق المسلم بنالغواثيل (Benalguacil) مع ابن عبو (Abenabó)، وهو ابن عم الملك الصغير، على قتل الملك الصغير غيرة منه بسبب حب زهراء، ولهذا فقد قام بتدبير خدعة.

حكينا كيف أن ابن أمية، قد أصبح قويا وسط الرجال المحاربين الذين انضموا إليه، وقد نزل فى أنداراكس، حيث أصبح محل سخط من كثير من القادة والفرسان لقسوته وغطرسته. ولكن على الرغم من ذلك كان هناك الكثيرون لا يزالون يحبونه بإخلاص ووفاء، بين هؤلاء كان هناك رجل قريب لابن أمية يُدعى بنالغواثيل، وكان جنديا محارباً وشجاعاً، وكان يحب ابنة عم له تُدعى زهراء، وكانت أرملة قتل المسيحيون زوجها. كانت زهراء جميلة جدا، صوتها موسيقى، كانت تعزف الموسيقى القشتالية والموريسكية. وكانت ترقص ببراعة. وقد أحبت هذه الجميلة المسلمة ابن عمها بنالغواثيل بشدة، وإن كان هذا الحب قد أخذ طابع السرية. وربما فى أحد الأيام، كان يتحدث بنالغواثيل مع ابن أمية فى أمر النساء، وكان يشعر بأن الخير الذى يشعر به لن يكون خيراً إذا لم يشعر به الآخرون، لذا بدأ يتحدث بثقة مع الملك عن علاقته وحبه لسيدة جميلة، لها صفات حلوة، تجيد الغناء والرقص. وقد تحدث كثيراً عنها لدرجة جعلت ابن أمية يشعر بجاذبية نحوها ورغبة شديدة فى لرؤيتها، وهكذا أخفى مشاعره وتوسل إلى قريبه (وكان من الممكن أن يأمره) بأن يحضرها له إلى المنزل، لأنه يريد رؤيتها، وسوف يكافئه بسببها مكافأة عظيمة. وقد شعر بنالغواثيل بالندم لمدحه الشديد لحبيبته، وعانى من ذلك كثيراً، وفى تلك الليلة صاحب حبيبته إلى منزل الملك الصغير، حيث طلب منها أن ترقص وتغنى فأنشدت هذه الأغنية باللغة القشتالية:

أغـــنـــيـــة:

انظر إلى راياتك أيها الملك

وانتصاراتك التى لا تتوقف

على المسيحيين

إن راياتك تخفق بالمجد

وستصل إلى ما بعد جبال البرانس

إن إرادتك قوية

وحماسك شديد

تماماً مثل " أوتابيانو" Otaviano

الإمبراطور الرومانى

بأمجاده الخالدة التى لا تموت

سوف تستعيد حكم غرناطة

مثل أجدادك السابقين

وسوف يلحق المسيحيين الأذى

وسيهلكون على أيدى جنودك

وسوف نغنى جميعاً

مجد انتصاراتك الرائعة

التى ستصل شهرتها

أنشدت المسلمة الجميلة هذه الأغنية بصوت جميل وناعم لدرجة جعلت الملك الصغير يبدو عليه الانبهار لجمال وعذوبة الصوت. وعلى الفور استسلم لحبها، فنادى على بنالغواثيل وفى همس قال له: "صديقى العزيز، ليتك تسدى لى معروفًا وتترك لى زهراء، ابنة عمك، لأننى لن أستطيع الحياة ساعة واحدة دونها، ومقابل ذلك سوف أهب لك الجزء الذى تريده من مملكتى. وإلى جانب ذلك سوف أجزل لك العطاء حتى تعيش سعيدًا، وسوف تتزوج من المرأة التى تختارها"، وقد أجابه بنالغواثيل قائلاً: " أيها السيد القوى، ليس من طبيعة الملوك أن يهينوا رعاياهم، إن زهراء بمثابة زوجتى، ولا تسمح عظمتك بإهانتى هذه الإهانة، لأنه لو علم أحد بما طلبته لاعتبرك ملكًا طاغية، تريد أن تنتزع منى زوجتى زهراء وتحكم علىَّ بالموت بعدها. يا سيدى العظيم، لا تدع الحب يعميك عما قمت به من خدمات مخلصة لكم؛ فليس هذا ما تكافئنى به لإخلاصى"، وقد ردَّ عليه ابن أمية قائلا: "اذهب، واغرب عن وجهى لا تعكر صفوى، لقد طلبتها منك وهذا يدل على نيتى الطيبة لأنك تعلم أنها مِلك يمينى بالقوة دون الحاجة لمكافأتك، فلتكتف بما سأمنحه لك من عطايا ولا تحدثنى فى هذا الأمر بعد الآن" أجابه بنالغواثيل قائلا: "إن ذلك دونه الموت، حقا إنك الملك، ولكنك سوف تدفع ثمن هذه المؤامرة غاليًا؛ فاليوم أنت الملك، لكن غدًا يمكن أن تكون شيئًا آخرًا". غضب ابن أمية غضبًا شديدًا ونادى على حُراسه كى يقبضوا على بنالغواثيل. وقد حضر الحُراس وأرادوا القبض عليه، ولكن بنالغواثيل هبَّ واقفًا، وكإنسان فقد الأمل ولن يستطيع أن يفقد أكثر من ذلك، قبض بيده على سيفه القصير وقرر أن يضرب به الملك الصغير كى يصيبه أو يقتله، وكان على وشك تنفيذ ذلك لولا وجود الحراس الذين حالوا بينه وبين الملك، ولكن بنالغواثيل بكل قوته استطاع أن يطعنهم وفرَّ هاربًا إلى الطريق، ولأن الوقت كان مساء؛ فقد استطاع أن يعثر على مكان يختبئ فيه حتى غادر المدينة وتوجه إلى أنداراكس حيث كان لديه هناك أصدقاء كثيرون تمردوا على ابن أمية، وكان عددهم يصل إلى أربعمائة رجل مسلحين جيدًا. وأخيرًا، وقعت المسلمة الجميلة بين يدى الملك الصغير، ولم تتوقف عن البكاء لاستيلائه عليها بالقوة. وقد أهداها الملك الصغير الكثير من الهدايا، ووعدها بأكثر. ولكن المسلمة الجميلة كانت على وشك الموت لأنها كانت تفضل حبها لبنالغواثيل على كل ما أهداه إليها الملك. وكان الملك يشعر بميل عظيم نحوها لدرجة شغلته عن الحرب وأمورها، وكم تمنى لو استطاع الاستيلاء على ميناء بحرى كى يستطيع ملك فاس، كما وعده، أن يُرسل له جنودًا ليساعده فى الاستيلاء على بيرا،

ولعدم استطاعته الاستيلاء عليها بسبب الحادث الذى تكلمنا عنه، كان يأمل دائمًا فى وضع يده على ميناء، حيث بأقل جهد من رجاله يستطيع الاستيلاء عليه؛ ولهذا فكر فى الهجوم على موتريل حيث خيل إليه أنه بأقل جهد يمكنه الاستيلاء عليها للغرض الذى ذكرناه سابقًا. وهكذا قرر إرسال الأتراك إلى بال دى ليكلين (Valdeleclín)، فى محاولة لإخفاء ما يفكر فيه حتى لا يشك فيه خوان دى أوستريا ويشعر بنيته فيرسل بالمدد إلى موتريل ويزيد من حجم حاميتها. ولهذا تحدث فى هذا الأمر من ابن عم له يُدعى ابن عبو، وكان جنديا شجاعًا، وقال له إنه أمر يدعم حكمه خروج كل الجيش ومعه الأتراك إلى بال دى ليكلين وأن يكون هو قائد هذه المهمة، وقال له: "ولو أن الأمور سارت كما أريد فسوف تصلك منى أوامر أخرى، وعندها لا بد أن تجمع كل هؤلاء الجنود وترحل بهم إلى حيث آمرك". وقد أعدَّ ابن عبو العُدة للخروج مدة ستة أيام ثم رحل ومعه كل القوات التركية إلى كاديار (Cadiar) وهم مستعدون تمامًا للقتال. وقد علم بنالغواثيل برحيل القوات التركية ووصلته أنباء عن سيدته، وكيف أن الملك الصغير قد بعث برسالة تحمل أوامره، وكرجل معتاد على المخاطر سعى إلى محاولة لقتل الملك الصغير، ولكى ينفذ محاولته لم يجد فرصة أفضل سوى الاتفاق مع الأتراك على قتله، وذلك عن طريق إحداث وقيعة بينهم وبين الملك الصغير، وعندما انتهى من وضع أسس خيانته أخذ معه مائة رجل من حاملى البنادق، لم يكونوا على علاقة طيبة بالملك الصغير، وذهب إلى كاديار، وفى الطريق تقابل مع البريد الذى يحمل رسالة الملك فقتله وأخذ الرسالة، وعندما فتحها وجد الأمر الذى أرسل إلى ابن عبو وإلى الأتراك، وكانت الرسالة تقول الآتى:

" ابن عمى العزيز: عندما يصلك خطابى مع هذا الرسول لا بد أن ترحل إلى بيتوس دى فيريرا (Pitos de Ferreyra) واعط أمرًا بالوصول قبل الفجر؛ فهذا أمر لا بد من تنفيذه. وعندما تصل إلى هناك سيصلك منى أمر آخر، لا بد أن تنتظره إلى حين أرسله لك".

عندما علم بنالغواثيل هذا، قرر على الفور تنفيذ خطته ضد الملك الطاغية، تدفعه إلى ذلك غيرته القاتلة التى كان يشعر بها. والذى حدث هو أن الملك الصغير لم يكن يجيد التوقيع باسمه باللغة العربية، وكان هناك كاتب خاص به، يثق فيه ثقة كبيرة كان يوقع بدلاً منه باللغة العربية، وكان هذا السكرتير يُدعى موخاخار (Moxaxar)، وكان هذا الكاتب قد توترت العلاقة بينه وبين الملك الصغير لسبب ما فى ذلك الوقت. وكان هذا الكاتب قريبًا لبنالغواثيل، وقد تعاون معه آنذاك فى تنفيذ مخططه ضد الملك الصغير. وعندما قتل حامل البريد، قاما بفتح

الرسائل، كما قلت لكم، وعندما فهما جيداً فحواها قاما بتمزيقها وكتب موخاخار رسالة أخرى أملاها له بنالغواثيل، وكتب فيها:

"ابن عمى العزيز، القائد الشجاع للقوات التركية: من الأفضل لتدعيم حكمى ومُلكى أن تقوم بقتل كل الجنود الأتراك، لأنهم أصبحوا خطيرين على حياتى وحاولوا قتلى والاستيلاء على المملكة. ولكى يتم ذلك على النحو الأكمل؛ عندما يصلك رسولى، حتى لو كان ليلا، تحرك بمنتهى السرعة واذهب إلى ميثينا (Mecina) من أقرب طريق إليها، وعندما تصل إليها وبعد أن يدخل الأتراك ثكناتهم، اصدر أوامرك لجنودك بأن يقوموا فى منتصف الليل بقتل الأتراك. ولهذا الغرض أرسل إليك بنالغواثيل ومعه مائة رجل من حاملى البنادق كى يقوموا بمساعدتك إذا اقتضى الأمر. وبعد قتل الأتراك كلهم، قم بالتخلص من بنالغواثيل بقتله شر قتلة لأنه يستحق ذلك وسوف تعرف السبب فيما بعد".

بعد أن كتب بنالغواثيل هذه الرسالة المزوَّرة قام موخاخار بتوقيعها، وغلقها بالطريقة التى اعتادها عند سيده، ثم رحلا إلى حيث يوجد ابن عبو مع القوات التركية، وكان قد وصله خطاب بالتوجه والنزول فى ميثينا حتى وصول إخطار آخر. وكان ابن عبو قد انتهى من قراءة هذا الخطاب عندما وصل إليه بنالغواثيل ومعه مائة جندى، وعندما وصل قام بتسليمه هذا الخطاب المزيَّف، وقد تناوله ابن عبو وقام بفضه وقراءته، وقد اندهش كثيراً لهذا الأمر القاسى الذى بعثه إياه الملك، ولم يدر ماذا يفعل أو ماذا يقول؛ فأخذ يتنهد دون أن يعلم إلى أى وجهة سيُلقى بنفسه، وإذا كان سينفذ هذا الأمر المتوحش لابن عمه أم لا؛ فقد كان يعلم جيداً الشر الذى ينطوى عليه قتل الأتراك الذين أخلصوا فى خدمته والذين عبروا البحر لتقديم المساعدة له فى هذه الحرب، والآن يأمر بقتلهم فى ذلك الوقت الذى لم تنته فيه الحرب بعد، والأتراك يُعدون جزءاً هاما لدعمه خلال هذه الحرب، كان ذلك كله يبدو له أمراً غير صائب وقسوة مبالغ فيها. أما بنالغواثيل، الذى رأى القائد ابن عبو يشعر بكل هذه الحيرة؛ فقد توجه إليه وعلى وجهه علامات الجد، بعد أن عرف أن الوقت قد حان لتدبير أمر خيانته جيداً، وقال له:

"حديث بنالغواثيل إلى ابن عبو"

" أيها القائد الشجاع، إنك تنحدر من دم ملكى شريف، ولست أقل قيمة أو شجاعة من أجدادك الأكرمين ولا أقل كرماً وملكية منهم: هناك أمر أريد أن أحدثك فيه: فقد أرسلنى إليك

الملك ومعى مائة جندى من حاملى البنادق كى نكون إلى جانبك، وأنت تقوم بمهمة بغيضة، حقا إن الإنسان لا بد أن يكون مخلصًا لسيده وأن ينفذ أوامره، ولكن إذا كان الأمر يتعلق بخيانة فاعتقد أنك لست مضطراً للقيام به من أجل سيدك. ولنرى يا ابن عبو الشجاع، أى منطق وأى عقل واع يقول إن العمل الطيب يُجازى بهذه الوحشية التى يأمر بها الملك، ابن عمك، ويريد أن ينفذها فى جنود قاموا بخدمته بكل إخلاص وهو فى ذلك المقام الرفيع؟ ماذا فعل له الجنود الأتراك، يجعله غاضبًا هكذا منهم ؟ لقد غامروا بأرواحهم وعبروا البحر كى يقدموا له المدد. هل شعر بالخطر لأن الملك أولوج على، ملك الجزائر، نزولاً على توسلاته، قد بعث له بكل هذا العَون وكل هذا السلاح الذى جعله يصل بقامته إلى طرف القمر؟ هل قادته الصدفة للإمساك بهم فى موقف خيانة ؟ هل تخاذلوا ولم يقوموا بواجبهم فى أية حرب؟ منْ الذين حاربوا بمهارة فى كل المواقف؟ هل كان هناك منْ سبقهم فى الخروج إلى المعارك؟ هل كان هناك منْ كان يظهر شجاعة عظيمة مثلهم فى لقاء العدو؟. لا أحد، بالتأكيد، إذن؛ فلماذا هذه القسوة والوحشية فى الحكم على الجنود الأتراك بالموت؟ إننى لا أعرف ماذا سيقول لى، ولا أعرف بماذا يشعر، ولكن أعلم أن ابن عمك، غير الجدير بهذا اللقب، يريد بيع دمائنا، وإذا كان لا يأسف على هذا فليس لديه مشاعر. إذن، أنت يا ابن عبو، يا منْ تحكم وتقود هذه القوات التركية، ماذا تقول عن هذا؟ ماذا تنتظر من طاغية؟. إننى أرى أن القادة المهمين الذين كانوا فى جيشه قد انسحبوا منه وتخلوا عن طاعتهم إياه. ماذا عن خيرونثيو؟ وأين ساريه؟، وإلى أين ذهب أبو نفيلى؟ وماذا عن الديرى، الذى أمر الطاغية بذبحه؟ وأين ذهب الروكايمى وغيره الكثيرون من أبناء الشرفاء والجنود الذين كانوا فى صفوفه على الرغم من كل شىء ؟. لقد ذبح ثلاثمائة جندى. إنه لا يمل من الاستيلاء على النقود واغتصاب الأملاك، ولا تهرب منه أية سيدة يرى أنها سوف تدخل على نفسه السرور. كم اغتصب من الفتيات!، وكم نزع زوجات من أحضان أزواجهن! اثنتان وعشرون امرأة. أعرف ذلك، وقد استولى عليهن دون مراعاة الشريعة أو الصداقة. إذن، أى طاغية فعل مثله؟ لا أجد، يا ابن عبو، نمرًا فى وحشيته، ولا أفعى فى سمومه، ولا نارًا لها هذه القدرة على الاشتعال، ولا عاصفة قادرة على التدمير. إن هذا يدعو إلى الألم يا ابن عبو، عليك وعلى كل محارب فى قوتك. لاحظ وخذ موعظة مما يحدث مع غيرك، وتخيل لو أن زلزالاً آخر قد جاءك، وأن الحرب سوف تدور والأتراك قد قتلوا وقادتهم قد تمردوا على الطاعة. ماذا سيكون موقفنا ؟ منْ سيدافع عنا؟ منْ سيقود الفرق؟ منْ سيعطى النصيحة فى أمور الحرب؟ ماذا سنقول لأولوج على، ملك الجزائر؟ بماذا سيشعر هذا السيد العظيم؟ ماذا سيقول أهالى غرناطة؟ آه يا ابن عبو يا سليل الملوك، يا صاحب الدماء الملكية!

فلتكن أنت الملك، اخلع هذا الطاغية الذى سيطرحك أرضًا غدا دون اعتبار لخدماتك المخلصة، خذ القادة الغائبين، وحاول إرضاء جنودك، واظهر شخصيتك الملكية وقلبك الطيب، تابع الحرب، وأنت تقيم السلام والحب مع جنودك مع احترام القوات التركية، وإننى أثق فى أن الملاك الحارس سيكون إلى جانبك، وسوف يحقق الفريق الغرناطي آماله، وسوف تصل إلى المجد بالانتصار والبطولات، كعادة أجدادك لأن الانتصارات تذهب دائمًا إلى القادة المجتهدين والملوك الشجعان".

بكل انتباه كان ابن عبو يصغى إلى هذا الحديث الذى ألقاه بنالغواثيل، ثم بقى فى تفكيره وشيئان هامان: الخوف من الطاغية، والشىء الآخر لقب الملك، وأن يكون ملكًا، وهو شىء يحميه من الأمر الأول. وهكذا مثل كل الرجال الطبيعيين، كان يرى الترقى أمرا طيبا، وهكذا قبل قلبه المملكة. كما شعر بالدهشة من أمر خيانة ابن أمية للأتراك الذين لم يؤذونه، وفى الوقت نفسه وجد أن ما يقوله بنالغواثيل حقيقى، فبسبب طغيان ابن عمه تخلى عنه كثير من القادة وانسحب كثير من الجنود، بشكل يمكن أن يعرض الجيش للضياع، وهكذا رأى أن يسير فى طريقين: الأول هو الصالح العام لكل المملكة، والآخر يحقق له الشرف والقيمة، ألا وهو الرغبة فى الحكم، وهكذا قال لبنالغواثيل: "حقا، لقد تحدثت كرجل شجاع له نظرته فى الأمور وعلى الرغم من أننى لا أرغب فى أن أصبح ملكًا وليس لدىَّ رغبة فى ذلك؛ فإنه من الصواب أن ينظر إلى الأمر من حيث الصالح العام للجميع ومن حيث الشر الذى يكمن فى تولى مثل هذا الطاغية الحكم، والذى يمكن أن نعانى منه جميعًا؛ ولهذا من الخير أن نتجنب مثل هذا الخطر بإزاحة الطاغية عن الحُكم؛ فليس لدينا نقص ويمكن أن يأتى ملك ويحكم بكل حكمة وصواب، فأنت مثلاً رجل عاقل سليم التفكير وحكيم، تناقش فى الأمر مع القائدين التركيين، وسنرى حكمكم حول هذا الأمر، فإذا اتفقتم على شىء فكل شىء سيكون على ما يُرام وسوف تستمر الحرب من أجل محمد". بعدما قال هذا أمر بإسكان المائة جندى الذين حضروا مع بنالغواثيل مع بقية الجنود الأتراك ثم أخذ بنالغواثيل من يده وسار به إلى غرفته، وعندما وصل إلى هناك أرسل فى استدعاء القائدين التركيين، اللذين توجها إلى غرفة القائد ابن عبو، الذى قال لهما إنه يريد الحديث معهما حول موضوع مهم وفى غاية السرية، وبعدما دخلوا جميعًا الغرفة أغلق بابها وجلس كل منهم على مقعد، وتحدث إليهم القائد ابن عبو قائلاً:

"حديث ابن عبو إلى القائدين التركيين"

" أيها التركيان الشجاعان ، يا من شاركتما الجيوش العثمانية بكل مجهود وشجاعة فائقة، والآن تقدمان المساعدة والمدد للجيوش الغرناطية على أراضى إسبانيا، إنكما تستحقان كل الشكر للعون والمعروف اللذين قدمتماهما، واللذان قويا من شوكتنا أمام العدو المسيحى. لابد أن تعلما أننى وكل الجيش المسلم نكنُّ لكما كل المودة والحب، وأنتما جديران بهما، لأن أعمال الجيش تستحق كل هذا التقدير. هناك واحد فقط تجاهل أعمالكم، وتغاضى عن كل ما تستحقونه من شكر لأعمالكم ومجهودكم. لقد أعماه غباؤه وبدلاً من أن يجزل لكم العطاء، وهو ما تستحقونه على معروفكم ومجهودكم الذى بذلتموه، أمرنى كطاغية بأن أنفذ خطته الشريرة وحكمه الجائر ضدكم بدلاً من شكركم فأقتلكم. ولكننى، كرجل ذى دم ملكى ومن أصل كريم، لم أستوعب كل هذا الشر الذى سيبيح دماءكم ويلحق الأذى بكم؛ فقد كنتم دائمًا سندًا لنا، فإذا كنا الآن فى موقف أفضل فأنتم السبب فى ذلك؛ فلولاكم لما وصلنا إلى ما نحن فيه الآن، وكى أوضح الأمر أكثر أريدكم أن تعرفوا أن ابن أمية دون أى سبب أمر بشىء رهيب، وبإذن الله لن يحدث هذا أبدًا لأننى أعتقد أن هذا الطاغية لن يحكم أبدًا إمبراطورية غرناطة ولن يستمر فى الحرب. ومن أجل هذا، أيها الشجعان، أريدكم أن تقفوا بجانبى كى أستطيع أن أتصرف لصالحكم فأنتم أربعمائة جندى ولدى بنالغواثيل مائة مقاتل آخر؛ وهؤلاء يكفون للهجوم الأول لأنه بعد مقتل الطاغية سينضم إلينا كل الجيش وسيشعر الجميع بالسرور لموت ذلك الرجل الذى أساء التصرف كثيرًا، ثم جاءه العقاب العادل من حيث لا يتوقع. وسوف يعود القادة الذين عزلهم إلى خدمة الجيش الغرناطى بعد الإهانات الرهيبة التى طالتهم من جراء أفعاله. ولكى تعرفوا حقيقة ما أقول، وتأكدوا أن الأمر ليس من قبيل الخيانة أو الرغبة فى الحكم، خذوا هذه الرسالة واقرءوها، وستكون خير شاهد على ما قلته لكم".

وقد أخرج ابن عبو الرسالة بعد أن انتهى من حديثه وأعطاها للقائد كاراكاتشا وزميله حسين (Huzén)، والذى كنا ندعوه باسم آخر هو مامى (Mamí)، وقد قرأ القائدان الخطاب المليء بالشر. آه، يا لها من خيانة محكمة ضد الخائن لله ولمليكه!، آه، أيها الشرير فيرناندو[٢]، لقدجاءت السماء لتحاسبك على شرورك!

---

(٢) هو فيرناندو دى بالور أو ابن أمية . (المراجع).

قرأ القائدان التركيان الرسالة وتعجبوا من خيانة الملك، وعلى الفور اتفقا على الأخذ بالثأر لهذا الشر الذى لم يكونوا يعلمون عنه شيئًا، إلا أن إرادة الله قد شاءت أن يدفع الملك الصغير التعيس ثمن أخطائه، وهكذا قال كاراكاتشا لابن عبو: " أنت، يا ابن عبو، قد تصرفت بما يتلاءم مع دمائك الملكية، ولهذا سوف تكون أنت الملك على الرغم من كل المحيطين به، المدافعين عنه، ونحن نقسم لك على ذلك ونعاهدك على الإخلاص لجيشك الملكى حتى الموت أو الانتهاء من الحرب التى نحن بصددها. وإذا كان هناك حاجة لأى دعم، فسأكتب للملك أولوج على كى يبعث لكم بمدد ليس أقل من ألف جندى تركى، وإننى على يقين من استجابته لى إذا طلبت منه ذلك. وعلى أى حال، نستطيع الرحيل هذه الليلة إلى أنداراكس حيث تستولى أنت على التاج وننتقم نحن للإهانة العظيمة، وليتم تنفيذ هذا فى سرية تامة". بعد الانتهاء من هذا الاتفاق ضد الملك الصغير التعيس، خرج القادة من الغرفة وهم يخفون مشاعرهم حتى لا يعلم أحد باتفاقهم حتى وقت تنفيذه. لقد انتظروا قدوم الليل، وأصدروا أمرًا للجميع بالاستعداد للرحيل عند صدور الأمر؛ وسوف نتركهم هنا وهم يستعدون للسير كى نتحدث عن أمور أخرى لها أهميتها فى قصتنا، وهكذا فلنعد إلى بيليث، بعد أن نقول هذه القصيدة التى تتناول الأحداث السابقة:

"قصيدة تتحدث عن استيلاء ابن أمية على السيدة زهراء حبيبة بنالغواثيل، ومواجهة بنالغواثيل له بشكل كاد أن يكلفه حياته"

أقام ابن أمية

فى أنداراكس

وشعر بسعادة بالغة

وفى يوم تحدث مع بنالغواثيل

حول النساء الجميلات

الموجودات هناك فى الجبال

وتحدث هو عن السيدات

اللائى تعرف عليهن هناك

وحكى له بنالغواثيل

عن صديقة له

"لقد حدثتنى يا سيدى

عن النساء اللائى عرفتهنَّ

وسوف أحدثك عن صديقتى

التى لا يوجد امرأة فى جمالها

فى كل أندلوثيا

فهى بيضاء

ذات بشرة مشربة بالحُمرة

وكأنها وردة رقيقة

تجيدُ العزف والرقص والغناء

تسحر بجمال صوتها منْ يستمع إليها

إنها شابة جميلة خفيفة الدم

لا يمكن أن ترى مثلها فى العالم"

عندما سمع ابن أمية ذلك

شعر بالحب نحوها

" من فضلك يا بنالغواثيل

إنني أرغب في رؤية هذه السيدة

أريد أن أراها وهي ترقص

وأريد أن استمع لغنائها وعزفها"

وعده بنالغواثيل بذلك

وجاء بالسيدة الجميلة

إلى حيث يسكن مولاى

وأنشدت الجميلة المسلمة

ورقصت كعادتها

وشعر ابن أمية بحبها

فطلب من بنالغواثيل

أن يعطيها له

ورفض بنالغواثيل هذا

لأنه يريد أن يتزوجها

فهو يحبها حبه للحياة

وغضب ابن أمية غضباً شديداً

وقال لبنالغواثيل

إنه سيُلقى القبض عليه

لو اعترض على أوامره

واستدعى الحُراس

هرب بنالغواثيل

دفاعًا عن نفسه

وصعد إلى الجبال

حيث تقابل مع كثير من الرجال

كان ابن أمية يتعقبهم

ودبر من فرط غيرته ويأسه

خيانة كبيرة

فقد زيف خطابًا

وذهب به إلى ابن عبو

بعد أن قلد فيه توقيع الملك

وبدا أنه خطابه

وأمر في هذا الخطاب

بذبح كل الأتراك

بكل سرعة دون انتظار

لأن هذا أمر يراه صالحًا

وأخذ ابن عبو الأمر

وعلم بالغدر الذى به

وأخبر الأتراك

واتفق معهم

على قتل الملك الصغير الغادر

الذى يريد أن يقتلهم

واتفق الأتراك

على الرحيل إلى أنداراكس

والانتقام منه

على إهانته لهم

وهنا نتركهم

وهم يستعدون للرحيل

كى نحكى جزءًا آخر

من حكايتنا

" خاتمة"

الفصل السابع عشر

الذى يتحدث عن ثورة غاليرا (Galera) وكيف توجَّه ماركيز بيليث إليها وحاصرها، وموت الملك الصغير على يد الأتراك.

تحدثنا في الفصل السابق عن انتزاع الملك الصغير لحبيبة بنالغواثيل، الجميلة زهراء، التي أخذت تبكي حظها والاستيلاء عليها عنوة، وقد هرب بنالغواثيل ودبر خيانة رهيبة ضد الملك الصغير، كما سبق وقلنا. ولننقل الآن القصة التي تعرفها كل المدن والقرى الموريسكية في غرناطة وغيرها؛ فقد كان الملك الصغير يتمتع بقوة عظيمة وسلاح، وكان ينتظر دعمًا سيأتيه من بلاد البربر، وعلى ضوء هذه الشهرة العظيمة قام مسلمو غاليرا بالتمرد وطلبوا من الملك الصغير أن يدعمهم بمدد، وللعلم فإن غاليرا كانت قرية حصينة لا تُغلب، موجودة في عُمق الأراضي المسيحية، وإلى جانبها توجد أويسكار (Huéscar)، وهي مدينة قوية، تستطيع أن تقدم عددًا كبيرًا من المحاربين المسلمين الشجعان من أبناء أندلوثيا، كذلك كان هناك قرية أخرى تسمى أورثي (Orze)، أعلنت الثورة وانضمت إلى القوات المسلمة. دبرت غاليرا هذا التمرد واتصلت بكل من أويسكار وأورثي، اللتين أبدتا موافقتهما. وعندما علم أهالي غاليرا المسلمون أن أهالي أويسكار وأورثي مستعدون للمعركة، أرسلوا على الفور إلى القائد المالح في بورتشينا وأخبروه بما يزعمون فعله؛ فربما يبعث إليهم بمدد من الجنود بطريقة سرية كي يقفوا إلى جانبهم. وقد أرسل إليهم المالح مائتي جندي مسلحين جيدًا، بينهم بعض الجنود الأتراك، ونصحهم بالهجوم ووعدهم بالمدد بعدد أكبر من الجنود، وقد أرسل إلى أويسكار وأورثي بنفس الشيء. وعندما وصل هذا المدد إلى أهالي غاليرا لم ينتظروا وكانوا قبل هذا قد رفعوا الرايات المسلمة على القلعة والأسوار، وأقاموا الصلاة والاحتفالات الموريسكية علنًا. أما أهالي أويسكار فلأنهم كانوا يقيمون مع المسيحيين القدامى، فلم يجرءوا على إعلان تمردهم مع أهالي غاليرا، حتى قدم إليهم المالح، وحدد لهم اليوم والساعة لإعلانهم الثورة. وقد حدث الشيء نفسه مع أهالي أورثي الذين انتظروا دورهم. ولما كان مسيحيو أويسكار شجعانًا وكثيري العدد فقد حملوا السلاح ضد الموريسكيين من أهالي المدينة وحبسوا كل منْ يستطيع

حمل السلاح من الموريسكيين فى منزل كبير يُسمى " الثلث "، كان يتم فيه تجميع العشور لصالح دوق ألبا، وحيث كان يحتفظ بالثمار والقمح والشعير والنبيذ وغيرها من الأشياء، ولأنه كان منزلاً ضخماً وحوله ساحة واسعة تم احتجاز الموريسكيين هناك. وقد سجن عدد آخر من الموريسكيين غير الموثوق بهم فى زنازين وسراديب. وبعد قيامهم بهذا توجه أهالى أويسكار إلى قرى ومدن غرناطة بكل سرعة كى ينهبوها ويحرقوها ويذبحوا سكانها المتمردين؛ ولكن الأمور لم تسر على النحو الذى اعتقدوه. وعندما وصلوا إلى غاليرا اعتقدوا أنهم يستطيعون دخولها بكل سهولة، وهكذا هتفوا: "عليك بهم يا سانتياغو"، ولكن لم يكادوا ينتهوا من قولهم هذا إلا وبادرهم الأهالى من الداخل بإطلاق مكثف من نيران بنادقهم فلقى عدد كبير من المسيحيين مصرعهم على الفور. وفى النهاية، حاول المسيحيون دخول المدينة ودافع المسلمون عنها وقاوموا دخولهم، ودارت بين الفريقين معركة دامية، هزم فيها المسيحيون لأن غاليرا كانت بلدة قوية ودافع عنها أهلها بشجاعة فقد استمرت المعركة منذ الصباح وحتى منتصف الظهيرة. وعندما وجد المسيحيون مقدار خسارتهم ودمار قواتهم، اتفقوا على الانسحاب والرجوع إلى أويسكار، حاملين معهم قتلاهم وجرحاهم. وهكذا عادوا إلى أويسكار، يملأ قلوبهم الغضب والرغبة فى الانتقام لما حدث لهم فى غاليرا، فقاموا بالهجوم على " الثلث " حيث كان الأهالى الموريسكيون محبوسين، وصاحوا بغضب شديد: "الموت، الموت لأعداء الدين الكاثوليكى"، ثم قاموا بعمل فتحات فى الأبواب وأطلقوا من خلالها النار فقتلوا عدداً كبيراً من الموريسكيين المسجونين. وتعالت صيحات المسيحيين وكأن المدينة على وشك الانهيار وتصاعدت أدخنة البارود التى كانت كثيفة لدرجة يصعب من خلالها رؤية كل منهم للآخر. وعندما رأى المسلمون المسجونون أن الموت يحيط بهم، وليس أمامهم فرصة للانتقام، أخذوا يسدون الفتحات بالعصى والحجارة وغيرها من الأشياء، بحيث لم يتركوا مساحة يمد من خلالها المسيحيون فوهات بنادقهم ومدافعهم. وقد قام بعض المسلمين بمساعدة بعضهم الآخر بوضع الأحجار والصعود عليها إلى الأسقف، حيث استطاعوا من أعلى أن يلحقوا الأذى بالمسيحيين، عن طريق قذفهم بالحجارة الصغيرة وأعشاب السقف، وهكذا عمَّت الفوضى المكان واشتعلت المدينة، ولولا محاولة تهدئة الموقف لتعرضت المدينة لخطر داهم. ولكن أراد الله بعطفه وكرمه أن يخمد نيران هذه الثورة العارمة ويوقفها. وكان منزل دوق ألبا مليئًا بالزيت والحطب والخشب والقمح والشعير وأشياء أخرى كثيرة؛ مما يبعث الخوف فى قلب أى شخص. وعندما جاء حاكم البلدة ومعه عدد كبير من الفرسان والجنود المسلحين، فعل المستحيل كى يجعل المسيحيين الثائرين يتراجعون وينسحبون من"الثلث"، ويوقفون هذه المهزلة

الدموية، وكان يعلم انه بمحاولته هذه سيرضى دوق ألبا. وهكذا توقف النزاع، وقد أراد الرب أن تتغطى السماء بسحابة قاتمة. فتراجع المسيحيون، وبقى المسلمون فى المنزل بين قتيل وجريح، بينما استطاع بعضهم أن يهرب من خلال تسلق السقف، وذهبوا إلى الحاكم يطلبون منه العَون. وقد اضطر كثير من الموريسكيين، فيما بعد، إلى مغادرة أويسكار وذهبوا إلى غاليرا، حيث استقبلهم الأهالى بكل حفاوة حيث وصلهم نبأ ما حدث فى أويسكار من خلال الرجال الذين استطاعوا الهروب. وقد استعدت مدينة أويسكار لمواجهة أى خطر حيث حمل الجميع السلاح وقاموا بحراسة المدينة.

فى ذلك الحين، اضطر القائد المالح بعد أن أرسل إلى غاليرا بمائتى جندى، كما قلنا سابقًا، اضطر إلى الذهاب بنفسه تنفيذًا للوعد الذى قطعه على نفسه، بخاصة بعدما علم بما حدث فى أويسكار، وبعدما تسلم خطابات من مسلمى أويسكار يطالبوه فيها بالقدوم لنجدتهم، فخرج المالح من بورتشينا ومعه عشرة آلاف رجل من أشجع الجنود، وبعد أن اتخذ طريق كانتوريا عبر مجرى سيل عميق يُعرف ببوكس (Box)، سار من هناك ومعه جيشه الشجاع حتى وصل إلى أوريا، ثم عبر جبال تشيريبيل (Chiribel)، وهى تقع فى أراضى ماركيز بيليث، ثم وصل إلى أورثى، حيث كان الأهالى بانتظاره، وكان ذلك مساء أحد أيام الجمعة، وهناك ترك معهم مائتى رجل للحراسة والمدد، وواصل السير إلى غاليرا ومع سكون الليل استطاع أن يُدخل مائتى رجل آخرين، كلهم من حاملى البنادق وبعضهم من الأتراك. وعندما ترك هذا المدد هناك واصل سيره إلى كرمة عنب تابعة لأويسكار، حيث اختبأ الجميع دون أن يدرى بهم أحد. أشرقت شمس السبت، ولأن المدينة كانت كلها فى حالة استعداد للذهاب إلى غاليرا والهجوم عليها، فقد دقت الطبول للحرب وارتفع صوت الأبواق، فى ذلك الوقت وصل إلى المدينة خبر قيام أورثى بالثورة دخول رجال لنجدتها ورفع الرايات المسلمة على أبراجها. عند وصول هذا الخبر، أراد المسيحيون الثائرون الخروج على الفور للهجوم على أورثى، وعندما كانوا على وشك الرحيل، دقت أجراس الكنيسة الكبرى لتعلن قداس العذراء. وكان المالح وجنوده المختبئون ينتظرون حتى تفتح الأبواب فيدخلون أفواجًا منها كما كان متفقًا، وعندما سمعوا الأجراس ومعها الطبول والأبواق، اعتقدوا أن أهالى المدينة قد شعروا بوجودهم، فخرجوا من مخبأهم الآمن الذى كان لا يمكن أن يلحق بهم الأذى وهم داخله، وقاموا إلى خيولهم. وعندما خرج مسيحيو أويسكار من أبواب المدينة، فوجئوا بوجود المالح وجيشه، وكأن ما يحدث من قبيل المعجزة وأدركوا على الفور نية المالح ورغبته، فأخذوا ينادون "سلاح، سلاح، المسلمون،

المسلمون." كان يومًا صحوًا، وكانت الشمس تنير الأرض، فخرج مسيحيو أويسكار، فرسانًا ومشاة لملاقاة المسلمين بكل شجاعة. كان الجنود المسلمون يتميزون بالمهارة وحاربوا بشجاعة. ولم يتمكن الفرسان على خيولهم من الدخول بين أشجار العنب؛ فحارب المسلمون دون مشقة؛ وكان أكثر المحاربين ضراوة الأتراك والذين أوقعوا أكثر من غيرهم خسائر في صفوف المسيحيين. ولكن على الرغم من كل هذا، كانت شجاعة المسيحيين عظيمة وألحقوا بجيش المسلمين الخسائر، حتى إنهم استطاعوا قتل مائة ألف مسلم[٢]، وقد أحكموا عليهم القتال، حتى أرغموهم على التراجع إلى مدينة غاليرا، حيث تحصَّن المسلمون ودارت بينهم وبين المسيحيين معركة شرسة. في أثناء ذلك، كان المسيحيون الذين بقوا داخل المدينة لحراستها قد سمحوا بدخول بعض قوات المالح عبر ضواحي المدينة، اعتقدوا بوجود بعض المسلمين مختبئين في حيهم، فذهبوا إلى حي المسلمين وكلهم غضب، وقالوا: "هذا هو اليوم الذي لنْ يبقى فيه مسلم واحد حيا."، وبدءوا يهجمون عليهم تقتيلاً وتجريحًا، ثم توجهوا إلى سرقة المكان ونهبه وإضرام النار في كل مكان، وكان شيئًا مثيرًا للشفقة ما يفعله هؤلاء المسيحيون الغاضبون بحيث يصعب إيجاد حل لكل هذا. وبدت أويسكار وكأنها روما أخرى حيث النيران تشتعل في جنباتها. ودخل اثنان من الجنود منزل أحد المسلمين الأغنياء، كانا يريدان دائمًا سرقته، وكانا ينتظران اللحظة المناسبة للقيام بذلك، وبعد أن قاما بسلب ما فيه وجدا فتاة مسلمة في غاية الجمال، فمدَّ كل منهما يده قائلاً إن الفتاة من نصيبه، وأخذ كل منهما يدافع عن حقه في الفتاة حتى لجئا إلى السيوف، التي لا تزال تقطر بدماء المسلمين الذين لقوا مصرعهم على أيديهما، وكانا على وشك الاشتباك بالسيوف عندما قدم أحد الجنود القرويين، والذي عندما وجد الجنديان يقتتلان بسبب الفتاة المسلمة الصغيرة، اعتقد أنه ليس هناك حلٌ للنزاع بينهما سوى قتل الفتاة المتصارع عليها، وهكذا توجه إلى الفتاة الجميلة وبكل قسوة ووحشية طعنها طعنتين في قلبها الذي كان يبدو مصنوعًا من الزجاج، فسقطت الفتاة الجميلة قتيلة، بشكل يحرك قلب الحجر، بيد قروي فظ. وبعد أن خان هذا المتوحش أكبر جمال في العالم، قال هذا القروي: " ليس هذا وقتٌ يتحارب فيه جنديان شريفان ويصلان إلى حد الموت من أجل امرأة لا تساوي شيئًا"، وعندما رأى الجنديان الفتاة قتيلة دون ذنب اقترفته، وبكل وحشية، تحركا صوب القاتل، وقتلاه وهما يقولان: " قروي جاهل، لا تعرف قيمة العطية

---

(١) يبدو هذا الرقم مبالغًا فيه إلى حد كبير، وربما كان من الأخطاء المطبعية . (المراجع).

الكبرى التى أهدتها السماء للأرض، إن هذا الجمال الذى قضيت عليه دون اعتبار، لن نتركك دون عقاب على جريمتك ضده"، وبعدما قالا هذا خرجا من المنزل، تاركين القروى قتيلاً، وكان هذا القتيل من أبناء بويبلا دى دون فادريكى (Puebla de Don Fadrique)، وإلى جانبه الفتاة الجميلة، التى على الرغم من موتها كانت تبدو كملاك طاهر، مغطاة بالديباج الرقيق. فى ذلك الوقت كان الحاكم قد وصل ومعه أناس كثيرون كى يخرجوا المسيحيين من حى المسلمين: وقد ألقوا القبض على بعضهم، وحكموا بالإعدام على بعضهم الآخر فى حالة رفضهم الخروج من هذا الحى، وهكذا استطاع السيطرة على الموقف على الرغم من تأخره فى ذلك، لأن الحى كله كانت تضطرم فيه النيران، ولكن سرعان ما خمدت النيران مخلفة خسائر عظيمة. وبعد أن انتهت هذه الحرب الأهلية عثر على الفتاة المسلمة الجميلة وتم إخراجها إلى الميدان حيث تألم الجميع لمقتلها بخاصة بعد أن تعرفوا عليها، وقد ألقى الجميع اللعنات على اليد القروية القاتلة. بعد ذلك عُرف سبب قتلها الأليم والانتقام الذى تلقته. وقد تأثر الحاكم تعاطفًا مع جمال الفتاة، وأمر بأن يتم دفنها بكل احترام وأن يوضع فوق لحدها لوحة بيضاء مكتوب عليها بحروف سوداء هذه القصيدة:

شاء حظى التعس

والقدر القاسى

أن ألقى حتفى

بسبب جمالى الرائع

شاءت إرادة قروى

أن أموت مبكرًا

كى ينمى نزاعًا

وقدم روحى قربانًا

لهذا الموقف اللاإنسانى

وضعت هذه الكلمات على لوحة من الرخام الأبيض على قبر الفتاة؛ لم يكن هناك فى أويسكار رجل أو امرأة لم يبك تأثرًا للموت المأساوى لهذه الفتاة الجميلة، التى كانت من أجمل فتيات البلدة. وفى النهاية تمت معالجة هذه الاضطرابات وهذه المهزلة، وإن كانت قد خلفت خسائر عظيمة فى الحى المسلم. أما أهالى أويسكار الذين كانوا فى غاليرا يحاربون؛ فقد وصلتهم أنباء ما حدث فى مدينتهم، وعندما عرفوا أن الأهالى المسلمين قد أعلنوا تمردهم، على الفور، قاموا على الفور بإزالة الحصار حول غاليرا، كى يضعوا نهاية لهذه المعركة وذهبوا إلى أويسكار، ولكنهم وجدوا أن المعركة قد أخمدت. وقام جنود المالح المسلمون ومعهم جنود غاليرا بتحصين البلدة بكل شجاعة فوضعوا المتاريس والحيوانات فى كل الطرق بحيث لو دخل المسيحيون المدينة ما استطاعوا أن يتوغلوا فيها إلا وقتلوا. وفكر المالح كرجل حكيم بأن هذه المدينة موجودة داخل الأراضى المسيحية ولن ينتهى الأمر سوى بحصارها أو قمعها وسوف يكلف هذا غاليًا، لذا ترك فى هذه البلدة أربعمائة جندى من الجنود الشجعان كى يدافعوا عن الأرض ثم مكث مع بقية الرجال ليلة، رحل بعدها إلى بورتشينا من حيث جاء، آخذًا معه جنودًا أقل ممنْ قدموا معه إلى أويسكار، حيث خلف وراءه خمسمائة مسلم لقوا حتفهم على أيدى المسيحيين.

فى ذلك الوقت كان ماركيز بيليث فى فينيانا ومعه جيشه، وعندما علم بثورة غاليرا وأحداث أويسكار، رحل ومعه جيشه إلى باثا (Baça)، حيث التقى والسيد أنطونيو دى لونا، الذى رحل إلى غرناطة بعد وصول الماركيز حيث أخبر السيد خوان بما حدث فى غاليرا. وقد أصدر السيد خوان أمرًا إلى دوق سيسا بالذهاب إلى البشرات ومعه ستّة آلاف جندى، وقد رحل دوق سيسا عبر الجبال رغبة فى وضع نهاية لهذه الحرب. وعندما علم ماركيز بيليث بأن السيد أنطونيو دى لونا قد رحل إلى غرناطة، وأن هناك فى باثا أعدادا كبيرة تكفى للدفاع عنها، رحل بجيشه إلى غرناطة، حيث قام بحصارها جيدًا، وحيث بدأت بعض الاشتباكات بين المسلمين والمسيحيين، استطاع المسلمون خلالها إيقاع خسائر فى صفوف المسيحيين. وعندما علم الماركيز بخسائر المسيحيين أمر بحفر خنادق يستطيع المسيحيون من خلالها إطلاق النار بأمان؛ ولكن عندما كان المسلمون يرون أحد الجنود خارج الخندق كانوا يقتلونه لأن جيش المسلمين كان به قناصة مهرة. وقد خسر الماركيز عددًا من جنوده فى كالا أورا وفى فينيانا، وكان لزامًا عليه أن يطلب رجالاً من لوركا ليعيد بناء جيشه، وهكذا رحل من لوركا أربعة من القادة، ثلاثة من المشاة وواحد على جواده. وهكذا من المشاة خرج مارتين دى لوريتا، حامل

لواء لوركا، وكان رجلاً شهمًا وجنديا شجاعًا، وخرج معه مائتا رجل. وكان القائد الآخر هو غوميث غارثيا دى غيبارا، وهو ليس أقل منه شهامة أو شجاعة، وكان يصطحب معه مائتى رجل آخرين. أما القائد الثالث فقد كان أدريان ليونيس، من ألبركة (Alberca)، وقد صاحبه مئتا جندى ليسوا أقل شجاعة من الآخرين. أما قائد الفرسان فكان ألونسو ديل كاستيو ألموثو (Alonso del Castillo el Moço)، وقد خرج معه ثمانون فارسًا، من أشجع الجنود. وقد رحل هؤلاء الرجال الستمائة ومعهم الفرسان الثمانون من لوركا بكل سرعة كى ينضموا إلى جيش الماركيز الذى استقبلهم بحفاوة. وفى أحد الأيام أراد الماركيز أن يشن هجومًا على غاليرا، وكان بعض الجنود من أويسكار فى الطليعة ولكن خلال الهجوم لقى كثير من المسيحيين حتفهم وأصيب كثيرون، وعندما علم الماركيز بهذا أمرهم بالتراجع والعودة إلى الجيش. وقام جنود لوركا بهجوم آخر وكانوا فى الطليعة، وأوقعوا خسائر كبيرة فى جيش المسلمين، ولكن لم تكن خسائرهم أقل، لذا كان من الملائم لهم أن يتراجعوا حتى الخنادق، وعندما وصلوا إلى هناك كان القائد لوريتا قد لقى حتفه بعدما أظهر شجاعة فائقة فى أثناء الهجوم. كذلك لقى حتفه هناك القائد أدريان ليونيس من طلقة نارية، مما أحزن الماركيز حزنًا شديدًا، وقد أمر بحمل جثامين القتلى إلى لوركا، حيث تم دفنهم وسط جو مشحون بالأحزان فى كل أنحاء لوركا لمقتل هؤلاء القادة النبلاء. وقد قتل فى أثناء هذا الهجوم عدد كبير من القادة وحملة الألوية وأفراد آخرين من الجيش مما أحزن الجيش كله كثيرا. وأدرك الماركيز أن غاليرا لن يمكن الاستيلاء عليها سوى بالمدفعية، فلم يوافق على القيام بهجوم آخر، بعد ذلك أخبر معاليه بما يحدث، وكيف أنه من الضرورى استخدام المدفعية لتدمير هذه القرية والاستيلاء عليها لأن بها خط دفاع قوى داخلها.

ستتحدث فيما بعد عما قام به السيد خوان بعد تلقيه هذا الخبر من الماركيز، أما الآن فستتحدث عما حدث فى أحد الأيام وكان الماركيز يتفقد حصار غاليرا والأماكن التى يمكنه وضع المدفعية فيها، وكان معه القائد فيرناندو دى ليون وهو يبحث استعدادات المكان، وهناك علم بخروج بعض المسلمين إلى وادى من الأودية المحيطة. وعندما رأى القائد فيرناندو دى ليون الهاربين طلب من الماركيز أن يعطيه إذنًا لملاحقة المسلمين ومحاربتهم. وقال له الماركيز ألا يذهب وراءهم، وأن يتركهم، وسيأتى الوقت الذى سيقابلهم فيه. وقد أعاد فيرناندو دى ليون الطلب مرة أخرى من الماركيز بإعطائه الإذن والسماح له بمواجهة المسلمين، فردَّ عليه الماركيز بأن يفعل ما يريده فقد شعر برغبته القوية لمحاربة هؤلاء المسلمين. فأخذ فيرناندو دى

ليون مائة مقاتل كانوا معه ومع الماركيز، وقد هبط مجرى سيل كان يؤدى إلى المكان الذى يوجد فيه المسلمون، وهكذا وصل وعلى غير انتظار هاجمهم وهو يقول : "عليك بهم يا سانتياغو". وعندما رأى المسلمون الجنود المسيحيين قادمين دون أى شعور بالخوف قاموا بالهجوم عليهم لأنهم كانوا على أتم استعداد بالسلاح وقد خرجوا بذكاء لهذا اللقاء. وبدأ الاشتباك الضارى، والذى أظهر فيه فيرناندو دى ليون شجاعة فائقة، ولكن لم تنفعه كثيرًا هذه الشجاعة، فقد تلقى رصاصة قضت على حياته فى الحال فخرَّ صريعًا أمام عينى الماركيز الذى كان يراقبه. وعندما وجد المسيحيون أنفسهم دون قائد بعد مصرع قائدهم، قاموا بالانسحاب، دون أن يتوقفوا عن القتال، حتى وصلوا إلى مجرى السيل، وعنده تركهم المسلمون، حيث لم يجرءوا على العبور والتقدم للأمام، وفضلوا الاختباء. وقد سقط فى أثناء تلك المعركة عدد كبير من القتلى من الجانبين. ومكث المسلمون الذين نجوا من المعركة فى غاليرا، وحملوا معهم الغنائم المسيحية ورأس القائد فيرناندو دى ليون، الذى أرادت مشيئة الرب أن يدفع هذا الثمن. فلا يجب أن يتكبر أحد لأن الكبرياء لا تساوى شيئًا عند الله. وقد علق المسلمون رأس القائد القتيل على قضيب ورفعوها أعلى برج غاليرا. وقال البعض إن هذا القائد قد قتل نتيجة تلقيه رمح أسفل نحره. وقال آخرون إنه قتل لتلقيه رصاصة. أيًّا كان السبب؛ فقد مات فى النهاية، ويعلم الله وحده السبب الحقيقى لموته. وقد حزن الماركيز لمقتل فيرناندو دى ليون، لذا رحل من هناك وعاد مع جنوده إلى الجيش حيث انتظر صدور الأوامر باقتحام غاليرا، الذى لن يتم سوى بوجود المدفعية وإلا أصبح اقتحامها مستحيلاً.

والآن نترك الماركيز وغاليرا ونعود إلى البشرات كى نتابع من جديد نهاية الخيانة التى أعدها بنالغواثيل وابن عبو. تقول الحكاية إنه عندما اتفق ابن عبو والأتراك على الذهاب إلى أندراكس وقتل الملك الصغير، رحلوا فى هدأة الليل ووصلوا قبل بزوغ الفجر بأربع ساعات، وعندما وصلوا توجهوا على الفور إلى محل سكن الملك، وعلى الرغم من وجود الحرس فإنهم استطاعوا الوصول إلى غرفة نومه الخاصة حيث كان ينام وبجانبه امرأتان، وضرب الأتراك الأرض بأقدامهم ضربات قوية ثم توجهوا إلى الفراش الخاص بالملك. كان فى الغرفة شمعة كبيرة تحترق، استطاع ابن أمية على ضوئها أن يتعرف على القائدين التركيين وعلى عدوه بنالغواثيل وعلى ابن عمه ابن عبو، وعندما رآهم توجه إليهم بوجه ملك وقال لهم: "ما هذه الجرأة، كيف تجرءون على اقتحام قصرى بهذا العُنف؟"، فأجابه القائد كاراكاتشا قائلاً: "سوف ترى أيها الخائن". وضربه بيده دون اعتبار لكونه ملكًا ثم دخل بعد ذلك بنالغواثيل وابن

عبو وبقية الجنود الأتراك. وشعر ابن أمية بهلاكه، فتجمدت الدماء فى عروقه ولم يقوى على الحديث، ولكن فى النهاية وبجهد جهيد سألهم عن أسباب هذه المعاملة السيئة. فقال له كاراكاتشا: "الآن سترى"، ثم أخرج الرسائل وقرأها، فعرف ابن أمية على الفور بالخيانة، وهكذا قال: " يعلم الله يا أصدقاء أنها خيانة محاكة ضدى، قام بتدبيرها بنالغواثيل لأننى استوليت بالقوة على ابنة عمه، الموجودة أمامكم، وهذا التوقيع قام به موخاخار، الذى كان دائمًا كاتبى الخاص، والآن حلت عليه لعنتى، وإذا نظرتم إلى الأمر بتمهل سوف تكتشفون أنه لا ذنب لى فى كل هذا ". لكن الأتراك كانوا قد امتلئوا بالغضب ضد الملك البائس، فلم يقبلوا منه هذا التبرير، وقالوا إنه لا بد أن يموت. وعندما رأى الملك التعيس الموت يحيط به ولا أحد يدافع عنه، نظر إلى بنالغواثيل وقال له: "سوف ينتقم الله منك أيها الخائن، وسوف تموت بنفس سبب موتى. وأنت يا ابن عبو، لماذا وافقته على هذا ؟ فأنت وأنا ننتمى لنفس العائلة والدم فما يصيبنى سوف يصيبك. هناك شيء واحد أريد أن تعلموه جميعًا، إننى سأموت مسيحيا[٢] وليس على ملة محمد، الذى لا أعرفه". وكى يجعله الأتراك يشعر بألم أكبر قاموا بتقبيل يد ابن عبو كملك أمام القرآن. وقال الملك الصغير أمام هذا المشهد:" إننى لا أحقد عليك بسبب الملك، لأنك فى النهاية ستلقى نفس المصير؛ فقد كنت سيئ الحظ عندما نزع السيد بدرو ماثا خنجره عن صدرى، كى ألاقى فى النهاية هذا المصير المؤلم والمخزى!". بعد ذلك وضع الأتراك حبلاً حول رقبته وقاموا بخنقه بكل وحشية.

ولننظر الآن للثمن الذى دفعه هذا الملك ونهايته التعيسة على أيدى منْ كانوا رعاياه، وكان هو مليكهم. قاموا بعد ذلك بنهب قصره حيث وجدوا فيه أشياء ثمينة وأربعين امرأة ملك يمينه. وعلم أفراد الجيش بعد ذلك بما حدث، وقد أسعد الكثير من الجنود موت الملك، الذى كان قاسيًا. وتم دفنه بعد ذلك بعيداً عن مهابة الملوك؛ بل كأكثر الرجال تعاسة فى العالم. وتم تقسيم الأشياء التى عُثر عليها فى منزل الملك الصغير بين ابن عبو والقائدين التركيين؛ فقد كان بنالغواثيل لا يريد شيئًا سوى حبيبته زهراء، التى أرادها بكل تصميم، ولكن الأمور لم تجر على هواه لأن قائد الأتراك عثمان (Huzmen)، عندما رأى زهراء الجميلة أصبح أسيراً لجمالها وأراد الاستيلاء عليها ولكن بنالغواثيل قال له إن الفتاة الجميلة المسلمة ابنة عمه، وإنه سوف يتزوجها؛ فقد اتفق معها على ذلك. ولكن عثمان قال له لا، وإنه يحبها ويريدها لنفسه

---

(٢) عندما يتعاطف بيريث دى إيتا مع أحد المسلمين يقول إنه مات مسيحيا. (المراجع).

وإنه سوف يأخذها معه إلى الجزائر عندما تنتهي الحرب. وقد أوشك الرجلان على اللجوء للسلاح لإنهاء مناقشتهما، ولكن الملك الجديد ابن عبو حال بينهما، وأخمد نار غضبهما، وأخذ الفتاة عنده كوديعة حتى يتزوجها فيما بعد منْ له حق أكثر فيها أو منْ تحبه الفتاة أكثر من الآخر.

ومع كل هذه الأحداث أشرقت شمس يوم جديد، وقام ابن عبو بدفن الرجل الذى كان ملكًا، وأمر بإقامة الحراسة المعتادة على شخصه. وقد تعجب المحاربون لهذا الدفن المزرى لمنْ كان ملكا عليهم؛ ولكن لأن عامة الناس دائمًا ما يكونون متقلبى الرأى؛ فقد مرَّ الأمر بسهولة، وربما كان هناك منْ حزن على موت ابن أمية ولكن أخفى مشاعره حتى لا يشعر به أحد. وهكذا أصبح ابن عبو ملكًا للغرناطيين وتم تتويجه فى احتفال ولكن حدث له ما حدث لابن أمية، كما سنقول فيما بعد. وبعد تتويج ابن عبو ملكًا، أمر فى أحد الأيام بأن يجتمع القادة المهمين فى الجيش من حملة لواءات وقادة وغيرهم من أصحاب المناصب، وكانوا جميعهم ممن يدينون بالولاء للجديد دائمًا، لذا فقد اجتمعوا ليعرفوا ماذا سيقول لهم ملكهم الجديد وماذا سيقولون له، وبعدما تجمعوا، أظهر ابن عبو قوة وصلابة فى وجهه وتحدث إليهم قائلاً:

"حديث ابن عبو لجنوده المحاربين"

" أيها القادة والجنود المحاربون الشجعان، تعرفون كيف أراد الله، بتوسل من محمد، أن ينال ابن عمى الطاغية ابن أمية العقاب الذى يستحقه، بحيث يتوقف بموته طغيانه وجبروته، وقد خلفته أنا على عرشه، على الرغم من أن ذلك كان دون إرادتى لأننى لم أكن أرغب فى حمل هذه المسئولية على كتفى ولكن لا بد أن تطيعونى الآن كملك لكم، ولا بد أن أضمكم جميعًا تحت حمايتى وكنفى وأن أعمل لصالح رايتكم، وأن أعاملكم بكل حب وسلام دون إهانات أو تجريح، وأن يكون بينى وبينكم صداقة ومودة، وإذا أراد الله سوف نحقق ما نريده وسوف أعود إلى عرش غرناطة الذى كان أجدادى يجلسون عليه، وأعدكم بأن أكافئ الجنود المخلصين فى جيشى على إخلاصهم بحيث ينالوا أرفع الجوائز ولكن يجب علينا الآن أن نخبر ملك الجزائر بما حدث، وهو صديقى، وإننى على يقين من أنه سوف يسعده أن أكون أنا ملك غرناطة لأنه يعلم أننى أستحق هذا. وبالنسبة لحروبنا مع المسيحيين؛ فاعلموا أننى سوف ألاحق الجيوش المسيحية للانتصار عليها وأعمل كل ما هو فى صالحكم، ولن يكون هذا بالشىء القليل بعون الله. سوف أقوم، أيها الأصدقاء المخلصون، بالكتابة إلى القادة الشجعان

كى أخبرهم بمقتل منْ كان يوجه لهم الإهانات دائمًا وبأنهم يستطيعون فى أى وقت المثول أمامى بكل أمان، وإننى أعلم أن عودتهم إلى جيشى ستكون بمثابة هدية لهم وسوف أضاعف مرتباتهم لما قدموه من خدمات جليلة للجيش".

هكذا أنهى ابن عبو حديثه، بعدما أسعد أبناء الجيش المجتمعين هذا الحديث الطيب، بخاصة وهم يعرفونه كرجل شجاع وفاضل خلال سنوات الحرب الطويلة، وهكذا سرت بين أفراد الجيش همهمات وصيحات؛ فكان البعض يقول: "إن اختيارك خير"؛ بينما يقول آخرون: "لتتمتع سنوات طويلة مزهرة فى الحكم ونهاية سعيدة "؛ وقال آخرون: "يعيش الملك ابن عبو، حامينا والمنتقم للإهانات التى لحقت بنا". علت هذه الأقوال وغيرها، وعلى الفور ألبسوه ثوبًا جميلاً ووضعوا فى يده اليسرى راية وفى يده اليمنى سهما مصنوعًا على الطريقة التركية ثم رفعه كل القادة والفرسان المهمين على أكتافهم، وبعد أن تُوج من جديد بترحيب من كل أفراد جيشه، قال الجميع: "يعيش ابن عبو، ملك غرناطة والأندلس!"، وبدأ الملك بعد ذلك فى منح العطايا لكبار القادة ثم قام القائد كاراكاتشا بالحديث إلى الملك ابن عبو؛ بينما التزم الجميع الصمت، وقال له:

"حديث القائد كاراكاتشا إلى الملك ابن عبو فى حضور الجميع"

" ليكن تتويجكم ملكًا لغرناطة خيرًا على الجميع، ولهذا أبدينا لك الطاعة وقبَّلنا أيديكم، وإننى لأعلن كلمتى وعهدى بألا أعود إلى الجزائر حتى تعود إلى بيتك وتحكم فى سلام مملكتك كما كان يفعل أجدادك، ولكن لو أردت أن أذهب إلى إفريقيا؛ فسوف أذهب لأقدم لك خدمة عظيمة حيث سأعود ومعى الكثير من الرجال دعمًا ومددًا لك، فإننى أعلم أن أولوج على سوف يقدم لى خير الرجال وخير السلاح الموجود على سواحل ليبيا. فلتأذن لى بالذهاب إلى إفريقيا وسوف أرحل دون تأخير، وأيضًا سوف أخبر القادة الغائبين عنا والقرى التى أعلنت تمردها ضد ابن أمية بأن يحضروا ويُظهروا الطاعة والولاء للملك، وإذا رفضوا ذلك فإننى أتعهد بأن أجبرهم وإلا قضى رفضهم على أملاكهم وحياتهم".

أنهى هكذا كارباخيو كاراكاتشا حديثه، وشعر ابن عبو بسعادة غامرة لسماعه وشكر له عرضه الكريم، وعلى الفور استعد للرحيل إلى إفريقيا أحد الأتراك، وكان يُدعى داود (Dauz)، وكان ذكيا وفصيحًا، وقد حمل معه مشغولات ذهبية كثيرة وعددًا من العبيد المسيحيين كهدية

للملك أولوج على ملك الجزائر. ولم يمض وقت طويل إلا وحضر القادة الغائبون والقرى التى كانت أعلنت تمردها على ابن أمية كى يقبلوا يدى الملك ابن عبو، الذى عندما رأى نفسه فى قمة المجد والحظ، راوده أمل عظيم فى أن تنتهى الحرب الدائرة لصالحه. وفى أثناء تتويج ابن عبو ظهر كل من الحبقى والدالى مؤيدين له فى كل الأمور، وبدأ ابن عبو يصدر أوامره فيما يخص الحرب، يملؤه الأمل فى الفوز بها، وهذا ما سنتحدث عنه فى الفصل القادم، أما الأحداث السابقة فسنقول عنها القصيدة التالية:

"قصيدة عن اقتحام غاليرا، وكيف قام ماركيز بيليث وجيشه بحصارها"

اتفق مسلمو غاليرا

وكاستييخا وأورثى

على أن يحملوا السلاح

ويهاجموا الأعداء

ويطلبوا من المالح المدد

فهو لا يزال يقيم فى بورتشينا

وقد ثارت غاليرا أولا

وأظهرت شرورها

وجاء المالح لإنقاذها

ومعه الرجال الذين انتظروه

ثم دخل أويسكار متخفيًا

واختبأ فى أحد البساتين

ولكن المسيحيين شعروا به

فتوجهوا إلى خارج المدينة

ودارت بينه وبينهم معركة

شرسة ودموية

ومات العديد من الجانبين

ومات من المسلمين عدد لا يُحصى

وعندما رأى المالح خسارته

عاد إلى غاليرا

وانسحب المسيحيون أيضًا

إلى أويسكار

وحبسوا المسلمين

فى البيت الذى يعرف "بالثلث"

وفى نفس الليلة

عاد المالح إلى بورتشينا

وكان الماركيز لا يزال فى فينيانا

وذهب إلى غاليرا بصحبة جيشه

حيث قام بهجومين

ولكن كانا دون جدوى

فقد مات أناس كثيرون

من هذا الجيش وذاك

وقد قتل هناك

قادة وضباط الحرب

ومعهم جنود كثيرون

كما قتل الجيش المتوحش

القائد فيرناندو دى ليون

وقاموا بقطع رأسه

ووضع المسلمون رأسه

فى أعلى قلعتهم كإشارة

وكتب الماركيز للأمير

قائلا له إن غاليرا

لا يمكن اقتحامها

دون قطع المدفعية

وفى أثناء ذلك

قتل مولاى ابن أمية

قتله الأتراك

نتيجة خيانة تم تدبيرها

وحاكها بنالغواثيل

بسبب الغيرة التى شعر بها

وقد اختاروا أبا عبد الله كملك

وقد قال لهم:

وسريعًا سيُعرف السبب

لما حدث من أشياء

" خاتمة "

الفصل الثامن عشر

الذى يحكى عن المعركة التى دارت بين بنالغواثيل والتركى حسين (Huzen)، وكان أحد القادة الأتراك، وكيف ذهب ابن عبو مع جيشه إلى حصن أورخيبا حيث دارت معركة شرسة، وكيف خرج دوق سيسار (Sesar)[1] من غرناطة، وكيف هاجم المسلمون رجاله.

كما قلنا سابقًا، بعد أن تم تتويج ابن عبو ملكًا نزولاً على إرادة كل الجيش، أصدر أوامره بالذهاب إلى حصن أورخيبا ومعه قادة الجيش البارزون كى يدمروه، وعندما عقد العزم على ذلك الخروج طلب منه بنالغواثيل أن يعطيه ابنة عمه زهراء لأنه يريد الزواج بها. وقد علم بطلب بنالغواثيل هذا القائد التركى حسين، فأسرع بطلبها من الملك قائلا له إنه هو منْ يستحقها وليس بنالغواثيل. وقد احتار ابن عبو فى هذا الأمر ولم يدر لمنْ يعطيها، ولهذا وضع الاختيار فى يدى الفتاة الجميلة؛ وأمر بإحضارها فقدمت هى والخاطبان أمام ابن عبو، وعندما سُئلت منْ تختار من الاثنين زوجًا لها، أجابت بأنها لا تريد الزواج من أى منهما؛ فهى لا ترغب فى الزواج الآن. وعندما ألقت الفتاة بحكمها هذا ازداد حجم الكره بين العاشقين أكثر من قبل، وكانا فى كل مرة يلتقيان فيها ينظر كل منهما للآخر بنظرات الازدراء والكراهية؛ فكل منهما يعتبر الآخر السبب فى عدم فوزه بالسيدة الجميلة، وقد وصلت الكراهية بينهما إلى الحد الذى اتفقا فيه على منازلة كل منهما للآخر بالسيوف القصيرة. وهكذا فى ساعة غروب الشمس انطلقا خارج حدود الجيش دون أن يشعر بهما أحد، وابتعدا لمسافة ميل ودخلا فى أحد المروج الخضراء حتى يكون النزال أكثر راحة، وقد بدا القمر جميلاً ومضيئًا فقد كان يتبقى أيام قليلة حتى يصل إلى مرحلة الكمال ويصبح بدرًا، وكان القمر ينشر ضوءًا جميلاً وواضحًا وكافيًا لعمل أى شىء؛ وهكذا عندما وصل الغرناطى قال لغريمه: "ليس هناك سببٌ يجعلنا نبحث عن مكان آخر أكثر ملائمة من أجل إقامة النزال بيننا؛ ولهذا أيها البربرى، خذ

---

[1] هكذا ورد الاسم، ونظنه يقصد سيسا. (المراجع).

بيدك سيفك القصير وافعل ما بدا لك ضدى؛ فقد أظهرت عداوتك لى بمحاولتك انتزاع زهراء منى"، وعندما قال هذا أخذ بنالغواثيل سيفه بيده، وأصبحا الاثنان كاثنين من الثيران المتوحشة، هاجم كلاهما الآخر، ووجه كل منهما ضرباته القاسية لغريمه يريد قتله، وتم كل هذا على وجه السرعة بصورة تدعو للرعب والفزع، وقد اقتربا بكل قوة وضربا بسيوفهما ضربات قوية وأخذا يتنافران ويطيران فى الهواء، وأظهر كل منهما صلابة وقوة، وهكذا تصارع الرجلان المسلمان أكثر من نصف ساعة، وهما يوجهان ضربات قوية فى كل اتجاه، وأخذ كل منهما يجرح الآخر لدرجة أن السيوف أصبحت كالمناشير بعد أن تكسرت حافتها، وأصبحت البرانس التى يرتدونها ممزقة من فرط الضربات ولم يتميز أى منهما على الآخر فى الضرب. ولكن أرادت مشيئة الرب أن يدفع كل واحد منهما ثمن أفعاله، أرادت أن يدفع بنالغواثيل ثمن خيانته التى ارتكبها فى حق سيده، وبدا أن اللعنة التى ألقاها على وجهه ابن أمية لحظة موته سوف تتحقق لأن الرب لم يرض أن يبق بنالغواثيل دون أن يدفع ثمن شروره؛ فقد حدث أن بنالغواثيل الشجاع كان يصارع بكل قوة وينظر من أى جانب يستطيع أحد ينال خصمه، وفى أثناء ذلك جاءت أمام عينيه صورة ابن أمية التعيس والحبل حول رقبته والأتراك يخنقونه بهذا القيد، وعندما رأى الرجل هذه الصورة تذكر خيانته التى ارتكبها ضد ولى نعمته فشعر أن هناك ريحًا جليدية تخترق كل عضو فى جسده، ومن هنا شعر بالتخاذل والاضطراب بحيث لم يعد قادرًا على توجيه سلاحه ضد خصمه التركى الذى شعر بضعفه فلم يضيع الفرصة التى أتاحها له القدر، وهكذا بحماس مضاعف وجه إليه ضربة قوية إلى رأسه لم يكن لها حل للأسباب التى سبق وقلناها، وعلى هذا سقط بنالغواثيل على الأرض جريحًا، وهو يشعر بالفزع من صورة خيانته أكثر من الضربة التى تلقاها(٢). وعندما نظر التركى إليه، أدرك جيداً أن غريمه لن يفلت من هذه الضربة الموجعة، ولم يرغب فى جرحه أكثر؛ بل تقدم نحوه وأخذ السيف بيده وتوقف برهة فرأى بنالغواثيل والدماء تتدفق من جنباته، وقد شعر بنالغواثيل بالتركى فى اللحظة التى انتزع فيها السيف، وبجهد وصوت مُتعب قال للتركى: "حسين، انتبه جيداً لما أقوله لك الآن. اعلم بأنك لم تقتلنى؛ فلا تفاخر بقتلى فى أى وقت، فإن منْ قتلنى هو ابن أمية، الذى ظهر أمام عينىَّ وأنا أصارعك والقيد القاسى حول رقبته، واعلم أننى كنت السبب فى موته بخيانتى له بسبب غيرتى على ابنة عمى زهراء، التى انتزعها منى بالقوة وكنت

(٢) من الواضح هنا ابتعاد بيريث دى إيتا عن التاريخ. (المراجع).

أنا منْ قام بتزوير الرسائل التى حملنيها ابن عبو والقادة الأتراك، وإننى أتوسل إليك أن تقوم بدفنى هنا قبل رجوعك، ولا تقل لأحد أنك قد تركتنى هنا، واحفظ زهراء، واحذر فإنها امرأة داهية؛ فلا تجعلها تضعك فى الموقف الذى أنا فيه الآن".

وقد فزع القائد التركى مما سمعه، ورأى بنالغواثيل وهو يفارق الحياة، ولم ينتظر ساعة رحيله، فقام بحفر حفرة بالسيفين ووضع فيها بنالغواثيل وهال عليه التراب وبعض الأحجار ثم رحل إلى أنداراكس وهو يفكر فيما أخبره به بنالغواثيل وهو يشعر بالتعاسة لأن بنالغواثيل مات وهو يقول إن زهراء تستطيع أن تجعله يلقى نفس المصير التعس. وعندما وصل إلى أنداراكس دخل مسكنه متخفيًا، وفى اليوم التالى أصدر ابن عبو أوامره بتوزيع المهام والمناصب وصلاحيات القادة. وكان لدى ابن عبو أخٌ أصغر منه، وكان رجلاً شجاعًا ومغرورًا، وقد عينه الملك فى منصب قائد الشرطة، وهو المنصب الأكثر أهمية لدى المسلمين والذى يلى الملك. وقد أبقى الدالى فى منصبه كقائد، وعيَّن كاركاكس (Carcax) التركى، الذى كان قد وصل منذ أيام من إفريقيا قائدا للجنود الذين كانوا يتبعون الديرى الذى أمر السيد فيرناندو بإعدامه. وكان الحبقى هو أكثر الناس حظا بالنسبة للمناصب الهامة؛ فقد ولاه نهر المنصورة وألمرية، وفيلابريس وباثا وغواديكس، بلده ومنطقة كابيتى (Cavete) وغيرها من المناصب. وقد عيَّن نويفى (Noayve) قائدا عاما لغرناطة وغوطتها وكل القرى التابعة لسييرا نيبادا. وقد أرسل الروكايمى للجزائر كى يطلب من أولوج على المدد والعَون كى ينهى الحرب، وهو يعلم أن داود قد وصل لتوه إلى الجزائر؛ ومع ذلك عاد وأرسل عبيدًا وهدايا؛ وكان هذا سببًا فى جعل ملك الجزائر يُسرع فى إرسال المدد، كما سنقول فيما بعد. وقد جمع ابن عبو أسلحة كثيرة وقام بشراء أشياء من الأسواق العربية، وقام بتوزيع هذه الأشياء على جنوده بأبخس الأثمان. وإلى جانب ذلك، كان رفيقا بالناس حليما بهم، ولهذا استطاع أن يجعل من جيشه جيشًا عظيمًا ومجهزًا، وكان ابن عبو يفخر به وأصبح لديه أفكار كثيرة؛ فقد كان لديه أفرادٌ ذوو إرادة صلبة فى كل الجيش. وفى ذلك الوقت كان السيد خوان دى أوستريا قد علم بكل هذه الإجراءات الاحتياطية التى يقوم بها الملك الجديد ابن عبو، فأمر، كما قلنا، بأن يخرج دوق سيسا ومعه جيش كبير إلى البشرات لتقديم المساعدة إلى أورخيبا، فقد كان يعلم أن الملك المسلم يريد أن يهاجمها، ولكن كان لديه عقبة تحول دون تنفيذ ذلك وهو أن الجيش المسيحى الموجود فى أورخيبا قد رحل عنها للبحث عن مؤنة له. وعندما وصلوا إلى منطقة تعرف بتاراخون (Tarraxón)، هاجمهم عدد من المسلمين بكل قوة فلقى كل المسيحيين مصرعهم، ولم

يستطع الهروب سوى ثلاثة أفراد حملوا الخبر الحزين بالهزيمة الجديدة. وعندما علم ابن عبو بذلك أصبح لديه جرأة أكبر، وقرر التدخل بقوة السلاح فى كاستيل ديل فيرو (Castil de Ferro)، التى كانت بها حامية كبيرة، حيث استطاع رُسل الجزائر أن يُرسوا مراكبهم بها دون أن تتلقاهم أسلحة المسيحيين، وهكذا دون أى انتظار رفع استعداد جيشه وخرج من أنداراكس متوجهًا إلى حصن أورخيبا، وهو يعتقد أنه سيستولى عليه ويقضى على كل المسيحيين الموجودين فيه، وهكذا جعل على طليعة الجيش أربعة من القادة الشجعان هم باربوث (Barbuz) كاركاكس (Carcax)، وناقوس (Nacoz) وأريནداتى -Arren) (date، ومعهم عشرة آلاف جندى محارب، وكان فى قلب الهجوم والدالى فى المؤخرة ومعه اثنان من الحرس.

سار الجيش بهذا النظام، ووصل إلى أورخيبا وأمر ابن عبو فيما بعد بحفر خنادق كبيرة من أجل سلامة جنوده. وكان فى أورخيبا قائد شجاع يُدعى فرانثيسكو دى مولينا (Francixo de Molina)، قام هو وجنوده بالدفاع بكل شجاعة عن أورخيبا، ولكن أورخيبا لم يكن لديها أى خط دفاع سوى قربها من غرناطة حيث يمكن أن يأتيها المدد والإنقاذ سريعًا ولكن قبل وصول الإنقاذ كان المسلمون قد ضيقوا الخناق حولهم بحيث لم يكن لديهم سورٌ يحتمون به أو أى دفاع سوى جثث القتلى، وعندما وصلوا كان لديهم نقصٌ شديدٌ فى الغذاء والماء وأشياء من هذا القبيل. وكان هناك قائد شهير يُدعى خوان ألباريث بووركيس -Juan Al) (varez Bohorques، وقد حافظ هذا القائد وجنوده على فتحة صغيرة وأظهر شجاعة عظيمة ولكن ابن عبو، بكل تصميم، أمر بتضييق الخناق عليهم للدرجة التى جعلت المسيحيين يستنفذون رصاصهم، ولم يجد هؤلاء الجنود وقائدهم حلا آخر لنفاد الرصاص سوى تحطيم برميل من الفضة إلى قطع صغيرة وإطلاقه بدلاً من الرصاص. يا له من قائد شهير وشجاع جدير بكل احترام لهذا الدفاع المستميت والغالى نظرًا لقيمة الفضة !. وهكذا استطاع المسيحيون الشجعان أن يصمدوا أيامًا عديدة حتى أرسل إليهم السيد خوان العون والمدد حيث كان آنذاك موجودًا فى غرناطة بأمر من صاحب الجلالة كقائد عام وأعلى للجيش ومفوض منه لإنهاء هذه الحرب. وهكذا أرسل دوق سيسا لنجدة المسيحيين المحاصرين فى أورخيبا. وقد رحل الدوق الشهير من غرناطة كى يقوم بتلك النجدة، وصحبه ستة آلاف من جنود المشاة وثلاثمائة فارس من أكثر الجنود استعدادًا وتجهيزًا وذلك كى يتقابل مع ابن عبو فى معركة فاصلة؛ ولكن الدوق عندما وصل إلى قرية تسمى أثيكياس (Azequias) عاودته نوبة

من نوبات مرض النقرس الذى كان مصاباً به، وكان هذا سبباً فى تأخر النجدة، وعندما علم السيد خوان بهذا أراد أن يذهب لويس كيخادو (Luys Quxado)، وهو أحد أقاربه، فى هذه المهمة وأن يبقى الدوق، ولكن الدوق لم يوافق على هذا، وهكذا واصل طريقه على الرغم من مرضه، وكى يُسرع من وصول النجدة، أرسل قائداً يُدعى بيلشيس (Vilches) ومعه ثمانمائة جندى، كى يسبقوهم فى الوصول دوْن التوقف فى لانخارون (Lanxaron) وعندما يصلوا أورخيبا يخبروا فرانثيسكو دى مولينا بأن هناك عدداً كبيراً فى الطريق إليه. وقد رحل بيلشيس، وكى يتأكد الدوق من وصول النجدة، أرسل خلفه ألف جندى آخرين ليلحقوا به فى الطريق، وبعد ذلك رحل الدوق نفسه ومعه بقية الجيش. وعندما علم ابن عبو بوصول الدوق، قام بتقسيم جيشه إلى قسمين، وإرساله لمقابلة جنود الدوق، ولهذا السبب خرج أريناداتى (Arrendate)، والقائد التركى حسين والدالى. وقد رحل كل هؤلاء الجنود المسلمين دون أن يشعر بهم المسيحيون المحاصرون لأنهم رحلوا فى أثناء الليل. وقد هاجم الدالى الشجاع ومعه القائد أريناداتى جنود بيلشيس بكل شجاعة؛ فقد تركوهم يتوغلون فى مكان بينما اختبئوا هم حيث لا يرونهم فى مكان آخر بحيث أصبح الجنود المسيحيون فى منتصف طريق وعر، حينئذٍ هاجم أريناداتى بكل قوته من الناحية العلوية؛ وقد قاوم المسيحيون بكل بسالة، ولكن أريناداتى كان بصحبة جنود كثيرين، وقد هاجموا بضراوة جعلت جنودنا يتراجعون إلى الخلف وهم يظنون أن المدد الذى سيبعث به الدوق سيأتيهم سريعًا ولكن تفكيرهم هذا لم يكن صائباً لأنهم بتراجعهم سقطوا بين أيدى جنود الدالى، الذين هاجموهم بكل قوة. وعندما وجد المسيحيون أنفسهم قد خدعوا بهذه الحيلة الرهيبة، لم يجدوا أمامهم حلا سوى التراجع ومواصلة القتال فى نفس الوقت، حتى وصلوا إلى مكان مرتفع احتموا به وهم يأملون فى وصول مدد الدوق دون تأخير. وهكذا تفادوا مقتل عدد كبير من الجنود فى تلك المعركة. وقد وصل حينئذ القائد بيرى (Pere)، الذى خرج بجنوده بعد خروج بيلشيس ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئًا لصالحه لأن المسلمين كانوا كثيرين وجميعهم جنود يجيدون إطلاق الرصاص وعلى دراية كبيرة بالأراضى المحيطة بهم. وفى تلك اللحظة وصل جيش الدوق حاملاً النجدة للمسيحيين، ولكن ناقوس (Nacoz) قام بهجوم عظيم عندما اقترب المساء، وقد أحدث هجومه ضجة عظيمة حتى خيل للجميع أن الأرض تنهار تحت أرجلهم. وقد قاتل جنود الدوق بكل شجاعة، ولكن جهودهم كانت دون جدوى، فسرعان ما وصل الدالى وأريناداتى وقاموا بمهاجمتهم فقتل وأهلك الكثير منهم دون رحمة، ولأن المساء حل سريعًا، صار جنودنا لا يستطيعون التعرف على الأرض، وقتل منهم الكثيرون بكل قسوة ولم يستطيعوا الحفاظ على

أنفسهم من هذا الهجوم المفاجئ، وأصبح الجيش كله محاصراً بين الظلام من ناحية وبين سلاح الجيش المسلم المتوحش من ناحية أخرى. وكان جنود المسلمين يقومون بكل ما يريدون، ولهذا قتل الكثير من جنودنا، وقد تزايدت الأصوات البائسة مع الأصوات المبهمة والحائرة للجيش دون أن يكون هناك حلٌ لهذا. وقد اصطبغ الجنود بالدماء من كثرة عدد القتلى والجرحى بعد أن أصاب المسلمون جيش المسيحيين بالأذى كعادتهم. وقد لحق بالمسيحيين أذى عظيم وبلغ بهم الرعب مداه، لدرجة أن بعضهم دون أدنى خجل هرب عبر الأدغال المنحنية تاركًا قائده العام محطمًا، ولأن هذا الأخير من عائلة كريمة وحفيد جد مشهور بالشجاعة، أخذ يصيح فيهم بصوت مرتفع وقوى قائلاً:

"حديث دوق سيسا لجنوده"

" أى هجوم أتى عليكم من الجحيم

جعلكم تفرون كالأشباح من الرعب؟

أهكذا تفرون بكل سرعة

دون أى اعتبار لواجب مقدس

يجبركم على أن تكونوا شجعانًا

كورثة للدماء الإسبانية المحاربة ؟

لماذا تركتم هكذا راياتكم ؟

انظروا .. إنكم أبناء إسبانيا المحبوبين

عودوا للمعركة لا تخافوا

انظروا .. ماذا سيقول العالم عنكم

إنكم جبناء أدنياء خائفين

فررتم أمام عدو دنيء

لا يعرف ماذا يعنى السلاح

أى فرد فيكم يساوى الكثير

يساوى مائتين من رجالهم

وإذا هربت من المواجهة لا قدر الله

ماذا سيقولون عنى وأنا قائدكم؟

لن يقول عني بيت شعر أو قصيدة

إننى قد أتيت ومعي جنود جبناء

فروا من المعركة ومن السلاح

انظروا إن الموت بشرف يساوى الكثير

أكثر من العيش أذلاء فى العالم

حيث ستلحق بكم شهرتكم كجبناء

بين الخلق إلى أبد الآبدين

أظهروا شجاعتكم وجهدكم وحماسكم

لا تخافوا من ظلام الليل

لا بد أن تتركوا سيرة عطرة وخالدة

انظروا إن غريمكم موريسكى

لم يأت من فرنسا

لقد جعلكم تهربون بكل جبن

عليكم بهم .. عليكم بهم يا جنود إسبانيا

إسبانيا .. إسبانيا ..عليك بهم يا سانتياغو

يا لكم من جبناء! عليكم بهم إنهم سيهربون

إذا رأوا أسلحتكم فقط

إنهم أناس يخافون العالم!

هيا فوزوا بالحرب اليوم

إنكم مشهورون بقوتكم وبطولاتكم

والزمن يعدكم بالنصر!"

بعد أن ألقى الدوق الشجاع هذه الكلمات، دون الخوف من أى شىء، ودون جواده، احتضن درعه المدوَّر وألقى بنفسه على جيش المسلمين بكل حماس، وهو يفضل الموت فى أثناء المعركة على التراجع ولو خطوة واحدة. لقد أحدثت الكلمات الشجاعة للدوق فعل السحر فى نفوس الجنود، الذين شعروا بخزى عظيم لهروبهم وعدم التصرف كرجال، لذا فقد عادوا وهم يشعرون بحماس شديد، وقالوا: " امنحنا النصر يا سانتياغو، امنحنا النصر فإن العدو يهرب". وقد أشعل هذه الصوت نفوس الجنود المسيحيين حماسًا، وملأ قلوب المسلمين رعبًا لأنهم علموا بأن نجدة كبيرة سوف تقع فوق رءوسهم. آه! يا لك من دوق صالح!، آه!، يا حفيد الجندى الشجاع! يا له من مثل رائع ذلك الذى أعطيته فى وقت كاد الجيش كله أن يضيع؛ فالسيد غابرييل (Gabriel)، جدك، جدير بأن يكون من دمك الطاهر، وأيضًا تنتمى إليك دماء شجاعة لأقاربك المحاربين الشجعان، السيد لويس والسيد خوان، اللذين لا يقلان عنك شجاعة ولا حماسًا، ولا عن المثل الذى أعطيته واستطعت به أن تنقذ جيشًا وأن تتناول سلاحًا وتحارب بنفس القوة التى يحارب بها إله الحرب نفسه! هل يستطيع القيصر توركاتو (Torcato) أو هيكتور (Héctor) أو ألكسندر (Alexandro) أو فابيو (Favio) أن يقودوا جيشًا كان يمتلئ رعبًا كما فعلت أنت؟ على الرغم من ظلام الليل الذى لم يخف روعة عظمتك وقوتك وحماسك فى تلك اللحظة الصعبة والخطيرة، التى وضعها القدر بين يديك، فإنك قد خرجت منها بكل شرف ورجولة.

وماذا نستطيع أن نقول عن الدوق السيد لويس الشجاع، وهو زهرة كادرونا (Cadrona)، وعن السيد خوان دى مندوثا المحارب العظيم؟ لا شيء سوى أن كلا منهما ظهر وكأنه إله الحرب المتوحش فى أثناء معركتهم مع المسلمين. بهذه الطريقة كان المسيحيون الشجعان يحاربون؛ فبعد أن أفاقوا من تأثير المفاجأة أعادوا تنظيم صفوفهم وعادوا إلى ميدان المعركة عند أثيكياس؛ فقد كان الجيش على وشك الضياع ولم ينقذه سوى العمل العظيم الذى قام به دوق سيسا. وبعد أن عاد الجيش إلى أثيكياس، وفى صباح أحد الأيام، تفقد الدوق أفراد جيشه وأمر بسفر المصابين إلى غرناطة للعلاج، وتوجه هو إلى أورخيبا، ولكن لم يستطع التقدم بسرعة بسبب وعورة الطريق بخاصة سلاسل الجبال، ولكن على الرغم من تأخره فى الوصول، فإنه عندما وصل كان الحصار قد أزيل، لأن ابن عبو، خوفًا من ملاقاة الدوق ومحاربته فى الوادى، توجه ومعه جيشه إلى لانخارون (Lanjarón) كى يدافع عن المدخل. وعندما وجد الدوق أن حصار أورخيبا قد انفك، أمر القائد مولينا بأن يترك هذه المدينة ويتوجه ومعه جنوده إلى موتريل. فيما بعد أمر القائد مولينا بالرحيل إلى موتريل، تاركًا بعض أفراد قواته للدفاع عن المدينة وتوجه ومعه بقية جنوده حتى وصل إلى موتريل. فى أثناء ذلك كان الدوق يحاول مشاغلة ابن عبو حتى يصل القائد مولينا إلى هدفه بسلام. وقد قام المسلمون أو عدد كبير منهم بقطع غوطة غرناطة وتوجهوا إلى غيخار والبونتال (Puntal)، وقد استولوا فى طريقهم على كمية كبيرة من الغنائم والمحاصيل. وأراد السيد خوان ملاقاتهم فى بعض المعارك، ولكن فكرته هذه هوجمت؛ وهكذا لأسباب مهمة صدر أمر بعودة الدوق لبحث بعض أمور الحرب وإذا أتيح له ملاقاة عبد الله بن عبو فليهاجمه هجومًا شديدًا وبكل ما أوتى من شجاعة. وكان الدوق في ذلك الوقت قد وصله خبر عزم جيش المسلمين التوجه إلى لاس ألبانيويلاس، ولكى يقابله ذهب ومعه جيشه إلى نفس المكان. وقد سار الجيشان، ولكن لم ير أحد منهما الآخر، بسبب مجارى السيول والهاويات السحيقة التى عبرها كل جيش. وقد وصل الدوق أولاً، وعندما وصل عسكر فى أفضل جزء فى القرية وأمر بإشعال نيران فى بقية المكان، وفعل نفس الشيء فى قرية أخرى تسمى براستابال (Prastaval) وأيضًا فى بيلايكس (Velaix)، وفى قرى موريسكية أخرى قريبة من المكان، لأن سكان هذه القرى قدموا المؤنة للعدو. وبعد أن قام بهذا عاد الدوق إلى غرناطة تاركًا حامية كبيرة فى لاس ألبانيويلاس تحت قيادة بدرو دى مندوثا، وهو قائد شجاع وفارس عظيم، وقد بقى معه هناك ستمائة جندى. وعندما وصل الدوق إلى غرناطة، أعطى السيد خوان أمرًا بما يجب أن يقوم به، كما سنقول فى الفصل التالى، وقبل هذا نقول هذه القصيدة التى تتناول الأحداث السابقة حتى لا نفقد التسلسل:

"قصيدة تتحدث عن المسلم عبد الله بن عبو وحصاره لأورخيبا وكيف حارب دوق سيسا جنوده وفك الحصار"

رحل المسلم عبد الله بن عبو

ومعه جيش قوى

وذهب إلى أورخيبا

وضرب حولها حصاراً

وحفر حولها الخنادق

كي يستولى عليها

ولكن المسيحيين المحاصرين داخلها

قاوموه مقاومة شديدة

وانتظر البعض الآخر

وصول النجدة لهم

وعندما علم دوق أوستريا

بعث لهم بالمدد

وكان القائد العام هو دوق سيسا

وأفراد من ميليشا وجنود

وقد اصطحب معه ستة آلاف من المشاة

معروف عنهم جميعهم الشجاعة

وكان معه ثمانمائة فارسٍ

كان قد طلبهم من أجل هذه المهمة

وعندما علم بذلك ابن عبو

قام بتقسيم جيشه

وترك جزءاً مسئولاً عن الحصار

وجزءاً آخراً للقاء قوات دوق سيسا

باحثًا معه عن العدو

وكان هناك أربعة قواد

على رأس الجيش العربى

دالي وناقوس وأريدناتى

وحسين الذى جاء من الجزائر

وقاموا جميعهم بالاختباء

بين أشجار الصنوبر والسنديان

وصل بيلشيس أولاً

وهوجم هجومًا مباغتًا

قام به المسلمون

بكل قوة الإعصار

أما القائد بيريا

الذى وصل بعد بيلشيس

فقد أراد مساعدته

ولكن القدر حال دون ذلك

لأن ناقوس قدم مساعدة هائلة للدالى

وقاموا بهجوم يثير الرعب

وصاحبته قوة غاشمة

وأصبح المسيحيون فى وضع سيئ

وصار الانسحاب مناسبًا لهم

فتراجعوا للخلف بسرعة

إلى حيث قدموا

وكانوا يعلمون أن دوق سيسا

سوف يرسل إليهم بالنجدة قريبًا

ولكنهم سقطوا بين يدى

أريينداتى القائد المسلم

الذى تخلص منهم وقتلهم

بكل ألم وأسف

وفى أثناء ذلك وصل دوق سيسا

لكنه كان فى وضع سيئ

لأن الظلام كان حالكًا

بعد أن توارت الشمس

ولهذا السبب قام المسلمون

بتحطيم جيشه
وقد هرب أفراده
من المعركة فزعين
وقد شجعهم الدوق
بكل شجاعة وثقة
وقد فعل المستحيل من جانبه
حتى يعود جيشه
وقد قام بالهجوم بشجاعة
على منْ قاموا بالاعتداء عليه
وقد حارب المسيحيون
ضد الجيش الخائن
الذى تراجع شيئًا فشيئًا
إلى قرية أثيكياس حيث جاءوا
وقد عاد المسلمون بعد ذلك
إلى الميدان الذى تركوه
وقد فك ابن عبو الحصار
ورحل إلى لانخارون
حتى لا يدخلها الدوق
وفى واديها الغنى

أخذ أهالى أورخيبا

الطريق إلى موتريل

لأن دوق سيسا أمر بذلك

فالوقت مناسب لهذه المهمة

وقد رحل إلى لاس ألبانيوبلاس

وقام بإحراقها

ومعها قرى أخرى مجاورة

لأنهم قدموا المؤنة

لجيش الموريسكيين

وقد عاد الدوق إلى غرناطة

لأن خوان دى أوستريا أراد ذلك

وترك هناك فى القرية

السيد بدرو مندوثا

ومعه ستمائة جندى

معروفين بالشجاعة

" خاتمة "

الفصل التاسع عشر

الذى يتحدث عن دخول السيد خوان ودوق سيسا بجيشين إلى البشرات وهجومهما على غيخار وما حدث بعد ذلك.

وصل دوق سيسا إلى غرناطة أيضًا، وعلم السيد خوان أن ماركيز بيليث موجود فى غاليرا ووصله خبر المعارك التى قام بها هناك، والهزائم التى تلقاها، ولأن ماركيز بيليث قد بعث إليه يخبره بأنه لا يستطيع الاستيلاء على غاليرا دون مدفعين، لذا فقد بعث برسالة إلى صاحب الجلالة يقول فيها:

"خطاب من السيد خوان إلى صاحب الجلالة"

"سيدى العظيم: تعلمون جلالتكم أن الحرب فى غرناطة تسير من سيئ إلى أسوأ لأن المسلمين أصبحوا مسلحين جيدًا، وقد أصابوا الحصون والفرق والمعاقل بضربات موجعة، وعندما يتم الهجوم عليهم لا يبقون فى الميدان؛ بل يهربون إلى سلاسل الجبال، وهكذا ستستمر هذه الحرب مدى الحياة. والآن أعلنت قرية تسمى غاليرا تمردها وعصيانها بشكل قوى، وبحسب الأخبار التى وصلتنى من ماركيز بيليث، لن نستطيع الاستيلاء عليها دون تدخل المدفعية، وإننى يسعدنى أن أشارك فى الهجوم على غاليرا، ولكن هذا يعنى أن أترك الأعداء ورائى. وأطلب من جلالتكم أن تأذنوا لى بالدخول فى البشرات بجيشى وجيش دوق سيسا حتى نستطيع سويا أن ننهى هذه الحرب التى طالت وتجاوزت العامين، والحال الآن أسوأ مما كان عليه أول يوم بدأت فيه، وإذا تركناها هكذا لن تنتهى أبدًا".

أرسل السيد خوان هذه الرسالة إلى صاحب الجلالة، وقد أمر صاحب الجلالة بدخوله ومعه دوق سيسا البشرات، وبعد أن يقضيا على ابن عبو وجيشه أمرهما بالتوجه إلى غاليرا والهجوم عليها بمصاحبة ماركيز بيليث، الذى يجب أن يخبر القائد الأعلى كى يجهز لهم المدفعية التى تمكنه من وضع نهاية لهذه الحرب. وبعد حصول السيد خوان على هذا الإذن،

أمر على الفور بالخروج لملاحقة المسلمين فى البشرات مصطحباً معه دوق سيسا، وبعد صدور هذا الأمر، أمر الدوق بالاستعداد للرحيل والخروج إلى غيخار والهجوم عليها، على الرغم من أن الأمير الشجاع كان يريد الهجوم على غاليرا، ولكن حتى لا يترك الأعداء وراءهم رحل القائدان الشهيران إلى البشرات ومع كل منهما عشرة آلاف جندى مشاة، وألف من الفرسان، وقد تم توزيعهم بشكل منظم، وقد خططوا للوصول إلى غيخار عند الفجر، وأن يتخذ كل قائد بجيشه طريقًا مختلفا عن الآخر وأن يصل الجيشان فى وقت واحد. وقد خرج الجيشان، ونجح جيش دوق سيسا فى اتخاذ الطريق الأكثر تمهيداً والأقل وعورة. أما الأمير فقد أخذ الطريق العالى، وقد تميز بالجفاف وصعوبة السير، وكان فى طليعته قائد يُدعى لويس كيخادا، لأنه كان يجيد السير فى تلك المسالك ويتميز بالشجاعة. أما المؤخرة؛ فقد كان يقودها فارس يُدعى غارثى مانريكى (Garci Manrriques) ومعه كل سلاح الفرسان. وكان مانريكى هذا جنديا شجاعًا. وكان السيد خوان يسير فى قلب الهجوم، تتقدمه راية جميلة الصورة. وبهذه الطريقة سار الجيشان القويان على ضوء النجوم. وقد سار جيش السيد خوان مسترشداً بفارس يُدعى السيد دييغو دى كيسادا، لأنه كان خبيراً بهذه الأراضى. ولكن عند هبوطهم من أحد الجبال أخطأ الطريق مما أدى إلى دورانهم حول الطريق. ولأن الدوق كان يسير فى الطريق الأفضل، لم تصادفه عراقيل فى الطريق. وفى ذلك الوقت كان مسلمو غيخار قد أخبروا مسلمى غرناطة بأن أخا الملك السيد فيليبى جاء للهجوم عليهم والقضاء عليهم. وقد اتفق مسلمو غيخار على ما يجب أن يقوموا به. وفى النهاية قرروا ترك القرية والفرار إلى الجبال. وعلى الفور قاموا بشحن أمتعتهم الثمينة ثم رحلوا، حاملين معهم أطفالهم ونساءهم، وقد بقى فقط بعض العجائز الذين لم يستطيعوا أن يرحلوا معهم. وقد وصل الدوق الشجاع مع طلوع الشمس إلى القرية معتقداً أنه سيجد الأعداء هناك، ولكن كما قلنا، لم يجد سوى بعض العجائز الذين تم ذبحهن فيما بعد، وسرعان ما خرج بعض أفراد من جيش الدوق لملاحقة المسلمين الذين هربوا. وفى النهاية استطاعوا الوصول إلى المؤخرة حيث كان هناك بعض القناصة من المسلمين، وهناك قام المسيحيون بالاشتباك معهم وحصلوا على بعض الغنائم، ولكن خرج من بطن الجبل كثير من الجنود المسلمين هاجموا المسيحيين بكل قوة واستطاعوا استعادة الغنائم منهم فاضطروا للعودة إلى الجيش. ولم يكن الأمير قد وصل حتى طلوع الشمس وذلك لأن السيد دييغو دى كيسادا قد أخطأ الطريق، ولهذا كان الأمير يشعر بالغضب، وكان يعتقد أن الدوق قد دمر المسلمين، وأنه لم يشارك فى المعركة التى جاء من أجلها مما أصابه بالحزن. وقد وصل فيما بعد السيد خوان إلى حيث يوجد الدوق، وعلم بظهور

عدد من المسلمين عند منحنى الجبل وكانوا يرتدون الزى الأبيض. وقد اعتقد المسيحيون أن هؤلاء المسلمين فرقة تقوم بحراسة السيدات المسلمات والبحث عنهن بعد هروبهن، ولكن عندما وصلوا إليهم استقبلوا بوابل كثيف من الرصاص لأنهم كانوا جنوداً مسلمين متخفين فى أزياء النساء لخداع المسيحيين. وقد وقع بينهم اشتباك، هرب المسلمون فى نهايته إلى الجبال ثم توجهوا من هناك إلى بالور حيث كان ابن عبو وجيشه موجودين فى ذلك الوقت. وقد قتل فى أثناء هذا الاشتباك القائد كيخادا وثمانية جنود معه، وقد انضم الباقون إلى الجيش، وهم يشعرون بكل ألم لموت قائدهم كيخادا، على الرغم من موت كيخادا، وقد أحدث موته ألماً عظيماً بين صفوف الجيش، كما سنقول فيما بعد. وقد تشابه الأمير فى كل شىء مع أبيه الشجاع كارلوس الخامس فى بشاشته وفى معاملته الملكية وطريقة حديثه ولطفه، ولهذا كان الجيش كله يشعر بالسعادة لمجرد رؤيته.

ولنترك الحديث عنه، ونتحدث عن المسلمين الذين هربوا من غيخار والذين لم يتوقفوا عن السير حتى وصلوا إلى بالور، حيث كان ابن عبو متواجداً ويشعر بالحزن والغضب لأنهم تركوا المعركة وهربوا منها، وقد تحدث إليهم بكل شجاعة وعلى هذا النحو:

"التوبيخ العنيف الذى وجهه ابن عبو للمسلمين الذين هربوا من غيخار"

" أيها الرجال الجاحدون، الأدنياء، الذين لا يعرفون الهدية العظيمة التى منحها لهم القدر بتفوقكم على جيوش المسيحيين وتمكنكم من أعدائكم، ألا تخجلون لهروبكم أمام شاب صغير لم تفتح عيناه بعد على أنوار الدنيا، لا يعرف ماذا تعنى الخبرة بالأمور العسكرية، وماذا تعنى الأسلحة، لا يعرف صوت الطبول، ولا صوت الأبواق، وفقط لمجرد سماع اسمه تفككت الحصون التى كنت أثق فيها ثقة كبيرة، وكان لا بد أن تدافعوا عنها بشجاعة، لم تأخذوا فى اعتباركم سمعتى ومكانتى، التى تثير رعب إسبانيا كلها التى تخاف قوتى، ولن أستطيع أبداً أن أستعيد هذه السمعة؛ ففى الوقت الذى كانت الأرض تهتز تحت أقدامكم وتمتلئ ببحور من الدماء من فرط شجاعتكم وقوة أسلحتكم يجىء اليوم الذى تتخلون فيه عن سمعتكم الخالدة وعن شهرتكم العظيمة؟ أهكذا تتخلون عن الاهتمام بى وبجيشى – أيها الجبناء – وتستهينون بقدرى وتظنون أننى لا أستطع نجدتكم؟ ألا تثقون فى قدرتى على إنقاذكم من أى خطر تتعرضون إليه مهما كان عظيماً؟. إذن قولوا لى: إذا كنتم لا تثقون فىَّ، فلماذا اخترتمونى ملكًا عليكم؟ إذا كنتم لا تفعلون ما يجب أن تفعلوه لأجلى، لأجل مكانتى، فإننى أفضل الموت

على أن أراني أسيراً بين يدى الأعداء المسيحيين. ألا تستطيعون أن تفعلوا مثلما فعل أهالي غاليرا الذين تنقصهم الخبرة في حمل السلاح وأمور الحرب، لذا قاموا بالتحصن داخل الأسوار وجعلوا عدوهم يرتعد خوفًا منهم وهو يحاصرهم؟ لو نظرتم إلى مثل هذا التصرف لكان لديكم مثالٌ يُحتذى به، ولما قمتم بمثل هذا التصرف الجبان وهذا الانسحاب الدنيء؛ بل لوقفتم أمام الجيش المسيحى كالصخور الثابتة والجدران القوية حتى لو جاء الجيش المسيحى بكل قوته. وإننى لأشعر بالخزى لما فعلتموه، أيها الأتراك الشجعان، فلديكم السلاح القوى وأنتم تجيدون استخدامه ولديكم سمعتكم فى ذلك المجال الذى جعلت إسبانيا ترتعد خوفًا، فلماذا تقومون بهذه الفعلة الدنيئة؟ والتى كنتم جديرين بإظهار معدنكم الثمين خلالها لأن هذا ما يجب أن تفعلوه، اقتلونى كما قلت لكم، فسيكون ذلك أشرف عندى من سقوطى فى أيدى أعدائى المسيحيين، الذين أكرههم من كل قلبى لأن لدىَّ أسبابى التى تجعلنى لا أطيقهم".

هكذا أنهى ابن عبو كلمته الغاضبة، وقد ظهرت على وجهه أمارات الغضب، ولكن عندما أنهى ابن عبو حديثه، قام أحد الأتراك، وكان يُدعى نوأيتى (Noayte)، وكان يشغل منصب قائد غيخار بالرد عليه بهذه الطريقة:

"حديث التركى نوأيتى لابن عبو"

" لقد ألقيت علينا باللوم، يا ابن عبو، ولهذا أصبح من الملائم أن أقدم لك اعتذارى بالأصالة عن نفسى ونيابة عن كل جنود جيشك، لأننا جميعًا أعضاء لشخصكم الملكى الذى هو بمثابة الرأس، بحيث إنه إذا كان هناك ثمة ذنب يُلقى علىَّ وعلى أفراد جيشى فإنه من الواضح أن بعضًا من الذنب سيصل إليك، وهكذا لنتقدم أنا ومنْ معى بالاعتذار لشخصكم الملكى، وأحب أن أقوم بدور المحامى: بالنسبة للخوف الذى تقول إنه تملكنا، أقول إنك ستكون راضيًا عما حدث فى كل معاركنا السابقة، ضد الجيش المسيحى، والتى أظهرنا خلالها شجاعتنا دون خوف أو جبن، وإننى أقسم بمحمد أننا لا نعرف شيئًا اسمه الخوف. هكذا كنا وهكذا سنكون دائمًا، حتى لو تهاوى العالم تحت أقدامنا ووقف ضدنا؛ والسبب وراء رحيلنا عن غيخار، لم يكن للخوف دورٌ فيه ولا الجبن، ولكن لوصولنا أخبار عن طريق الجواسيس الذين يعملون لصالحك فى غرناطة عن هجوم يستعدون له وسيقوم به جيشان كبيران، أحدهما جيش أمير أستورياس، والآخر جيش دوق سيسا، ووراؤهما كل إسبانيا؛ إذن، كيف تريدنا أن نقاوم يا ابن عبو ونحن متواجدون فى سجن دون أسوار وليس له أهمية، ونحن لا يتعدى عدونا

المائتى جندى، ونعلم تمام العلم بأن قواتك وقواتنا تعانى من شظف العيش ووعورة الطريق فى القمم الجبلية الثلجية؟. إذا كان الأمر كذلك؛ فلا تنتظر جلالتك منا أن نحارب بكل شجاعة فى مدينة ضعيفة جدا حيث فقدنا، كما قلت، الشهرة التى تمتعت بها أفعالنا، بخاصة وأن غيخار قريبة جدا من غرناطة، وأنت تعلم أن أهم أفراد دفاعك موجودون فى الجبال، وليس لديك سبب تشتكى منه لقدومنا، لأن دعمك للحرب بعيداً عن حماية الجبال يُعد ضرباً من المستحيل، لأن وجود الجبال يقف حائلاً دون تدخل الخيول ويحد من تأثيرها. ولا تتحدث عن مسلمى غاليرا، على سبيل المثال، وإنهم على الرغم من قلة خبرتهم القتالية، قد أظهروا شجاعة فائقة وقاوموا الجيش المسيحى. لقد استطاع مسلمو غاليرا أن يقاوموا العدو ويحافظوا على سلامتهم لأن غاليرا تشبه الصخرة من الداخل ومن الخارج وهى مسلحة بقباب عميقة وثابتة. فأهلها فى الداخل، دون أى أذى يصيبهم، ألحقوا بالعدو إصابات كثيرة؛ فمن خلال نوافذ صغيرة كانوا يهاجمون دون أن يستطيع العدو أن يهاجمهم، وهناك المائة جندى يساوون ألفًا، وعلى الرغم من أن غاليرا يمكن أن تدمر بالمدفعية وتسوى بالأرض، فإن أهلها فى الداخل لن ينالهم الضرر، بسبب الملاجئ والمساكن التى لديهم داخل الأرض، وإذا لم تدمر بالبارود لن يتم الاستيلاء على غاليرا أبداً: ولاحظ أن غيخار تفتقد لكل ما أقوله؛ فليس فيها أسوار، ولا خنادق ولا دفاع، فقط لديها الرغبة الحية فى نفوس منْ يريدون الدفاع عنها، إذن لا مائة جندى، ولا مائتين؛ بل ثلاثمائة جندى محصنين، يستطيعون مقاومة عشرين ألف رجل قادمين لمهاجمتهم، وكان من الأشرف لنا أن نتركها دون الدفاع عنها، ومن الأفضل أن نفقد قرية مبنية على جدران من أن نفقد ثلاثمائة رجل من الجنود، لأن الجدران لا تستطيع أن تدافع عنك أمام أى خطر، ولكن ثلاثمائة جندى يستطيعون أن يدافعوا عنك فى أكبر المعارك أمام أى خطر يمكن أن تتعرض له. إننى راضٍ عن اللوم الذى ألقيته علىَّ؛ فقط أريد أن تفهمنى فلا تتذكر غيخار لأنها قرية غير مسكونة، ولن ينال منها أمير أستورياس أى غنيمة بكل الجيش الذى جاء به. فلو كان الأمر يتعلق بغرناطة المجيدة أو غواديكس الناضرة أو باثا المضيئة، لو كنا تركنا واحدة من هذه المدن، لكان هناك سبب للتشهير بنا فى كل العالم، ولكنا جميعًا قد لقبنا بالجبناء. ولكن يا ابن عبو، إن غيخار، كما تعلم، ليست هى النهاية المرجوة. فلنتوجه إلى الهدف، لنبحث عن المعركة الأكثر خطورة فى المرفأ الأكثر عمقًا وأمانًا، وهذا هو ما سنقوم فى تلك الحالة، ولا تتشاجر بكل هذا العنف من أجل أمر ليس ذا أهمية. إن الجبال الآن ه أمنا وهى منْ يدافع عنا لأنها لا تقبل أن تطئها الخيول. وهكذا، لا يجب أن نهون من ش فقد قدرنا دوق سيسا تمام التقدير عندما قمنا بالهجوم عليه واختبأنا ليلاً بحيث أجبرنا

وبشجاعتنا على الانسحاب إلى أثيكياس؛ فلتأت كل إسبانيا، لا تخف، فالمدد الإفريقى سوف يصل وسوف يتغير الزمن لصالحنا؛ كل ما يجب عليك أن تفعله، أيها الملك الشجاع، هو البحث عن موانئ آمنة لترسو عليها سفنهم. فلتهاجم ألمونيكار (Almuñecar) ومعك جيشك، اهجم على سولابرينيا (Solabreña) بكل سرعة، ودون أى تأخير لأن أولوج على لن يخذل طلبك وسوف يحضر الإفريقيون على وجه السرعة وسينضمون لجيشك، وسوف تقدر ذلك تقديراً عظيماً، لأنه بوجودها سوف تضع نهاية لمحاولتك المجيدة، وسوف تكون هذه هى النهاية التى ترجوها".

هكذا أنهى التركى الشجاع حديثه، الذى أزال عن ابن عبو كل غضب، وقد شعر الجنود والمحاربون بالسعادة والرضا لهذا الدفاع الفصيح عنهم ولصالحهم. فيما بعد أمر ابن عبو بأن يسير الجيش إلى ألمونيكار (Almuñécar) وسالوبرينيا، وهم يحملون كل الأجهزة والمعدات اللازمة من حبال وذخيرة ومؤن وغيرها من لوازم الحرب. وقد أمر ابن عبو بأن يرحل الجيش بعد أن يقسم إلى جزأين، وأن يهاجم كل جزء من مكانه وكل فى وقت واحد. وقد سار الجيشان بعد ذلك ولم يتوقفا حتى وصلا إلى البلدين المشار إليهما، وعندما وصلا فرضا عليهما حصاراً شديداً، وقاما بالهجوم بكل ضراوة وإطلاق وابل من رصاص بنادقهم؛ بينما قام البعض الآخر بوضع السلالم للصعود على الأسوار والأبراج الضخمة، ولكن حماسهم هذا باء بالفشل لأن البلدين الشهيرين كانا محتميين بجنود شجعان قاموا بالدفاع عنهما مفضلين الموت على الهزيمة. وكان فى ألمونيكار أحد القادة الشجعان، وكان يُدعى السيد لوبى دى بالانثويلا (Lope de Valancuela)، وقد قام بالأعاجيب كى يدافع عن أرضه فقتل الكثير من المسلمين. ولم يظهر أهالى سالوبرينيا شجاعة أقل من جيرانهم ولم يكونوا أقل إلحاقاً للأذى للمسلمين من جنود ابن عبو؛ فقد كان قائدهم جنديا ماهراً ويُسمى السيد دييغو راميريث (Diego Ramirez) وعندما رأى ابن عبو أن الانسحاب أفضل له، ترك عدداً كبيراً من قتلى المسلمين تحت الأسوار القوية، وقد استبد به الفزع ورحل متعباً عائداً إلى بالور تاركاً المعركة هدية منه لكل من دوق سيسا وأمير أستورياس. ولكن ابن كارلوس الخامس الشجاع رأى أن الأمور فى البشرات تطول أكثر من اللازم، لذا قرر الرحيل إلى هناك كى يزيل العراقيل من هذا المكان، وبعد إزالة هذه المواقع يعود فيما بعد إلى الهجوم على مسلمى البشرات. وهكذا عقد مجلس يضم الأمير والدوق وبقية الفرسان وقادة الجيش لمناقشة اقتراح الأمير، وقد اتفق الجميع ورأوا أن الاقتراح يعبر عن تفكير منظم. فيما بعد رحل الأمير، تاركاً

الدوق ومعه فرقة قوية، واصطحب معه الكثير من الجنود والفرسان وصل عددهم إلى ستة آلاف جندى، وترك الدوق ومعه بقية أفراد الجيش. وقد وصل الأمير إلى غواديكس دون أن يجد فى طريقه أية موانع، ثم توجه من هناك إلى باتا وأويسكار حيث التقى ماركيز بيليث وجيشه الذين قاموا باستقباله استقبالاً عظيماً. وقد خرج الماركيز الشجاع لاستقبال السيد خوان مُظهراً حماسة وعظمة كانتا دائمًا من سماته وقد تأمل السيد خوان الماركيز بكل هوادة متعجبًا لمظهره الشجاع وهيئته الجميلة قائلاً لنفسه إن شهرة هذا الماركيز لم تأت من فراغ؛ فمظهره وهيئته يدلان على عظمته كرجل. وبعد أن نظر السيد خوان إلى الماركيز طويلاً، قام باحتضانه بكل سعادة قائلاً له بوجه هادئ وجاد: " الآن أقول، أيها القائد الشجاع، إن الشهرة لم تمنحك قيمة أكثر مما تستحقها وإننى أشعر بالرضا لرؤية الرجل الذى عرفته من شهرته قبل أن أراه. إننى قدمت إلى هنا مبعوثًا من قبل صاحب الجلالة كى أشارك فى الحرب تحت قيادتك وحمايتك، لأن قائداً حربيًا مثلك جدير بأن يعطى النماذج والقدوة فى فنون الحرب، وأريدك أن تكون على يقين من أننى لن أكون أبداً خارجًا عن نظامك وأوامرك، لأننى لن أتلقاها فى يوم ما من جندى عظيم مثلك له خبرتك فى الحرب التى لديك"، وقد أجابه الماركيز بكلمات جميلة، وقد ظهرت السعادة على وجهه، وقال له: " إننى أشعر بالسعادة، أيها الأمير الشجاع، لرؤية سموك والتعرف عليك، فأنت ابن الإمبراطور الشجاع والشهير، الذى كنت أنا لحظى السعيد، أحد الجنود التابعين لراياته الإمبراطورية الظافرة، وأنت أيضًا أخو الملك القوى، الذى منحنى شرف منصبى هذا، الذى ربما لا يتناسب مع رجل فى مثل عمرى. حمداً لله على سلامة سموك، لأنه بحضورك أستطيع أنا أن أذهب لأستريح فى بيتى[1] ، فإن صحتى وسنى لم يعودا مناسبين لهذا العمل الحربى المجهد، ويكفينى ما قمت به من أعمال فى السابق". وقد أجابه السيد خوان قائلاً: "ومع كل هذا، يسعدنى أن ترشدنى إلى ما يجب أن أقوم به". وهما على هذا الوضع، حضر بعض القادة المهمين ليتحدثوا مع الماركيز، كانوا كثيرى العدد، لأنهم جميعًا لديهم رغبة فى التعرف على الماركيز لشجاعته وقيمته، ولأن شهرته لا تقل ولا تزيد على ما يستحقه من قدر. كما قلت، استمر الأمير فى الحديث مع القائد الأعلى

(١) من الواضح أن بيريث دى إيتا قد غيَّر الوقائع، فمن المعلوم أن الماركيز قد أمر بجمع أغراضه بمجرد علمه بوصول الأمير، من المعلوم كذلك أن اللقاء المذكور كان عاصفًا وانتهى باعتراض الماركيز على تولى قيادة سرية. لهذا فضَّل أن يبقى فى بيته . بل هناك من يزعم أن الماركيز اكتفى بإبلاغ الأمير بتطورات الوضع دون أن يترجل عن جواده، وأنه غادر المكان دون توديع الأمير.(المراجع).

والكثير من القادة، حتى وصلوا إلى أويسكار، حيث تم استقبال السيد خوان بكل سعادة وبحفاوة بالغة وقد سكن فى قصر المدينة. وبعد أن ودع الماركيز سمو الأمير، امتطى جواده وخرج من المدينة متخذًا طريق بيليث مصطحبًا معه خدامه وبعض الفرسان من مورثيا ولوركا. بهذه الطريقة ذهب الماركيز إلى بيليث، تاركًا الحرب على الوضع الذى تعرفونه.

ولم تمض ساعات إلا وتساءل الأمير عن الماركيز، وعندما أخبروه بأنه قد رحل تاركًا الجيش، شعر بخسارة فادحة لفقدانه قائدًا شجاعًا وجنديا ماهرًا مثل الماركيز. وقد أمر صاحب السمو فيما بعد بعقد مجلس حرب ليناقشوا ما يجب عمله بالنسبة لغاليرا، وقد اتفقوا على استكشاف الحصار حول غاليرا قبل كل شىء. وكان الفرسان المتواجدون فى هذا الاتفاق هم الآتى أسماؤهم وأولهم وأهمهم: السيد خوان، والقائد الأعلى لويس كيخادا، والسيد لوبى دى فيغيروا، والسيد بدرو دى باديا، والسيد بدرو دى سوتومايور ، والقائد مولينا الذى كان فى أورخيبا. كانوا فى النهاية أربعة وعشرين فارسًا من أشهر قادة فنلندا وإيطاليا الذين شاركوا فى مجلس الجرب هذا، وإلى جانب هؤلاء كان يتم مناقشة أمور الحرب مع جنود قدامى آخرين لهم خبرتهم فى المعارك. فى النهاية تم الاتفاق على استطلاع مدينة وحصن غاليرا كى يتم التخطيط لوضع المدفعية فى الأماكن التى يمكنها فيها إحداث أكبر ضرر.

من المناسب الآن أن نترك صاحب السمو وبقية أفراد جيشه كى نتحدث عن دوق سيسا الذى كان يقطع أراضى البشرات ومعه جيش عظيم. وكان الدوق يتجول فى البداية يحذر حتى يتقابل وجيش ابن عبو ويحاربه، وكان يترك فى الحصون حاميات كبيرة حتى تسير القوات الخارجة من غرناطة للحاق بجيشه فى أمان، وهكذا ترك حاميات فى أثيكياس ولاس ألبانيوبلاس وفى غواديكس وأنحاء أخرى لها أهميتها، كما قام بتوزيع رجال حراسة فى الأماكن التى يسهل استكشافها كى يستكشفوا تحركات العدو وينبهوا الجيش فى حالة وجود مسلمين. وقد وصل الدوق إلى أورخيبا، وهو بلده، وترك هناك فرقة قوية من الجنود ولهذا السبب تأخر بعض الشىء فى العثور على ابن عبو، الذى كان يتفادى قدر استطاعته لقاء الدوق حتى يصل إليه المدد من إفريقيا، وسوف نتحدث عن هذا فى مكانه؛ وعن الأحداث التى ذكرناها سنقول القصيدة التالية:

"قصيدة تتحدث عن خروج صاحب السمو ودوق سيسا من غرناطة إلى البشرات فامتلأت بخروجهما الجبال شمسًا وهواءً"

خرج ابن كارلوس الخامس

من غرناطة الجميلة

ومعه دوق سيسا

متوجهًا إلى البشرات

وكان معه عشرون ألف جندى

من الجنود المتميزين

وكان معه ألف فارس

من خيرة نبلاء إسبانيا

وكانت تتقدم الرايات الجميلة

التى كانت تخفق بفعل الهواء

وقد اتخذوا طريق غيخار

بمحاذاة الأراضى الثلجية

فقد جاء خبر

وصول فرقة كبيرة من المسلمين

وقد قسم أمير أوستريا جيشه

إلى قسمين كى يسهل المسير

وقد ساروا طوال الليل

حتى بزغ الفجر

وصل الدوق أولاً إلى غيخار

ولم يجد مسلمين

لأنهم رحلوا من هناك

فجر ذلك اليوم

لأنهم قد أنذروا

عن طريق مسلمي غرناطة

بأن جيشاً كبيراً في الطريق إليهم

وهو قادم عبر البشرات

وقد عثروا على بعض العجائز

فذبحوهم بالسيوف

وساروا خلف المسلمين

بقيادة القائد كيخادا

الذى أسرع خلفهم

فأدرك المؤخرة

واشتبك مع أفرادها

ولم يظفر المسيحيون بشيء وتراجعوا

وابتعد كل منهم عن الآخر

وقام المسلمون بخداع المسيحيين

حيث ارتدى الرجال ملابس النساء

وانتظروهم عند الوادى

وقد فكر كيخادا

فى الاستيلاء على الغنيمة

ولكنه عندما وصل إليها

فاجئوه بوابل من رصاص بنادقهم

مظهرين شجاعة مذهلة

وقد انسحب المسيحيون

تاركين كيخادا قتيلاً

ومعه ثمانية جنود

قتلهم الطمع التعيس

وذهب المسلمون إلى بالور

حيث كان ابن عبو مقيمًا بها

وقد استقبلهم بشكل سيئ

وقام بتوبيخهم بشدة

على تركهم غيخار

دون استخدام سلاح

ولكن تركيًا شهيراً

قام بالرد عليه

وقال إنهم كانوا على صواب

عندما تركوا غيخار

وقد سار عبد الله بعد ذلك

إلى ألمونيكار وهو مكدر

راغبًا في الاستيلاء على سالوبرينيا

حتى تصير له مرفأ آمنًا

ترسو فيه السفن

التي ينتظر قدومها من إفريقيا

وقد دافعت ألمونيكار عن نفسها

ورفضت سالوبرينيا التبعية

لأن لديها حصنًا

وجنودًا شجعانًا

وقد انسحب ابن عبو

دون الحصول على الغنائم

وعاد إلى بالور

بعد أن قرر شيئًا

وقد رحل أمير أوستريا بعد ذلك

إلى غاليرا الثائرة

تاركًا جيشًا عظيمًا مع الدوق

باقياً معه فى البشرات

وقد وصل سموه إلى أويسكار

حيث كان متواجداً ماركيز بيليث

الذى سرَّ كثيراً لرؤيته

والذى فاقت شهرته الآفاق

"خاتمة"

الفصل العشرون

الذى يتحدث عن حصار السيد خوان لغاليرا وكيف أنهم قاموا بالهجوم عليها بشدة، وقد كتب عن ذلك الهجوم حامل اللواء توماس بيريث دى إيبيا (Thomás Pérez de Evia)، وهو أحد أبناء مورثيا، وقد تابع رايات السيد خوان حيث كان دائمًا أحد أفراد جيشه.

عرفنا من خلال الفصل السابق أن ماركيز بيليث الشجاع قد رحل من أويسكار دون أن يودع السيد خوان[1]، الذى تألم كثيرًا لغيابه لفقدان شجاعة وخبرة قائد عظيم وجندى ماهر، ولكنه اعتبر ذلك أمرًا ليس له حل وأنه من المناسب بحث أمور المعركة التى على الأبواب، وبعد دخول صاحب السمو مجلس الحرب الذى حضرته الشخصيات الهامة المحيطة به وجد أنه من الملائم نسبة للوقت ألا يتم التأخر فى أخذ ضربة البداية؛ فقام بإعداد الخطة واتخاذ قرار الحرب، وقد تم الاتفاق على أن يذهب الجيش للهجوم على غاليرا لأنها أول مدينة أخجلت أعين الجيش الملكى من فرط ما أبدته من مقاومة وقام المسلمون المقيمون بها بثورة وتصدوا لقوات ماركيز بيليث بعد أن قام بالهجوم عليها، وبدا لمجلس الحرب أنه بالقضاء على هذه العقبة لن تكون هناك أية عقبات فى الطريق حتى نهر المنصورة، حيث قاموا بتحصينات وتعزيزات للجيش، وسوف يسيرون محققين انتصارات وشهرة ويقضون هكذا على العدو وينهون هذه الحرب التى استمرت نحو سنة ونصف سنة، والتى تحدث عنها كتابى الذى كتبته بما وصل لى من أخبار سواء رأيتها أو كان لى بها علاقة. والحق إننى لم أتواجد فى أثناء حصار غاليرا، وكنت أتمنى لو عايشت هذه الواقعة كى أكتب عنها مستندًا للحقيقة كما تحدثت عن غيرها من أحداث الحرب والتمرد، والتى كنت أحتاج أن أبحث عن معلومات حقيقية وأصلية لا تحتمل التناقضات أو التعارض إذا ما قورنت بأهمية وقيمة العمل، وهكذا كنت دائمًا أحاول الوصول إلى المعلومات مستخدمًا الحكم الذكى والعقلانى لتمحيصها وتحقيقها فكنت أوجه الأسئلة

(١) هذا يؤكد أن رواية بيريث دى إيتا للأحداث فى السابق تخالف الواقع، فمن الثابت أن الماركيز ساءه أن يُعامل بشكل لا يتناسب مع مكانته فمضى دون أن يودع الأمير. (المراجع).

للقادة والجنود والضباط والرجال أصحاب المناصب الذين كانوا موجودين فى المكان وقت وقوع الحدث ورأوه وفهموه من وجهة نظرهم، وإذا كانت آراؤهم ترقى إلى الحقيقة أسجلها.

وقد نما إلى علمى أن حامل اللواء توماس بيريث إيبيا، وكان من أبناء مورثيا، وهو أحد الجنود القدامى المتميزين، الذين تابعوا راية السيد خوان وجيشه قد اشترك فى هذه المعركة، وقد قام بتسجيل مقتضب لأحداث المعركة وحصار غاليرا يوماً بيوم، وقد قام بكتابته بيده بنفس ترتيب الأحداث حسب تسلسلها الزمنى، وقد طلبت هذه المذكرات منه فأعطانى إياها. وقد بدا لى حسب المنهج والطريقة التى اتبعها فى التسجيل أنه يريد تقديم حقيقة غير متحيزة بأسلوب جاد وهادئ يصاحبه بعض المميزات الشخصية مظهراً أن هذه المعلومات قد قام بكتابتها أحد الجنود الذين مارسوا الحرب ولديهم الخبرة فى فنونها، وقد رأيت أن أذكر هذا تماماً كما أعطاه لى، دون أن أضيف إليه أو أحذف منه شيئًا، محافظًا على أسلوبه، دون أن أفقد خيط التسلسل أو أقطعه أو أخفى جدية مميزاته الأسلوبية، وهكذا أعرض ما كتبه كما هو فى السطور التالية.

يقول حامل اللواء فى خطابه، إن السيد خوان قد قرر، كما سبق وقلنا، فرض حصاراً حول غاليرا، وقد خرج سموه من مدينة أويسكار كى يصل إلى غاليرا صباح يوم الأربعاء، الموافق ١٨ من يناير ١٥٧٠، بصحبة جيشه، الذى كان يتكون من ١١ إلى ١٢ ألف جندى مشاة مقسمين إلى ٧٣ جماعة مشتملة على جيش نابولى، وبقية الجنود الآخرين الذين كانوا بصحبة ماركيز بيليث، ومقسمين إلى ثلاثة أجزاء رئيسية، كان على رأسها القادة أنطونيو مورينو والسيد لوى دى فيغيروا والسيد بدرو بابيا، وكان معهم ثمانمائة فارس على رأسهم السيد غارثيا مانريكى. إلى جانب ذلك كان هناك فرسان البلاط ومغامرون وأناس غيرهم يتبعون الجيش. ويقول إن سلاح المدفعية لم يخرج مع الجيش ذلك اليوم؛ بل انتظروا حتى يوم آخر وبقيت المدافع فى أويسكار بسبب عدم الانتهاء من تركيبها وحملها على العربات.

وقد قطع الجيش المسافة بين أويسكار وغاليرا، التى ليست طويلة، بهذا النظام: كان فى مقدمة الجيش السيد بدرو دى باديا ومعه جنود جيش نابولى. وفى قلب الهجوم السيد أنطونيو مورينو وفى مؤخرة الجيش السيد لويى دى فيغيروا ومعه جنوده، وهكذا وصلوا إلى غاليرا.

وقد نزل الجيش كله ذلك اليوم فى وادى بالقرب من ترامونتانا (Tramontana)، حيث كان يجرى نهر صغير. أما سلاح الفرسان الذى كان يسير على الجانب الأيمن من المشاة فى طريق أكثر استواء من الذى سار فيه الجنود؛ فقد نزل فى نفس الوادى، ولكن على الشرق من المكان الذى نزل فيه المشاة، وقد بقوا فى نفس ذلك المكان.

وفى تلك الليلة تم إطلاق النار فى كل قطاعات الجيش، وقد خرج السيد خوان من أجل متابعة هذا الأمر إلى ميدان السلاح، وبعد أن تفقد الجيش وعلم سبب إطلاق النار وأنه قد أطلق بطريق الخطأ، أمر بعدم التحدث فى هذا الموضوع وتهدئة الجيش ثم عاد إلى خيمته.

فى الخميس التالى خرج صاحب السمو ومعه فرقة من حَملة البنادق لتفقد المكان والأرض المحيطة، على الرغم من أنه قد قام قبل يومين بنفس الشىء، وكان بصحبته عدد من الفرسان والمشاة، وفى رحلة الاستطلاع هذه قاموا بالاشتباك مع مجموعة صغيرة من الرجال المسلحين من المسلمين القاطنين فى هذه الأراضى والذين جاءوا لإفشال مخططهم، وفى أثناء ذلك الاشتباك قام المسلمون بقتل أربعة جنود منهم وإصابة عشرة آخرين بسبب خطأ ارتكبه أحد القادة كان بصحبتهم. وعندما استطلع الأمير الأماكن التى اعتقد أنها مناسبة لنصب المدفعية، أمر جيش نابولى ومعه بعض الجنود المنضمين إليه، بأن يذهب إلى المكان ويحيط به جزءاً من النهار، وأن يهبط من قمم الجبال إلى بعض الوديان حيث تقع غاليرا بحيث يسيطر عليها ولو من بعيد، ثم يهبط إلى الوديان الموجودة على الأرض المستوية فى الجزء الغربى منها، وأن ينزل هناك كى يحيط بالمكان الأكثر ضيقًا، وقد نفذ جيش نابولى الأوامر كما كان مخططًا، وقد أحسن السيد لوبى من وضع قواته فى الوادى، فى المكان الذى تركه جيش نابولى، حيث اقترب أكثر من الأراضى التى يقيم فيها السيد أنطونيو مورينو، والتى قلنا إنها تقع ناحية الشرق. وبدأ جيش نابولى فى المساء بحفر خنادق بداية من النهر الذى يجرى من الشرق حيث ينبع ويتجه ناحية الغرب، ويسير عبر ترامونتانا، على حدود أويسكار، ويبتعد عنها فيما بعد مسافة. فى تلك الليلة أقاموا بعض السواتر الترابية ونصبوا المدافع التى بدأت تسوى الأرض من الناحية الغربية الشرقية، وهو الجزء الأكثر استواء فيها، والذى يميل نحو الوديان وذلك فجر الجمعة.

استمر وضع القطع الحربية منذ الفجر حتى الليل، وقد حطموا بها برج الكنيسة الذى كان خارج الأسوار ويبعد عنها نحو ستين خطوة، والذى كان مبنيا من الطوب القوى الذى

كان الأعداء يستخدمونه هو وبعض الأبراج الأخرى فى إطلاق النار على رجالنا الموجودين فى الخنادق. وعندما قمنا باكتشاف مكان إطلاق النار كان من الضرورى إزالة هذا البرج بسبب الخطر الذى سببه لجنودنا، سواء الفرسان أو المتواجدين بالخنادق، وحولها، الذين لم يتمكنوا من الدخول فيها أو الخروج منها دون إصابات. وهكذا عندما تم نصب المدافع وأخذت وضعها كما أمر صاحب السمو قمنا بالهجوم عليها، وقد أصابها الجنود بكل سهولة لأن المسلمين الذين كانوا يقومون بحراستها تركوها وانبطحوا أرضًا، دون أن ينالوا من جنودنا بسبب انسحابهم وهم يُطلقون الرصاص. وقد لقى عشرة جنود مصرعهم فى هذا الهجوم وأصيب آخرون. وقام ماركيز نابارا السيد لورينثو تييث بورتوغيث بدور عظيم فى أثناء ذلك.

يبدو أننا لا بد أن نتحدث عن حصار هذه الأرض. وقبل أن نتقدم فى الحديث، يصبح من الملائم أن نعطى معلومات عن طبيعة الأرض حتى نستطيع أن نفهم بشكل أفضل خصوصيتها وطبيعتها التى قاومت كثيرًا والتى تحدث عنها هذا الخطاب.

تعتبر غاليرا من البلاد التى تتميز بطولها أكثر من اتساعها، طولها يبدأ من جنوب ترامونتانا، من الغرب إلى الشرق. محيطها ليس بكبير، على الرغم من ذلك فإن شوارعها ليست بضيقة وبيوتها ليست صغيرة، وهى مجهزة على طريقتها. عدد سكانها أكثر مما تبدو عليه. وتأخذ المدينة شكل السفينة، قاعدتها إلى أعلى، ولهذا سُميت بهذا الاسم الذى يعنى "سفينة"[٢]، وتقع مؤخرة السفينة عند المنطقة التى هاجمها الجيش من ناحيتها، وتتجه مقدمة السفينة نحو ترامونتانا، فى طريق العودة إلى أويسكار، وقد بُنيت المدينة كلها فوق صخرة منحدرة، إلا فى المنطقة المقابلة للوديان، حيث نزل جيش نابولى وأقام، وحيث توجد الكنيسة. هذه الأرض كما سبق وقلنا مستوية، ولكن ليس للدرجة التى ينعدم فيها وجود انحدار قوى كما فى الأجزاء الأخرى، حيث يوجد أمامها تجويفٌ، قام بفتحه بعد إعلانهم الثورة، والذى على الرغم من عدم اتساعه، فإنه أسهم بشكل كبير إلى جانب تحصنها، فى الدفاع عنها. ومن ناحية مؤخرة السفينة، التى تتميز بارتفاعها واستقامتها عن الأجزاء الأخرى، توجد قطعة صغيرة بُنيت عل الطراز القديم، وتبعد حوائطها إلى نحو ست خطوات من السور بحيث يمر طريق صغير بينهما، وهى تعتبر من أهم بنايات القرية، وكان يملكها أحد الفرسان. أما السور

(٢) غاليرا galera كلمة إسبانية معناها سفينة . (المراجع).

الذى لا يعتبر عاليًا جدا فقد بُنى أيضًا على الطراز القديم وتحيط به بعض الأبراج الصغيرة التى لا تنتمى لنوع معين من العمارة الحربية الحديثة أو الجميلة.

وقد شُيدت غاليرا (آخذين فى الاعتبار أنها تُشبه السفينة التى تتجه قاعدتها إلى أعلى) على حافة هذه الصخرة بحيث تظهر عالية من تحت، لا يمكن الوصول إليها. ومن الطرق التى تأتى من الشرق والغرب والجنوب، حتى الوصول إلى الخندق الذى فتحوه من جديد، كانت هناك بعض الوديان أو مجارى السيول التى يصل اتساعها فى أضيق أماكنها إلى مائتى خطوة بحيث كان يمكن استخدامها كخندق على الرغم من أنها أقل اتساعًا وعُمقًا وأكثر استواءً ناحية المؤخرة، وفى نفس الوقت كان يجرى فى ناحية ترامونتانا نهر صغير.

وتحيط التلال والقمم المرتفعة غاليرا من كل جانب على الرغم من أنها تبعد عنها نحو أربعمائة خطوة على الأقل، ولكن يمكن من فوقها، كما حدث، أن تُدك البيوت وأن تطلق النار على الدفاعات، ولكن المعركة كانت صعبة وسيئة، وقد ظهر أنه من المستحيل الفوز بالهجوم من أى قمة على الرغم من أن السور بأكمله ومعظم البيوت القريبة منه قد سويت بالأرض. كانت هناك الصخرة الشديدة الانحدار (التى لا يمكن الهجوم عليها وهدمها) والتى كان يستطيع أى رجل أن يتسلقها ويصعد عليها بمساعدة آخر، ويحتاج إلى من يدافع عنه فى أثناء ذلك، وحتى لو كانت هذه الأراضى مستوية لما أمكن الهجوم عليها، وذلك للاستعدادات والتحصينات التى امتلأت بها ولأن القائم بالهجوم سيكون مكشوفًا أمام دفاعاتها بعض الشىء. كان مجرى السيل الموجود فى المؤخرة مستويا بعض الشىء وأقل عمقًا من غيره؛ لذا فقد كان يسمح بالهجوم المريح ويتيح للمهاجمين الفوز من هذه الناحية قبل النواحى الأخرى.

كان بداخل المدينة نحو ثلاثة آلاف رجل محارب، معظمهم من أهالى البلدة وبعضهم من البلدان المتاخمة الذين رحلوا إليها مع أولادهم وزوجاتهم، وكان يوجد أيضًا نحو أربعمائة مسلم من البشرات وبلاد العرب وبعض الأتراك، رغم قلتهم، والذين كان الآخرون يسمونهم الغرباء؛ فقد كانوا من الجنود المترفين والمرتزقة. كان هناك أيضًا أربعة آلاف امرأة وطفل صغير من الجنسين، وعلى رأس كل هؤلاء رجال من أغنياء القرية وأكابرها الذين كانوا يقومون بمهام الحرب والحفاظ على الأمن والعدالة، وقد قام هؤلاء بتوزيع الثكنات استعداداً للحرب، كما قاموا باختيار القادة وتعيينهم وعمل كل الإجراءات اللازمة من وجهة نظرهم للحرب؛ فقد كان لديهم كمية كبيرة من القمح والدقيق واللحوم المملحة والزبيب والتين والرُّمان والفول والحمص والأشياء التى تعينهم على الحياة لأيام طويلة إلى جانب المياه الصالحة

للشرب والتى استخرجوها من نبع قاموا بحفره بعد إعلانهم الثورة. كان لديهم أيضًا مائتا بندقية، على الرغم من قلة الذخيرة. لم يكن لديهم مدفعية سوى مدفعين قديمين كانوا قد حصلوا على واحد منهما من الجيش المسيحى، عندما أمر الماركيز بالقيام بأول هجوم. وقد تم نصب هذين المدفعين فى برج القلعة، وقد أطلقوا النار من خلالهما دون أى تأثير أو وقوع إصابات.

مساء الجمعة بدأ حفر خندق آخر ناحية المؤخرة، والتى تبدأ من أحد التلال المطلة على الجنوب، ومن هناك كان يتجه مع اتجاه الريح حتى يصل إلى مسافة نحو ثلاثين خطوة من الصخرة التى بنى عليها سور البلدة. وعلى منصة ترتفع فوق ربوة صغيرة تم نصب مدفع قوى ومدفعين صغيرين وبعض القطع التى بدأت فى إطلاق نيرانها فجر السبت.

وعلى جهة اليمين من هذه القطع، على تل مرتفع من التلال التى تمتد أمام مؤخرة السفينة، تم نصب ثلاثة مدافع على منصة تم إعدادها، حيث كان يطلق النار من هناك على الدفاع، وقد أحاط بالمنصة خندق صغير كان جنودنا يقومون بإطلاق نيران بنادقهم منه على العدو حين يظهر.

وعلى أحد التلال الأخرى ناحية اليسار جهة الغرب وفى نفس هذه المؤخرة تم وضع أربعة مدافع وحفر خنادق للقيام بنفس الشىء الذى تقوم به القطع الأخرى.

كانت القطع التى وضعت فى الوديان والمؤخرة تقوم بدك البلدة باستمرار، بينما كانت القطع الأخرى المدافعة تطلق من وقت لآخر نيرانها، ولكن ليس بالقوة ولا العنف المناسبين بسبب عدم وجود الذخيرة اللازمة والتى كنا ننتظر قدومها من قرطاجنة ومعها ثلاث عشرة قطعة من المدفعية.

لم يحدث شىء جديد أو أى حدث له خطورته منذ الخميس وحتى الاثنين التالى له سوى أن المدفعية كانت تدك باستمرار، وفى أثناء ذلك الوقت الذى كنا نقوم بحفر الخنادق ودخول للحراسة والخروج منها وتحرك الجنود لخدمة المدفعية، قام المسلمون بقتل قائدين أحدهما كان قائد مدفعية إلى جانب ثمانية وعشرين جنديا وإصابة عدد كبير آخر.

وبعد الاستيلاء على برج الكنيسة وتجاوز الخندق، اقتربت قطع المدفعية أكثر من السور، ولأنها كانت قد قامت بدك أراضى المنطقة طيلة هذه الأيام، حيث كانت أكثر المناطق استواء،

كما سبق وقلنا، فقد أمر السيد خوان صباح الثلاثاء بأن يقوم الجيش من هذه الناحية بالهجوم على العدو دون دوى أو جلبة كى يستكشفوا مكان المدفعية، حيث كان هذا هو الهدف الأساسى للهجوم الذى نظم من أجله، إلى جانب الدخول إلى المدينة مستغلين الفرصة؛ فربما يستطيعون الاستيلاء على المدفعية والفوز ببعض الأراضى القريبة من السور إلى الداخل ويقومون فيها بتعزيز قواتهم فربما ينتهى الأمر بالفوز ببقية البلدة.

وهكذا قام جنودنا بالهجوم تحت قيادة اثنين من قادة جيش نابولى وبعض الفرسان والجنود، وعند وصولهم إلى الخندق الصغير، الذى قلنا إنه موجود فى تلك المنطقة، استطاعوا عبوره بكل سهولة، واستطاع بعضهم تسلق السور والدخول فى بعض البيوت القريبة من السور، عند ذلك قام المسلمون بحمل سلاحهم والخروج للدفاع عن مدافعهم بكل شراسة، ودون الفوز بشبر واحد فى الميدان، أجبروا الجنود على الانسحاب والتراجع عن الأراضى التى وطئوها. وقد دارت هناك معركة عظيمة بين المسيحيين الذين يريدون الدخول والمسلمين الذين يدافعون عن بلدتهم، والحق أن المعركة كانت ضارية ومثيرة للرعب من فرط ضجيجها والصيحات التى تعالت فيها من الجانبين إلى جانب دوى البنادق الذى كان رهيبًا فى سماعه مرعبًا فى رؤيته. وأخيراً، بعد أن استمرت المعركة وقتًا ليس بالقليل رأى جنودنا أنه من الملائم لهم الانسحاب، بخاصة أنهم قد أصيبوا بخسارة ليست بالقليلة؛ فقد فقدوا قائدا لقى مصرعه بينما أصيب قائد آخر وقتل أحد الفرسان المهمين، وكان يُدعى السيد خوان باتشيكو، أحد فرسان رهبانية سانتياغو، كما أصيب السيد خوان دى كاستيا إصابة بالغة من طلقة رصاص أودت فيما بعد بحياته، إلى جانب إصابة باغان دى أوريا، أخو أمير البحر خوان أندريا دى أوريا، من طلقة نارية أخرى، كما قتل خمسة وعشرون جندى آخرون، وأصيب آخرون إصابات خطيرة.

وبعد هذا الاشتباك الدامى الشرس، استمرت مدفعيتنا فى دك أراضى العدو، وإن كان بشكل أقل من الأول، وذلك بسبب نقص الذخيرة، التى لم تصل من قرطاجنة ومعها المدافع، والتى كانوا ينتظرون قدومها خلال ساعات. لهذا السبب ولسبب آخر - وهو أن المدفعية كانت ذات تأثير ضعيف وذلك لعيب فى موقعها، ولأنه لم يكن ممكنًا رفع ما تهدم من السور، ولا التمكن ساعة الهجوم من الصعود أو الاستيلاء على الأرض- تم الاتفاق على تلغيم تلك الرأس بحيث يتم تحطيم الصخرة تحت المنطقة التى تم دكها، ولأن الصخرة كانت من نوع من الحجر الأبيض الضعيف إلى حد ما؛ فقد تم تلغيمها بسهولة، وقد قام الجنود بكل ذكاء بهذا العمل

بحضور فرانثيسكو دى مولينا، الذى كان حاكمًا لأورخيبا عندما كانت محاصرة، كما سبق وقلنا فى الفصول السابقة، وقد انتهت العملية بوضع أكثر من خمسة وأربعين برميلاً من البارود مساء الخميس.

الجمعة السابع والعشرون من الشهر صباحًا، رأى السيد خوان ومجلس الحرب أنه نظرًا لأن الألغام تم ردمها لأن الأرض تم دكها قدر الإمكان، وبهذا وبالتفجيرات التى أحدثتها الألغام يمكن فتح طريق وعمل فجوة لإدخال المدفعية منها، ولذلك يجب القيام بهجوم شامل من هذا الجزء من المؤخرة. أما من ناحية الوديان أيضًا، فقد تم دك السور من تلك الناحية أيضًا بعد الهجوم الأول، وقد اتضح أنه فتح طريقا بحيث أصبح من السهل الدخول إلى حيث يوجد الأعداء بسهولة أكثر ومهاجمتهم. وبعد أن تم مناقشة هذا الهجوم، تقرر القيام به بالطريقة الآتية:

يقوم جيش نابولى بالهجوم من الجزء الواقع بالقرب من الوديان والذى تم الهجوم السابق من ناحيته، على أن يحمل أفراده هذه المرة بعض الأغطية التى صُنعت لهذا الغرض، لأن المسلمين سينشغلون بالدفاع عن قطع مدفعيتهم، وفى أثناء ذلك يتم ضرب الألغام من منطقة المؤخرة، وعند انفجار الألغام وتصاعد التراب والدخان تبدأ المدفعية فى إطلاق قذائفها، وفى تلك اللحظة يتم الهجوم من هذه الناحية. وقد تم تخصيص خمس فرق من جيش أنطونيو مورينو من أجل القيام بهذا حيث سيكونون فى مقدمة الجيش، وأربع فرق أخرى ستكون موجودة فى قلب الهجوم ليكونوا فى نجدتهم إذا استلزم الأمر، وست فرق أخرى من جيش لوبى دى فيغيروا ليكونوا فى المؤخرة من أجل نفس الغرض بينما يحرس الباقون أماكن الإقامة والسكن ويقوم الفرسان بحراسة الحملة.

كانت الساعة تشير إلى الثامنة صباحًا عندما قام السيد بدرو دى باديبا بإعطاء إشارة الهجوم للفرق التى تم اختيارها من جيشه والتى كانت ستضرب من مدفعيتها. وقد قام أولئك الجنود بمهمتهم بكل شجاعة وحماس، وبعد أن استطاعوا بكل خفة عبور الخندق، سيطروا على السور والبيوت المجاورة له، التى دخلوها فى الهجوم الأول، والتى تركها المسلمون مضطرين كى يدافعوا عن أنفسهم، وبين هؤلاء وأولئك، دارت معركة شرسة بالبنادق والرماح، حتى وصلت إلى استخدام السيوف. منْ رأى الأعاجيب التى قام بها المسيحيون والشجاعة التى أظهروها؟! المسيحيون من أجل الدخول، والمسلمون بكل شجاعة من أجل الدفاع، البعض

يصيح "سانتياغو، سانتياغو"، وآخرون يهتفون: "محمد، محمد!"، وبهذه الطريقة سارت المعركة الضارية والدموية والتى سقط فيها الكثير من القتلى من كلا الجانبين.

فى ذلك اليوم قام أهالى لوركا ومورثيا ببطولات عظيمة أظهرت قيمتهم التى استحقوها دائمًا والشجاعة التى بسببها فاز الجيش بشعار تيجانه الذهبية الستة، كما سبق وفازت لوركا بشعار الملك ألفونسو، والتى يعرفها جيداً جيش المسلمين. إذن، دارت المعركة باضطراب شديد وبكل شراسة بشكل كان يثير الرعب من فرط الشجاعة وقوة الهجوم. وكان الضجيج رهيبًا لدرجة يصعب معها رؤية أو سماع أحد للآخر، وذلك بسبب التراب المتصاعد والظلام الدامس وقتامة البارود، وكان الهجوم المسيحى كثيفًا لدرجة لم يستطع معها المسلمون استخدام البنادق أو إطلاق نيرانها وهم يرون، بل كان الضرب دون تصويب على جنودنا الذين دخلوا بكل شجاعة إلى أراضى المدينة متجاوزين العراقيل التى كان المسلمون قد أعدوها لمثل هذا اليوم، وقد سقط الكثير من المسلمين قتلى وجُرح الكثير من رجالنا خلال الدفاع الرهيب عنها، ولذلك لم يستطع رجالنا التقدم إلى الأمام بل تراجعوا إلى الخلف بعد أن قتل أربعة قادة وأصيب ثلاثة آخرون برصاص البنادق، وقد مات اثنان منهم فيما بعد متأثرين بجراحهم. وقد أصيب أيضًا بعض حاملى اللواءات ولقى أكثر من ثمانين جنديا مصرعهم وأصيب نحو مائة وخمسين آخرين، وقد مات الكثير منهم بعد ذلك متأثرين بجراحهم، وجُرح السيد بدرو دى باديا من طلقة رصاص. وعندما رأى السيد خوان تأثير المعركة على الوجوه وهى تسير بكل شراسة ودموية بين جنودنا وجنود المسلمين، لم يرغب فى الخضوع والاستسلام بل أمر بإشعال النار فى الألغام التى تم زرعها ناحية مؤخرة السفينة، كما سبق وخطط. وبعد إشعال النيران بدأت الألغام فى الانفجار، وإن كانت انفجاراتها أضعف مما كان منتظرًا، وذلك لتلف بعض الفتائل الخاصة بالألغام فى المحاولة الأولى، ومع ذلك فقد أحدثت خسائر جسيمة لأنه مع الحركة المصاحبة لانفجارها وانطلاقها، تهدم جزء كبير من الصخرة المنحدرة ومعها جزء من السور والبيوت التى كانت فوقه، مما مهد الأرض للدخول أفضل من المحاولة الأولى، على الرغم من وجود بعض الصعوبات والخطورة التى بسببها يستطيع منْ بالداخل الدفاع عن أنفسهم بسهولة كما فعلوا من قبل.

عندما رأى جنودنا أن الألغام قد انفجرت، اعتقدوا أن تأثيرها سيكون أكبر مما حدث بالفعل، كما كان يبدو من الخارج، وذلك رغبة منهم فى مواجهة الأعداء أو بالأحرى الحصول على الغنائم التى كانوا يطمعون فيها، وهذا هو الأقرب للحقيقة والصواب، لأنه كان يُقال آنذاك

إنه بالمدينة عدد كبيراً من العبيد والكثير من النقود والحُلى والملابس. ودون انتظار الأوامر، كما كان يجب أن يكون، أو انتظار إشارة بدء الهجوم التى لا بد أن تُعطى لهم، وكجنود غير منظمين وسيئين حديثى العهد بالمعارك، هتفوا قائلين: "سانتياغو، احم إسبانيا"، وهاجموا بكل شراسة ودون نظام من خلال الطريق المرتفع. عندما رأى حملة اللواءات عدم انتظام الجنود والمقاومة التى أبداها القادة لهذا، والتى على شدتها لم تستطع أن توقفهم، اتفقوا على القيام بنفس الشىء فألقوا بأنفسهم فى قلب الهجوم لكى يعززوا قوة الجنود ويحمسونهم، لأنهم موجودين للقيام بهذه المهمة، وقام القادة والجنود الآخرين بنفس الشىء، رغبة منهم فى الاشتراك فى المعركة، وقد اندسوا بينهم، وبفضل حماسهم واندفاعهم، خفقت الرايات المسيحية فوق أبراج القلعة الصغيرة.

وقام المسلمون، الذين تملَّكهم الرعب بعد أن رأوا انفجار الألغام والخسائر التى أحدثها؛ فقد طار بسببه عشرون رجلاً من رجال الحراسة والذين كانوا موزعين حول السور، قاموا بالانسحاب إلى الداخل. أما الباقون الذين لم يكونوا بعيدين عن هذا الخطر، وقد أصاب سلاحهم بعض زملائهم الذين كانوا يقومون بالحراسة، فقد صاحوا قائلين إن المسيحيين قد دخلوا المدينة. وعندما شعر المسلمون بصوت وسلاح الحراس وصياح وضجيج الجنود المسيحيين تشككوا فى الأمر؛ فتوجهوا سريعًا نحو المدفعية ومعهم بعض النسوة والأطفال، وعندما وصلوا إليها كان جنودنا قد وصلوا إلى حيث قلنا. فى تلك اللحظة أطلق المسلمون كعادتهم صيحاتهم التى شقت السماء، وبكل حماس يائس هاجموا المسيحيين وأخذوا يطلقون كميات كبيرة من الرصاص، على الرغم من عدم كثافتها لافتقادهم الذخيرة، والتى كانت دائمًا تنقصهم، فبدءوا فى إلقاء الحجارة وأخذوا يحاربون بكل شجاعة حتى التقت الأقدام بالأقدام، وقد أصابوا بالسيوف الكثير وجرحوهم بشجاعة، أوقفت جنودنا بعد وصولهم لشدة الدفاع الذى قاموا به، فلم يستطيعوا أن يتقدموا إلى الأمام أو يكسبوا أرضًا أكثر من ميدان المعركة بخطوة واحدة. وهكذا دار بين الجانبين اشتباك رهيب؛ فقد كان كل منهما يحارب الآخر بشجاعة تثير الرعب، لأن البعض يدافع عن الأرض، والبعض الآخر يريد الدخول فيها، معرضين أنفسهم للموت، فقد كانوا يحاربون بتصميم كبير. وقد وصلت بعض فرق الجنود حاملين الرايات إلى البرج ووجدوه عاليا وقويا، وقد توقفوا بسبب المقاومة الشديدة التى قام بها منْ بداخله، وبدءوا يقومون بالدوران حوله بقوة. وقد رأى ذلك حامل اللواء وبدا له أنه من التراخى البقاء هناك على هذه الصورة فقام بالنداء على بعض الزملاء والأصدقاء محاولاً

الصعود فوق البرج على الرغم من كثرة عدد المدافعين عنه، ولكن عندما قام بمحاولة صعوده ثلاث مرات، ووجه بمقاومة شديدة ومحاولة للإلقاء به إلى أسفل، لكنه أراد الصعود للمرة الرابعة وعمل ما قام به فى المرات السابقة، ولكنه تعرض لمقاومة شديدة وقد قبضوا على الراية التى يحملها فى يده محاولين الاستيلاء عليها، ولكن حامل اللواء الشجاع دافع أمام ضربات السكين بكل شجاعة، على الرغم من إصابته إصابة بالغة مما أدى إلى سقوطه بكل ألم من فوق البرج إلى أسفل، ولكن فى النهاية بقيت الراية فى يده لم يتخل عنها بل دافع عنها بكل شجاعة. لم يفرح الصبية ولا السيدات فى ذلك الوقت، فقد قاموا قبل ذلك بإلقاء الحجارة بكل حماس وقوة، وكانوا يحملون الأحجار لمنْ يحاربون بشكل يدعو للإعجاب. وقد برزت اثنتان بين النساء ظهرتا بمظهر شجاع فكان مدهشًا رؤيتهم وهما تحاربان بكل شجاعة، وقد كانت إحداهما تقود الباقيات وتحمسهن بكل قوتها، وكانت تتصدى بكل شجاعة وحماس بين جموع الناس لطلقات الرصاص والمدفعية والتى كان يتم إطلاقها من خنادقنا ومنصات المدفعية والمدفعية ذاتها بشكل يدعو للإعجاب؛ بينما كانت الأخرى تحارب بالسيف وتهاجم حتى الجنود، حتى الجندى الذى كان يحاول صعود البرج وهو واثق فى قدرته، وقد أصابته بسيفه إصابة خطيرة، ولم تكن راضية عن كل ما فعلته به، لذا قامت بالإمساك بقدميه بكل قوة وقد ضربت أقدامه، وفى لحظة لم يستطع أن يدافع عن نفسه خلالها، قامت بذبحه واستولت منه على درع وخوذة كان يحملها، وقد كانت أول إصابة أحدثتها له، فى الوقت الذى كان الجندى يصعد السارى، كانت من طرف السيف، وقد أصابت المنطقة التى أسفل الخوذة بحيث لم يستطع الجندى أن يقف على قدميه، وقامت المسلمة بعد ذلك بكل ما سبق وقلناه. وكانت هذه السيدة المسلمة تُدعى ثارثامودونيا (Zarçamodonia)، وكانت قوية البنيان، حادة الأعضاء، وذات قوة عظيمة. وقد وُجد أن هذه المرأة المسلمة قد قتلت ذلك اليوم بيدها ثمانية عشر جنديا من أمهر جنود الجيش. وأخيرًا، يمكن أن نقول إن الجميع قد استخدموا أيديهم وقاموا بواجبهم على أكمل وجه فلم يتوقف منهم أحد عن القتال.

وقد استمرت المعركة حامية الوطيس مع تغلب للجانب المسلم الذى قتل الكثير من المسيحيين، وإن كان قد سقط من المسلمين أيضًا الكثير من القتلى، وذلك بسبب كثافة إطلاق الرصاص والمدفعية والتى كانت تتساقط عليهم كالمطر، دون أن يتخلى أحد منهم عن شجاعته وتصميمه قيد أنملة خلال القتال الذى استمر بينهم ثلاث ساعات. فى أثناء ذلك الوقت، اضطر جيش نابولى إلى التخلى عن مدفعين، وقد وصل إلى ميدان المعركة بعض المسلمين الذين

قدموا لمساعدة زملائهم الذين كانوا بالفعل يحاربون بكل قوة، وكان المسلمون الجدد الذين وصلوا لتوهم ممتلئين بالحماس والشجاعة واستطاعوا بث الرعب فى قلوب الجنود المسيحيين فى تلك المنطقة والنجاح فى الدفاع عنها وإجبار الجنود المسيحيين على التراجع والابتعاد بخاصة وأن برج القلعة كان عاليًا، وكان من المستحيل عليهم أن يتسلقوه كى يكسبوا أراضى جديدة حيث لا يستطيعون عمل ذلك من خلال جزء آخر، ولشدة المقاومة التى كان يبذلها المسلمون. وقد بدأ جنودنا يحاربون بشىء من الضعف والتخاذل، وعندما شعر قادة الجيش بهذا صدر أمر بأن تهاجم الفرق الأربعة التابعة لقلب الهجوم بشكل قوى، وقد قامت هذه الفرق بهذا بكل شجاعة وقوة، وتدخلت هذه الفرق فى الأماكن التى بدأ الجنود فيها يأخذون قدرًا من الراحة ويتوقفون قليلاً عن مواصلة القتال، وكان هذا الأمر قد وصل إلى السيد خوان وأدركه تمامًا، لذا فقد أمر بأن تبدأ الفرقتان من الست التابعة لمؤخرة الجيش فى الهجوم، وقامت هاتان الفرقتان بالهجوم على الفور وبكل شجاعة وقوة وتأثير.

فى ذلك الوقت كان قد انقضت أربع ساعات والقتال لا يزال دائرًا، وكان جنودنا يحاربون بشجاعة نادرة، وكان الأعداء يحاربون بمهارة بحيث أصبح واضحًا شدة الدمار وقلة الثمار التى يمكن الحصول عليها فى حالة الإصرار على استمرار الحرب. وظهر أن هناك أمورًا تسير لصالح المحاصرين؛ فقد سقط جزء كبير من السور ومن البيوت الملاصقة له، وذلك بسبب قوة وكثافة الرصاص المتساقط عليه، وقد قتلت هذه البيوت المتهدمة ودفنت تحتها عددًا من الأحياء لا يقلون عن ثلاثين جنديا، ولم يحدث هذا فقط؛ بل لقد ضاع الأمل أيضًا فى إمكانية الصعود من خلال برج القلعة والدخول من خلال ذلك الجزء أيضًا، وذلك لتهدم الجزأين اللذين يتكون منهما البرج لدرجة صعبت المرور من خلاله، ولهذا أعطى السيد خوان إشارة لتجمع الجيش، وبدأ الجنود التراجع بعدها، وقد سقط ثلاثة من القادة قتلى وأصيب بقية القادة من الأحجار والرصاص، ومات بعد ذلك اثنان منهم متأثرين بجراحهم، وقد أصيب السيد بدرو دى فيغيروا إصابة شديدة، وكذلك رئيس الرهبانية العسكرية الذى أصيب بطلقة رصاص فى بداية الهجوم. وكذلك أصيب رئيس الرهبانية العسكرية أنطونيو مورينو إصابة بالغة من جراء إلقاء الحجارة عليه من قبل المسلمين، وقد قام الجميع بواجبهم على أكمل وجه كجنود شجعان خلال تلك المعركة الدموية. وقد لقى نحو مائة وخمسين جنديا من المشاة مصرعهم خلال تلك المعركة، وأصيب أكثر من أربعمائة غيرهم بجراح، وقد مات الكثير منهم بعد ذلك متأثرين بجراحهم. وقد أصيب الكثير من حملة اللواءات والجاويشية بإصابات خطيرة.

وقد أصيب الجانب المسلم أيضًا إصابات شديدة، ليست أقل من الأذى الذى لحق بالجانب المسيحى، على الرغم من عدم القدرة على استطلاع الأمر؛ ولكن فيما بعد، عرف السيد خوان من خلال بعض الأهالى الذين خرجوا من الحصار وقدموا إليه، أن الضرر الذى لحق بالمسلمين كان شديداً.

وكان عدد كبير من القتلى (أقصد الجنود المسيحيين) مصاباً فى ظهره، وقد دلَّ هذا على أنهم أصيبوا من طلقات الرصاص التى أطلقها جنودنا، غير المستعدين لمثل طلقات الرصاص التى أطلقها جنودنا، غير المستعدين لمثل هذا النوع من المعارك، ولم يكن هذا بالشىء القليل. كان الاضطراب العظيم الذى دارت فى أجوائه المعركة والتقارب الشديد بين المتقاتلين فى أراضى الأعداء بخاصة عند المدفعية - والتى جعلت عملية إطلاق النار على الأعداء تشمل إصابة الجنود المسيحيين -، كان ذلك سبباً ولكن هناك سبب آخر وهو أن الجزء الأكبر من جنودنا كانوا سيئين وغير مدربين، وهذا وحده يكفى كى نشك فى إمكانية قتل الأصدقاء بعضهم بعضًا. وعندما رأى صاحب السمو هذه الأحداث المؤسفة التى وقعت فى المعارك السابقة وعدم رغبة الأعداء فى الاستسلام و أن الأراضى لم تكن أكثر تمهيداً عنها فى المرات السابقة، وأيضًا التأثير البسيط للمدفعية والذى تعارض مع التفكير السابق فى استخدامها لدك حصون الأعداء قبل الهجوم وفتح طرق لدخول المدينة وهدم البيوت، ولكن لم يؤخذ فى الاعتبار أنها ستكون سبباً فى الإيذاء وأنه لا بد من رفع مخلفات الهدم، بدا للأمير أنه من الأفضل الاستمرار فى استخدام الألغام وذلك لفائدتها واستمراريتها أكثر من أى سلاح آخر. وهكذا فقد أمر بأن تقوم الفرقة التابعة للمؤخرة والتى كانت على بُعد ثلاثين خطوة من ناحية الجيش وأربعين أو خمسين خطوة ناحية اليسار من حقل الألغام الأول، بفتح النار من جديد على اثنين من حقول الألغام وأن تدخل إلى الأمام بعد ذلك فربما طارت القلعة وبرجها من شدة الانفجار والتى ووجه فيها الهجوم السابق بالدفاع المستميت عن كل الأرض. وعلى الفور تم تجهيز الألغام بحماس شديد، وهم يضعون أملهم الأخير لهذه المعركة فى هذا النوع من الأسلحة والآلات، وسوف نتحدث عن هذا فى الفصل القادم. وعن الأحداث السابقة تم تأليف هذه القصيدة:

"قصيدة تتناول الحصار الذى ضربه السيد خوان حول مدينة غاليرا"

شكل ابن الملك الشهير

الذى قام بالهجوم على غاليرا

جيشاً عظيماً

كان به اثنا عشر ألفا من المشاة

ومعهم ألف فارس

وقد قسمهم إلى ثلاثة جيوش

يكوّنون فى مجملهم الجيش الكبير

وقد عيّن على الأول

السيد بدرو دى باديا

والجيش الثانى كان على رأسه

السيد لوبى دى فيغيروا

أما الجيش الثالث فكان يرأسه

السيد أنطونيو مورينو

وهو جندى عظيم وشهير

وقد ذهب السيد خوان

ابن الملك كارلوس للاستطلاع

وقام بحفر الخنادق القوية

التى أحاطت بالمكان

كما شيَّد المنصات

فهى ضرورية جدا

ونصبوا عليها المدافع

التى وصلت إلى ٣٦ مدفعًا

وكانت تدك كل مكان

وبعد أن تم الدك

بدأ الهجوم الشديد

ولكن المسلمين قاوموا

بكل شجاعة

وقتلوا الكثير من المسيحيين

وقطعوهم إربًا

لأن شجاعة المسلمين كانت عظيمة

على الرغم من الألغام

وشنَّ المسيحيون هجومين

ولكن كانا بلا فائدة

لأن المكان كان محصنا وقويا

ودافع عنه أصحابه بشدة

وقد لقى القادة مصرعهم

وكذلك حَملة الألوية

وإلى جانب هؤلاء

قتل أكثر من ألف جندى

وعندما رأى السيد خوان الشجاع

هذا الموقف السيئ

أمر بزرع حقلى ألغام

حتى يتم تدمير المكان

كل المكان المحصن

بهذه الطريقة التى لم يجد خيراً منها

وفى أثناء ذلك

عقد المسلمون مجلساً

لمناقشة ما يمكن عمله

فى هذا الموقف السيئ

"خاتمة"

الفصل الحادى والعشرون

الذى يتناول عقد المسلمين فى غاليرا مجلسًا للحرب بعد أن رأوا الخسائر الجسيمة التى ابتلوا بها، والاختلاف بين أبناء المدينة والأغراب والنهاية التى انتهى بها هذا المجلس وكيف استمرت الحرب الضارية ، وكل ما حدث بعد ذلك فى غاليرا.

تناول الفصل السابق وجهة نظر السيد خوان بعدم جدوى أو التأثير الضعيف لهدم غاليرا ودك حصونها وشن هجومين عليها ضاع خلالهما وقتٌ طويلٌ وقتل الكثير من القادة والجنود، لذا فقد وافق سموه على زرع الألغام بها بحيث يسهل هذا الأمر، وهى أفضل طريقة فى نظره، لدخول البلدة واقتحامها دون أن يصاب جيشه بخسائر فادحة أو يتعرض لخطر كما حدث من قبل. وهكذا بدأ العمل على زرع الألغام المخفية، وهو أمر لم يتوفر له السرية اللازمة أو الاختفاء عن أعين مسلمى غاليرا الذين شعروا به، وهكذا أصابهم الرعب من جراء هذا العمل فعقدوا مجلس حرب ليتناقشوا فيما يجب أن يقوموا به لعلاج ذلك الموقف. وعندما اجتمع القادة المشهورون وبعض الجنود من أبناء البلدة، قام أحد القادة الأتراك، والذى كان المالح قد تركه لحماية هذه البلدة، بتقديم اقتراح على الجميع كرجل خبير بشئون الحرب والمعارك، وقال:

"حديث القائد التركى إلى أهالى غاليرا"

" إنكم تدركون جيداً، أيها القادة الشجعان والجنود المغاوير، الموقف الصعب الذى نحن فيه جميعًا، ففى قمة احتياجنا للدفاع عن أنفسنا افتقدنا الذخيرة، والتى هى من أهم الضروريات بالنسبة لنا، والحل الوحيد أمامنا هو الحصول على هذه الذخيرة، على الرغم من أننا لدينا كميات وافرة من الاحتياجات الأخرى، ولكن تنقصنا الذخيرة وهى ضرورية للغاية، فهى تجعلنا نفقد الأمل الأخير لدينا، هذا الأمل الذى تمسكنا به بشجاعة أمام حاكم مورثيا وقواته، ولكن من الآن فصاعداً سوف نواجه جيوش أخى ملك إسبانيا والذى يأتى إلينا بقوة

غاشمة ويمكن أن ندرك بوضوح أنه يهدف إلى عدم الرحيل من هنا قبل أن يدمر قوتنا وذلك للمقاومة الشديدة التى تصدينا بها لجيشه؛ لذا فهو يريد أن يذبحنا بالسكين. هل نفتقر الذخيرة ؟ هل فقدنا الكثير من جنودنا وأهالينا فى الهجومين السابقين؟ هل أسلحتنا دون بارود أو رصاص لا فائدة لها ولا تساوى شيئًا؟. إن الكثير من النساء والأطفال الذين نعولهم يمكن أن يتعرضوا للذبح وسوف يؤلمنا ويثير شفقتنا رؤيتهم وهم يذبحون أمام أعيننا دون أن نستطيع أن نفعل لهم شيئًا؛ إذن لا بد أن نأخذ فى اعتبارنا هذه الأمور، أيها الشجعان، إننى أرى أن نضع سعادتنا أو هلاكنا بين يدى القدر فنخرج من هذه البلدة فى ليلة شديدة الظلمة بعد أن حافظنا عليها حتى الآن بهذه الحالة، إننى من جانبى ومعى جنودى سنتحمل المسئولية عن نصف عدد الأولاد والسيدات وسوف أخرج بهم من المنطقة المواجهة للنهر حيث تستقر قوات مورثيا الشهيرة التى سبق لها أن ألحقت بنا أذى شديدا على أيدى قادتها، ولو وقف الحظ إلى جانبى، فسوف أستغل الظلمة للذهاب فوراً إلى سيرون (Serón)، التى سوف تستقبلنا بحفاوة. وليأخذ أحد القادة الشجعان النصف الآخر من النساء والأطفال على عاتقه ويخرج بعد خروجى بوقت وجيز، وليتجه فى طريق أورثى (Orze) بكل سرعة، ومن هناك يتوجه فى الظلام إلى أوريا ومنها إلى بورتشينا حيث يتواجد القائد المالح الشجاع؛ وإذا كان الحظ ليس فى صفنا وشعر بنا الأعداء، فسيقومون بالهجوم على مجموعتينا أو على واحدة منهما، وحينئذٍ سوف ندافع عن أنفسنا قدر الإمكان وربما يلعب الحظ لصالحنا فتنجو واحدة وربما تنجو المجموعتان، وربما يستجيب الله تعالى لرجائنا وتوسلنا بنبينا محمد، فلا يشعر الأعداء بنا، وينزل عليهم سُباتًا يُغلق أعينهم، وبعنايته تعالى نخرج جميعًا سالمين. هذا هو ما أرى وأعلم أنه من الصواب أن يتم الرد على اقتراحى هذا ممنْ فهموه جيداً، وسوف نأخذ بأفضل رأى بحيث يكون هو الأفضل من وجهة نظرنا جميعًا".

هكذا تحدث التركى وهو واثق من شجاعته ومن الحظ على الرغم من أنه ربما يكون قد جانبه الصواب فى ذلك لأن المكان الذى يريد أن يخرج منه يتواجد فيه ثلاثة من أشجع قواد مورثيا ومعهم جنودهم الشجعان. وكان الجميع فى حالة مراقبة مستمرة للبلدة بحيث لا يمكن لطائر صغير أن يطير ويخرج من الداخل إلى الخارج إلا وشعروا به وأخذوه بين أيديهم. ولم يكن جنود مورثيا وحدهم فى هذا المكان بل كان يجاورهم جيوش لوركا الذين لا يقل قادتهم شجاعة عنهم فهم جنود شجعان ومغاوير لأقصى حد. حقا، كان جنود مورثيا هم الأكثر انتصاراً على الأرض من غيرهم من البلدان المجاورة إلا أن كلاً من الفريقين ينتمى إلى نفس المملكة، وكل منهم مستعد لترجيح كفة الآخر فى أية معركة.

لنعد إلى الموقف الذى كان عليه القائد التركى والذى عندما انتهى من حديثه أمام أعضاء مجلس الحرب، دارت مناقشات عديدة وطرحت آراء كثيرة؛ فقد قال البعض إن التركى قد تحدث بشكل جيد، وإن رأيه صائبٌ وفى صالح الجميع؛ بينما قال آخرون إنه لن يمكن الخروج بسهولة دون أن نفقد كل شىء ويقضى علينا جميعًا وإنه من الأفضل أن نقاتل ونترك جانبًا ما يحمله الحظ فربما يأتى الملك لنجدتنا وربما نخرج من هنا أحرارًا دون التعرض للخطر الذى نفكر فيه. وهكذا استمرت المناقشة بين أخذ وعطاء وبين معارض ومؤيد ثم تحدث أحد القادة من أبناء كاستيخو (Castilleyo) وهو رجل شجاع وتبدو عليه الجدية، وقد تحدث قائلاً:

"حديث قائد كاستييخو ردا على القائد التركى"

" لقد كنتُ منتبهًا جيداً لحديثك، أيها القائد التركى الشجاع، وإلى الأسباب التى بنيتَ عليها رأيك، وأعتقد أنه ليس من الصواب أن ننفذ اقتراحك لأن التناقض يبدو واضحًا بين اقتراحك بالخروج من ناحية النهر، وأنك ستكون الأول فى الخروج، وأن تخرج بيدك مجموعة أخرى من الجنود الذين أشرت إليهم، فربما يشعر الحرس المسيحى بالفريق الذى خرج معك ويحاولون مهاجمتك، وأنت كرجل وحيد لا يقع على كاهلك أية مسئولية تستطيع أن تهرب وتختفى فى ظلام الليل وتخرج سالمًا وتترك الباقين الذين يخرجون فى حمايتك بين أيدى المسيحيين ليقضوا على أرواحهم وليعانوا من تعاسة رهيبة فقد تركتهم فى موضع لا يستطيع أحد منهم الهرب منه بل الوقوع فى يدى الأعداء والموت على أيديهم؛ أما الفريق الآخر الذى سيتبع مجموعتك فسوف يتعرض لنفس الموقف، وهكذا أقول لك وأقول للجميع الموجودين هنا إننى أرى أن البقاء والحرب هو القرار الأقرب للصواب لأن البلدة التى نحن فيها هى بذاتها يصعب السيطرة عليها حتى دون دفاع، وهذا شىء لصالحنا، وإذا كنا اليوم نواجه موقفًا مثل هذا، فليس من الواجب أن نتخلى عن البلدة أو نتراجع ولو خطوة واحدة عما بدأناه، وفيما بعد نبعث إلى ملكنا ونخبره بوضعنا، وإننى أعلم أنه من بين الرجال الثلاثين ألفا الذين يتكون منهم جيشه سوف يبعث لنا بخمسة عشر ألفًا لنجدتنا، وإذا لم نستطع أن ندافع عن أرضنا فى وجود هذا العدد من الرجال، ساعتها نستطيع أن نخرج على مرأى من أعدائنا وعندما نقاومهم نستطيع أن نذهب ونقيم ميناءً آمنًا حتى يشاء الله العظيم شيئًا آخرًا. هذا ما أرى، وهو يعارض بكل وضوح ما تراه أنت ويراه منْ تحدثوا لصالحك".

هذا ما قاله القائد الموريسكى الشجاع إستاراكونديو (Estaracondio)، والذى أيده بقية القادة. ولكن القائد التركى لم يقبله، لذا فقد قرر أن يتوقف مصمماً على رأيه، وهو ممتلئ غضباً وعصبية لأن الموريسكى قد قال له إنه إذا خرج من البلدة فسوف يتسلل فى الليل ويترك الفريق الذى معه بين يدى الأعداء، وردَّ عليه قائلاً: "إنك مقتنع برأيك هذا لأنك ليس لديك خبرة بالحرب وقد قلت لى إننى أستطيع أن أهرب وأن أختفى فى ظلام الليل وأنجو بحياتى، وهذا تصرف ليس من شيم الأتراك وأنت الذى تقول هذه الرأى الذى يمتلئ شكا، أعلم أنك سوف تفعل ذلك قبل غيرك لأن المثل يقول: "منْ يتحدث عن الشىء يكون أول منْ يفعله"، ومنْ يتشكك فى شىء يقوم به. إن تركيا ليست بها هذه النقائص التى لديكم أيها الموريسكيون، فإنكم مزعزعون تأخذكم الريح معها أينما شاءت دون مقاومة منكم أو ثبات ملحوظ. أنتم تخونون ملككم وتخونون الله تعالى، كما ظهر فى مواقف مشابهة، ولهذا السبب لم يشأ الله تعالى أن يبعث إليكم نجدة كى تنتصروا فى الحرب، فهو يعلم أنكم مزعزعون وقليلى الإيمان وإذا كنت لا تريد أن تخرج بإرادتك للأعداء فذلك خوفًا من الوقوع فى أيديهم حيث لا تعرف إلى أين ستذهب أو إلى أى أرض سترحل بعيداً عن أرضك التى تريد أن تموت فيها أو أن تقع فى الأسر مثل الأرنب الجبان. افعلوا ما ترونه لأننى لو مت فسأكون راضيًا عن شرفى كجندى ولكن يحزننى أن أموت حبيسًا كالجبان دون أن أستطيع الانتقام لموتى ولا معرفة منْ قام بقتلى".

نهض القائد الموريسكى ابن كاستيخو غاضبًا مما قاله القائد التركى ووصفه إياهم بالخيانة وقلة الإيمان وعدم الاستقرار، ومدَّ يده إلى سيفه يريد قتل التركى، وقد نهض معه كثير من القادة. وقد أمسك الجندى بشجاعة فائقة بسيفه الصغير وذهب إليهم لملاقاتهم، وقد حدث فى ذلك الوقت أن الكثير من الجنود الأتراك قد تجمعوا بعد أن علت الأصوات والصيحات، وعندما رأوا أن الجميع قد تكالبوا على قائدهم، أمسك الجميع بأسلحتهم وبدأ صراع بينهم كان دمويا لدرجة نتج عنه بعض الجرحى. وعندما رأى أبناء غاليرا أن الأتراك والغرباء قد اشتبكوا مع مسلمى كاستيخو وبيناماوريل (Benamaurel) وأورثى قاموا بسرعة لإطفاء هذه الحرب الأهلية التى نشبت بين الجنود الذين قدموا لمحاربة المسيحيين، وقد تجمع الكثيرون من أجل الغرض نفسه، وقد انطفأت هذه النيران بصعوبة بعد أن خلفت وراءها فوضى هائلة، وقد قامت النساء بدور كبير لإطفاء نار الحرب بخاصة السيدة ثارثامودونيا التى يحترمها الجميع لشجاعتها وقوتها. وقد أصيب فى أثناء هذه المعركة أحد

الأتراك إصابة شديدة وكى يتم إطفاء نيران الغضب المتأججة اتفق الأتراك على أن يتزوج القائد التركى من إحدى السيدات الجميلات من أبناء غاليرا. وهكذا خمدت النيران بعد أن توجه الأتراك إلى حراسة معسكرهم وفعل نفس الشىء أبناء كاستيخو حتى لا يعودوا للتشاجر فيما بينهم مرة أخرى.

لو كان الجنود المسيحيون لديهم خبر أو شعروا بمثل هذا الاضطراب لهاجموا البلدة، ولدخلوها بكل سهولة وكسبوا الأرض. وقد حصلت أنا على خبر هذا الاضطراب عن طريق أحد الموريسكيين الذى كان موجوداً هناك وليس عن طريق توماس بيريث لأنه لم يعلم به.

ولنعد الآن إلى مذكرات توماس بيريث التى بدأناها. يقول إن الهجوم العنيف قد نفذ وتم الاتفاق على زرع الألغام، كما سبق وقلنا، وقد وصلت القطع الحربية والذخيرة التى كانوا ينتظرونها من قرطاجنة إلى الجيش يوم الأحد، ولهذا السبب لم يستخدموا المدافع فى أثناء الهجوم بالشكل الكافى وذلك لنقص الرصاص والبارود على الرغم من توفر المدافع.

وقد رأوا أن يتم وضع القطع التى أتت والأشياء الأخرى التى كانوا فى انتظارها وكانت كالتالى: قطعتان قويتان وبعض المدافع الصغيرة وأربع قطع قام بصناعتها السيد خوان مانريكى دى لارا ، والتى لم يكن لها اسمٌ آخر لأنها من صنعه واختراعه، أن يتم وضعها على أحد التلال الموجودة ناحية اليمين وأن توضع أربع قطع على التل الآخر الذى كان ناحية اليسار بجوار القطع التى كانت موجودة هناك حتى تقوم هذه القطع إلى جانب دك المدينة، كما سبق وقلنا، على الرغم من قلة طلقاتها، والعمل على تنظيف وكشف الدفاعات فى اليوم الذى يتفق فيه على شن الهجوم، تقوم إلى جانب ذلك العمل بمنع المسلمين من الخروج، كما سبق وفعلوا للدفاع عن مدفعيتهم، وقد كان هذا القرار صائبًا.

بالقرب من النهر، فى وادٍ صغير حيث مجرى السيل، تم وضع أربعة مدافع أخرى من القطع التى أعدها السيد خوان مانريكى لتدمير البيوت ودك الأسوار، بهدف إعاقة الأعداء والهجوم عليهم بواسطتها من هذا المكان يوم الهجوم، ولإلهائهم عن القطع الأخرى مع مراعاة الحفاظ على هذه القطع مثل القطع الباقية.

يوم الاثنين، ثلاثون، بين الساعة الحادية عشرة والثانية عشرة نهاراً جاء إلى حيث قطع المدفعية الموجودة فى مؤخرة السفينة أحد الفتيان، وكان يبلغ من العمر ما بين اثنى عشر عاماً وثلاثة عشر عامًا، يتحدث الإسبانية بطلاقة ويتحدث بمنطق وعقل، وكان قد جاء ليقدم

الطعام للحرس (المسلمين) هناك، وكان هؤلاء الحرس يتركونه يقوم بالحراسة فى أثناء تناولهم الطعام، وكان الفتى حين وجد أن الفرصة قد سنحت له قد قام بمحاولة الهروب وقد أعطيت إشارة إلى الجنود المتواجدين فى الخندق حتى لا يقوموا بإطلاق النار عليه ثم ألقى بنفسه إلى أسفل قطع المدفعية، وقد تم القبض عليه بسرعة على يد نفس الجنود حتى لا يقوم الأعداء بقتله؛ فقد أخذوا أسلحتهم وبدءوا فى إطلاق النار عليه. وقد أُخذ الفتى حيث مَثُلَ أمام السيد خوان الذى سأله من أين جاء وعرف أنه من مواليد مدينة أورثى، وقد جاء من هناك ومعه كثير من الأهالى فى بداية التمرد والثورة، وكانوا جميعًا يحملون السلاح ويقاتلون المسيحيين فى جميع المعارك التى وقعت بين الجانبين.

وعندما سُئل الفتى عن بقية الأمور التى تحدث فى غاليرا تحدث عن الخلاف الذى حدث بين الغرباء وأبناء البلدة حول الرحيل وترك هذا الحصن وكيف أنه فى ذلك اليوم لو هاجم المسيحيون المدينة لدخلوها بكل سهولة، وتحدث أيضًا عن الرعب الذى يشعر به المسلمون من الألغام التى يشعرون بها جيداً ويسعون لانتزاعها ولكنهم لم يستطيعوا لعدم امتلاكهم الأدوات اللازمة لذلك وأيضًا افتقادهم الشخص الذى يستطيع القيام بذلك. وعندما سُئل حول ما إذا كان المسلمون لديهم مئونة كافية، أجاب قائلاً: " لديهم ما يكفيهم مدة عامين ولن ينقصهم الماء أبداً؛ ولكنهم يفتقدون الذخيرة من بارود ورصاص، وهم ينتظرونها ولن تتأخر عليهم حيث ستصلهم مع المدد الذى سيبعثه ابن عبو". أعطى المسلم معلومات جيدة حول هذه الأمور، وقد أرسلوه فيما بعد إلى أويسكار ومعه وثيقة بحريته لأنه قد جاء إلى المسيحيين، وهو يعيش حتى اليوم فى إيلين (Hellín)، وقد أخذ ثمن تقديمه للمعلومات المهمة التى نقلها عما يحدث داخل البلدة.

وعندما رأى المسلمون أن الفتى قد خرج من الحصن تعجبوا لأنه لم يُقتل ولم يُقطع جسده أشلاءً عندما ألقى بنفسه أسفل المدفعية، وقد ظنوا فى البداية أنه قد نجا واكتشف أمره وحكى كل شىء حدث فى البلدة وأخبر الأعداء بأكثر النقاط ضعفًا. وقد صدرت أوامر بتعزيز قوة هذه الأماكن الضعيفة للدفاع عنها حيث كانت مهددة من قبل القطع الحربية الجديدة التى تم وضعها علاوة على ذلك. فى نفس تلك الليلة، قاموا بإرسال أربعة أو ستة جنود من المسلمين بخبر حقل الألغام المجاور للنهر كى يذهبوا إلى بورتشينا ويحضروا البارود والرصاص. ولأن الليلة كانت شديدة الظلمة، لم يشعر الحراس المسيحيون بهؤلاء الجنود، وهكذا ذهبوا وعادوا بكل شجاعة، وقال البعض إنهم قد أحضروا الذخيرة اللازمة من مسلمى

أويسكار. من بين الذين خرجوا تم القبض على أحدهم فى أثناء العودة، وكان يحمل البارود والرصاص، أما الباقون فقد استطاعوا الدخول مرة أخرى إلى الحصن من خلال حقل الألغام الذى ذكرناه آنفًا، والذى كان الإسبان يجهلونه حتى اكتشفوا أمره فيما بعد عند استيلائهم على البلدة لأن الرجل المسلم الذى تم القبض عليه لم يرد أن يفش سرها على الرغم من تعذيبه.

فى يومى السبت والأحد؛ خرج السيد خوان إنريكيث دى باثا (Juan Enriquez de Baza)، وهو أخو السيد إنريكى، بصحبة جنود عديدين بعد أن دخل من ناحية نهر المنصورة من بلدة تُسمى أوراكا (Urraca)، وقد هوجم واضطر إلى الانسحاب بعد أن أصيبت فرقته بخسائر فادحة. وقد خرج فى نفس ذلك اليوم مائة وخمسون جنديا من قلعة أوريا ومعهم أربعة عشر فارسًا، وقاموا بالهجوم على بلدة كانتوريا واستولوا بالقوة على أسلحة وكثير من الماشية من أبقار وأخشاب أيضًا. انسحب المسيحيون حتى أوريا ومعهم الغنائم، على الرغم من أن المالح قد جاء لنجدة مسلمى كانتوريا.

فى أثناء تلك الأيام خرج من لوركا ستمائة رجل وسبعون فارسًا ومعهم بعض أهالى الماثارون، وقد هاجموا كانتوريا أيضًا حيث كان المالح موجودًا. وقد تقاتل الجميع طوال يوم الاثنين وقتلوا الكثير من المسلمين دون أن يفقد المسيحيون أى رجل؛ فقط فقدوا جوادًا كان للقائد خوان فيليثيث دومى وذلك بخطأ ارتكبه؛ فقد كان يحاول قطع رأس أحد المسلمين فجرح الجواد وذهب إلى الأعداء. إلى جانب ذلك قتلوا من الجنود خمسة آخرين لأن أحد المسلمين كان يحمل حربة وكان يحارب فى المعركة وقد احتمى خلف شجرة ضخمة. وهكذا كلما مرَّ أمامه أحد الخيول ضربه بالحربة، ومع ذلك فقد توجه إليه أحد فرسان لوركا وظفر به. وفى النهاية تكالب الكثير من المسلمين على المسيحيين فتراجع هؤلاء إلى الخلف وقد لحق بهم أعداؤهم لمسافة أكثر من ثلاثة فراسخ عند نهر المنصورة إلى أسفل حتى وصلوا إلى قرية تسمى ثورخينا (Zurgena)، بجوار بيرا، حيث لم يجرؤ المسلمون على مواصلة السير خوفًا من النجدة التى يمكن أن تخرج من هذه المدينة الأخيرة وتصل إلى المسيحيين. ولهذا فقد عادوا إلى كانتوريا حيث تركوا أكثر من مائتين من جنودهم بعد أن لقوا مصرعهم مصابين بطلقات، وقد تم هذا النصر فى يوم عيد القديس ميان (San Millán)، ولهذا السبب لا تزال تقام احتفالات فى هذا اليوم. وكان القائد العام لهذه المعركة الدكتور أويرتا سارمينتو (Huerta Sarmiento)، وهو رجل على قدر كبير من الشجاعة وكان عمدة

لوركا في ذلك الوقت وهو نفس الرجل الذى أخرج الموريسكيين بعد الحرب من بيليث ومن غيرها من القرى.

في يومي الأحد والاثنين دخل فى البشرات مائتا جندى فالنسى، وجميعهم من القناصة وبين قريتي مورتاس (Murtas) وتورون ((Turón) لقوا مصرعهم جميعهم على أيدى المسلمين الذين استولوا على أسلحتهم وكان هذا لصالحهم من أجل الاستمرار فى الحرب.

ولنترك الآن هذه المناوشات الجزئية التى يتحدث عنها توماس رى (Thomás Rey) لأنه إما أنه كان يجهلها ولم يصله أخبار عنها، وإما أنه ترك الحديث عنها كى يبحث عن الحقيقة فى قصة حصار غاليرا، ونعود الآن كى نواصل الإمساك بخيط الأحداث فى المذكرات التى سبق وتحدثنا عنها.

منذ الآن وحتى انقضاء يومين على خروج الفتى من حصن غاليرا وبعد أن أخذ فى الاعتبار ما يمكن الوصول إليه بعد معرفة ما يحدث هناك بالداخل بين المحاربين، كانت الليلة حالكة السواد، وقد اتخذ الحراس أماكنهم على خيولهم وتوجهوا صوب الجزء الخاص بسيرون والضفة الأخرى للنهر، وقد قبضوا على أحد الرجال المسلمين من بين الرجال الاثنين والعشرين الذين خرجوا من ناحية الحقل السرى والذى كان المسلمون يستخدمونه فى الخروج وفى الحصول على المياه الضرورية. فى البداية لم يستطيعوا رؤية المسلمين أو يشعروا بخطواتهم لدرجة أنهم ساروا مسافة ميل عندما اكتشف الحراس أمرهم وقبضوا على الرجل وحملوه إلى خيمة صاحب السمو، وعندما سألوه من أين جاء قال: "من كاستيخو"، وأنه موجود فى غاليرا منذ بداية ثورتها. وعندما سُئل لماذا خرج من الحصن أجاب: " خرجت بحثًا عن ابن عبو حتى آتى به ومعه النجدة "، وعندما طلب منه الإدلاء بمعلومات عن غاليرا والموقف الذى عليه سكانها والقائمون بالدفاع عنها قال نفس الشىء الذى قاله سابقًا، ولكن باستفاضة أكبر حيث قال: "إن المسلمين يشعرون بالحيرة ويملأ قلوبهم الرعب من حقول الألغام الجديدة، كذلك كان هناك بينهم اختلاف عظيم فى الآراء؛ فقد كان الجنود الأربعمائة الغرباء الموجودين بالداخل يريدون الخروج من البلدة جميعهم فى إحدى الليالى لأن الدفاع عنها أصبح من المستحيل نظرا لكثرة المدفعية التى تم وضعها والعودة إلى تلغيم المنطقة حولها من جديد لأنهم حتى فى حالة عدم الهجوم عليهم بسلاح آخر سوى هذه الألغام فسوف يدفنون بسببها تحت الأرض وسيهبطون معها، ومن ناحية أخرى، إن الجيش الذى يواجهونه حاليا لا يقل قوة عن

الجيش الذى أتى به ماركيز بيليث؛ بل الأكثر من ذلك أن الجيش يقوده أخو ملك إسبانيا شخصيا بكل قوته ولن يبرح هذا المكان حتى يسوى الأرض ويهدمها ويذبح كل قاطنى البلدة دون أن يقدم اعتذارًا لأحد؛ لأنه علاوة على أن هذه البلدة هى أول منْ رفع راية العصيان فى كل المملكة وقامت بتحصين نفسها فإن صاحب السمو سيشعر بكل الغضب والأسى على موت أعداد كبيرة من خيرة الجنود إلى جانب الكلمات غير اللائقة التى توجه إليه كل يوم من السور والتى تعرضه لإهانة ليست بالقليلة، إلى جانب كل هذا فإن المسلمين ليس لديهم السلاح الكافى ليدافعوا به عن أنفسهم ويهاجموا به المسيحيين، والذخيرة القليلة التى كانت لديهم أوشكت على الانتهاء بحيث إنهم يفتقدون كل شىء الآن، وعلى العكس تمامًا من هذا موقف المسيحيين، الذين يحاربون على أرضهم [1] ولديهم كل احتياجاتهم اليومية. وفى حالة تصميم المسلمين على الدفاع عن أنفسهم لن يجنوا من وراء ذلك أية منفعة سوى موتهم جميعًا وتقطيع أجسادهم إلى أشلاء وسيموتون كالوحوش وكالمجانين الذين فقدوا عقلهم، وكلما تأخروا فى الخروج من البلدة كلما أصبح ذلك أكثر صعوبة لأن المسيحيين يحيطون بهم ويضيِّقون عليهم الحصار بحفرهم الخنادق وأنهم كان لديهم فرصة للخروج عندما كان المسيحيون منهمكين فى تجهيز حقول الألغام ولكنهم لم يكونوا على علم بما يحدث؛ فقد كانوا يستطيعون الخروج ليلاً محتمين بالظلام، وكانوا يستطيعون بكل نشاط وذكاء أن يسيروا مسافة أربعة أو خمسة فراسخ وينجون بحياتهم، وربما وصلت إليهم مساعدة من جنود الملك ابن عبو. أما عن الرحلة والصحبة التى ستمتلئ بالنساء والأطفال والمصابين فقد كان من الممكن أن يضعوا النساء والضعفاء فى المقدمة بينما يسير الرجال فى المؤخرة للتصدى للمسيحيين إذا ظهروا" .

وقد واصل الرجل المسلم حديثه قائلاً: "إن القائد الذى يُدعى الاثيرو أوثمين (Alacero Ozmín)، وهو من أبناء غاليرا، ردَّ على القائد الغريب الذى اقترح كل هذا الكلام الذى قاله المسلم قائلاً إن كل هذه الأفكار تبدو جيدة ولكنها تعتمد على فصاحة التعبير أكثر من عقلانية المنطق والحكمة؛ لأنهم لن يكونوا الرجال الشجعان والجنود المغاوير الذين يتباهون دائمًا بذلك لو أقدموا على القيام بهذا الجنون والطيش الذى ينصحهم به الغريب بل سيصبحون جبناء وأعداء لأى مهمة أو عمل جاد يُسند له؛ فسوف يكون هذا ضربًا من ضروب المستحيل ولن

(١) هذا معناه – ضمنيا– أن المسلمين لا يحاربون على أرضهم، وهو رأى بعض مؤلفى القرن السادس عشر الإسبان . (المراجع).

يجنوا من وراء ذلك أى شرف أو رفعة فليس هناك شرف فى التخلى عن البلدة التى يجبرهم احترامهم للملك على المحافظة عليها والدفاع عنها حتى الموت وليس الاستسلام والتخلى عنها، وأنه لم ير فى حياته موقفًا كهذا بين جنود شرفاء؛ بل بين جنود أدنياء وأشرار وجبناء عديمى الفضيلة والضمير، وأنه إذا وصل الأمر إلى منتهاه ووصل المحاصرون إلى الطريق الخارجى حيث لا طعام لديهم ولا ماء، إذا حدث هذا فإن الجنود الشجعان سيحاولون بشتى الطرق إيجاد حل عن طريق أكل الحيوانات: الكلاب والقطط والحمير والفئران وحتى جلود التروس وأى شىء، كما رأيت فى حوادث سابقة، وإذا كنا لم نصل إلى هذه الدرجة الرهيبة فلدينا القمح والشعير والدقيق والفول والحمص والعنب والرمان والتين واللحوم الملحة التى يمكن أن تكفينا أيامًا عديدة، ولدينا مياه متوفرة بحيث لا تنقصنا ولن تنقصنا مياه، أما عن قولهم التسليم بسبب نقص الذخيرة فهذا ليس عائقًا كبيرًا؛ فعلى الرغم من أن وجود كمية كبيرة من الذخيرة هو أمر جيد ويساعدنا على الدفاع عن أنفسنا ومحاربة المسيحيين؛ فإننا لدينا غير هذا أسلحة أخرى مثل الرماح والسهام والأقواس والحجارة والأقواس الفولاذية، وكلها أسلحة أساسية وهامة بخاصة الحجارة لأنها تمثل خط الدفاع الأول عن البلدة، وذلك كما رأيته يحدث فى معارك سابقة. إلى جانب كل هذا فلدينا مكان محصن نستطيع إذا أردنا أن ندافع عنه كرجال وننتظر النجدة التى وعدنا إياها الملك، وهذا هو الحل الأمثل، وليس ما يقولونه من سفر السيدات والأطفال والعواجيز فى المقدمة بينما يبقون هم فى المؤخرة للدفاع عنهم وقتال الأعداء، لأنه لو حدث بنفس السهولة التى يُقال بها لكان من المستحيل الخروج بأمان من هذا الحصار الحرج وذلك لكثرة عدد الجنود والفرسان المسيحيين الذين لو شعروا بهم خارجين ورأوهم لأحاطوهم من كل جانب وما تركوهم إلا بعد تقطيع أجسادهم إلى أشلاء، وإذا استطاع أن يهرب أحد منهم، فسيكون هذا ضربة حظ له وربما يجد عُشبًا يتوارى فيه وربما لا يجد هذا العُشب ولا يجد مكانًا له لأن المسيحيين يحبون الحصول على الغنائم وهم يبحثون عنها فى كل مكان بخاصة وهم يعلمون أن الركب به السيدات اللاتى يوجهون لهن اهتمامًا خاصا؛ فالجميع يريد الحصول على ما يحمله من حُلى وجواهر دائمًا ما تحتفظ النساء بهما، ولهذا السبب يلاحق الأعداء كل النساء حتى لا يتركوا واحدة، وهكذا يصبح عملاً لا إنسانيا ترك هؤلاء السيدات والتخلى عنهن، وسيكون فى الدفاع عنهن هلاك للجميع الذين سيلقون حتفهم دون رحمة ".

وقد سُئل الرجل المسلم حول ما إذا كان أهل غاليرا يحاولون إفساد الألغام أو لديهم وسيلة لنزعها فأجاب أنهم لا يستطيعون ذلك. وهكذا تأكدت الحقيقة فلأنهم جنود غير مؤهلين وليس لديهم الحذر والحكمة لن يكونوا مستعدين لمواجهتها بخاصة وهم يحاربون جيشاً مدرَّباً وجنوداً لهم خبرتهم، ولم يكن الوقت الذى أمضاه الجيش متوقفاً هناك دون جدوى؛ فمع قسوة الزمن وقع فى الحصن حدث آخر.

هكذا اتفقت رواية الرجل المسلم مع الرواية الأخرى التى ذكرناها للفتى المسلم، على الرغم من تعدد الأسباب للسلوك الواحد، وقد عرف كل الجيش هذه الرواية وتلك، وقد أدخلتا السعادة عل قلوب أفراده، بخاصة وأن الهجومين السابقين قد خلقا نوعاً من الفتور والحزن فى نفوس الجنود وانعدام الثقة فى أنفسهم بعد أن كانوا على وشك الفوز واكتساب الأرض لأنهم إلى جانب شعورهم بأن الأعداء يدافعون عن أنفسهم بكل قوة وأنهم لا بد من أن يزيدوا من مجهودهم فى الحرب، فقد تسرب إليهم شعور كاذب بالرعب جعلهم يفقدون الثقة فى أنفسهم بعد أن أذاع بعضهم بكل حماقة أن كل طرق وشوارع المدينة ملغمة ومملوءة بخنادق مجهزة بطرق دفاع قوية للغاية، فلو دخلوا المدينة لتعرضوا لخطر مميت أكثر من الاشتباك المشترك، فالأعداء عندما شعروا أنهم لن يستطيعوا المقاومة أكثر من ذلك، بدءوا فى الانسحاب تدريجيا حتى يخلو الميدان إلا من الجنود المسيحيين، وعندها وبفضل الألغام التى زرعوها سيجعلون جميع المقاتلين يطيرون من قوة الانفجار. وقد كان كل هذا محض اختلاق، كما عرفوا فيما بعد، لأن المسلمين لم يفكروا فى هذا لحظة واحدة، ولم يكن لديهم استعداد لتجهيز وزرع الألغام، وليس لديهم القدرة على انتزاعها ولا وضع وسائل دفاع متقدمة مثل رجال الحرب المحترفين.

وعندما علم السيد خوان بكل هذا وبمحاولة المسلمين الخروج من الحصن، أراد بكل قوة أن يمنعهم من الهروب فأمر بتعزيز قوة الحراس القائمين على الخنادق وأن تتواجد فى الجزء المجاور للنهر ست مجموعات أخرى علاوة على التى كانت موجودة به لأنه علم بأنهم سيحاولون الهروب من هناك لأن هذا الجزء أكثر أماناً لهم. وقد أخبره الفتى المسلم بذلك بعد أن فهمه من الجنود المسلمين، وقد أمر السيد خوان بأن تتواجد فى هذا المكان فرقة من الفرسان وأن يصاحبها رجال الحرب وهم على أتم استعداد بالسلاح كي يتوجهوا إلى حيث يؤمرون. وقد تم وضع حراس آخرين أيضاً فى أماكن أخرى، وصدرت أوامر بأن يبقى سلاح الفرسان فى أماكنه وأن يعلن المشاة حالة الطوارئ ويكونوا فى قمة انتباههم.

فى نفس ذلك اليوم ليلاً أمر صاحب السمو بخروج السيد غارثيا مانريكى، قائد الفرسان ومعه مائتا فارس إلى سيرون ووادى بورتشينا، التى كانت تبعد مسافة ستة فراسخ إلى الجنوب، كى يستطلعوا ما ينوى الأعداء عمله وإذا كانت هناك نجدة فى الطريق إلى المحاصرين فى غاليرا. وقد عادت هذه الحملة الثلاثاء التالى عند غروب الشمس دون أن يكون لها أى تأثير لأن أمرها قد اكتشفه الأعداء وأخذ أهالى القريتين السلاح ودافعوا عن أنفسهم وعن ماشيتهم.

فى يوم الثلاثاء، الساعة العاشرة ليلاً تقريبًا، سُمِعَ صوت سلاح بين أفراد الحراسة والقائمين على الخنادق، والذى حدث هو أنهم شعروا بأن الأعداء يريدون الخروج من ناحية الوادى. وهكذا انتظم كل الجيش فى ثلاث فرق كبيرة حتى الساعة الثانية عشرة ليلاً وبعدها بقليل، وعندما تأكدوا أنه ليس هناك جديداً قاموا بجولة تفقدية للتأكد من استقرار الأمن، على الرغم من أنه بعد ذلك علموا أنه كانت هناك محاولة لخروج الأعداء ولكن لم تستكمل بعد أن اكتشفوا أن الحراس قد شعروا بهم. حدث نفس الشىء وفى نفس الساعة تقريبًا، يوم الأربعاء مساءً، وكان أول يوم من شهر فبراير، وفى صباح الخميس ألقى الحراس القبض على اثنين من المسلمين وذلك فى تمام الساعة الرابعة فجراً، بعد أن حاولا الهروب، وقد قال الرجلان نفس المعلومات التى أدلى بها الرجل المسلم وكذلك الفتى الصغير، وقد أكدا أن الأهالى بالداخل يرغبون فى الخروج تلك الليلة أو التالية لها، لأنهم اتفقوا على ذلك.

استمر العمل فى زرع الألغام خلال تلك الأيام وقد قام المسلمون فى أثنائها بإصلاح الدمار الذى لحق بهم جراء القذائف التى تسقطها عليهم المدفعية والتى استمرت طيلة الأيام، على الرغم من قلتها كما قلنا، وفى يوم الخميس فى تمام الحادية عشرة، قام نحو خمسين مسلماً بالهجوم على المدفعية الموجودة فى منطقة مؤخرة السفينة وتقابلوا مع الرجال الذين كانوا يعملون بزرع الألغام حيث أطلقوا عليهم نيران البنادق وقاموا بقذفهم بكثير من الحجارة بكل قوة وسرعة حتى إنهم لم يعطوا جنودنا الفرصة ليأخذوا سلاحهم ويدافعوا عن أنفسهم حيث وصلوا بسرعة كبيرة إلى مخارج حقول الألغام. وعندما شعر فرانثيسكو دى مولينا، الذى كان يشرف على العمل فى حقول الألغام بالصياح والضوضاء التى تعالت من قبل بعض الجنود الذين فروا أمام طلقات البنادق وحجارة المسلمين أخذ سيفه ولم يكن يحمل أى نوع من السلاح غيره ووضع معطفه على يده، وخرج ليستطلع الأمر، وعندما وصل إلى منفذ حقل الألغام، وجد أن المسلمين قد دخلوا من خلاله، وعندما تصدى لهم

الجنود بالمدى تراجعوا إلى الخارج. ولأن الصياح الذى أطلقه الجانبان كان عالياً؛ فقد حمل السلاح على الفور فى الخنادق وفى كل الجيش بين الجنود والقادة الذين هرعوا إلى المكان الذى شهد الأحداث.

وعندما علم الأعداء بأن الجميع قد أخذوا سلاحهم أعطوا إشارة الجمع بينهم وقد شعروا بالسرور لقيامهم بهذه المهمة على الرغم من أنهم لم يوفقوا فى إتمامها وقاموا بالانسحاب بعد أن أصابوا أربعة جنود بجراح وأصابوا فرانثيسكو دى مولينا إصابة بالغة من ضربات الحجارة. لم نعرف إلى أى مدى وصلت خسائرهم، وإن كنا نشك فى أنه لم تلحق بهم أية إصابات أو خسائر. ويوم الجمعة خرجت فرقة استطلاعية بأمر من السيد خوان لنفس الغرض السابق ولم يكن لها أى تأثير سوى أن بعض الجنود الذين كانوا فى طليعتها قد تقابلوا مع ثلاثة أو أربعة رجال مسلمين معم الكثير من الأمتعة حيث كانوا يسيرون فى اتجاه كويار (Cullar)، وقد هرب منهم رجلان وحملا معهما كل المتاع، وقد ساعدهما على الهروب ظلام الليل الذى كان حالكًا، وقد لحق بهما الاثنان الآخران اللذان لم يرغبا فى الاستسلام.

تم تبطين خنادقنا بنبات الحلفا لأنه لم يكن هناك فى تلك المنطقة أى شىء آخر يمكن استخدامه لهذا الغرض، إلى جانب أن هذا النبات كان مناسباً جدا لراحة الجنود، وقد كان هذا كافيًا جدا، لأن الأعداء لم تكن لديهم مدفعية يمكن أن يهاجموا بها، وقد أخذ المسلمون هذا فى الاعتبار بخاصة وأن تلك الخنادق كانت قريبة منهم جدا حتى إن الخندق الخاص بمؤخرة السفينة كان على بُعْد أقل من خمس وعشرين خطوة من سور البلدة لذا فإنهم كانوا يستطيعون بكل سهولة ودون التعرض لأدنى خطر القيام بأية مهمة يقررونها، وقد قرروا فى تلك الليلة أن يشعلوا النيران فيها، وهكذا فى تمام الساعة الثانية عشرة هبط اثنان من جنودهم بكل هدوء ومعهم نعال مصنوعة من الخيش والحلفا ممتلئة بالزيت وبها رءوس حبال مشتعلة ومحملين بالراتينج والقطران ووصلوا إلى الخنادق دون أن يشعر بهما أحد وأشعلوا فيها النيران وقد تصاعد على الفور لهب كبير وبدأ اشتعالٌ عظيمٌ بخاصة إن الحلفا الجاف قد اشتعلت بكل سهولة. وقد حمل المسيحيون السلاح على الفور، وحاول الجنود القائمون على الحراسة فى تلك الليلة إطفاء النيران المشتعلة ولم يكن هذا الأمر بالسهل لأنهم تعرضوا لخطر الاحتراق، وقد احترق بالفعل جزء كبير من الخنادق، وقد تراجع المسلمان اللذان قاما بالمهمة إلى المدينة وفى أثناء صعودهما السور قاما بإصابة بعض الجنود بجراح وإن كانوا قليلى العدد.

صباح السبت أحضر الحراس من راكبى الخيول أحد الرجال المسلمين ألقوا القبض عليه قريبًا من الميدان. وقد كان على وشك الدخول إلى البلدة محملاً بالبارود والرصاص والحبال، وقد تعرض للتحقيق والتعذيب فاعترف بأنه معه ستة من زملائه قد خرجوا للبحث عن ذخيرة للبنادق، وقد حضر الجميع وهم مصممون على الدخول إلى البلدة ومعهم هذه الذخيرة لأنهم يعلمون أن الأهالى بالداخل يحتاجون إليها وأيضًا كى يشجعوهم ويثبتوهم على الدفاع عن أنفسهم ويخبروهم بقرب وصول المدد إليهم.

يوم الأحد التالى ألقى نفس جنود الحراسة القبض على واحد من هؤلاء الرجال الستة والذى قال فى روايته نفس الشىء تمامًا كالذى قاله الرجل الأول مؤكدًا بذلك روايته. وقد قال هذان المسلمان إنهما قد أرسلا من قبل الحبقى، قائد جيش ابن عبو، والذى يتبعه أهالى نهر ألمرية، وفيلابريس، والمنصورة، وثينيتى، وغواديكس، وسيرون وقرى أخرى فى البشرات.

مساء الثلاثاء، السادس من فبراير، بدءوا يغلقون (يردمون) حقول الألغام ولم يحدث خلال الأيام الثلاثة الماضية أية أحداث جديدة سوى حمل السلاح كل ليلة، وكان صاحب السمو وقادة الجيش يتفقدون الفرق، وقد نما إلى علمهم أن المسلمين قد قرروا الخروج من البلدة يوم السبت والأحد، وقد قرروا أن يتم إطلاق النار من جميع وحدات الجيش كل ليلة حتى يشعروهم باستحالة هروبهم وكان هذا قرارًا صائبًا.

علم السيد خوان يوم الاثنين بأن حقول الألغام قد انتهى العمل فيها، كما سبق وقيل، وقد استعدت للانفجار عند الرغبة فى ذلك، وقد ظهر واضحًا أنه يمكن اتخاذ قرار الهجوم بعدما قامت المدفعية بهدم السور وأماكن الدفاع وما يمكن أن تقوم به الألغام من انفجارات، وبإذن من الرب يمكن الفوز بالأرض فى ذلك الهجوم، بخاصة وقد عرف الجميع أسباب الفوضى التى عمت الجنود فى الهجوم السابق والتى كان كثير من القادة ورجال الحكم مسئولين عن جزء كبير منها، وقد أدى كل ذلك إلى عدم الفوز بالبلدة، وبعد صدور قرار مناسب للحالة، وبعد أن تم ترتيب كل شىء للهجوم المرتقب فى اليوم التالى، صدرت الأوامر لمسئولى الرهبانية العسكرية ولقادة الجيش الآخرين بالتجمع أمام خيمة صاحب السمو فى تمام الثانية عشرة ظهرًا، وقد خرج إليهم السيد خوان وفى يده الصولجان، وقد ظهر وهو واقف على قدميه وعلى وجهه ملامح الجدية والحزم بأنه أشبه الناس بأبيه الملك الشهير كارلوس الخامس، صاحب السيرة الساطعة، ووجه لهم حديثًا مهيبًا، على الرغم من إيجازه، فقال لهم:

"حديث السيد خوان لرؤساء الرهبانيات العسكرية والقادة"

" أيها المعلمون والقادة الشجعان، الذين سطر التاريخ بطولاتهم وشهرتهم، وهذا هو حال الرجال الخالدين دائمًا، الذين لا ينساهم الزمن مهما مرت السنون العديدة. الآن حان الوقت كي تظهر بطولاتكم وأعمالكم العظيمة، اجعلوا عظمتكم تصل إلى عنان السماء، من أجل إسبانيا ومن أجل شرفكم، امحوا ظلام ودناءة المسلمين المتمردين الذين رفعوا راية العصيان ضد مليكنا وأظهروا عداءهم وحملوا السلاح ضدنا وقاموا بإلحاق الأذى بنا والإساءة لديننا وقتلوا الكثير من رجال الدين. الآن تطلب إسبانيا منكم ويطلب ديننا الذى نعتنقه الانتقام العادل، فاستعدوا بقواتكم وفرقكم القوية وقوموا بواجبكم. انتقموا للمؤامرات التى يقوم بها أتباع محمد، اهدموا بيوتهم، وحطموا جدرانهم، وسووا بالأرض أبراجهم الشديدة المتكبرة، أريقوا الدماء المسلمة على الأرض، حرقوا بالنار والدماء هؤلاء الأدنياء، لا يمنعكم سن ولا جنس من معاملتهم بقسوة، ولتقتلوهم بكل الغضب. لا يكن بينكم عاجز ولا ضعيف يكتفى بحلو الكلام، وسوف يأتى النصر الخالد، أعدكم بذلك كابن لكارلوس الخامس الشهير، سوف أقضى وقتًا طويلاً مع الملك وسنأخذ فى اعتبارنا كل منْ أظهر جدارة وشجاعة فى هذه الحرب، بحيث يرضى كل الرضا عن الأموال والعطايا التى ستصله، ومن جانبى أنا أيضًا أقدم له صداقتى الأبدية بحيث لا أنساه أبداً ولا يغير الزمن موقفى منه، أما الذى لن يقوم الآن بواجبه بخاصة فى الغد فى أثناء الهجوم المرتقب فسوف يكون من التعساء الأدنياء الذين سيتعرضوا لأشد عقاب، العقاب الذى يتناسب مع الجبناء وأشباههم ".

هكذا حدثهم الأمير الشجاع، وكانوا ينصتون إليه فى صمت. وعندما أنهى الأمير الشجاع حديثه، عبر الجميع عن سعادتهم وأعطوه وعداً بعمل كل ما يستطيعونه ثم استأذنوا سموه وذهب كل منهم إلى ثكنته، وهناك أخبروا الجنود بأن يتصرفوا فى الغد كرجال لأنهم سيقوموا بالهجوم الشامل.

"أسباب الحديث مرة أخرى عن الحصون أماكن وضع منصات المدفعية حتى نفهم عملية الهجوم على أكمل وجه"

كما قلنا آنفًا، قطع المدفعية التى تم وضعها فى الأرض كانت ثلاثة: واحدة فى الجزء الخاص بالوادى حيث قام جيش نابولى مرتين بالهجوم، والثانية كانت فى مؤخرة السفينة

حيث تم من جديد زرع حقلين من الألغام، والأخيرة كانت موجودة فى المكان الذى تم فيه وضع أربع قطع خاصة بالسيد خوان مانريكى والتى كانت تدك الجانب الشرقى آخذين فى الاعتبار ما سبق، صدر أمر الهجوم على النحو التالى:

تعيين ثلاث فيالق من جيش نابولى للهجوم من ناحية مدفعية الوادى، كما كانوا يفعلون دائمًا، وقد كانت هذه المنطقة مواجهة لثكناتهم وخنادقهم، وأن تقوم ثلاث فرق من جيش السيد لوبى بنفس المهمة فى الجزء الذى يقع بين الشرق والجنوب، والتى قلنا إنه قد تم تركيب أربع قطع خاصة بالسيد خوان مانريكى فيه حيث كان واضحًا أنها نتيجة القذف والدك التى تقوم به سيكون لها تأثير عظيم على منطقة مؤخرة السفينة التى من المأمول أن يتم الفوز فى المعركة عن طريقها. وقد تم تخصيص أربع فرق من جيش السيد أنطونيو مورينو- والذى كان يسمى بشكل عام جيش السيد خوان، لأنه كان يسكن ومعه أفراد الحاشية فى الجزء الذى يعسكر فيه هذا الجيش، ولأنه كان هناك فرق تابعة للجيش المذكور تقع فى حراسة السيد خوان -، وقد صدر أمر لهذه الفرق الأربعة بالهجوم من ذلك المكان، وقد صدرت أوامر لكل القادة وحملة الألوية والجنود، الذين يصل عددهم إلى مائة شخص ومعهم الفرسان المرتزقة وأبناء المدينة وأعضاء الحاشية الذين يرغبون فى المشاركة فى الهجوم بالانضمام إلى تلك الفرق ويخبروهم بأن هذه هى رغبة السيد خوان، وأن عليهم أن يفعلوا ذلك حتى لا يبقى أحد دون مشاركة فى القتال وحتى لا يعتذر أحد عن المشاركة بحجة أنه كان يقوم بالحراسة، كما حدث فى مرات سابقة، وكان سببًا فى عدم الفوز ذلك اليوم، وقد فهم الجميع رغبة صاحب السمو ورأوا أنه ليس هناك سبب ما أو أى إشارة تجعلهم يرفضون أوامره، وهكذا لم يبق أى رجل لم يخرج للقتال وكان عددهم كلهم أكثر من مائتى وخمسين رجلاً.

كما تم إصدار أمر إلى كل وحدات الجيش يفيد بأنه من أجل النجدة والحراسة خلال الحملة وفى لحظات الخطر ينفصل القادة ورؤساء الوحدات لأهمية شخصياتهم وينضموا إلى وحدة القائد السيد غابرييل دى مونتالبو، وهو أحد أبناء غرناطة، والذى سيشارك فى الهجوم مع الآخرين. بهذه الطريقة وصل عدد الرجال الذين سيقومون بالهجوم إلى ألف رجل مخصصين للهجوم على مدفعية المؤخرة علاوة على منْ ذكرناهم الذين سيقومون بنفس المهمة ولكن بوحدات أخرى ومن مناطق أخرى، والذين على الرغم من قلة الثقة فى التأثير الذى سوف يحدثونه، فإنهم سيقومون بمهمة توزيع جهد الأعداء حيث سيهاجموهم من أكثر من

مكان بحيث يتمكن جنودنا بسهولة من محاربتهم ودخول أراضيهم واكتسابها وهم مشغولون بالدفاع عن منطقة مؤخرة السفينة.

تم الاتفاق على إشعال فتيل الألغام فى السادسة صباحًا بحيث تخرج فى نفس الوقت كل المدفعية التى تم وضعها فى الأماكن التى سبق الإشارة إليها وتبدأ فى إطلاق قذائفها وتستمر فى القصف بكل قوة حتى الساعة السابعة صباحًا حينئذٍ يتم التعرف على الآثار التى أحدثها قصف المدفعية وبعده يبدأ الهجوم بجنود لديهم الخبرة والثقة كى يدخلوا بطريقة آمنة إلى المدينة، ولكى يتم ذلك لا بد من استمرار المدفعية فى القصف لمدة ساعة أخرى وبنفس الطريقة التى سبق وقلناها، وفى النهاية يقوم رجالنا بهجوم مباغت مستغلين الدخان المتصاعد والضجيج الناتج عن قصف المدفعية وستكون إشارة بدء الهجوم هو قيام الفرق الموجودة فى المؤخرة بضرب طلقة أو قذيفة واحدة، ثم بعد ذلك قيام جميع الفرق بإطلاق قذائفها دفعة واحدة من المدفعية.

وإذا بدا لبعض الفرق أن هذه الطريقة ليست مناسبة ولا يوافقها القيام بالهجوم، فلننتظر حتى يتم إزالة العقبات ووسائل الدفاع التى تصعب من المهمة وحتى يتم تسويتها بالأرض، وفى أثناء ذلك لا بد أن تبقى المدفعية والوحدات فى حالة الاستعداد اللازمة لأن الجنود سوف يقومون بالهجوم من خلالها بحيث لا يتعرضون للأخطار الداهمة أو يتركوا الهجوم (إذا كان هذا ضروريا) إلى يوم آخر يتم الاتفاق عليه ويكون مناسبًا للجميع. هكذا كانت هناك آراء عديدة لمرحلة ما بعد انفجار الألغام لأن بعض الجنود والأشخاص قد فهموا أن كل حقل ألغام يتكون من قنوات ضيقة محشوة بالبارود ولها فتيل، وقد حفرت هذه القنوات المتماثلة على مسافات موحدة الواحدة تلو الأخرى بحيث إنه فى حالة إشعال النار بها تنفجر فى نفس الوقت كل قنوات الحقلين، ولأنهم كانوا يشكون فى ارتباط الحقلين بعضهما بعضًا فقد قرروا إشعال النار فى كلا منهما على حدة. وعلى الرغم من أنهم كانوا يريدون القيام بذلك على وجه السرعة وبكل ذكاء فلم يكن ممكنًا أن ينفجر أحد الحقلين قبل الآخر لأنه لقرب الحقلين بعضهما بعضًا كان انفجار أحدهما سيؤدى إلى توقف تأثير الآخر إذا انفجر قبله. وقد رأى آخرون أنه لا بد من ترتيب الانفجار على النحو التالى: أن يمر فتيل من الحبال متوسط الحجم فى الوسط، وأن توجه منه أفرع إلى كل حقل بحيث إنه عند اشتعاله تصل النار فى نفس الوقت إلى كلا الحقلين عند مواقد البارود، وبهذه الطريقة سينفجر الحقلان فى وقت واحد،

وبهذه الطريقة يتم تفادى فقد أحد الحقلين. بعد أن تم مناقشة الرأيين، تم الاتفاق على الرأى الثانى والأخير حيث اتضح أنه الأفضل والأقرب نجاحاً.

الثلاثاء التالى، السابع من فبراير، يوم الكرنفال، فى الساعة المحددة، تسلح السيد خوان ببعض الأسلحة البيضاء الجميلة، وصدرية بها سبعة خطوط من الذهب، وبها نقوش جميلة. وحمل على رأسه كاباً به نفس النقوش، موضوع فيه ريشة جميلة يتجه جزعها إلى أسفل ومثبتة بميدالية على هيئة صورة العذراء، ويحمل فى يده عصا القائد الأعلى. وقد ظهر بنفسه على باب خيمته، وعلى الفور قام القادة ورؤساء الرهبانيات العسكرية بعمل نفس الشىء حيث ظهروا بعد أن ارتدوا ثوب الحرب، وتسلح كل منهم بما يستطيع من الأسلحة، وكذلك استعد أيضاً سلاح الفرسان، وكان شيئاً يثير الإعجاب رؤية الجيش وهو فى ملابس الحرب، وقد استعد أفراده. كانت رؤية هذا المنظر فى حد ذاتها تثير السعادة. وهكذا استعد الجميع واصطفوا فى الأماكن المختارة وبالنظام الذى اتفق عليه، كما استعدت أيضاً فرق الهجوم، وأمر السيد خوان بإشعال النار فى رأس الحبل الذى يصل إلى مواقد الاشتعال فى حقلى الألغام، وقد تم تنفيذ ذلك على الفور، وبعد أن استمر الاشتعال نحو سبع دقائق توقف الجيش كله عن الحركة وكأنه ليس هناك بشر، والتزم الجميع الصمت مترقباً ما سيحدث عما قليل.

وقف الجيش كله، كما قلت، منتظراً ما سيحدث، وقد انفجر حقل الألغام الأيسر قبل الآخر، وقد وصلت النار إلى الموقد حيث يوجد البارود وعلى الفور انفجر حقل الألغام بكل قوته وكأنه صاعقة نار، وبقوة هائلة رفع قطعة من الصخرة ومعها جزء كبير من واجهة السور، وجزء من القلعة، وهكذا كان لهما تأثير عظيم، على الرغم من أنه مع الحركة الكبيرة التى سببها حقل الألغام، اعتقد الجنود أن الحقلين قد انفجرا، ولكن بعد انقشاع التراب والدخان، وجدوا أن أحد الحقلين فقط قد انفجر وليس الاثنين، وقد أرجعوا عدم انفجار ذلك الحقل إلى عدة أسباب، وكذلك أيضاً عدم قيام المدافع بإطلاق قذائفها فى الوقت المحدد، وقد أحدث هذا ارتباكاً عظيماً فى الجيش بسبب الفشل الحادث فى حقل الألغام، وعلى الرغم من أن الحقل الذى انفجر قد أحدث تأثيراً عظيماً وقويا، كانت دفاعات البلدة واستعدادات الحصن لا تزال قوية وعلى أى نوع من الدفاعات يقوم به المسلمون، مهما كان بسيطاً، يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم وعن المكان ويهاجموا عدوهم دون أن يسمحوا له بالدخول، مع أن جنودنا

سعوا إلى ذلك بكل قوتهم وحماسهم؛ وفى حالة تحقيقهم هذا الهدف سيدفعون الثمن غاليًا من دماء المسيحيين.

الحق أن السيد خوان قد أصابه بعض الضيق عندما علم بعدم انفجار حقل الألغام فهو المسئول الأول عن الهجوم، وقد أمر فيما بعد، بأن تقوم المدفعية فى كل منصاتها بالقذف بكل قوتها، وقد نفذ هذا الأمر على الفور وبدقة شديدة واستمر زمنًا لأنه قد بدا أنه مع قذفها يتم تسوية بعض الدفاعات التى كونتها الأجزاء المتهدمة من جراء انفجار حقل الألغام سواء فى الصخرة أو من السور الذى تحطم وسقط أو أجزاء القلعة التى تساقطت، وقد تم إخبار الجنود على الفور بالقيام بالهجوم لأنه على الرغم من عدم انفجار أحد حقول الألغام، كان قد تقرر استغلال ذلك اليوم للهجوم والفوز بالبلدة، ذلك أن ما هدمته المدفعية وما قام به حقل الألغام كان كافيًا للدخول بسهولة فى القرية والانتهاء من هذا الكابوس المزعج الذى لو تم التعامل معه بالجدية المطلوبة لانتهى تمامًا، وتأخير حسمه أصبح شيئًا مخجلاً بخاصة لجيش له قدرته وشدته، وقد اجتمع لوضع نهاية له، وقد تراءى له أنه إذا تم التعامل مع تلك الحرب بتراخى فربما يؤدى ذلك إلى مشاكل أكبر، ذلك أن المسلمين سوف يكتسبون ثقة أكبر وسيزداد حماسهم، سواء فى البشرات أو فى الأراضى الواقعة حول نهرى المنصورة والمرية. وقد اعتبر صاحب السمو أن عدم انفجار حقل الألغام أمر يرجع لمشيئة الرب؛ فلو أراد الله لكان لهذا الحقل تأثير عظيم، وإن كان الحقل الذى انفجر قد أتم المهمة المطلوبة، لذا فقد توجه بالحديث إلى رؤساء الرهبانيات العسكرية والقادة الآخرين وقال لهم الآتى:

"هيا أيها القادة الشجعان والجنود المغاوير، لقد حان وقت الانتصار، إن الأرض تنادينا وتقول لنا إنها ليست فى حاجة إلى حقل الألغام الآخر، وإن الانفجار الحادث كافٍ ، لأننا لو كنا فى حاجة إلى انفجار حقل آخر لأراد الرب، الذى نعيش ونحارب من أجله، أن ينفجر الحقل الآخر، ولكن الرب جلَّ شأنه رأى أننا لسنا فى حاجة إلى ذلك، وقد أعطانا إنذارًا منه وأخبرنا بألا نضع هذا الانفجار فى حسابنا بل لا بد أن نعتمد على حماسنا وجهودنا ونقوم بالهجوم، وسوف يكون النصر حليفنا"، وبعد أن قال هذه الكلمات وغيرها، قام كقائد قوى وشجاع بالمرور على كل الجنود كى يحمسهم ويبث فيهم الشجاعة ويتفقد النظام والأمور التى يحتاجها الهجوم ".

وكان المسلمون فى ذلك الوقت قد أعدوا عدتهم لخبرتهم التى اكتسبوها نتيجة انفجار حقل الألغام الذى ألحق بهم خسائر ليست قليلة فقد تطايرت أجساد أكثر من خمسين جنديا

من رجال الحراسة الذين كانوا بالقرب من القلعة والسور، وقد شعروا بما حدث اليوم والليلة السابقة، بخاصة وقد رأوا الجيش كله فى حالة استعداد لدخول معركة ضدهم، لذا فقد استعدوا لكل ما يتطلبه هذا الأمر من استعدادات، وحتى لا تتطاير أجسادهم ويدمروا بفعل البارود كما حدث في المرة السابقة فقد جعلوا الأهالى والجنود يتراجعون إلى الوراء ويبتعدون عن السور والقلعة وعن كل هذا المكان الذى توقعوا أن يتم تلغيمه وأن تنفجر ألغامه، وقد تركوا فقط بعض أفراد الحراسة فى أماكن مناسبة وآمنة من السور حتى يستطيعوا من هناك أن يخبروا بقية الجيش بما يحدث فى جيش المسيحيين حتى يستعدوا بالسلاح عند الضرورة، بخاصة أفراد الحراسة الموجودين فى الميدان، وعندما رأوا انفجار حقل الألغام، صدر أمر بصعود أربعين رجلاً مسلمًا أو أكثر إلى منطقة القلعة حتى يستطيعوا من هناك أن يحضروا للآخرين ما تقتضيه الحاجة، فهم يعلمون تمامًا أن المدفعية قد نفدت ذخيرتها، ويعلمون أن جنودنا سوف يقومون بالهجوم عليهم. بعد ذلك قاموا أيضًا بتجهيز الجزء الخاص بالثغرة التى أحدثها انفجار الألغام قدر استطاعتهم حيث كان مدى المدفعية يصل إلى هذا المكان، وقد استخدموا لتحصين هذا المكان المراتب والخشب والحجارة والتراب وأشياء أخرى كثيرة قدرما سمح لهم استعدادهم وقدرما سمح لهم الوقت. وقد استطاعوا خلال هذا الوقت القصير حفر خندق قوى. وقد سُرَّ أهالى البلدة الباقون لأنهم قد استغلوا الوقت وقاموا بحفر خنادق وإقامة تحصينات فى كل شوارع المدينة بحيث يصعب السير فيها أو اجتيازها وهكذا تتوفر لهم الحماية الداخلية إلى جانب الاستعدادات الدفاعية الخارجية فيستطيعون مواجهة مثل هذا الموقف.

وقد قاموا كذلك بتوزيع نحو ثمانين أو تسعين رجلاً لحراسة قطع المدفعية والدفاع عنها واضعين كثيرًا من الحجارة كذخيرة لها، وكانت هذه الحجارة هى السلاح الذى يعتمدون عليه فى معركتهم، وكان لهم الحق فى ذلك فقد استخدموا الحجارة فى أثناء المعركة السابقة. إلى جانب ذلك كانوا يقومون بتحصينات أخرى ملائمة لهم ومناسبة لما يتطلبه الهجوم.

بعد أن أخذ الأمير وقتًا فى التفكير، أبلغ أعضاء مجلس الحرب بآرائه وتم الاتفاق على أن يذهب البعض لاستطلاع أنابيب الحقل كله، فإذا كان انفجار الحقل الأول قد أدى إلى إطفاء موقده، فليعملوا على إعادة تنشيطه، وإعادة شحنه بالبارود من جديد بحيث ينفجر أشد الانفجار وقت اشتعاله، وقد اتفق على ذلك بناءً على الأسباب السابق ذكرها، فإذا تم الانفجار

كما هو مقدر له، لا تتوقف المدفعية عن القذف ولو للحظة واحدة، وقد ظهر أن هذا القرار الذى اتخذ كان صائبًا. وهكذا تم التنفيذ؛ فقد صدر أمر بأن يذهب بعض الجنود ومعهم فنى متخصص إلى هناك ليقوموا بتلك المهمة، وقد قاموا بها بالفعل، وعندما وصلوا إلى الحقل وبعد الكشف عن موقده وجدوه نظيفًا بحيث أنه كان من السهل إشعاله وحثه على الانفجار، وقد علم السيد خوان بهذا، وقد سره ذلك سرورًا عظيمًا. فيما بعد أمر بإضرام النار، وبعدها انفجر حقل الألغام بكل سهولة تمامًا كالحقل الأول، وقد تطاير بفعل الانفجار جزء من الصخرة ومعه جزء آخر من واجهة السور وكل الجزء المتبقى من القلعة مما أدى إلى تهدمها، ومع ذلك فقد ظهرت صعوبات جديدة كبيرة للغاية، أفقدت الجنود حماسهم بعد أن اعتقد الجميع أنه من المستحيل الفوز بالبلدة فى ذلك اليوم أو دخولها، لأن الحقل قد انفجر انفجارا أشد بكثير من انفجار الحقل الأول مما أدى إلى ظهور هوة عظيمة فى الأرض امتدت إلى أكثر من خمس عشرة خطوة إلى الداخل، ولهذا فإن ذلك قد زاد المدفعية الموضوعة على الصخرة وتطل على هذا المكان زادها قوة أكثر من غيرها. ولأن البارود قد واجه بعض المقاومة، فقد كان تأثيره أكثر قوة وعنفًا. وعلى الرغم من تهدم كل الأجزاء المتبقية من القلعة والتى كانت تشكل معظم القلعة والجزء الأكبر من السور، فإن الصخرة قد انشقت على الجزء العالى من جهة اليمين فأصبحت أكثر استقامة وقوة عنها فيما قبل؛ فقد ظهر أن كل ما حدث من انهيارات قد شكلت واجهة قوية وسور حصين وكان ذلك قد صُنع خصيصًا للدفاع عن البلدة كلها، وليس الجزء الخاص بالقلعة والسور فقط ولم يحدث هذا فقط فى هذا الجزء والذى جعله حقل الألغام يتطاير ويثبت على هذه الصورة، بل جاء الانفجار ليقوى التحصينات الخاصة بالأجزاء التى هدمتها المدفعية والجزء الآخر المتهدم من الحقل، وكذلك السور والصخرة والقلعة، وبدا أنه من المستحيل تقريبًا أن يتم الانتصار فى معركة اليوم، وقد أحدث هذا الشعور ارتباكًا وعدم ثقة فى نفوس الجنود، فالمدفعية لا تزال قوية بل وأقوى من ذى قبل، أقوى منها فى الهجوم السابق، لذلك فقد أخذ الجنود يلعنون حقول الألغام والانفجار الذى أحدثته فقد بدا لهم أن هذه الألغام قد تم تصنيعها فقط من أجل إلحاق الأذى بالجيش وليس للحصول على أية فائدة أو مصلحة منها.

عندئذٍ أراد الرب أن يجعل ما يراه جنودنا صعبًا ومستحيلاً أمرًا سهلاً. وهكذا استطاع جنودنا أن يدخلوا أراضى البلدة دون وقوع أضرار جسيمة ودون إراقة دماء غزيرة، ولكن، كما قلنا سابقًا، فقد أرادت مشيئة الرب ورحمته بعباده ذلك، فقد أعد الأرض بما هو ضرورى

كي يجعلهم يفوزون بها دون خطر أو خسائر متوقعة في السابق. والذي حدث هو أن المسلمين قد أصابهم فزع عظيم واستبد بهم الخوف جراء انفجار حقل الألغام فتراجعوا إلى الداخل في اتجاه مقدمة السفينة، وكان عددهم كبيراً، وقد تركوا قطع المدفعية والسور المتهدم دون أدنى حراسة تستطيع أن تنذرهم بالخطر القادم. كان هناك أحد الجنود من بيثكايا، وكان يعمل على المدفعية ويُدعى لافورتي (Laforte) أراد أن يقوم بواجبه كجندي مخلص فاختبأ أسفل المرتفع بالقرب من السور، بين قطع الصخور التي هدمتها الألغام. وعندما رأى هذا الجندي أنه لم يكن هناك أي مسلم عند السور حتى يدافع عنه عند الحاجة، بدأ هذا الجندي صعود المرتفع إلى أعلى، كان يحمل سيفًا في يده ويضع على رأسه خوذة قوية ودرعًا، ولأنه لم يجد أية مقاومة أو عائقًا تقدم إلى الأمام حتى وصل إلى البرج الذي كان هناك حيث كانت ترتفع فوقه راية فمدَّ يده وأخذها وهبط بها وعاد بها إلى خنادقنا؛ وقد رأى بعض جنودنا هذا الجندي بينما كانوا مختبئين كلٌّ على طريقته بين الصخور، وعندما رأوه خرجوا من الخندق وذهبوا بين الصخور واخترقوها هم أيضًا، كان عدد هؤلاء الجنود ما بين عشرين أو خمسة وعشرين جنديا، وبدءوا في صعود المرتفع إلى أعلى، وقد رأى كل الجيش ما قام به لافورتي، وعندما رأوا أنه ليست هناك أية مقاومة وليس هناك أي رجل يدافع عن السور، قاموا بتسلقه واحتلوا الجزء الخاص بالقلعة، وعندما رأوا أنهم علاوة على ذلك قد تحكموا في الجزء الخاص بقطع المدفعية وبأنهم قد دخلوا البلدة دون أن يشعروا، وكأن الأمرَ حلمٌ وليس حقيقة، وبدءوا يصيحون بصوت عال قائلين: "إلى أعلى، إلى أعلى، إلى الداخل، إلى الداخل، إسبانيا، إسبانيا، النصر!، النصر!" في تلك اللحظة بدأت أعداد غفيرة من الجنود في الصعود بكل سرعة إلى أعلى المرتفع وكانوا قد خرجوا من الخنادق كي يساعدوا زملاءهم على أن يقوموا بمثل ما قاموا به من عمل.

عندما سمع المسلمون أصوات جنودنا وصيحاتهم وعلموا بصعودهم على السور، اعترفوا بخطئهم الذي وقعوا فيه عندما تركوا قطع المدفعية والسور المنهار، وهم متأكدون أنه لا تزال هناك حقول ألغام أخرى يمكن تفجيرها. هكذا سار المسيحيون فوق السور وهم آمنون، وبدأ المسلمون، بعد أن تأخروا في ذلك، في الدفاع عن بلدتهم ومقاتلة المسيحيين بكل قوة، وقاموا بإطلاق النار عليهم وقذفهم بكميات كبيرة من الحجارة بكل عنف، وكانت تلك الحجارة هي السلاح الذي أوقع الكثير من الإصابات في تلك المعركة لأنهم كانوا يجيدون قذفها، وكان عدد الأهالي الذين يقومون بذلك كبيراً، وقد انضم لهؤلاء القناصة عدد آخر من

الأهالى والجنود الذين أصابوا بسيوفهم وحرابهم وأسلحتهم الأخرى جنودنا بإصابات شديدة، أما جنودنا الذين كانوا متسلقين السور والبرج والقلعة فقد سيطروا على المكان كله، كما سبق وقلنا، وقد تلقوا الطلقات والحجارة التى أطلقها المسلمون موقعين بالمسيحيين إصابات بالغة ولكن مع كل ذلك لم يتوقف جنودنا عن إطلاق الرصاص من بنادقهم أو الهجوم والاشتباك مع المسلمين بل اشتبكوا معهم فى معركة شرسة تبادلوا فيها إطلاق النار والضرب بالسيوف والخناجر.

وعندما رأى الجنود الموجودون فى الخنادق، وكانوا فى انتظار صدور أمر الهجوم، عندما رأوا المجموعة الأولى من الجنود الذين تخطوا السور قد اشتبكوا مع الأعداء داخل أراضى البلدة التى احتلوها قاموا بالصعود على السور بكل سرعة وتجاوزوا الربوة ووصلوا بالقرب منهم ثم ألقوا بأنفسهم وتدافعوا أفواجًا خلف زملائهم للمشاركة فى القتال. وقد قام القادة وحملة الألوية والشاويشية وغيرهم من الشخصيات الهامة التى أوكل إليها السيد خوان مهاما جسيمة بواجباتهم على الوجه الأكمل ولولاهم لاختلَّ النظام ولحلت الفوضى كما حدث فى الهجوم السابق، فقد حاولوا إيقاف الجنود حتى لا تعم الفوضى، ولم يكتفوا بذلك بل بدءوا فى عقابهم وطعنهم بالخناجر، ولكن لم يتوقف أحد من الجنود ولم يغير أحد منهم من هدفه؛ فقد أعلنوا بصوت عال أنهم يريدون مساعدة زملائهم الذين بدءوا يكسبون الأرض ويقاتلون الأعداء فى الداخل وأن المسلمين عددهم كبير وسوف يقتلون هؤلاء الجنود إذا لم تصل إليهم النجدة والمدد. وعندما قالوا ذلك صاح أحد الفرسان المورثيون وكان يُدعى سالبادور نابارو، وهو قائد فى سلاح الفرسان لمدينته وتولى هذا المنصب بعد أن تنازل ماركيز بليث عن الحصار، قائلاً للقادة الذين يحاولون إيقاف الجنود: "أيها السادة الفرسان ليس الوقت مناسبًا الآن لترك المعركة ولا منع الجنود من المشاركة فيها وإحراز النصر الذى اقترب منهم بعد أن تغلبوا بقوة على العدد. لاحظوا يا سادة، أنه إذا فقدنا معركة اليوم سيكون من المستحيل أن نحرز النصر بعد الآن، ولهذا فلنذهب جميعًا إلى النصر الذى منحه الله لنا والذى طال انتظارنا له". وعندما قال ذلك قام هو والجنود الآخرون بالتدافع أفواجًا مع كل ما يملكون من أسلحة دفاع وصعدوا الربوة إلى أعلى مثلما فعل الجنود السابقون. وعندما رأى بعض هؤلاء القادة والفرسان الذين حاولوا إيقاف الجنود أنه من المستحيل إثناؤهم عن موقعهم، وعندما شعروا بضجيج الحرب فى الداخل والضوضاء التى تحدثها الأسلحة، لم يستطيعوا أن يحافظوا على النظام الذى أمروا أن يحافظوا عليه وذهبوا معهم كى يقاتلوا العدو. وقد بقى

بعض القادة والشخصيات القادة، على الرغم من رغبتهم من المشاركة خوفًا من غضب السيد خوان، حتى يثبتوا أن عدم النظام بين الجنود كان أمرًا خارجًا عن إرادتهم. وعندما رأى السيد خوان التأثير العظيم الذى أحدثته الألغام، أمر بأن تضرب المدفعية دون توقف ولو لحظة واحدة حتى ينتهى من سماع القداس، وعندما سمع صوت القداس عاد إلى حيث كان وأمر بما يجب فعله وأن يتواجد أفراد الجيش المعينين للهجوم، سواء فى هذا المكان أو فى غيره، وأن يترقبوا الموقف دون أى حركة، وأن يأخذ القادة فى اعتبارهم كل ما يحدث ويأخذوا حذرهم. وبينما كان السيد خوان يستمع القداس فى كنيسة صغيرة (كانوا قد أقاموها من أجل ذلك) شعر أن المدفعية لا تعمل وسمع ضجيج تبادل الرصاص وصياح جنودنا وهم يقاتلون الأعداء فتساءل فى اضطراب ما هذا؟، ولأن لافارتى (Lafarte) قد اقترب فى ذلك الوقت، حاملاً الراية التى ظفر بها ومعه بعض الجنود الآخرين فقد قيل له إن أحد الجنود قد حصل على راية الأعداء التى كانت مرفوعة فوق برج السور العالى وقد أحضرها إلى صاحب السمو، وعندما رأى بعض الجنود ما قام به هذا الجندى سارعوا بالهجوم دون نظام وقد استولوا على قطع المدفعية وتوغلوا داخل الأراضى واشتبكوا مع الأعداء داخل البلدة. عندما سمع صاحب السمو هذا فزع لما حدث فترك القداس الذى كان يحضره وخرج على وجه السرعة كى يتجول على الخنادق حيث عثر على لافارتى، الذى أحضر الراية ومعه بعض الجنود، وعندما رأى لافارتى صاحب السمو ركع على ركبتيه وقال له: "صاحب السمو، فلتقبل منى هذه الراية التى انتزعتها من حصن الأعداء وكنت سببًا فى دخول الكثير من الجنود إلى البلدة وقد استولوا عليها فى لحظة، فأرسل إليهم، يا صاحب السمو، بالمدد بكل سرعة حتى يحرزوا النصر"، وقد أجابه صاحب السمو قائلاً: "لقد قمتم بواجبكم كجندى مخلص، وقد تحقق الشىء الكثير بفضلكم" . ثم أخذ الراية من يد لافارتى وأعطاها لخادمه حتى يحتفظ بها؛ وقد عاد فى خطوات سريعة إلى حيث الخنادق، وعندما وصلها وجد أن الأرض لا تزال على الهيئة التى أمر بها فاعتقد أن هذا بفضل من الرب وليس من تدبير من البشر، وقد شحذ هذا معنوياته وسره أيما سرور ما حدث، ومستغلا الأحداث، تقدم إلى الأمام خلال الخنادق وأخذ يحفز ويشجع الجنود حتى وصل تقريبًا على قدميه إلى الربوة المرتفعة، وكان المسلمون فى ذلك القوت يقاتلون المسيحيين بكل قوة. وقد رأى الجنود المتواجدون فى الجزء المتواجد فيه السيد خوان أن قائدهم الأعلى قد تقدم إلى الأمام وأخذ يشجع الجنود كى يهاجموا أفواجًا ولا يبقى أحد منهم سوى الفرسان فقط وذلك لحماية المدفعية حتى لا يصل إليها أى مسلم. وهكذا أمر صاحب السمو، وقد ترك الكثيرون جيادهم لخدمهم كى يفعلوا مثلما فعل سلبادور

نابارو، فارس مورثيا (الذى تحدثنا عنه آنفًا)، وكثير من أصدقائه من أهالى نفس المدينة حيث أظهر جنود مورثيا ولوركا وكل المملكة شجاعة مبهرة وجهداً خارقًا كما هو معتاد منهم فى كل المعارك السابقة. ومع كل هذا كان المسلمون الغاضبون من أنفسهم والذين يلقون باللوم على جهلهم العميق يقاتلون كأناس يائسين من الحياة وكأناس ليس لديهم أمل فى تلك الحياة فكانوا يقاتلون بكل قوة لدرجة أجبرت جنودنا على التراجع إلى الخلف والعودة إلى مؤخرة السفينة فاقدين ما استطاعوا الاستيلاء عليه من الأرض لأن المسلمين قاموا بالهجوم عليهم بكل شجاعة لدرجة جعلت المسيحيين لا يقدرون على فعل شىء سوى الانسحاب لأن الحجارة انهالت عليهم من كل مكان لدرجة لم تمكنهم من حمل السلاح أو إطلاق رصاص بنادقهم ولا حتى استعمال السيوف. وكانت السيدات المسلمات يقاتلن كالرجال تمامًا، بخاصة ثارثامودونيا، التى تحدثنا عنها سابقًا، حيث قلنا إنها ذبحت أحد الجنود ونزعت عنه صدريته ودرعه وخوذته بعد أن قامت بذبحه، هذه المرأة المسلمة كانت مسلحة بسيف ودرع فى يدها، وقد أحدثت خسائر عظيمة فى صفوف المسيحيين فقد كانت شجاعتها تثير الرعب، حتى سنحت الفرصة لأحد الجنود فأطلق النار عليها وأرداها قتيلة، فخلفت وراءها شهرة عظيمة ومثلاً للشجاعة. وقد حاربت سيدات مسلمات كثيرات بكل شجاعة أيضًا وسقطن قتيلات كالرجال المحاربين تمامًا.

فى ذلك الوقت كان جيش نابولى الذى كان عليه واجب الهجوم من جانب الوادى والذى كانت المدفعية منصوبة فى مواجهته، وكذلك الجنود الذين كان عليهم الهجوم من جانب الشرق والجنوب، عندما سمعوا ضجيج الأحداث الجارية داخل البلدة، قاموا بالهجوم دون انتظار لأى أمر وبكل قوتهم، وقد دخلوا ومعهم قطع مدفعيتهم وكلهم غضب وحماس. وكان ثلاثة من القادة هم أول منْ دخلوا واقتحموا البلدة من هذه الناحية، كان الأول يُدعى بدرو ثامبرانا والآخر السيد لويس كاريبو، وقد أصيب هذا بجراح فى أثناء الاقتحام نتيجة طلقة رصاص أصابته فى وجنتيه ومع ذلك لم يتنازل عن الاقتحام بكل شجاعة. أما القائد الثالث فقد كان من مورثيا وكان يُدعى فرانثيسكو غالتيرو، وكان رجلاً شجاعًا، وقد أصيب هذا بجراح أيضًا من طلقة رصاص أصابته أسفل لحيته وقد اعتقد أن الرصاصة قد ذبحته، ولكن أراد الرب أن تكون الإصابة طفيفة، وعلى الرغم من ذلك لم يتوقف عن المضى قدمًا كأنه أسد مغوار مشجعًا جنوده على الاقتحام أيضًا.

وقد أصيب السيد بدرو ثامبرانا أيضًا إصابة خطيرة، وقد شارك فى الاقتحام قادة آخرون من لوركا ومعهم عدد من أهالى مورثيا بكل شجاعة وانضم إليهم فى القتال أيضًا

أهالى كاراباكا، وكان قائدهم يُدعى فيرناندو دى مورا، وهو رجل شجاع وكان من أوائل من تسلقوا السور. شارك أيضًا فى الهجوم القائد كارينيو، من ثيخين (Zehejin)، والقائد بيلاخيرون من مولا، والقائد مورا من توتانا، والقائد كايولا من ألحامة. وكان كل هؤلاء القادة ينتمون إلى جيش السيد بدرو دى باديا، وغيره من القادة الشجعان من أفراد ذلك الجيش، وأيضًا جنود آخرون جاءوا من نابولى، الذين كان اقتحامهم الشجاع شيئًا يستحق التسجيل، وكذلك أيضًا كان جنود أندلوثيا وقشتالة يتميزون جميعًا بالشجاعة والإقدام.

وقد بدأ المسلمون يفقدون الأمل فى الحياة بعد أن رأوا قوة الهجوم الموجه إليهم، فانضم بعضهم إلى بعض حتى شكلوا قوة تزيد غلى الألف رجل، وشددوا الهجوم على المسيحيين الذين، كما سبق وقلنا، اضطروا إلى الانسحاب إلى الوراء حتى وصلوا إلى حقل الألغام، وقد بدأ بعض الجنود فى الهبوط إلى أسفل لأن المسلمين قد أحكموا الضغط عليهم لدرجة أن جنودنا قد اضطروا إلى الالتفاف حول بعضهم بعضًا وإن لم يتوقف تلقيهم الإصابات ووقوع بعضهم صرعى حيث كان الرصاص ينهال عليهم كالمطر من قبل الفيلق التركى الذى كان يقاتل بحماس منقطع النظير حيث لم يتوقف ولو للحظة واحدة عن إطلاق آلاف الرصاصات والسهام الطائرة، ولكن كل هذه الشجاعة ضاعت سُدى لأنهم يواجهون زهرة شباب إسبانيا، الذين رأوا أن الفرصة قد جاءتهم كى يظهروا شجاعتهم وإقدامهم وقد انطلق بينهم صوت يقول: " اثبتى يا إسبانيا، سانتياغو! سانتياغو!" وبعد ذلك ألقى بنفسه بين ضباب البارود الأسود وبين الضجيج والضوضاء باحثًا عن فريق الأعداء، ولكن المعركة كانت قد اشتدت وكان الناس قد ازدادوا التحامًا لدرجة لم يفد معها القدرة على استخدام البنادق فى الوجه أو الإطلاق عن بُعْد بل تقارب الأعداء بعضهم بعضًا وأصبح كل منهم يوقع فى فريق الآخر الكثير من الإصابات والخسائر. وقد اشتد تأثير أذى المسلمين مع إلقائهم الحجارة، وكذلك كان حال المسيحيين مع استخدامهم للرصاص. وفى تلك اللحظة قام أحد الفرسان التابعين لرهبانية القديس خوان، وكان يُدعى السيد فرانثيسكو دى كينيونيس، وكان من أبناء ثامورا، الصعود إلى منطقة عالية تواجد فيها بعض المسلمين الذين أوقعوا أضرارًا جسيمة فى صفوف المسيحيين، وعندما وضع يده يريد الصعود، قام جندى تركى بقطع أصابعه بسيفه القصير، ومع ذلك لم يتوقف الفتى الصغير ولم يتنازل عن غايته، فلما رأى أصابع يده مقطوعة تماسك بالأخرى وواصل الصعود بخفة إلى أعلى على الرغم مما حدث له، ولكن توقف عن الصعود عندما أصابه المسلمون بجراح عديدة وأطلقوا عليه سهامهم من أسفل ومن أعلى فأردوه قتيلاً

وتحول الصليب الأبيض اللون إلى اللون الأحمر بعد أن تغطى بدمائه الطاهرة. وقد أصيب السيد بدرو دى سوتو مايور إصابة شديدة فى قدمه أجبرته على الذهاب إلى خيمة الجيش التى ذهب إليها أيضًا محمولاً على الأكتاف فارس ثامورا وهو على وشك الموت. كانت تتعالى فى المعركة صيحات كلا الجانبين والتى كانت تصيب قلب منْ يسمعها بالفزع والرعب ما بين طلقات رصاص وضربات سيوف ورنين الأسلحة وأصوات البشر وأصوات وأنات القتلى وضوضاء الطبول التى يقرعها المسيحيون والأغانى الحماسية للمسلمين، كل هذا الضجيج كان يخيل لمنْ يسمعه أن الأرض تنهار من شدة الأصوات وصداها فى تلك الوديان. كانت الجلبة عظيمة بحيث لا يتمكن البعض من سماع البعض الآخر وبحيث لا يفهم الجنود أوامر القادة.

عندما رأى السيد خوان أن جنوده قد أُنهكوا فى هذا القتال العنيف والخطر خاف أن يفقدوا ولو لدقيقة واحدة حماسهم وشجاعتهم بخاصة أنهم كانوا قد أوشكوا على الفوز بالمعركة فترك مركزه كقائد أعلى للقوات، وكأى جندى مقاتل ذهب دون أن يمنعه أحد وصعد الربوة المرتفعة حيث تدور المعركة الشرسة فانطلقت رصاصة طائشة، وربما أطلقها أحد الجنود بذكاء على الصدرية الجميلة والأنيقة التى يرتديها الأمير الشجاع وقد أصابت الصدرية بشدة فقد انطلقت بكل عنف ولولا قوة الدرع الذى كان يرتديه الأمير لكانت هذه الرصاصة قد أصابته فى مقتل ولوقع الجيش كله فى ارتباك عظيم وما شعر أحد منه بحلاوة الانتصار فى هذه الحرب الشرسة ولاستبد البكاء الأليم بكل إسبانيا. ومع كل هذا لم يبد الأمير الشجاع السيد خوان اهتمامًا لهذه الضربة التى تلقاها وأظهر بشجاعته هذه أنه ابن مخلص لوالده كارلوس الخامس؛ فقد تقدم للأمام مواصلاً زحفه للوصول إلى السور الذى كانت تدور حوله المعركة الضارية. وكان يتابع تحركات الأمير ويحرسه قريبه السيد كيخادو، والذى أدركه الموت بعد أيام قليلة من هذه الأحداث، كما سنقول فيما بعد، وعندما رأى الأمير يتعرض للخطر، ذهب إليه وقال له هذه الكلمات الجادة: " قل لى يا صاحب السمو، ما هذا القدر القاسى الذى استطاع أن يجعلك تترك مكانتك وصولجانك كقائد أعلى للجيش وتلقى بنفسك كأى جندى عادى فى أتون هذا الخطر العظيم دون أن يجبرك على هذا أى شىء أو أى زمن؟ انزع عنك هذه الخيلاء وعُد إلى الخلف، ولا تتسبب بموتك فى فقدان الجيش كله الأمل فى إحراز النصر الذى أوشك أن يحصل عليه. إن الاستيلاء على مدينة غاليرا لا يستحق أن يخاطر أمير فى مقامك بنفسه كأى جندى من أفراد الجيش، بخاصة وأن لديك القادة ورؤساء

الرهبانية العسكرية وجميعهم يتميزون بالشجاعة وبذل الجهد وتستطيع أن تتابعهم وهم ينفذون أوامرك ويقومون بواجبهم. عُد يا صاحب السمو، عُد ولا تتقدم أكثر من ذلك، لا تجعل أخاك الملك يفقد آماله المعقودة عليك وتفقدها معه كل الأمة الإسبانية".

عندما سمع الأمير هذه الكلمات المخلصة غلبت عليه الطاعة المعروفة عنه فأوقف حماسه وعاد إلى مكانه ولم يتجاوز منطقة الخنادق. فى تلك اللحظة كانت المعركة تدور بكل وحشية، وكان جنودنا الأبطال يقاتلون بكل ضراوة حتى أجبروا العدو على التراجع والتخلى عن منطقة مؤخرة السفينة والتوجه إلى الداخل حيث المنطقة الخاصة بمقدمة السفينة، وقد بدأ العدو الانسحاب تحت وطأة الرصاص الذى انهمر عليه كالمطر من بنادق جنودنا، وقد تراجع المسلمون وهم لا يزالون يقاتلون، وقد احتمى بعضهم بالمتاريس ووسائل الدفاع الأخرى الموجودة فى طرقات البلدة وشوارعها بينما احتمى البعض الآخر بالبيوت وقاوموا مقاومة شرسة كأسود أقوياء. لهذا السبب كان جنودنا الذين استولوا على كل المكان يتقدمون بصعوبة شديدة حيث كانت الحجارة تنهمر فوق رءوسهم كالمطر، وكان المسلمون يقاتلون بكل شدة فكان من الضرورى التقدم للاستيلاء على المدينة شارعًا وراء الآخر، وبيتًا بيتًا، وسطح بيت ثم الآخر، مقاتلين بكل شراسة بحيث إنهم كانوا يتقدمون سائرين على جثث القتلى دون أن يُبدى المسلمون أية بادرة للاستسلام، وهكذا مات منهم الكثيرون على أيدى جنودنا وكأنهم حيوانات، ماتوا بقوة الخناجر والبنادق، وبمدد من الرب وبعون منه، تم الاستيلاء أخيراً على كل أراضى البلدة.

استمر القتال بعد التوغل فى القرية منذ الثامنة صباحاً وحتى الخامسة مساء، وقد سقط ألفان وثمانمائة رجل من الأعداء صرعى نحو ثمانمائة امرأة وطفل لقوا مصرعهم بحيث أصبح إجمالى عددهم نحو ثلاثة آلاف وستمائة قتيل، وتم أسر نحو ألف وخمسمائة شخص بين نساء وأطفال لأنه تم القضاء على كل الرجال ولم يبق منهم أحد حيا. وقد لقى نحو مائتى رجل من جنودنا مصرعهم وأصيب ثلاثمائة آخرون، وقد مات الكثير منهم بعد ذلك متأثرين بجراحهم. الحق أنه قد تم تعذيب النساء والأطفال الأسرى بكل قسوة لدرجة كانت تدعو إلى الشفقة وبعيداً عن الرحمة التى هى من سمات الإسبان والتى يتعاملون بها مع البرابرة، ولكن هذه المرة لم تكن هناك أى رحمة بالنساء ولا بالأطفال الذين قتلوا جميعاً بعد تعميدهم؛ فقد أمر بهذا السيد خوان حتى يكون العقاب الشديد رادعًا لبقية المتمردين فى البشرات بحيث يستولى الرعب على قلوبهم فيتنازلوا عن غطرستهم وعنادهم اللذين أبدوهما ضد صاحب

الجلالة، ولهذا السبب كانت الأوامر بقتل كل أهالى البلدة رجالاً ونساءً وأطفالاً. عندما رأى صاحب السمو أن تنفيذ هذه الأوامر يُعد أمراً بشعاً، خفف قليلاً من شدته وأمر بترك النساء والأطفال دون سن الخامسة أحياءً وإن ترك حريتهم يتحكم فيها المنتصرون.

بعد أن تم تنفيذ أوامر السيد خوان، وبعد أن تم الاستيلاء على غاليرا كلها بكل شرف ومجد للجيش المسيحى، سنتحدث الآن عن أمور تتعلق بالمسلمين الذين أصروا على ثورتهم الهمجية، أو على الأقل، سنذكر حدثين من الأحداث التى وقعت ويستحقان الذكر.

كان فى غاليرا أحد الأثرياء من المسلمين وكان لديه زوجة وابنتان جميلتان كانت إحداهما تبلغ من العمر عشرين عامًا والأخرى الثانية والعشرين. عندما رأى هذا الرجل أن المسيحيين قد توغلوا فى أراضى البلدة ولم يبق أمل للخلاص، توجه إلى منزله وهو يشعر باليأس، وقام بلا رحمة بقتل ابنتيه فى إحدى غرف المنزل بحيث لا تشعر بهما أمهما، وقال لهما: " اغفرا لى يا ابنتاى الحبيبتين، اغفرا لأبيكما الذى يتمزق حزنًا عليكما والذى يضحى بحياتكما حتى لا يستبيح المسيحيون جمالكما بعد انتصارهم ويحملوكما إلى أراضٍ أخرى كعبيد لهم". بعد ذلك قام بذبح ابنتيه فى تلك الغرفة ثم توجه إلى أمهما التعيسة وقال لها: "زوجتى الحبيبة يا رفيقتى فى السعادة والشقاء، حان الوقت لتنتهى صحبتنا؛ فقد انتصر المسيحيون واستولوا على بلدتنا وهم مصممون على عدم ترك أى شخص حيا؛ فهكذا أمر قائدهم الأعلى، قد كان يسعدنى أن تستمر حياتنا أعواماً وأعوامًا سعيدة، ولكن القدر القاسى لم يسمح بذلك، وسوف أشعر بألم وحزن مضاعفين لو وقعت فى أيدى الغرباء، بعد أن كنتِ لى وحدى، وكى نتفادى هذه التعاسة القاسية، أجدنى مضطراً كزوج أحبكِ كل الحب فى أثناء حياته، أن أجعلك حرة، كما فعلت مع ابنتينا الحبيبتين، وسوف نلتقى نحن الأربعة إن شاء الله هذه الليلة فى الجنة التى نتمناها وننتظرها". وبعد أن قال هذا، قام وهو يبكى بذبح زوجته، ولم يكتف بذلك، بل قام بإلقائها كما فعل مع ابنتيه فى بئر حتى لا يعثر المسيحيون عليهن. بعد ذلك خرج إلى المعركة وهو يهتف قائلاً: "هيا يا أصدقائى، لن أفقد شيئًا أعز مما فقدته بالفعل، فلنمت ميتة شريفة!"، وبعد أن قال ذلك ألقى بنفسه فى أتون أسلحة المسيحيين، وقام بقتل بعضهم بيده، وكان من الممكن أن يقتل منهم الكثير لو أُعطى الوقت الكافى، ولكن أحد الجنود عاجله بطلقة رصاص أردته قتيلاً.

علمت إحدى الفتيات الجميلات، وكانت قد فقدت أمها وهى طفلة صغيرة، بأنهم قد قتلوا أباها فى منطقة المدفعية، أخذت أخويها الصغيرين وخرجت من منزلها ثم أضرمت النار فى

المنزل، ثم حملت أخويها تحت ذراعها الأيسر، وأخذت سيفا في يدها اليُمنى، وخرجت إلى المعركة لتقاتل المسيحيين بكل شراسة حتى قتل أخواها. إنه حدث جدير بالذكر بالتدوين كتابة حتى نفهم قوة الحب.

وقد حدث أيضًا لأحد فرسان مورثيا، وكان يُدعى أندريس نابارو، وكان أخو القائد سالبادور نابارو، أن خرج أحد المسلمين من بالور فرارًا من جحيم المعارك عندما كان ماركيز بيليث قد تحسن موقفه أمام الملك الصغير، وعندما شعر بالحنين لامرأة كانت في صحبته وكان يحبها حبا شديدا، لم يستطع مواصلة الهروب خوفًا عليها من توابع الحرب ومن وقوعها أسيرة في أيدي المسيحيين إذا أحرزوا النصر، وعاد كأسد هائج، فقتل المرأة بطعنة خنجر حتى لا يظفر بها الرجل المسيحي الذي ذكرناه آنفًا والذي يُدعى أندريس نابارو ثم اختبأ المسلم في مناطق لا يستطيع جواد غريمه المسيحي أن يصل إليها، وقاتل غريمه بشراسة.

وقد خرج من غرناطة أحد المسلمين في جماعة كانوا قد خرجوا في ليلة عيد الميلاد الماضية، والتي تحدثنا عنها آنفًا، وكان يصحب معه ابنتيه الصغيرتين، يحمل إحداهما على كتفه والأخرى بين يديه، ولأنه كان مثقلاً بالطفلتين فلم يستطع أن يسير بسرعة تناسب سرعة الجماعة المسلمة. وعندما اعتقد أن المسيحيين سيحاولون اللحاق بهم، أصابه ارتباك شديد وقرر التخلص من الطفلتين فقام بذبح إحداهما بخنجر وألقى بالأخرى في أحد الجبال التي يكسوها الجليد، وهكذا سار حتى وصل إلى أراضي زملائه. كل هذه الروايات التي تبرهن على قوة الحب جديرة بالذكر مثلها مثل الروايات التي تحكيها القصائد.

لو كان مسلمو غاليرا لديهم السلاح الكافي في أثناء حصار هذه المدينة ولديهم أيضًا الذخيرة اللازمة لهذا الحدث، وكانوا مصممين كجنود مخلصين على الحرب بشجاعة مفضلين الموت على استيلاء المسيحيين على أراضي بلدتهم، إلا إذا اضطروا إلى بذل الدماء المسيحية في سبيل ذلك، لأمكننا أن نقول في هذا الصدد: " إذا بكت إفريقيا، لن تضحك إسبانيا! "، ولكن أراد الله برحمته أن يتم الاستيلاء عل هذه البلدة بأقل خسائر ممكنة وأقل صعوبة، وقد أسعد هذا الحدث إسبانيا كلها. وكانت هناك ملاحظة جديرة بالذكر وهي أنه على الرغم من أن سماء هذه البلدة كانت قاتمة وتنذر بالمطر، فإن العناية الإلهية شاءت ألا تُمطر السماء حينئذٍ على الرغم من موسم الشتاء، وذلك حتى لا يتوقف جيش المسيحيين عن القتال، لأنه لو أمطرت السماء لامتلأت الأرض بالأوحال ولعسكر الجيش في أويسكار حتى يتحسن الجو، لأن

هذه الروابى كانت ستملأ بالأوحال والطين حتى مجارى السيول بحيث يصعب القيام بإجراءات الحرب اللازمة. وحينئذٍ كان من الممكن أن يتقاعس الجنود لأنهم كسالى ومعتادون على الراحة ولا يرغبون فى المعاناة والألم، كان هؤلاء الجنود سيتقاعسون عن القتال ولتركوا الجيش ولذهبوا إلى منازلهم التى كانت قريبة، وقد فعلوا هذا كثيراً ولأسباب تافهة وذلك فى أثناء الحرب. لقد تم الاعتراف بهذا يوم الأربعاء بعد الاستيلاء على غاليرا مباشرة لأن السماء أمطرت وتساقط الجليد بشكل كثيف بحيث كان لا بد أن يُعسكر الجيش هناك سبعة أيام أخرى حتى أصبح حال السماء والأرض يشجع الجيش على مواصلة السير وسحب المدافع. فى أثناء ذلك صدرت أوامر بإخلاء المكان وإضرام النار فى المنازل وهدم الجزء المتبقى من السور. بعد الانتهاء من هذا وتوزيع الغنائم، أمر السيد خوان باسم صاحب الجلالة، بترك فرقة من الجيش حتى لا يجرؤ أحد على العودة إلى البلدة بعد أن يتم تسويتها بالأرض جراء تمرد أهلها على التاج الملكى، وإذا أراد ورثة السيد خوان إنريكيث أن يسكنوا فى البلدة فسيستطيعون أن يفعلوا ذلك فى المنطقة المتاخمة للوديان والسهل دون أن يقيموا سوراً.

هكذا تنتهى قصة حصار مدينة غاليرا، ولكى ننهى حكاية البشرات، ستتذكر القصيدة التالية التى تروى الأحداث الماضية:

قصيدة

قام السيد خوان

ابن كارلوس الخامس

أشهر ملوك إسبانيا

بحصار مدينة غاليرا

كان معه جيش عظيم

تبعث رؤيته السرور فى النفس

وكان بصحبته قادة عظام

من أفضل رجال إسبانيا

كان بينهم دوقة وماركيزات

من أصحاب الشرف والنبلاء

من أبناء الكبراء والنبلاء

وجنود من طبقات مختلفة

ونوعيات متباينة

من الجنود المغاوير

وأراد على الفور هدم البلدة

والقضاء على المحاصرين

فأمن الجيش بمؤخرة قوية

وخنادق محصنة

وأقام مدفعيته في

ثلاث مناطق مختلفة

وبعد أن تم تمهيدها

قام بأول هجوم على البلدة

وكانت المعركة دموية

ومات الكثير من المسيحيين

ثم عادوا للهجوم مرة أخرى

بمدفعية أشد وأقوى

قامت بقذف المدينة

ولكن المسيحيين تأثروا بالضرب

لأن السور كان

يحمى المسلمين جيداً

وقد واصلوا القتال

وقد أمر السيد خوان

عندما رأى أن قذف المدافع

كان دون جدوى

بأن يتم عمل حقول ألغام

حتى يتم القضاء على تحصينات العدو

وقد انفجرت الألغام بقوة

وهدمت أجزاء كبيرة

من واجهة السور

وكذلك جزء آخر من الصخرة

وقد أقاموا المدفعية

وكانت أقوى من ذى قبل

وقد قاموا بهجوم شديد

عن طريق الأماكن المنهارة

وعندما رأى المسلمون

أن حقلى الألغام قد تفجرت بشدة

انسحبوا من منطقة الحصن

وقد اقتحم المسيحيون البلدة

وترك المسلمون المدفعية

دون حراسة كافية

وقد رأى أحد جنودنا

أن المسلمين تركوا الحصن

فصعد إلى حيث قِطع المدفعية

بكل شجاعة وتصميم

ودون أن يمنعه شيء

صعد إلى حصن السور

وأخذ بيده راية الأعداء

وعاد بها من حيث جاء

دون أن يغضبه أحد

وقد رأى جنود آخرون

ما قام به هذا الجندى

فتسلقوا السور

دون أن يهاجمهم أحد

و على الفور

صعد جنود الجيش المسيحى السور

وحملوا أسلحتهم

وهاجم كل أفراد الجيش

وقد غضب المسلمون

بعضهم من بعض

لأنهم تركوا المدفعية دون حراسة

وخرجوا بعد ذلك للدفاع عن أنفسهم

ولمنع المسيحيين من المرور

ودارت معركة شرسة

البعض كان يهتف باسم محمد

وآخرون يصيحون لسانتياغو

وآخرون يهتفون اثبتي يا إسبانيا

الموت للجاحدين الكافرين

ودارت المعركة طيلة اليوم

حتى توارت الشمس

وقد أحرز المسيحيون النصر

بعد بذلهم الجهد الجهيد

وقد قتل ثلاثة آلاف مسلم

من المقاتلين المحاربين

وقد قتل من النساء والأطفال

أيضا عدد كبير

وتم أسر ألفى شخص

وقاموا بنهب القرية

وقد أمر صاحب السمو

بعد ذلك بحرق البلدة

كانت هذه نهاية غاليرا

التي تستحقها عن جدارة

"خاتمة"

الفصل الثانى والعشرون

الذى يحكى عن رحيل السيد خوان من غاليرا وذهابه إلى باثا، وما قاله عن شخصيات من أصحاب المناصب العليا ماتت أو أصيبت فى غاليرا.

كان للاستيلاء على غاليرا الحصينة واضطهاد أهلها صدى عظيمٌ تردد فى إسبانيا كلها ووصل حتى الجزائر في الوقت الذى كان فيه أولوج على ملكها يجهز ألفى محارب تركى إنكشارى من أشجع الجنود. وعندما علم أولوج على بما حدث فى غاليرا توقف عن مسعاه هذا، كما أصاب الرعب قلوب المسلمين فى مملكة غرناطة وفقدوا آمالهم فى النصر بعد أن رأوا قرية حصينة كغاليرا وقد اشتعلت فيها النيران وتهدمت بيوتها وسُويت بالأرض، ولقى فيها عدد كبير من المسلمين والأتراك مصرعهم ولم يبق أحد منهم على قيد الحياة. وهكذا استبد الفزع والانكسار بنفوس المسلمين الذين، كما سبق وقلت، فقدوا آمالهم والهدف الذى يكافحون من أجله، ولهذا السبب، كما سبق وقلت، توقف أولوج على، ملك الجزائر، عن إرسال مدد لهم آخذًا فى اعتباره القوة الهائلة لجيش السيد خوان، أما أشد الناس حزنًا مما حدث فى غاليرا فكان القائد المالح، الذى كانت له أخت جميلة وقد ذهبت لزيارة بعض أقاربها هناك حين أعلنت غاليرا تمردها، كما سبق وقلنا، وقد لقيت مصرعها هناك مع غيرها من النساء. وكانوا يقولون إنها فتاة جميلة، وكانت تُدعى مليحة الجميلة وكانت شهرتها قد فاقت كل النساء فى مملكة غرناطة. وعندما وصل إلى منطقة نهر المنصورة خبر سقوط غاليرا ودمارها الشامل بعد الهجوم عليها قام أكثر من خمسة عشر رجلاً وسيدة من الموريسكيين بالاختباء فى أماكن سرية، بخاصة فى المنطقة التى تصل فيها مياه النهر إلى غاليرا، وعلى الرغم من رؤية المسيحيين للبئر ومعرفتهم به لم يشكوا للحظة واحدة فى تواجد أى شىء داخله بخاصة وأن البئر ممتلئ بالمياه، ولم يستطيعوا رؤية شىء من أعلى داخله ولا معرفة طوله أو كيفية وصوله إلى منطقة حقل الألغام. هناك، اختبأ نحو خمسة عشر مسلمًا ومعهم بعض السيدات، وقد اختبأ فى مناطق أخرى بعض الأشخاص الذين لم يعلم عنهم المسيحيون أية أخبار، وعندما انتهت المعركة، وكان المساء قد حل، انشغل المسيحيون بإخراج جثث قتلاهم من بين قتلى

المسلمين، والوصول بهم إلى منطقة يتم فيها دفنهم جميعًا. كانت الليلة شديدة الظلام، وكان المسيحيون المنتصرون يشعرون بالتعب بعد القتال ويبحثون عن الغنائم، بعد ذلك توجهوا إلى ثكناتهم، وانتظروا اليوم التالى ليدفنوا موتاهم ويشعلوا النار فى البلدة، ولكن أتت الرياح بما لا تشتهى السفن؛ فقد أمطرت السماء بشدة خلال تلك الليلة وتساقط الجليد بغزارة وبشكل لم يحدث من قبل فى أثناء حصار غاليرا؛ ولهذا السبب لم تكن هناك حاجة لدى المسيحيين لتخصيص حراسة لمعسكراتهم حيث لم يكونوا يعتقدون بوجود أحد من الأعداء فى القرية فلم يهتموا سوى بإصلاح شئونهم والسكن. عندما شعر المسلمون المختبئون بأن جلبة المعركة قد انتهت وأن صوت البنادق سكت تمامًا خرج أحدهم إلى مدخل حقل الألغام ورأى الظلام الحالك والمطر المنهمر والعواصف الممطرة وأن كل المكان ممتلئ ثلجًا، قرر أن يعرف على أى شيء انتهت المعركة، فصعد إلى أعلى الربوة وأصابه الرعب من رؤية هذا العدد الضخم من الموتى الملقين فى الشوارع. فى أثناء تجوله فى البلدة تقابل مع رجل مسلم آخر وكان يسير لنفس الغرض، وعندما رأى كل منهما الآخر شعر فى البداية بالرعب حيث يتساءل كل منهما منْ يكون الآخر، قال أحدهما، الذى خرج آخر الأمر إنه فى أحد البيوت توجد بعض السيدات والأطفال مختبئين من الأعداء، وقد خرج كى يتعرف كيف تسير الأمور، وقد بدا له أن الخروج ليلاً سيكون أكثر أمنًا فالجيش غافل عن الحراسة وربما استطاعوا الخروج من هذا الحصن بسلام وترك الأطفال والسيدات فى أمان. وكان للرجلين نفس الرأى، هذا والآخر الذى خرج لنفس الغرض؛ فقد اتفقا على الخروج إلى بئر الماء، وهكذا ذهب الاثنان إلى حقل الألغام، وعند المدخل الذى يبدأ منه النهر بدءوا فى الخروج على الفور فى منتصف الليل تمامًا، ولم يشعر بهم أحد. وكان يبدو أن هناك معجزة من الله منعت الأطفال والصغار من البكاء فى ذلك الوقت ولم يتصايحوا وكأنهم مخدرون مما حدث فى المعركة. وهكذا استطاع هؤلاء وغيرهم الاختباء فى بعض المناطق ومحتمين بالظلام الدامس، انضم بعضهم إلى بعض عند الفجر بالقرب من ساحة بيرال (Peral) الموجودة عند رأس أويار (Ullar)، حيث رافدة من روافد النهر التى تمر عبر أشجار الصنوبر وتصب فى نهر المنصورة. اختبأ المسلمون هناك وهم يبكون تعاستهم وحظهم البائس، على الرغم من شعورهم بالسرور من ناحية أخرى، لأنهم استطاعوا الهروب من ذلك الخطر الداهم.ثم وصلوا إلى قرية تسمى أوراكا فى قلب الليل لأن السيدات لم يستطعن السير أكثر من ذلك، وهناك شعروا بالأمان وأخبروا أهالى البلدة بما حدث فى غاليرا، بعد ذلك صعدوا فى المنطقة المتاخمة لنهر المنصورة، وقد بعثوا بأخبارهم إلى ابن عبو من هناك، وقد شعر بحزن شديد لما حدث فقد كان مستعدًا ومعه خمسة عشر ألفًا من الرجال

الذهاب لنجدة غاليرا. وقد علم القائد المالح بما حدث فى غاليرا فيما بعد حيث كان موجوداً فى بورتشينا، وقد حزن حزناً شديداً بخاصة وقد كانت أخته هناك فى تلك البلدة، وقد استبدت به الحيرة حول مصير أخته فبحث عمن يذهب فى الخفاء إلى هناك ليعرف إذا كانت أخته بين النساء الموتى أم وقعت فى الأسر.

لحسن الحظ، كان هناك فتى مسلم يحب أخت المالح محبة شديدة، وكان يخدم المالح خدمات جليلة عسى أن يكون صهره، أعلن عن قبوله الذهاب إلى غاليرا كى يأتى بالخبر اليقين حول مصير مليحة. وكان عازماً على الركوع أمام السيد خوان، فى حالة ما إذا كانت الفتاة قد وقعت فى الأسر، عارضاً عليه أن يكون عبداً من عبيده فى سبيل إنقاذ سيدته والزواج بها والبقاء فى أويسكار أو الذهاب للعيش فى مورثيا. هكذا قرر السفر، وودع العاشق المسلم قائده المالح وامتطى جواداً سريعاً وسلك طريق غاليرا ثم وصل إلى أورثى (Orce)، وكان أهلها قد هجروها، فدخل أحد البيوت التى كان يعرفها، وترك هناك حصانه ومعه كمية كافية من العلف تكفيه حتى عودته ثم دخل غاليرا عند منتصف الليل، وكان المطر منهمراً، فأفزعه عدد القتلى الذين عثر عليهم والذين كانت قدماه تتعثر فيهم فى كل خطوة، وقد لاقى صعوبات فى سيره ليس فقط بسبب دمار القرية؛ بل أيضًا بسبب المتاريس والدفاعات الموجودة فى الشوارع والتى أفقدته القدرة على التوجه، على الرغم من أنه كان يعرف جيداً المنزل الذى كانت سيدته تقيم فيه، ومع ذلك فلم يستطع مواصلة السير بسبب حيرته بين المداخل والمخارج، وظل هكذا حتى طلوع شمس اليوم التالى. ومع ضوء النهار استطاع الاهتداء إلى الطريق الذى يجب أن يتبعه. واقترب من أحد الخنادق، ولم يستطع أن يغمض له جفن طيلة الليلة حيث شعر بالرعب من أصوات الكلاب والحيوانات الضالة الأخرى التى بدت له وكأنها تشعر بالأسى لفقدانها أصحابها. وعند بزوغ الفجر، بحث الفتى المسلم عن منطقة يستطيع من خلالها رؤية كل جيش السيد خوان. وقد أعجب بهذا الجيش وقوته أيما إعجاب، وعلى الفور بحث عن المنزل الذى كانت تسكنه سيدته، وعندما دلف إلى بهو المنزل عثر على عدد كبير من القتلى الرجال ثم عثر بعدها على عدد آخر من السيدات القتيلات، وقد تعرف على حبيبته مليحة من بينهن، وكأنها مطبوعة على روحه. وعلى الرغم من أن الفتاة قد لقت مصرعها منذ ثلاثة أيام فإنها احتفظت بجمالها وكأنها لا تزال على قيد الحياة؛ فلم يعلو وجهها الشحوب نتيجة فقدانها الدماء بعد أن أريقت بسبب إصابتها. وقد كانت ترتدى قميصاً جميلاً، مما يدل على أن المسيحى الذى قتلها كان يتمتع بنبل الأخلاق؛ فعلى الرغم من أنهم قد نزعوا عنها

ملابسها فإنهم قد تركوها مرتدية هذا القميص الجميل والمشغول والمصنوع من الحرير الأخضر. وقد بدا أن المسيحيين قد قاموا بنهب البلدة وقتل كل المسلمين حيث دخلوا غاليرا ليلاً، وعلى الرغم من أن السيد خوان قد أمر بهدم السور، فإنهم لم يستطيعوا أن يقوموا بذلك لهطول المطر والجليد المستمر، وكان هذا هو السبب الذى منع المسيحيين من العودة إلى البلدة؛ لذا بقيت الجميلة المسلمة بين الموتى مغطاة بقميصها المخضب بدمائها. كانت الفتاة مصابة بجرحين في الصدر، وكان أمرًا يدعو للشفقة رؤية هذا الجمال وهو يُعامل بكل هذه القسوة. وهكذا شعر الفتى المسلم بألم شديد بعد أن تعرف على سيدته، فأخذها بين ذراعيه وذرفت عيناه دموعًا غزيرة وقام بتقبيلها في فمها البارد وقال لها: "حسنًا، يا أملى فى السلوى، لم أفكر أنا، بعد سبعة أعوام قضيتها في خدمتكم، أن أضع شفتاى على شفتيك، على الرغم من برودتهما، لأن الموت ظفر بجمالكِ. أيها المسيحى المتوحش، كيف طاوعك قلبك على أن تحرم العالم من هذا الجمال؟ هل أحببت أحداً من قبل؟ هل عشقت فى أحد الأيام ؟ هل تعرف ماذا تعنى امرأة جميلة؟ قل نعم أو لا. إذا لم تكن تعرف كل هذا فلن أتعجب من قسوتك الحيوانية، ولكن لو كنت تعرف هذه الأشياء، لماذا لم يمنعك عشقك من قتل هذه السيدة الجميلة التى تقف كالصورة الجميلة أمام عينيك؟ لماذا قمت بجرحها بيدك؟ إذا كنت تشعر بالغضب من أى مسلم فسوف تأتى ساعة تستطيع أن تنتقم منه، ولكن لماذا يتحمل ملاك طاهر هذا الألم الرهيب وقد خلقه الله لينال إعجاب الجميع؟ هل تعتقد، أيها التعيس، أن مجد أى قائد عندما ينتصر على عدوه يكمن في قتل هذا الحُسن الذى لم تعرف مملكة غرناطة له مثيلاً؟ لقد فكرت تفكيراً شريراً وقمت بعمل أسوأ؛ فهذه الفظاعة ليست جديرة حتى بمنْ يحاربون بالسلاح، بالرجال الذين يجبروك على أن تتحلى بالشجاعة ولكن ما فعلته ليس مناسبًا لمنْ لم يسبب لك أى ضرر. لقد قتلت بكل وحشية منْ كانت تمنح الحياة والموت بنظرة من عينيها والتى كانت الأرواح تتعلق بها إذا نظرت إليها. قل، أيها الوضيع الفظ، لو لم تقتلها، هل كنت ستفقد المجد والمنفعة وقد حصلت على الغنائم؟ آه لو كنت حضرت حين قبضت عليها أنت بدلاً من أن تحصل على أسيرة واحدة، لكان لديك اثنان من العبيد. لقد نظرت إليها بكل شر، أيها المسيحى، وإننى أقسم لك، بكل ما فى روحى من خير إننى سأبحث عنك بكل استطاعتى كى أوقع بك الجزاء على ما اقترفته يداك الشريرتان". هكذا فعل الرجل المسلم؛ فقد نفذ ما أقسم عليه، كما سنقول فيما بعد، ففى كثير من الأحيان تستطيع أن تعثر على الأشياء التى تبحث عنها جيداً.

نعود الآن إلى موضع الفتى المسلم، الذى أراح مشاعره بعد أن عانق حبيبته المتوفاة ألف مرة، وقرر أن ينتظر الليل، كى يستطيع أن يخرجها من البلدة فى ستر الليل ويحملها حتى نهر المنصورة، ولكنه وجد أن هذا سيكون أمراً غاية فى الصعوبة، فغير رأيه وقرر أن يدفنها هناك، وحاول أن يميز قدر الإمكان لحدها ثم أخذ بيده قطعة من الفحم الأسود، وفوق حائط أبيض كان يعلو قبرها، كتب بلغة عربية هذه الكلمات:

"رثاء للجميلة مليحة"

هنا ترقد الجميلة مليحة

أخت القائد المالح

لقد قمت أنا التوزانى بدفنها

وكانت تلك فكرتى

لقد قتلها كلب مسيحى

ولكننى سوف أمسكه بيدى

وسيفقد حينئذٍ حياته

لأنه قتل حبى

هذا الوضيع الخائن

عندما انتهى التوزانى، وهذا هو اسم الفتى المسلم، من كتابة هذه الكلمات بالفحم الأسود، لم يرغب فى البقاء أكثر من ذلك فى غاليرا المدمرة، وهناك حيث نبع المياه، الذى لديه خبر عنه، وحيث يجرى النهر إلى أسفل، ترك الفرسان مكانهم هناك ورحلوا وهكذا تحسن وضع المكان، وهكذا كان لدى المسلم فرصة للسير وعبور النهر واختراق طريق غير معروف للناس، فهو يعرف تلك الأراضى جيداً، ولأن السماء كانت لا تزال تمطر ماءً وجليداً فلن يستطيع أحد أن يراه، وعندما وصل إلى أورثى أخذ جواده من المكان الذى تركه فيه، ولم يتوقف عن المسير حتى وصل إلى بورتشينا حيث حكى للمالح كل ما رآه وكم الموتى الذين لقوا

حتفهم من المسلمين رجالاً ونساءً وأطفالاً، وكيف تعرف على أخته بينهم، وكيف قام بدفنها؛ وقد شعر المالح بحزن شديد لما سمع وبكى بكاءً مريراً لموت أخته الحبيبة. وعن هذا ستتحدث القصيدة التالية:

"قصيدة تحكى كيف أرسل المالح فتًى مسلمًا كى يأتيه بأخبار عن غاليرا وما حدث فيها"

كان المالح يقيم فى بورتشينا

ولم يكن يجرؤ على الخروج منها

وكان يرغب فى معرفة

ما حدث فى غاليرا

وفى يوم كان فى مجلس

مع رجال الحرب المسلمين

وتنهد بشدة وقال لهم:

" أريد أن أعرف

أخباراً عن غاليرا وأرضها

وحصنها المنيع

والحصار الشديد المقام حولها

وسوف أقدم أختى

الصغيرة الجميلة

زوجةً لمنْ يأتى إلىَّ الآن

بأخبار عن غاليرا وعن أويسكار

سواء احتلوها أم لم يستطيعوا

ألا تزال حرة أم أصبحت غنيمة

لأن أختى الصغيرة هناك

أختى التى تسمى مليحة

ذهبت لزيارة بعض أقاربنا

ليتها لم تذهب إلى هناك

ولو أراد محمد

لعلمت ما حدث هناك

وسوف أقدم كهدية

فتاة مسيحية جميلة"

حينئذٍ تحدث فتى مسلم وقال:

"إننى على استعداد

للقيام بهذه الرحلة

وإنجاز هذه المهمة السامية

لقد خدمت أختك سبع سنوات

دون أن أنال شيئًا منها

وإننى أحمل معى دائمًا

صورة لها هنا"

وأخرج صورتها

على ورقة صغيرة مرسومة

بحيث يستطيع أن يتعرف عليها

فالصورة تبدو طبيعية تماماً

حتى يُقال كأنها هى

وفى صباح أحد الأيام

خرج من بورتشينا

على جواد سريع

أشهب وسلس القيادة

وقد انتعل حذاء من الحرير

وكان يحمل رمحًا ودرعًا

وسيفًا قصيراً فى خصره

وعلى جانب المقعد

قاذفة أحجار

يجيد المسلم استخدامها

حيث تعلم هذا فى فالنسيا

وسار طيلة الليل

بين أراضٍ جافة وصعبة

دون أن يخاف من أى مسيحى

لأن حبه سيدافع عنه ويحميه

وعندما طلعت الشمس

اكتشف حقول أويسكار

وانتظر في أورثي وصول الليل

لأنه أراد أن يدخل المدينة مختبئًا

وهناك ترك حصانه

ومعه كمية من الغذاء

تركه مختبئًا في بيت

واتخذ هو طريقه

دخل المسلم غاليرا

من مكانٍ يعرفه

دون أن يشعر به أحد

حيث كانت السماء تمطر

وقد أصابه الرعب

من هول الدمار الذى لحق بالبلدة

ومن كم القتلى الذين سقطوا

في المعركة الدموية

ولأن الظلام كان دامسًا

لم يستطع أن يخمن باب الدار

الذى يعتقد بوجود سيدته فيه

وفكر فى أنها ربما تكون

قد لقيت مصرعها

وسوف يجدها فى تلك الحالة

وإذا لم يعثر عليها ميتة

فسوف تكون وقعت فى الأسر

وانتظر مجىء النهار

كى يستطيع أن يتجول بالبلدة

وعندما جاء الصباح

استطاع التعرف على المنزل

ودون خوف دخل المسلم

حتى وصل إلى المنزل

حيث وجد كثيراً من الرجال قتلى

أصابتهم ضربات السكين الحامية

وفى إحدى صالات المنزل الداخلية

رأى عدداً كبيراً من النساء قتيلات

وعثر بينهم على الجميلة مليحة

قتيلة أيضاً

وقد عانقها وقبلها كثيراً

والدموع تملأ عينيه

وبكلمات مؤثرة

عبَّر عن أحزانه قائلاً :

" لقد ارتكب المسيحى جريمة

بقتله هذا الجمال الخارق

ولكنى أقسم بمحمد

بأن أنتقم منه "

وقد بحث المسلم

عن أدوات بالمنزل

لكى يستطيع أن يدفنها

يدفن سيدته التعيسة

وقد عثر على فأس كبير

وقد حفر به حفرة كبيرة

ودفن سيدته وهو يبكى

وغطاها بالتراب

وتوجه إلى جدار ببهو البيت

ليس مكشوفًا للناس

وكتب عليه بفحم أسود

رثاء لحبيبته

ذكر فيه اسمه

وذكر فيه اسم مليحة الجميلة

وعندما انتهى من ذلك

خرج المسلم من غاليرا

عبر الحقل الذى يؤدى إلى النهر

فى الخفاء وبطريقة

لا يستطيع أن يراه أحد

لأن السماء كانت تمطر

وعاد المسلم إلى أورثى

حيث كان ينتظره جواده

ومن هناك رحل وهو يبكى

وعاد إلى بورتشينا

حيث حكى للمالح

عن دمار غاليرا

وكيف عثر على أخته الحبيبة

وقد فارقت الحياة

"خاتمة"

هذا ما حدث للفتى المسلم المتحمس، الذى يقولون عنه إنه من كانتوريا أو لوس بيليث، وكان يُدعى التوزانى. لقد كان شجاعًا وطليق اللسان، ويتحدث اللغة الأعجمية والإسبانية بطريقة يصعب معها أن يقول عنه أحد إنه موريسكى حيث نشأ وهو طفل صغير بين المسيحيين القدامى. وهكذا عندما وصل هذا الفتى إلى بورتشينا وأخبر المالح بما حدث فى غاليرا وأخبره عن الجيش المسيحى الكبير، أقسم أن ينتقم لموت سيدته، فخرج إلى نهر

المنصورة مرتدياً زى جندى مسيحى، بحيث لا يستطيع منْ يراه أن يحكم عليه بأنه موريسكى. وكان يحمل سيفًا جميلاً بحمالة جميلة أنيقة، وبندقية حالتها جيدة، وكان يجيد استعمالها لأنه أقام فى فالنسيا وفى خاتيبا (Xátiva) مرات عديدة وفى مدن أخرى عديدة كان هذا السلاح وغيره يستخدم كثيراً. وعندما خرج من بورتشينا لم يتوقف عن المسير حتى وصل إلى باثا، وكان يحمل رسالة من المالح حتى لا يعترض أحد المسلمين من قاطنى الأماكن المتاخمة للنهر طريقه، ثم وصل إلى باثا، ومن هناك توجه إلى جيش السيد خوان وقد وصل إلى جيش نابولى. فيما بعد سوف نتحدث عما قام به هذا المسلم، لأنه جدير بالذكر، والآن نذكر هذه القصيدة التى ألفها أحد أصدقائى حول ثورة غاليرا وتمردها.

قصيدة

بحارة من أويسكار ومن مدن أخرى

هاجموا مدينة غاليرا

التى لا يوجد مثيل لها فى البحر

فليس لها شراع ولا مجداف

ومع ذلك تبحر وتؤذى

وكانت قلعتها المبنية

فى المؤخرة تستحق الإعجاب

وبدن السفينة عبارة عن صخرة

صخرة قوية تثير رعب

منْ يريد أن يعتدى عليها

حتى ولو كان يجيد ذلك

لا تحمل قماشاً ولا خيشاً

ولا يستطيع الماء أن ينفذ إليها

لأن بابها الأرضى منيع

وصنع بمهارة متعمدة

أما البحار الذى يقودها

فهو عربى مسلم

تربى هنا فى بلدنا إسبانيا

لحظه السيئ وحظنا السيئ أيضًا

ابن حسين الذى كذلك يُدعى

هو رجل غنى جدا

وقد وضع ثقته فى بلده غاليرا

وكان ينشد هذه الأغنية

غاليرا.. حبيبتى غاليرا

فليحفظك الله من كل شر

ومن كل أخطار العالم

ومن الأمير السيد خوان

ومن جنوده الإسبان

الذين سيأتون لغزوكِ

فإذا أخرجتنى من هذا اليم

اعتقد أننى سأمضى قدمًا

حتى أعود إلى طليطلة

ومدريد والإسكوريال

والباردو وأرانخويث

بل إننى سوف أقوم

بزيارتهم جميعًا وأصل إلى أستورياس

التى استطاع أن يصل إليها

فى يوم ما جدى ابن حسين

الذى جاء عبر البحر

وامتلك إسبانيا كلها

لأكثر من ألف عام تقريبًا"

قال هذه الكلمات

ثم جنحت به السفينة

ولم تستطع أن تتقدم إلى الأمام

ولم تستطع أن تعود إلى الخلف

فقد أحاط بها المسيحيون

كى يستولوا عليها

وكانوا جميعًا جنودًا شجعانًا

ومعهم قائدهم السيد خوان العظيم

ثم بدءوا فى اقتحامها

ورغبت هى فى محاربتهم

ودون التحيز لأحد من الجانبين

أرادت أن تنتهى هناك

وقد قاتلها بكل شدة

أمير أوستريا دون أن تتوقف

نيران مدافعه

وكانت حربها بلا جدوى

فهى قوية ولا يصيبها الرعب

حتى قاموا بقذفها فى الداخل

بالبارود والنار والقطران

وهكذا اشتدت المعركة

وفى النهاية جعلوها تتطاير من الانفجار

وهكذا انتهت غاليرا

ولن تستطيع أن تبحر بعد ذلك[١]

" خاتمة "

والآن من المناسب أن أتحدث عن نهاية حصار غاليرا ومن أجل هذا يكون من الصواب أن نتحدث عن الفرسان والقادة وحملة الألوية الذين لقوا حتفهم وأصيبوا بجروح فى أثناء حصار غاليرا فى الهجوم وفى المعارك حتى ندرك خطورة هذا الحدث.

---

(١) هكذا يتلاعب الشاعر باسم المدينة -غاليرا- الذى يعنى بالإسبانية " سفينة". (المراجع).

قائمة بأسماء الموتى والجرحى من القادة:

- ماركيز لا فابارا.
- السيد بدرو دى باديا، معلم الجيش.
- القائد روى فرانكوس دى بويترون (Ruy Francos de Buytrón).
- القائد بيلتشيس.
- القائد بالنثويلا (Valençuela).
- القائد السيد بدرو ثاباتا (Pedro Zapata).
- القائد غوميث غارثيا دى غيبارا من لوركا.
- القائد السيد ألونسو دى لوثان.
- القائد السيد بدرو دى سوتومايور.
- القائد بدرو راميريث دى أريانو.
- القائد خواريث (Juárez).
- القائد السيد فيليبى دى سامانو (Felipe de Samano).
- القائد السيد بدرو دى ثامبرانا (Pedro de Zambrana).
- القائد سالانتى (Salante).
- القائد لاثارو دى إيريديا (Lazaro de Heredia).
- القائد السيد سانشو دى ليرا (Sancho de LLeyra).
- القائد السيد لويس كاريو.
- القائد السيد دييغو دى مندوثا.
- القائد فرانثيسكو دى مولينا.
- القائد توريياس (Torellas).

- القائد ساليناس (Salinas).
- القائد السيد رودريغو دى مندوثا .
- خوان دى تورديسياس (Juan de Tordesillas).
- القائد سالبادور نابارو (Salvador Bavarro).
- القائد فرانثيسكو غالتيرو (Francisco Galtero).
- القائد فيرناندو دى سيلبا (Fernando de Silva).
- القائد السيد خوان دى بنابيديس.
- القائد خوان دى بيلاسكو.
- باغان دى أوريا، أخو الأمير خوان أندريا .
- القائد دييغو باثكيث دى أكونيا .

حملة الألوية المصابون فى معارك غاليرا:

- حامل اللواء دييغو باثكيث دى أكونيا .
- حامل اللواء توماس بيريث دى أبيا .
- حامل اللواء كاماراغا .
- حامل اللواء باريوس.
- الرقيب بوستيوس.
- حامل اللواء تابيا .
- حامل اللواء بالتسار دى أراندا .
- حامل اللواء خوان بونثى.
- حامل اللواء باراونا .
- حامل اللواء فرانثيسكو ريكيلمى.

- حامل اللواء بوكا نيغرا .
- حامل اللواء القائد بالنثويلا.
- حامل اللواء القائد بيرالتا .
- القائد بيرالتا .

قادة لقوا حتفهم فى معارك غاليرا:

- السيد خوان دى كاستيا .
- القائد بيلتران دى لا بينيا
- القائد مارتين دى لوريتا ، من لوركا وكان حامل اللواء الأكبر بها .
- القائد أدريان ليوبنيس، من لوركا .
- القائد كارلوس دى أنتيان.
- القائد السيد أنطونيو دى بيرالتا .
- القائد ميندييث دى سوتومايور.
- القائد ماكيدا .
- القائد بدرو دى لوخان.
- القائد منبدوثا .
- قائد حملة جيش نابولى .
- القائد بالتاسار دى أراندا .
- السيد خوان باتشيكو، من رهبانية سانتياغو .
- القائد ثوريتا .
- السيد خوان دى كاستانييدا .

حملة ألوية لقوا مصرعهم فى معارك غاليرا:

- حامل اللواء ثوريتا.
- حامل اللواء السيد خوان دى بنابيديس.

كل هؤلاء القادة وحملة الألوية والرقباء قتلوا فى أثناء حصار غاليرا، وإلى جانب هؤلاء عدد كبير من الجنود والمحاربين، ولعدم معرفتنا بأسمائهم لم نذكرهم فى القوائم السابقة.

الفصل الثالث والعشرون

الذى يتحدث عن ذهاب السيد خوان لاستطلاع سيرون (Serón) وهو حصن قوى، وقتْل مسلمي البلدة لأربعمائة جندى من بينهم السيد لويس كيخادا مربى الأمير.

نستطيع أن نقول الآن إنه قد تم النصر على القوة المنيعة لغاليرا بثمن باهظ من القتلى سواء كانوا قادة شجعان أو حملة ألوية أو جنوداً، وقد هطلت السماء بمطر وجليد كثيف حتى بدا الأمر وكأنه نوع من المعجزة لأنه طيلة أيام الحصار لم تسقط من السماء قطرة مطر واحدة على الرغم من قسوة فصل الشتاء، ولهذا السبب مكث هناك السيد خوان ومعه جيشه مدة سبعة أيام أخرى بعد الاستيلاء على غنائم غاليرا. وبعد أن انقضت هذه الأيام السبعة عادت السماء لطبيعتها الصافية والهادئة، وقد أصدر السيد خوان أمراً بسحب المدفعية وحملها إلى باثا فيما بعد. وبعد أن تم تجهيز المدفعية، أصدر صاحب السمو أوامره بتحرك الجيش وتوجهه إلى باثا، وهكذا تم إخلاء غاليرا، ومكث القادة المصابون فى أويسكار للعلاج، فيما عدا القادة المورثيين الأربعة، السيد بدرو ثامبرانا وفرانثيسكو غالتيرو وسالبادور نابارو، والسيد لويس كاربيو وحامل اللواء السيد فرانثيسكو ريكيلمى، الذين على الرغم من إصابتهم الشديدة، لم يرغبوا فى ترك الجيش؛ بل استمروا متابعين لرايات السيد خوان. وقد تأسى بهم العديد من القادة. وكانت إصابة فرانثيسكو غالتيرو الأكثر خطورة من بين قادة مورثيا، لأن إصابته كانت أسفل ذقنه، ولم تبعد كثيراً عن الوريد. وكان فرانثيسكو غالتيرو هذا أخا ألفونسو مارتينيث غالتيرو، الذى أبلى بلاءً حسناً فى معركة بيرخا وخرج منها ملوثاً من أعلاه إلى أدناه بدماء الأعداء الذين قتل منهم الكثير، ولو أخذ الماركيز بنصيحته فى ذلك اليوم لانتهت حرب غرناطة، ولكن الماركيز، الذى فهم شيئاً آخر لم يقصده هذا القائد، لم يرد أن يغامر، وخرج من الموضوع بسهولة دون أن يفكر فيه جيداً. إذن، فلنعد للسيد خوان، الذى وصل إلى باثا ومعه جيشه ومدفعيته، حيث علم أن أخا السيد إنريكى قد خرج ومعه جنود كثيرون إلى مدخل نهر المنصورة، وقد فقد هناك الكثير من هؤلاء الجنود، وقد أحزن هذا السيد خوان حزناً شديداً؛ فقرر فيما بعد أن يقتحم بجيشه نهر المنصورة حتى يضع نهاية

لهذه القرى ويزحف إلى البشرات وينضم إلى دوق سيسا كى يقضى عليهم جميعًا ثم يضع حصونًا وحرسًا فى كل القرى بحيث لا يستطيع الموريسكيون أن يعودوا ليسكنوا فيها، وهكذا كان صاحب السمو عاقدًا العزم على ما قلناه، عندما وصلت رسالة من دوق سيسا، وقد قرأها السيد خوان، وكانت تقول:

"خطاب من دوق سيسا إلى السيد خوان"

"صاحب السمو: لقد فعلت كل ما هو ممكن كى أسلم لكم ابن عبو، ولكن هذا المسلم أفلت منى وأوجز كل مهمته فى تحذيرى تحذيرات مزيفة والسير دائمًا خلف جيشى كى يلحق التعب والإرهاق بجنودى، وهو يخرج دائمًا إلى الحاميات كى يدمرها وينهبها. وإذا تقابلنا فى معركة وكنا على وشك إهلاكه، دائمًا يخرج سالمًا، ويتوجه إلى سلاسل الجبال الوعرة كى يحتمى بها، ولهذا نقول لو استمر الحال على هذا المنوال لن تنتهى الحرب أبدًا. ولكى تنتهى هذه الحرب لا بد أن تتحرك سموكم بجيش من طريق وأتحرك أنا من منطقة أخرى بجيشى ونتوجه إلى البشرات. إذا لم يتم الأمر بهذا الشكل فلن تنتهى الحرب أبدًا. احضر إلى هنا يا صاحب السمو فى أسرع وقت ممكن. إن جنودى يتوجهون إلى كاستيل دى فيرو، حيث علمنا أن مددًا سوف يصل إلى الموريسكيين من إفريقيا. فليحفظ الله سموكم لسنوات عديدة. من أورخيبا".

وقد جعلت هذه الرسالة صاحب السمو يسرع الخُطى إلى نهر المنصورة؛ فخرج من باثا ومعه جيشه حتى وصل إلى قرية تسمى كانيليس، على بُعد فرسخين حيث نزل وأقام وهناك انتشر خبر خروج السيد خوان ومعه ثلاثة آلاف جندى من المشاة والفرسان كى يستطلع أمر سيرون، بينما مكثت بقية الجيش فى كانيليس، حيث نتركه هناك كى نتحدث عن الدوق؛ فقد انقضى زمن دون أن نذكر شيئًا عنه.

تقول الحكاية إن ابن عبو، لأن الأمر يهمه كثيرًا، كان من أوائل الذين وصل إليهم خبر استسلام غاليرا، وعندها فكر أنه لا توجد مدينة أخرى لها قوة ومناعة غاليرا، ولهذا فإن أى حرب سيقودها أخو الملك فيليبى سيكون ضررها واقعًا عليه هو شخصيا؛ فهو دائمًا يملؤه الرعب من دخول معركة ضد دوق سيسا، وكان يخفى جبنه بالذهاب إلى الحاميات للهجوم عليها ونهبها. ولهذا فقد أعطى عددًا كبيرًا من الجنود المسلمين للدالى وأمره بأن يقيم دائمًا فى الأجزاء الضيقة من الطرق وألا يدع حامية واحدة تهرب من بين يديه دون أن يستولى على

المئونة التى معها. ومن ناحيته يسعى دائمًا للسير بالقرب من جيوش المسيحيين، كى يشغلها حتى لا تذهب لنجدة الحاميات حتى يستطيع الدالى بهذه الطريقة أن يخرج منتصراً عليها، وهو يعلم تمام العلم، أنه على الرغم من أن الدوق ليس معه عدد كبير من الجنود، فإنه يتحرك دائمًا ومعه مدفعيته وكمية كبيرة من الخيول وهذا يعمل لصالحه ويجعله يتفوق. ولهذا لم يكن يجرؤ على الدخول فى معركة ضده بل محاولة إيقافه وإرهاقه حتى يترك جنوده، الذين أنهكتهم المتابعة غير المجدية فى الجبال، الجيش ويضعفونه بذلك أمام الأعداء حتى تصل اللحظة التى يرى الدوق نفسه دون جنود ويخرج من البشرات ويتركهم أحراراً. ولكن الدوق لم يكن لديه هذه الأفكار بل كان يفكر فقط فى إنهاء الحرب بمساعدة الأمير، كما قلنا سابقًا.

فى ذلك الوقت خرجت من غرناطة حامية كبيرة من أربعمائة جندى مجهزين، وقد خرج الدالى ليقطع عليها الطريق على الفور واتخذ مكانا سريا كى يهاجمها فجأة. وعندما علم ابن عبو بخبر هذه الحامية، خرج هو أيضًا عن طريق أثيكياس، وهى قرية على طريق غرناطة، حتى إذا جاء الدوق للدفاع عن الحامية، يواجهه هناك ويمنعه من الذهاب حتى لا يفسد على الدالى وجنوده مهمتهم. بالفعل علم الدوق بمجىء تلك الحامية، واعتقد أنها ستحضر مئونة لجيشه فخرج إلى منطقة أثيكياس للدفاع عنها ضد أى خطر، وهناك تقابل مع ابن عبو، ولهذا دار بينهما اشتباك على غير موعد، ولكن الدوق أمر بتحريك بعض القطع التى يحملها جيشه، وبتأثير من هذه القطع انسحب ابن عبو تدريجيا، دون أن يظهر أى ضيق، لأن الدوق قد توقف عن المسير، وفى أثناء ذلك كان لدى الدالى الوقت الكافى للهجوم على الحامية وتدميرها. وعندما رأى الدوق الشجاع أن ابن عبو قد انسحب، قرر الذهاب إلى قرية قريبة تسمى بوكيرا، ودار حول الجبل هناك، وهو جبل عال، ثم هاجم مؤخرة جيش ابن عبو، ولكن هذا الأخير كان مستعداً لهذه الحركة الذكية فانسحب إلى الداخل. فى ذلك الوقت كان الدالى قد هاجم الحامية المسيحية بالقرب من لانخارون بكل قوته لولا بسالة قائدها الشجاع، وكان يُدعى أندريس دى ميساس، وهو جندى قديم، وكان معه السيد بدرو دى بيلاسكو، وكان صاحب الجلالة قد أرسله لأنه جندى شجاع كى يستطلع حالة الحرب المستمرة فى البشرات، ويضع اتفاقًا مع الدوق كى يبحثوا عن طريق المفاوضات السبل الملائمة لإنهاء الخلافات مع الموريسكيين. أقول عندما رأى هذان القائدان أن المسلمين يهاجمونهم بكل ضراوة، حاولا بث الحماس فى نفوس جنودهما فقاموا بالرد على الهجوم المسلم بكل قوة فأجبروا الموريسكيين على الانسحاب. أخذ الدالى فى المقابل يحث جنوده على الثبات وعدم الخوف من المسيحيين

لأنهم قلة وأخذ يصيح فيهم بصوت عال بأن يفكروا فى المئونة والغنائم التى سيحصلون عليها بدلاً من تسليمها لجيش الدوق. استعاد المسلمون قوتهم وحماسهم حينئذٍ فعادوا إلى المعركة بكل حماس إلا أن المسيحيين كانوا فى انتظارهم ودارت معركة شرسة بين الجانبين وصلت إلى حد الاستيلاء على جواد السيد بدرو بيلاسكو وتركه يقاتل بسيفه على قدميه ويدافع عن نفسه بدرع مستدير كأى مقاتل شجاع. ومع ذلك، كان من الممكن أن يذهب هذا الكفاح المسيحى سُدى لو لم تصلهم النجدة بفضل حكمة الدوق الذى حينما رأى أن ابن عبو بعد أن اشتبك معه أخذ فى الانسحاب شيئًا فشيئًا؛ فكر فى أنه يحاول أن يشغله وهو يتظاهر بالقتال، بينما يرسل فى الوقت نفسه بأفراد كثيرين ليشاركوا فى الهجوم على حامية غرناطة. ولهذا السبب أمر الدوق بأن يذهب أربعمائة فارس من أفضل أفراد الجيش ومعهم عددٌ لا بأس به من المشاة المسلحين ويأخذوا طريق غرناطة حتى يتقابلوا مع الحامية ويدافعوا عنها. وقد ذهب على الفور هؤلاء الجنود وهم يحملون بيرقًا، واتخذوا سريعًا طريق غرناطة، ولم يسيروا سوى مسافة فرسخ واحد عندما سمعوا صوت تبادل طلقات النار بين الحامية وجنود الدالى. وهكذا ساروا مهتدين بصوت البارود حتى وصلوا فى الوقت المناسب كى يضيقوا الخناق على جنود الدالى ويحسنوا من موقف المسيحيين الذين كانوا فى مأزق لكثرة عدد المسلمين الذين هاجموهم؛ وعندما رأى المسلمون هذا المدد المسيحى انقسموا إلى فريقين اشتبك أحدهما مع جنود الدوق والآخر مع رجال الحامية. وقد ظنوا فى البداية أن الفرسان قد قدموا بمفردهم، ولكن حينما رأوا أن هناك جندى مشاة يهبط من فوق كل حصان، وأنهم انضموا جميعًا إلى بعضهم بعضًا هاتفين بصوت عال: "سانتياغو، سانتياغو "، لم ينتظر المسلمون أكثر من ذلك، حيث توجهوا إلى أعالى الجبال محتمين بوعورتها واختفوا على الفور، وتوقفت المعركة، بعد أن سقط فيها عدد من القتلى من كلا الجانبين. وهكذا وصلت الحامية إلى جيش الدوق حيث استقبلت بحفاوة بالغة. وقد اجتمع الدالى مع ابن عبو بعد أن فشلت مهمته، ومن هناك انسحب الجميع إلى أنداراكس بينما توجه الدوق بجيشه إلى منطقة تسمى ألخينيس (Algines)، على أمل أن يتوقف، وعندما وصل إلى ما بين فيريرا (Ferreira)، وكاديار (Cadiar)، بجانب نهر خوبيليس (Jubiles)، وقت غروب الشمس، نزل بجيشه المتعب فى أكثر الأماكن أمنًا ومكث هناك عدة أيام، استطاع خلالها قائد مسلم شجاع يُدعى نوابى (Noabe) يقلق راحة جيش الدوق، حيث قام، ومعه خمسمائة جندى، بالهجوم عليه بالرصاص ولكن

جنودنا واجهوهم بإطلاق مكثف للرصاص جعلهم ينسحبون على الفور. والآن، من المناسب أن نترك الدوق مقيمًا فى خوبيليس كى نتحدث عن السيد خوان الذى كان موجوداً فى كانيليس، حيث أرسل جنوده لاستطلاع أحوال سيرون، كما سبق وقلنا.

فقد وصل صاحب السمو إلى بلدة تدعى كانيليس وهناك أعطى أوامره بالمسير فى اتجاه نهر المنصورة، كي يهاجموا سيرون ثم بورتشينا وكل القرى الواقعة على هذا النهر حتى يضع نهاية لحرب غرناطة. ولهذا الهدف خرج ثلاثة آلاف رجل من المشاة ومن الفرسان فى اتجاه بورتشينا، وفى الطريق وصل إلى أسماع السيد خوان أنه لا يمكن مواصلة السير فى هذا الاتجاه دون أن يهاجم أولاً سيرون، حيث يتواجد عدد كبير من المسلمين والذين ينتظرون ومعهم جيش كبير وصول صاحب السمو.

قرر الأمير، بالاتفاق مع قادة جيشه ومربيه كيخادا، أن يهاجم سيرون التى وصلوا إليها فى اليوم التالى عند بزوغ الفجر. وقد دهش الجنود والقادة من موقعها الفريد الذى يجعلها حصينة حتى دون دفاعات، أما فى حالة الدفاع عنها فسيكون من الصعب إحراز النصر دون إراقة دماء أكثر مما حدث فى غاليرا. وعندما رأى المسلمون الجيش المسيحى وكانوا على علم مسبق بمجيئه، لجئوا إلى حيلة للتغلب عليه سريعًا، وهكذا أمروا بإخراج النساء والأطفال من القرية وذهابهم إلى الجبال التى يقف أمامها نصف عدد المحاربين بينما يبقى النصف الآخر من الجنود مختبئًا فى القلعة. وهكذا بدأ الأطفال والنساء فى الخروج من البلدة، ومعهم من الأمام ومن الخلف عدد من المسلمين يحملون البنادق. وعندما رأى المسيحيون هؤلاء المسلمين وهم يخرجون بهذه الطريقة أخذوا يصيحون: " فلنهاجمهم حتى لا يهربوا منا إلى الجبال لأنهم لو وصلوا إلى الجبال لن نقدر عليهم"، بعد أن قالوا هذا، بدأ المسيحيون فى الهجوم على البلدة فى اتجاه الربوة المرتفعة، وعندما وصلوا إلى أعلى وهم يطمعون فى النهب والسرقة أكثر من رغبتهم فى القتال، انقسموا إلى فرقتين: فريق لملاحقة المسلمين نساءً ورجالاً، كان يبدو عليهم أنهم يفرون نحو الجبال، وفريق اقتحم القرية كى يبدأ فى نهبها وسرقة ما فى بيوتها بكل سرعة. أما النساء اللاتى خرجن من هناك فقد توقفن عن المسير وجلسن على الأرض ووصل المسيحيون واستولوا عليهن وذهب بعض الجنود خلف المسلمين الذين كانوا فى صحبتهن ليقاتلوهم. فى ذلك الوقت ظهرت سحابة من الدخان فى أعلى الجبل، وكانت إشارة اتفق الموريسكيون على استخدامها عند طلبهم للنجدة، ولم تكد هذه الإشارة تظهر حتى أطلت من منطقة تيخولا (Tijola) رايات يسير تحتها أكثر من عشرة آلاف جندى مسلم ببنادقهم. وقد عاد

الرجال الذين خرجوا من البلدة كى يهاجموا المسيحيين الذين خرجوا لملاحقتهم، بقوة شديدة، وأطلقوا عليهم رصاصاً كثيفاً، بحيث أجبر المسيحيين على الانسحاب حتى وصلوا إلى النقطة التى تقابلوا فيها مع زملائهم الذين لحقوا بالمسلمين، بهدف أن يواجهوا المسلمين كجبهة واحدة. ولكن هذا الاتفاق لم يكن له تأثير كبير، لأن المسلمين هاجموهم بشجاعة كبيرة ثم انضم إليهم المدد الذى كانوا ينتظرونه، ولهذا فقد بدءوا يطلقون النار على المسيحيين، ووقع اشتباك بين الطرفين. وكان جنودنا فى الجانب الأسوأ، بحيث اضطروا إلى ترك المسلمات والهروب من أمام أعدائهم، فاستطاع الأعداء أن يقتلوا ويجرحوا ويأسروا منهم الكثير. فى تلك اللحظة، كان المسلمون الذين يتابعون المعركة وهم مختبئون فى القلعة قد أدركوا أن المسيحيين الذين اقتحموا البلدة أصبحوا منشغلين بنهب القرية، فخرجوا من مخابئهم، وكان أول ما فعلوه هو سد منافذ ومخارج البلدة حتى لا يستطيع أحد الهروب، ثم قاموا بالهجوم على المسيحيين المنشغلين بالسرقة والنهب غير المنتبهين للخطر الذى يحيط بهم، فقتلوا الكثير منهم، وكانوا يدخلون المنازل للبحث عنهم، بحيث لم يستطع أن يهرب منهم أحد. وعندما رأى السيد خوان، الذى كان بصحبة الفرسان على ضفة النهر، النجدة التى أتت ومدداً آخر جاء عن طريق النهر بقيادة المالح ومعه ستة آلاف مسلم، أصدر أمراً بالتجمع على الفور، بعد أن ارتاب فى وقوع الجنود الذين اقتحموا البلدة والآخرين المتواجدين فى أعالى الجبال بين أنياب الخطر الداهم. وقد قرعت الطبول وارتفعت أصوات الأبواق ولكن الجنود، الذين كانوا مستغرقين فى النهب، اعتقدوا أن هذه الإشارة قد أُعطيت حتى يتوقفوا عما يعملون ولكنهم لجشعهم لم يفهموا ما يُمليه عليهم فن الحرب والعسكرية. ولكنهم عندما رأوا العدد الضخم من المسلمين وهم يحيطون بهم أدركوا أن الإنذار الذى صدر لتجمعهم كان صائباً، وحاولوا الخروج ولكن لم يستطيعوا لأن المسلمين، كما سبق وقلنا، أغلقوا عليهم المخارج، فإذا كان أحد منهم قد استطاع الهروب فذلك بتوفيق من السماء، ليس إلا. لقد شعر المسيحيون حينئذٍ، سواء البؤساء الذين لحقوا بالسيدات المسلمات، أو الآخرون الذين بقوا فى البلدة رغبة فى السرقة، بأنهم قلة وبأنهم لن يستطيعوا الهروب من أى مكان دون وقوع ضرر كبير بهم، ولهذا قرر البعض اللجوء إلى الكنيسة والاحتماء بها، وقرر البعض الآخر مواجهة العدو والهبوط حيث يرابط الفرسان. وقد استطاع الكثيرون ممنْ اتخذوا هذا القرار الأخير الهروب، بينما لقى الكثير من الجانب الآخر حتفهم، لأن الخروج من القرية كان من شوارع ضيقة أغلقها حملة البنادق من المسلمين بإحكام. وقد مات العديد من المسيحيين إثر أول نوبة لإطلاق الرصاص، ولكن فيما بعد قامت بين الطرفين، اللذين أشهرا السيوف، معركة شرسة ودموية،

لقى خلالها عدد ليس قليل من المسلمين حتفهم. ولم يستطع الفرسان التدخل لنجدة جنودنا، لأن الخيول لم تستطع أن تسير فى هذه الطرقات الضيقة. وقد احتمى المسيحيون بالكنيسة ومن خلالها هاجموا المسلمين بكل جَلَد، انتظاراً لمجيء السيد خوان لنجدتهم، ولكن هذا الأمل ضاع سُدى، لأن المالح ومعه عمدة تيخولا وأكثر من ستة آلاف مسلم قاموا بهجوم على الفرسان المسيحيين بحيث منعوهم من نجدة الجنود الذين اقتحموا البلدة. وكان بصحبة المالح نحو خمسين فارساً، يحملون البنادق، على نمط الفرسان الألمان، وقد قام هؤلاء الفرسان بهجوم شديد وإطلاق مكثف للرصاص، وعندما انسحب هؤلاء، تقدم الجنود المسلمون من المشاة حيث أطلقوا الرصاص أيضاً بقوة أثرت فى نفوس جنودنا. وعندما أدرك السيد خوان موقفه وموقف جنوده الحرج، وأن رجال المشاة يتحركون دون نظام، أخذ يحفز جنوده، وقد تجمع على صوت صياحه عدد كبير منهم، قاموا ومعهم الفرسان بعمل جبهة ضد الأعداء، ولكن عندما أدرك صاحب السمو تميز قوته، أمر بانسحاب جنوده بكل نظام وبحيث لا يتم تدمير قواته. فى ذلك الوقت كان هناك ارتباك شديد وصياح يملأ المكان، ففى داخل البلدة كانت تُسمع أصوات طلقات الرصاص بين المسلمين والمسيحيين، وعلى جانب النهر كانت الضوضاء أقل. وكان السيد خوان، بكل شجاعة وحماس، يسير بين أفراد جيشه ويشجعهم وينظم انسحابهم حتى يتم بنظام ودون أن يتوقفوا عن القتال. ولم يتوقف المسلمون للحظة واحدة عن القتال، وكانوا يصيحون بغضب قائلين: " الآن ستدفعون ثمن ما فعلتموه فى غاليرا ". كان هناك ارتباك شديد حتى إن صاحب السمو قد أصابته رصاصة فى خوذته. لقد قال هذا روفو (Rufo)، ولكن آخرين أكدوا أن الرصاصة لم تصبه بل أصابت الجزء الخلفى من المقعد ومن هناك انطلقت وقتل أحد الجنود من أبناء باثا. على الفور جاءت رصاصة شيطانية من جانب الأعداء وأصابت السيد لويس كيخادا، مربى صاحب السمو، إصابة شديدة أدت إلى كسر عظام القصبة. وعندما علم صاحب السمو ما أصاب مربيه، شعر بحزن شديد وأمر بنقله بكل سرعة إلى كانيليس (Caniles). وقد لاحق المسلمون جنودنا لمسافة أكبر من فرسخ، ولكنهم لم يتقدموا كثيراً بل عادوا إلى سيرون، حيث كانت تدور معركة كبيرة بين المسلمين والمسيحيين المحتمين بالكنيسة، وقد واصل هؤلاء الجنود الدفاع عن أنفسهم طيلة ذلك اليوم وجزء من اليوم التالى، ولكن لنفاذ ذخيرتهم وعدم وصول نجدة إليهم، اضطروا إلى الاستسلام، كل حسب ما رأى؛ فقد مات البعض منهم، وتم أسر البعض الآخر، وقد دفع الجميع ثمن عدم طاعتهم للأوامر والواجبات وانهماكهم فى السرقة والنهب. وقد حزن السيد خوان كثيراً لما حدث لهم، ولعدم قدرته على حل موقفهم الحرج رحل إلى باثا، حيث حاول علاج

السيد لويس كيخادا، دون الوصول إلى نتيجة طيبة، فقد توفى بعد أيام قليلة، وقد حزن الأمير حزنًا شديدًا لموته، وكأنه قد فقد أباه الحقيقى. وكانت السلوى الوحيدة لهذا الحدث الجلل هو القيام بدفن الفقيد بكل مهابة وبطريقة تليق بقائد عام على قدر من التميز فى فنون العسكرية، ولهذا أمر السيد خوان كل القادة، بإظهار الحزن، بالخروج مع فرقهم وأن تعزف الموسيقى الحزينة، وأن يحمل حملة الألوية راياتهم منكسة نحو الأرض، وأن يضع الجنود الخوذات فى وضع عكسى. وهكذا سارت فرق الجيش الثلاثة: فريق نابولى، وقائدهم بدرو دى باديًا، وفريق أنطونيو مورِيّو، وفريق السيد لوبى دى فيغيروا. وقد سار خلف جنود المشاة السيد غارثيا مانريكى ومعه الفرسان، والرايات منكسة بينما تعزف الأبواق موسيقى جنائزية تُشعَر مَنْ يسمعها بألم شديد وحزن يدعو للبكاء، حتى ولو كان ذا قلب قاسٍ. وقد حمُل جسد السيد لويس كيخادا فى مؤخرة الجيش داخل تابوت مغطى بقماش أسود، وكان السيد خوان يسير بجانبه ومعه فرسان مهمين، دوقة وماركيزات ورجال دولة، وكان جميعهم يرتدى ثوب الحداد. وقد وصلوا بهذه الصورة التشريفية إلى سان خيرونيمو(San Gerónimo) حيث دفن الفارس النبيل بكل شرف وعظمة كما لو كان ملكًا، وهكذا بتصفيق حاد، وفوق أحواض مذبح سان خيرونيمو، تصاعدت رائحة البخور إلى السماء، تحمل معها روح الفارس الشجاع الذى قضى حياته فى القتال ضد أعداء ديننا المقدس، ومات فى النهاية وهو يقاتلهم كجندى شجاع. بعد الانتهاء من مراسم الجنازة المهيبة، بأمر من السيد خوان كتب فوق قبره على لوحة رخامية بيضاء، هذه الأبيات:

" قبر السيد لويس كيخادا "

لقد أنهى ملك الموت القاسى

خيط الحياة

لهذا الرجل الذى سار خلف إله الحرب

حيًا و ميتًا

والذى قام بتربية ابن الملك

ذى الشهرة الواسعة

وكان يعتبره أباه الروحى

وقد شعر إله الحرب الآخر

ابن الملك الشهير

كارلوس بألم عظيم

للموت القاسى

الذى تعرض له المربى الرحيم

السيد كيخادا الذى يغطى التراب جسده

وتنعم السماء بروحه

بعد الانتهاء من المراسم الجنائزية الحزينة للسيد لويس كيخادا، صدر أمر بأن يرتدى أفراد قواته ثياباً سوداء، كإشارة للحزن الذى يشعر به الأمير لموت مربيه. وقد حضرت زوجة السيد كيخادا، التى تنتمى لعائلة أوبواس (Ulloas) هذه الجنازة المهيبة، وقد بكت بكاءً مُراً، وكانت قريبة جدا من السيد خوان، الذى كان يعاملها معاملة الأم الحنون.

بعد ذلك أمر صاحب السمو بتحرك الجيش للعودة إلى سيرون مقرراً الانتقام من المسلمين على مقتل أبيه الروحى؛ وهكذا بدأ الجيش فى العودة فى اتجاه نهر المنصورة للهجوم على سيرون، حيث سنتركه فى طريقه حتى يحين وقته ونتحدث عن الدوق وابن عبو اللذين كانا فى الجبل، فقد أخر القائد المسلم اللقاء المتوقع حتى تنفد مئونة الدوق ويحتاج إلى مدد وبالتالى يبدأ أفراد جيشه فى التخلى عنه وتركه، وهكذا استمر المسلم فى خديعته، لأن الدوق كان يصطحب جيشاً جراراً وبدأ يعانى قلة المؤن، ولهذا بدأ يبحث عن ابن عبو كى يضع نهاية للحرب حتى وصل إلى بيتوس دى فيريرا (Pitos de Ferreyra) ثم توجه إلى أوخيخار ومن هناك سار نحو بالور، معتقداً أنه سوف يعثر على ابن عبو ويقاتله؛ ولكن كل هذا المجهود ضاع سُدى، لأن ابن عبو الكلب كان يهرب من بين يديه ويفر من هزيمته، لأنه كان يعلم تماماً أن جيش الدوق لم يعد ولديه مئونة كافية، ولهذا فى أحد الأيام، حيث كان موجوداً فى أنداراكس، تحدث مع قادته هذا الحديث التالى:

" حديث ابن عبو مع رجاله "

" أيها السادة الشجعان والجنود المغاوير، إننى أحاول الآن أن أفعل مع عدونا ما فعله فابيو ماكسيمو (Fabio Móximo) الحكيم الشجاع بذكائه الخارق مع أهالى إفريقيا فى أثناء الحرب الشرسة التى دارت بين الرومان والإفريقيين، حيث أجَّل قدر الإمكان المعركة حتى استطاع أن يهزمهم، دون التخلص من أسلحتهم الشديدة القوية، وحضروا بين يديه مقهورين بفعل الحاجة إلى الضروريات والمئونة، فلا يعتقد أحد أن الهروب من لقاء العدو وقتاله نوعُ من الجبن إذا كان من الممكن أن يهزم دون التعرض للخطر أو إراقة الدماء، ليس هذا جبنًا بل شجاعة وحكمة وخدعة يدبرها الجنود الماهرون والقادة الحكماء؛ وهكذا، فإننى أعلم تمام العلم أن الدوق ليس لديه مئونة كافية وأن جيشه يعانى وأنه أصبح فى موقف لا يناسب شرفه ومجده، فهو إما يتراجع عنه إلى الخلف أو يتنازل عن هدفه، ولا يمكن أن يفعل هذا حتى لا يفقد السمعة الكبيرة لعائلته النبيلة، وهكذا ليس لديه قوته الآن ولن يأته من غرناطة حاميات تمده بالعون، لأن هذه الحاميات يقوم رجالنا بالاستيلاء عليها، أولاً بأول، حتى يضيع جيش الدوق ويهلك، ولهذا السبب يقيم القائد بارتال (Partal) فى أورخيبا بالقرب من جيش الدوق، حتى إذا حضرت إحدى الحاميات من غرناطة يستولى عليها، ولهذا يصاحب هذا القائد ألف من الجنود الشجعان".

هكذا أنهى ابن عبو حديثه، الذى كان له وقعه الطيب فى نفوس سامعيه، الذين وافقوه الرأى، وأثنوا على حكمته وخبرته بأمور الحرب والخدعة، وهكذا توجه القادة المعنيون إلى أماكنهم التى خصصت لهم. فى ذلك الوقت كان الدوق يبحث بكل لهفة عن جيش ابن عبو، كى يقاتله، ولكن هذا الكلب، كما سبق وقلنا، كان يهرب من لقائه ويتجنب المعركة.

ولنعد الآن إلى السيد خوان، الذى سار بجيشه عائداً إلى سيرون، وعندما وصلها، أمر على الفور بالهجوم عليها حيث قام السيد لوبى دى فيغيروا بالإغارة عليها بجيشه ودمر العدو الذى أصابه الرعب والفزع فانسحب هارباً إلى تيخولا، وتم الاستيلاء على سيرون ونهبها وإشعال النار فيها. وهناك تم الاستيلاء على ثلاث رايات مسلمة، إحداها كانت بيضاء اللون وكثيراً ما تلونت بدماء المسيحيين.

كان دوق سيسا فى ذلك الوقت يطارد ابن عبو محاولاً الإيقاع به، ولكن نفاد الذخيرة كان له تأثيرُ عظيمُ على جيشه، بحيث إنه لولا كرمه وبشاشته فى معاملة الجنود المحتاجين ما بقى

فى الجيش رجل واحد، وعندما رأى الدوق مدى احتياجه أرسل إلى ماركيز فابارا كى يرسل له نجدة كبيرة وإلى كل من مدينة كالا أورا وغواديكس كى يحضروا له مئونة لجيشه. وقد رحل الماركيز فيما بعد بصحبته أهالى إشبيلية، وهم قوم طيبون ومسلحون جيداً، وقد حمل معه الكثير من الأمتعة والمئونة ومعهم أيضاً جنود مرضى كى يتم علاجهم، لأنهم أصبحوا بلا فائدة فى الجيش، وهكذا سار ماركيز فابارا، ووصل إلى ميناء راغوا (Ragua)، وهو مكان وَعِر وضيق بحيث لا يسمح بمرور كل الجنود جماعة بل فقط بمرور فردين متلازمين. وهناك كان المسلمون ينتظرونهم، نحو ألف رجل يحملون جميعهم البنادق، تحت قيادة اثنين من القادة الشجعان، أحدهما يُدعى مارثابى (Marzape)، والآخر يُدعى بيثينى (Pizini)، من بيرخا، كانوا جميعًا منتظرين فى الطريق الذى لا بد وأن تسير فيه المساعدات التى خرجت من غرناطة لنجدة جيش الدوق، وعندما رأوا هذه الحامية وكانوا مختبئين، ولم يلحظهم الماركيز الذى كان يسير فى المقدمة، وعندما ابتعد هو ومنْ معه قليلاً، ترك المسلمون نصف الحملة تمر وفى الوقت الذى ابتعد فيه الماركيز، خرجوا من مكمنهم فى الجبل، وهاجموا المؤخرة بكل شجاعة وقوة محاولين الاستيلاء على المتاع، فاستطاعوا فى لحظة الهجوم الأولى قتل الكثير من جنودنا، الذين أُخذوا على غِرة وبكل قوة فاضطربوا اضطراباً عظيماً ولم يعرفوا ماذا يفعلون، ولهذا وبكل جُبن لجأ الكثير منهم إلى الهروب ولاحقهم المسلمون وقتلوهم ودمروهم. أما المسيحيون المرضى فقد كان موقفهم سيئًا للغاية حيث لم يستطيعوا الفرار أو القتال وهكذا مات الكثير منهم، وحاول بعضهم الهبوط من هذه المرتفعات خوفًا من الموت إلا أنهم لاقوه بأنفسهم وبأيديهم حيث تساقطوا على الصخور الوعرة فقتلتهم. وعندما رأى المسلمون المسيحيين فى هذه الحالة المزرية زاد حماسهم وقاموا بمهاجمتهم وملاحقتهم. وكانت الأصوات قد تعالت إلى درجة وصلت إلى أسماع المقدمة والطليعة، وعندما أدرك الماركيز ما حدث عاد مسرعًا ومعه جنوده، حينئذٍ واجهه المسلمون بكل شراسة، وفى هذا اللقاء قتل الماركيز بيديه سبعة أشخاص أو ثمانية، وكان يحفز جنوده للهجوم على المسلمين وكان لكلماته أثر مشجع فى نفوس الجنود الذين أحكموا قبضتهم على المسلمين الذين آثروا الانسحاب وتوجهوا إلى الجبال، وعندما رأى المسيحيون الذين أصابهم الارتباك والفوضى ما حدث، تجمعوا وهاجموا المسلمين وأصابوهم إصابات شديدة فانسحبوا على أثرها تاركين عدداً كبيراً من المسيحيين قتلى، وأيضًا من رجالهم، ولولا شجاعة الماركيز لكانت نتيجة هذا الاشتباك أسوأ بكثير من الآخر الذى حدث لألبارو دى فلوريس. وقد جمَّع الماركيز، كجندى ماهر، كل المتاع وكذلك الجنود الآخرين وحافظ على النظام قدر استطاعته حتى وصل إلى كالا

أورا، حيث تزوِّد بكل ما هو ضروري ولازم، سواء للجرحي أم لجنود جيش الدوق. وقد علم الدوق فيما بعد بما حدث، فشعر بحزن عظيم وأقسم على الانتقام من المسلمين، وهكذا أمر الجيش بالعودة إلى كاستيل دى فيرو، التى كانت تقع تحت سيطرة المسلمين حيث كانوا ينتظرون المدد المرسل إليهم من إفريقيا، وحتى يضيع عليهم هذه الفرصة ويجعلهم يفقدون تلك الأرض أمر الدوق بذهاب الجيش إلى هناك للاستيلاء عليها، وفى الطريق إلى هناك وفى أثناء عبورهم حقول دالياس، حيث كان المسلمون لديهم الكثير من النباتات المزروعة وحيث كان موسم حصاد الشعير قد اقترب، أمر الدوق بإضرام النار فى تلك الحقول، لأن المسلمين يحافظون عليها بكل عناية؛ وقد سُويت تلك النباتات بالأرض ولم ينتفع المسلمون بها. وعندما وصل الدوق إلى كاستيل دى فيرو قام بالهجوم عليها بشراسة، وكان بداخلها بعض الأتراك والقادة، وفى ذلك الوقت نفسه وصلت سفن القائد الأعلى، وعندما رأوا ما يحدث، فرحوا فرحة كبيرة لأنهم وصلوا فى الوقت المناسب. وهكذا هاجم الدوق على اليابسة وهاجمت السفن من البحر بكل قوة حتى فقد الأتراك كل أملهم فى استقبال المدد القادم إليهم من الجزائر هناك. وكان هذا المدد فى ذلك الوقت على وشك الوصول إلى إسبانيا مسترشداً بأحد الأتراك، وكان يُدعى كارباجي (Carbage)، وفى طريقه إلى كاستيل دى فيرو، حيث كان الاتفاق على أن ترسو السفن هناك، ولكن عندما اقترب إلى الأرض، وصلت إلى أسماع أفراده صوت أفراد القوة الإسبانية على اليابسة، وكذلك السفن المنتشرة فى البحر، ورأوا الرايات المسيحية أيضاً على اليابسة، فأدركوا ما يحدث، فصدرت الأوامر لكل السفن القادمة بالمئونة والمدد بالتحرك على وجه السرعة، وكان عددها يصل إلى أربع عشرة سفينة مزوَّدة بالسلاح والعتاد وبالجنود الأتراك، وقد شعروا جميعًا بالألم لوصولهم متأخرين وصدور الأوامر لهم بالتحرك للرسو على أى مرسى يبدو مناسبًا لهم. وعندما استولى الدوق على هذه القوة وهذه الأرض، وضع فيها حرسا قويا وعاد ليواصل بحثه عن ابن عبو كى يقاتله. بينما عادت السفن إلى مالقة وانتظروا الأوامر هناك للقيام بأعمال هامة.

وقد علم ابن عبو باستيلاء المسيحيين على كاستيل دى فيرو، وقد أحزنه هذا كثيراً، بخاصة عندما علم بأن المدد القادم من الجزائر لم يستطع أن يرسو على الأرض، وقد شعر بحيرة عظيمة لهذا الأمر وأسقط فى يده، فلم يدر ماذا يفعل؛ فالدوق يلاحقه وأمير أوستريا أخذ يدمر قرى نهر المنصورة، وعندما يفرغ من تدميرها سوف ينضم إلى جيش الدوق، وحين يجتمع الجيشان سيكون هلاكه مؤكداً، لأنهم يتركون فى كل قرية أو مكان يستولون عليه رجالاً

وحامية قوية، وقد استولوا على الأراضى وحرقوا الزرع والخبز ولم يعد يعرف إلى أى شىء ستنتهى هذه الحرب ولا متى تتوقف، وهكذا استمر يهرب أمام الدوق دون أن يجرؤ على قتاله، معتقداً أن الزمن كفيل بإصلاح كل شىء وأملاً فى أن يصله المدد من الجزائر. كان هذا القائد المسلم يعلم تماماً أن هذه الحرب ستنتهى لغير صالح المسلمين، ولكنه كان يخبئ شعوره بالتعاسة ويفكر فى الهروب إلى إفريقيا، وهو الأمر الذى لو عرفه المسلمون لقطعوا جسده إلى أشلاء صغيرة.

فى تلك الأثناء كان هناك الكثير من المسلمين (أكثر من ألفين تقريباً) قد عادوا وتحصنوا فى بنتوميث (Bentomiz) وفى فريخيليانا (Frigiliana)، وفى كل البلدات المتاخمة لروندة وجبالها، أعلن المسلمون عصيانهم بكل صراحة وأوقعوا أضراراً جسيمة بالمسيحيين، ورفعوا راياتهم وكوّنوا جماعات مسلحة تسليحاً جيداً، وإلى جانب هذه القرى، أعلنت كل بلدات جبال بيرميخا (Bermeja) وأيضاً جبال ليستان (Listán) ثورتها، وكانت هذه البلدات كثيرة، وقد اتخذ المسلمون الأماكن الأكثر أمناً، بالقرب من البحر، حتى يستطيعوا أن يُبحروا فيه إذا عجزوا عن فعل أى شىء آخر، وأيضاً حتى يستطيعوا الحصول على المدد من إفريقيا فى تلك الأماكن، وهكذا قاموا بالاستيلاء على منتجات الحقول والماشية وعلى ما يملكه الرعاة فى كل المنطقة وحتى أبواب روندة. وقد خرج لمواجهتهم دوق أركوس والسيد لويس بونثى دى ليون بأمر من صاحب الجلالة الذى كان يرغب فى إخضاعهم دون معارك لو استطاعوا، وإلا فليقضوا عليهم بالسلاح. وقد حاول الدوق إرجاعهم إلى الطاعة، فامتثل بعضهم وعادوا لما كانوا عليه من قبل، إلا أن أحد الرجال، وكان ذا قلب شجاع، أخذ ينصحهم بعدم الاستسلام والخروج معه والاستمرار فى العصيان والثورة، ولهذا أصرَّ المسلمون على موقفهم، وحملوا السلاح، وهكذا كان قرار دوق أركوس بالخروج لمواجهتهم، وكان أول شىء يقوم به هو الذهاب إلى قرى جبال بيرميخا، لأن المسلمين لم يقوموا بتحصينها، وعندما وصل إلى هناك استعاد المسيحيون رغبتهم فى الانتقام لما حدث لأسلافهم فى تلك المناطق حيث قتل الكثيرون وقطعت رقاب خيولهم فى زمن السيد ألونسو دى أغيلار الذى لقى حتفه هناك وأيضاً ابن أورينيا (Ureña) الذى قتل، وقد عثروا على كل هذا إلى جانب قطع من الأسلحة، رماح وسكاكين، كل هذا أشعل فى نفوس المسيحيين الرغبة فى الانتقام، وعندما وصلوا إلى أعالى المكان، حيث قتل السيد ألونسو، وهو مكان ممتلئ بالصخور، وفى مكان مسطح صغير، حيث يرتفع صليب، وجدوا بعض الصخور مكتوباً عليها بالإسبانية ما هو آت:

" لقد قتل هنا ابن أغيلار

الملقب بألونسو

الذى تفوق عليه المسلمون

حيث كان يقاتلهم بمفرده"

الحق أن هذه الأبيات تعلن حقيقة ما حدث عندما قتل السيد ألونسو، لأنه فى ذلك الوقت وقعت معركة كبيرة بين المسلمين - وكانوا كثرة - وبين المسيحيين، وأجبرت الكثرة المسلمة المسيحيين على الهروب، وبقى السيد ألونسو أغيلار وحيداً فى المعركة، ولم يعد هناك منْ يحميه من الجنود، ولم يكن هناك بُد من القتال حتى الموت، فأخذ يحتمى بهذه الصخور وجعلها درعًا لظهره، وأظهر شجاعة عظيمة حيث قتل بيديه أكثر من خمسين مسلمًا ممنْ جرءوا على الاقتراب منه ومنازلته. حينئذٍ علم المسلمون أنهم لن يستطيعوا قتله بالسيوف فاستبدلوا سلاحهم وقتلوه رجمًا بالحجارة. وقد قال روفو إنه قتل فى أثناء قتاله ومنازلته لأحد القادة المسلمين، وكان يُدعى فيرى (Ferri)، وهذا أمر يخلو من الحقيقة، لأن شجاعة وقوة السيد ألونسو لم تكن بالقليلة حتى يتفوق عليه قائد مسلم ويقتله. وقد تحدثت عن هذه المعركة ودونتها فى الجزء الأول من هذه القصة، وقد رويت كل شىء كما حدث.

ونعود إلى موضوعنا، هكذا نما إلى علم مالك (Malique)، قائد المسلمين أن دوق أركوس قد استولى على جبال بيرميخا، وأنه خرج ومعه جيشه للاستيلاء على ديستان (Distán)، وكان واحداً من الجبال المنيعة. فعندما فكر الدوق فى أهمية هذا الجبل، أمر بالسير إليه، واتخذ طريقًا أقل وعورة وقوة مناسبة، ثم أمر بعد ذلك بأن يفتح الجنود الممهدين للطريق طريقًا أكثر اتساعًا حتى تستطيع المدفعية الصعود من خلاله محمولة على الخيول، وبعد أن قسم جيشه إلى أربع فرق، صعد ومعه عدد كبير من الجنود والمدفعية حتى يهاجم المسلمين فى اليوم التالى. وقد صعدت الفرق المسيحية الأربعة بكل نظام دون أن تفقد انتظام صفوفها، بحيث كان على رأس الفرسان السيد خوان بونثى دى ليون، أحد أقارب الدوق، ومعه ابن الدوق، وهو فتى شجاع نبت شاربه ولم يكن أقل شجاعة من أجداده، كل هؤلاء الفرسان كانوا يحرسون السهول حتى لا يهرب أى مسلم عند حلول المساء، قام الدوق بإنزال جنوده فى منطقة آمنة ومريحة وهو ينوى القيام بهجوم على حصن للمسلمين فى اليوم التالى. وعندما رأى المسلمون

صعود جيش الدوق بهدوء وتأنى فهموا نيته واتفقوا على الهجوم على المسيحيين فى ذلك المساء نفسه. وعندما رأى الدوق هجوم المسلمين أمر جنوده بالدفاع عن أنفسهم دون أن يخلُّوا بالنظام الذى أتوا به، ولكن كان هناك بعض الجنود الذين لم يهتموا بهذا الأمر، فتركوا صفوفهم وبدءوا فى صعود الجبل إلى أعلى. وعندما رأى الدوق كيف تخلى جنوده عن النظام وصعدوا للحاق بالعدو أدرك، كقائد حصيف، أن المسلمين سوف يتراجعون لخداع المسيحيين بينما يتركون بعض الكمائن فى الطريق، فأدركه الغضب لما قد يصيب جنوده من ضرر، بخاصة مع حلول الليل المظلم، ولأنه قد اتخذ هذا الطريق الوعر لجبال بيرميخا، فقرر الصعود إلى أعلى ومعه كل الجنود وتقدمهم هو هاتفًا بصوت جَهورى: "سانتياغو !"، وقد سار الجيش وراء قائده العام، عندما رآه يتقدمهم هكذا بكل حماس، وكان هذا تصرفًا حكيمًا من الدوق، لأنه لو انتظر حتى انتهى آخر شعاع ضوء فى السماء، وإن كان خافتًا لهلك هو وجنوده جميعًا دون أدنى شك، لأن الأعداء كانوا قد احتلوا كل المواقع بحيث لا يعطون فرصة لجنودنا للفرار. بعد أن وصل الدوق إلى أعلى الجبل ومعه كل جيشه قام بالهجوم على المسلمين فى حصنهم، والذى كان ممتلئًا بالمسلمين الذين دافعوا عنه، وهناك دارت معركة شرسة ودموية، كان المسيحيون فى الجانب الخاسر فيها، لأن المسلمين تميزوا عنهم باتخاذهم المواقع العالية التى مكنتهم من إلقاء عدد لا يُحصى من الرصاص والصخور والحجارة والرماح والأسياخ. وقد ألقى الدوق، المتباهى ببطولة أجداده، بنفسه فى منطقة بدت له خالية من العراقيل داخل الحصن، وأخذ يهتف: "سانتياغو!، اثبتى يا إسبانيا!"، وقد دخل معه جنود شجعان آخرون وأخذوا يهتفون: "النصر، النصر!"، حيث وجدوا أنه من الأفضل لهم المغامرة بإلقاء أنفسهم داخل الحصن ومواصلة القتال هناك بدلاً من الخطر الذى يحيط بهم من الخارج. وهكذا كان الارتباك عظيمًا بين البعض والبعض الآخر، حيث حلَّ الظلام الحالك، ولم يكن أحد يستطيع رؤية الآخر أو التعرف عليه سوى بلمعان البنادق عند إطلاق الرصاص. وكان المسيحيون، كى يتعارفوا ولا يهاجم أحدهم الآخر، يهتفون: "سانتياغو!". وعندما كان المسلمون يسمعون هذا النداء الإسبانى كانوا يقتلونهم بلا رحمة؛ بل إن بعضهم كان يندس بين المسيحيين وهو يهتف "سانتياغو!" حتى يستطيع أن يقتلهم ويخرج سالمًا، لأن هذا النداء هو الإشارة التى اتفقوا عليها حتى لا يؤذى بعضهم البعض الآخر. وعندما أدرك المسيحيون خدعة المسلمين، اتفقوا على نداء آخر فأخذوا يصيحون: "أركوس، أركوس!". ولم يتقن المسلمون هذه الصيحة الجديدة، فبدلاً من الهتاف "أركوس"، كانوا يصيحون "أركاس"، ولهذا كان المسيحيون يتعرفون عليهم ويقتلونهم بكل وحشية. كان الضجيج والفوضى يعمان المكان بحيث لا يُسمع سوى

صوت السلاح، وآهات المتألمين من الجرحى والمصابين وأسى الذين يلقون حتفهم بين أقدام المتحاربين الأحياء؛ فقد كان منْ يسقط لا يستطيع النهوض مرة أخرى. وعندما رأى القائد مالك أن هلاكه هو وأصحابه يقترب، قرر الهروب من المعركة والخروج من الحصن، وقد تلفح بظلام الليل كى يخبئ فيه جُبنه، وتوجه إلى السفح أسفل الجبل، وهرب متعبًا ومثخنًا بالجراح لا يدرى إلى أين يتجه. ومع ذلك لم يكن وحده، لأن كثيرين من جنوده فعلوا مثله، فجمع منهم قدر استطاعته، وخرجوا جميعًا من الجبل وهم يلعنون النهاية التى انتهت إليها آمالهم. وقد نزل الدوق ورجاله فى الحصن حيث قضوا ليلتهم بينما أقام بقية الجيش خارجه، وقد اتسم سلاح الفرسان بالهدوء والحفاظ على النظام فى انتظار الأوامر التى تصدر. بينما كانت هذه الأحداث تجرى فى ضواحى روندة كان خبر انتصار دوق أركوس قد طاف بكل إسبانيا، وقد أصاب الرعب ابن عبو فلم يدر ماذا يفعل فكان يتنهد ويتأوه فهو يرى أنه فى الوقت الذى يضيق عليه دوق سيسا الخناق، ينتظر السيد خوان الفرصة، كى يجتمع الجيشان ويدمرا جيشه. وكان أكثر ما يحزنه هو أن السيد خوان كان يدمر كل كمائنه التى يتركها. وقد علم الأتراك والموريسكيون القريبون من شخصه ما ينوى فعله من هروب إلى إفريقيا وتركهم بين نيران الحرب الضارية، وكان ابن عبو منتبهًا لما يدبره بعض أقاربه ضده ومحاولتهم قتله، وعلى الرغم من محاولتهم إخفائها فإنه كان يشعر بها ويشك فيها. وكان متظاهرًا بأنه لا يفكر فى هذا، وهكذا كان يعيش وسط ألف شعور بالشك والريبة طيلة الليالى والأيام، منتظرًا أن يقدم إليه القدر فرصة سانحة. وكان أفراد جيشه يسيرون بكل ضعف وتراخٍ، فلم يكن لديهم سلاحٌ كافٍ وكانوا يفضلون الموت مرة واحدة على الشعور بهذه اللهفة المريرة والجوع والاحتياج وغيرها من الأشياء وكأنهم حيوانات ضارية.

وكان الأتراك يشعرون بالحزن وقد تفشت بينهم الخلاعة والمجون وتحرشوا بالفتيات والفتيان، دون أدنى خوف من الموريسكيين ومن الملك ابن عبو، ولم يأخذ أحد على أيديهم، لأن الموريسكيين كانوا منشغلين بالحرب ضد المسيحيين. ولنتركهم هنا يتابعون شرورهم، بينما ابن عبو يكاد يجن من شعوره بالرعب من الموت، لكى نتحدث عما حدث فى تيخولا على يد السيد خوان، ولكن قبل ذلك نقول هذه القصيدة التى تتحدث عما حدث فى هذا الفصل:

" قصيدة تتحدث عن موت الفارس النبيل السيد لويس كيخادا وهزيمة سيرون "

من باثا خرج السيد خوان

الملقب بأوستريا

وسار إلى نهر المنصورة

باحثًا عن جيش المسلمين

وقد وصل الجيش إلى كانيليس

وهى قرية قريبة من باثا

سار ومعه ثلاثة آلاف رجل

ليستطلع أمر الجيش

وقوة وحصون سيرون

التى أقامها جيش المسلمين

وهكذا عندما وصل صاحب السمو

لم يكن قد فكر فى الأمر جيداً

فقد اصطحب معه جنوداً قليلين

ليسوا كافيين لتنفيذ هذا الأمر

وقد استعدت سيرون كلها

أكثر مما اعتقد المسيحيون

وقد استخدم المسلمون الحيلة

كى ينتصروا ويخرجوا سالمين

فقد ألقوا بالسيدات إلى الخارج

كى يذهبن إلى الخلاء

ولكنهم كانوا يخبئون حراسة قوية

وفريق مكتمل الصفوف

وقد اعتقد جنودنا أنهم قد هربوا

فانهمكوا فى السلب

والاستيلاء على الغنائم

وعلى السيدات اللاتى ظهرن

ولاحق بعضهم النساء

وبعضهم دخل القرية

وبدءوا فى نهبها

وهم فى غفلة

وكان أكثر من ألف مسلم

يختبئون هناك

وعندما رأوا جنودنا

وهم فى غفلة عما يحدث

منهمكين فى السرقة

قاموا بالهجوم عليهم

وقتلوهم فى البيوت

حيث كانوا ينهبون منها الغنائم

ثم حضر عمدة تيخولا

ومعه جيش جرار

لنجدة سيرون

من الموقف الذى هى فيه

فعاد الذين كانوا يلاحقون

السيدات الهاربات

لأن هناك جيش كبير

ظهر لهم واقترب منهم

وبدأ يطلق عليهم النار

بوحشية وشيطانية

وجاء المالح ومعه النجدة

سيراً على جانب النهر

وعندما رآه الأمير

أمر جنوده بالتجمع

وأن تدق الطبول

والأبواق للانتباه

فالخطر يحيط بالجنود

وقام المسلمون بذبح المسيحيين

الغافلين عن الإنذار

ففر المسيحيون وانسحبوا

إلى حيث جيشهم وهم فزعين

ووصل المالح ومعه قواته

وقاموا بإطلاق نيران كثيفة

وقد دافع الأمير عن نفسه

أمام هذه القوة المضاعفة

وأخذ يجمع المسيحيين

شيئًا فشيئًا ويقاتل

وتراجع مقاتلاً نحو النهر

بعد أن فقد الكثير من المسيحيين

وقد أصيب السيد لويس كيخادا

الذى ظهر كجندى شجاع

بإصابة بالغة فى العضلة

من طلقة نار قاسية

وقد حزن الأمير كثيراً لهذا

وتوعد بالانتقام

وتراجع الأمير فى النهاية

وهو يشعر بألم غير مسبوق

وحمل مربيه الفاضل كيخادا الطيب

إلى باثا للعلاج

ولكن إصابته كانت قاتلة

ولم يكن من السهل علاجها

وهكذا أسلم الروح للرب

ودفن الجسم في أحد الأديرة

التابعة للقديس خيرونيمو

وقد أقيمت له جنازة

تليق بقائد عام شهير

ونُكست الرايات

وارتدى الجميع ثوب الحداد

دليل الحزن والألم

وفي ذلك الوقت كان دوق سيسا

يبحث عن جنيش ابن عبو

كي يحاربه

ولكن هذا كان يفر أمامه

ولهذا السبب عاني جيش الدوق

من الجوع ونقص المئونة

وكي يبحث الدوق عن حل

أرسل إلى ماركيز نابارا

كي يرسل إلى غواديكس

على الفور حامية لتحضر المئونة

وقد خرج الماركيز بنفسه

على رأس حامية كبيرة

ومعه العديد من الأمتعة

ولكن عند ميناء راغوا

تعرض الماركيز للهجوم

على يد اثنين من القادة

الذين هاجموا الحامية

وقد قاتل الماركيز

كجندى شجاع

وجعل المسلمين يتراجعون

وواصل سيره بحاميته سالمة

حتى وصل إلى كالا أورا وغواديكس

حيث أمره الدوق بالذهاب

وقد علم الدوق بهذا الخبر

وقد أحزنه هذا كثيراً

ولكنه انتقم له أشد الانتقام

بعد أن أقسم على هذا

فقد استولى على كاستيل دى فيرو

وأحرق الزرع

وقتل الكثير من المسلمين

وأجبر ابن عبو على الانسحاب

وفى ذلك الوقت

كان موريسكيو روندة

قد أعلنوا عصيانهم

وقد لاحقهم دوق أركوس

وقام بتدميرهم

وقتل الكثير منهم

وكما قلنا فى الجزء النثرى

من المناسب الآن أن نعود

إلى السيد خوان دى أوستريا وجيشه

"خاتمة "

الفصل الرابع والعشرون

الذى يتحدث عن الحصار الذى فرضه السيد خوان حول تيخولا واستيلائه عليها، وأشياء أخرى حدثت فى أثناء هذا الغزو.

تحدثنا فى الفصل السابق عن استيلاء صاحب السمو على سيرون وتدميره للمسلمين المتمردين الذين كانوا يقيمون فيها، حيث قتل الكثيرين منهم. وبعد أن انتهى صاحب السمو من أمير سيرون، أمرَ على الفور بتحرك الجيش نحو تيخولا، وكانت بلدة عتيقة وقوية، بها قلعة لا يمكن النفاذ إليها، حيث بُنيت فوق صخور عالية ووعرة، حيث يتوجه إليها الموريسكيون المنسحبون من كل هذه القرى، أوراكا وألمونيا (almunya) وبايركى (Bayerque)، وغيرها من القرى وهم واثقون من قوة ومناعة قلعة تيخولا، حيث وضعوا فيها أيضًا كل ثيابهم وأشياءهم الثمينة، حيث بدا لهم أنهم فى أمان بداخلها. وقد سار الجيش كما أمر صاحب السمو، ووصل إلى تيخولا الجديدة، وهى قرية موجودة فى المنطقة المنخفضة، حيث ذهب الموريسكيون وصعدوا لاستيطان البلدة القديمة وبناء القلعة الحصينة، وقد نزل الجيش فى أفضل مكان رآه الأمير أكثر أمانًا وأقل خطورة. وتم توزيع الجيش على هذا النحو: جيش السيد خوان، الذى كان جيش أنطونيو مورينو، احتل المنطقة الجديدة المنخفضة ناحية النهر. واحتل جيش السيد لوبى دى فيغيروا فى أعلى الجبل، إلى الجنوب، حيث تحول فيما بعد إلى مؤخرة الجيش وتم وضع ستة مدافع قوية من مدافع السيد خوان مانريكى. والناحية الخاصة بترامونتانا (Tramontana)، فى طريق باثا، احتلها جيش السيد بدرو باديا، وحيث تم وضع ستة مدافع قوية. أما فى جيش صاحب السمو، الذى كما قلنا، كان جيش أنطونيو مورينو، فلم يتم تركيب أى مدفع، لأنه كان فى مكان عميق، ولكن كل ما قامت به المدافع من قذف لم يكن له تأثير واضح، لأن كل ما بناه المسلمون كان محاطًا بالصخور، وعند القذف كانت القذائف تنهال على الصخور بحيث كانت ترتد منها وتعود إلى الخلف بكل عنف وكأنها قد تم قذفها من مدافع الأعداء.

وقد حدث أن إحدى القذائف انطلقت وارتدت نحو المنطقة المستوية من الحقل فقتلت دابتين كانتا هناك، بينما أصابت قذيفة أخرى حقل زيتون كبير فدمرته تماماً، وأخيراً؛ يمكن القول إن المدفعية لم يكن لها تأثيرٌ كبيرٌ. وقد وصلت بعض القذائف إلى الأرض بحيث يمكن أن ندرك أنها لم تؤثر أى تأثير، وهكذا رأى السيد خوان أن يتم تركيب مدفعين آخرين فى السفح فى المنطقة أسفل جيش السيد بدرو؛ بحيث يمكن إطلاق قذائف من هناك على واجهة سور كان يمكن رؤيته من هناك، ومن أجل وضع هذين المدفعين أمر صاحب السمو بأن يتكفل بتركيبهما اثنان من القادة الثامورييين. وقد أمر هذان القائدان بأن يتم سحب هاتين القطعتين بقوة أذرع الرجال، بينما قام الكثير من الجنود المكلفين بحفر الخنادق بالصعود وهم يدفعون المدفعين، حتى وصلوا إلى المكان المختار لتركيبهما ثم بدءوا فى العمل لوضعهما. عندما علم المسلمون بنية المسيحيين لتركيب هذين المدفعين وعلموا بالخسائر والأضرار التى يمكن أن تسببها هاتان القطعتان، اتفقوا على الذهاب إلى هناك وإفشال محاولة تركيبهما. وهكذا قررت فرقة من الأتراك والموريسكيين الممتلئتين بالحماس الخروج والهجوم على جنودنا فوراً بكل قوة بحيث يضيقوا الخناق على هؤلاء الجنود الثامورييين؛ ولكن فى النهاية، وعلى الرغم من محاولات المسلمين، تم تركيب المدفعين وحفر الخندق وجهزت منصة، ثم بدأت المدفعية فيما بعد فى ضرب واجهة السور التى تتراءى من موقعها، وقد أثرت القذائف تأثيرا قويا فى هذا السور، وقد فزع المسلمون خلف السور من شدة القذف، وقد تعلموا من درس غاليرا وما حدث فيها، وعلموا ما سيحدث لهم؛ وهكذا أخذوا يصلحون الخسائر التى تحدثها المدفعية ومن فوق السور أخذوا يقذفون بالأحجار التى أدت إلى مقتل ستة من أفراد المدفعية خلال بضعة أيام، وكان القتلى من أفضل أفراد المدفعية المتواجدين فى الجيش، وكانوا جميعًا قد أصيبوا فى جبهاتهم ووجوههم، ولكن مع كل هذا ظل المسلمون يشعرون بالرعب والفزع، ولهذا فقد أقاموا فى أحد الأيام مجلسًا للحرب ليناقشوا ما يجب أن يفعلوه أمام المسيحيين، وقد تحدث أحد الرجال المسلمين وكان عجوزًا، وتسرى فى عروقه دماء يهودية[1]، وكان يُدعى خومايميت (Jumaymit)، تحدث إلى الجميع قائلاً:

---

(١) كان اليهودى بشكل عام موضع احتقار الإسبان، وإن كانوا يعترفون له بالقدرة على تدبير المؤامرات، وعلى جمع المال. (المراجع).

"حديث خومايميت المسلم إلى موريسكيى تيخولا"

" لقد مرَّ عشرون يومًا، أيها القادة المسلمون الشجعان، ونحن محاصرون، وإذا كنا مصممين على الانتظار عشرين يومًا آخرين، فسوف نهلك جميعًا كما هلك أهالى غاليرا، فعلى الرغم من أننا لدينا ما يكفينا من المئونة، فإن الماء سوف ينفد لدينا سريعًا، نقص الماء يشكل صعوبة شديدة سوف نواجهها، بخاصة وأن لدينا أطفالا ونساء، وأناسا لا يستطيعون تحمل المعاناة، إذن، نقصان الماء الذى أتحدث عنه، وقدرة عدونا وهى كبيرة والحصار المحكم المقام حولنا وقراره بعدم ترك الأرض قبل أن يهدم الصخور والسور والبيوت، أية نهاية ننتظرها ؟ نهاية لا تختلف عن نهاية غاليرا. فإذا كان الأمر كذلك، يكون من الأفضل اتخاذ سبيل من الاثنين اللذين سأعرضهما عليكم الآن، وليكن الرأى الذى نجتمع عليه كلنا. أولهما هو أن نضع أيدينا فى يد القائد المسيحى، ونحن على ثقة بكرم أخلاقه ونبل معدنه. والثانى، أن نتوقف عن الدفاع، ونترك البلدة فى ليلة يساعدنا ظلامها على الخروج دون أن يشعر بنا أحد ونرحل إلى حيث ابن عبو. وعند وصولنا إلى هناك، سوف يتولى الله ثم الزمن أمرنا سواء بالخير أم بالشر. هذا هو رأيى، ولنقل الآن ما هو الرأى الأصوب والأفضل حتى نتخذه جميعًا وننفذه من أجل سلامتنا جميعًا".

وهكذا أنهى هذا الرجل المسلم اليهودى[٢]. حديثه الذى رآه الجميع صائبًا؛ فقد تذكر الجميع النهاية الأليمة لغاليرا، وكل الحروب الماضية والأحداث الجارية وما ينتظرونه من أحداث فى المستقبل والأمل البسيط فى إيجاد حل؛ ولهذا فقد رأوا أن أفضل الرأيين هو تسليم أنفسهم إلى الملك والتوسل لديه كى يرحمهم ويُنهى هذه المأساة. وقد وافق الجميع على هذا القرار، ماعدا موريسكى واحد، أحد أقرباء المالح الذى كان له رأىٌ مختلفٌ وتحدث إليهم قائلاً:

" أيها القادة الشجعان، من الأقارب والأصدقاء، كان حظنا التعيس وذنوبنا سببًا جعل محمد ينصر جيوش المسيحيين علينا ويضعنا فى هذا الموقف الحرج[٣] من الرأيين اللذين

---

(٢) لم يكن الكاثوليك الإسبان في القرن السادس عشر يشغلون أنفسهم بدراسة الديانات الأخرى؛ وبالتالى لم يكن بمقدورهم التمييز بين الإسلام واليهودية. (المراجع).

(٣) مرة أخرى محمد (صلى الله عليه وسلم) كإله يمكن أن يمد المسيحيين بالنصر. (المراجع).

عرضهما علينا القائد خومايميت كآخر أمل لدينا، أعتقد أن أصوبهما هو انتظار ليلة مظلمة وممطرة أو حتى ذات عواصف ثلجية ونغامر بالخروج من المكان الذى فيه عدد أقل من الحراس، لأن هذا سيكون أكثر أمنًا؛ فلا شك أنهم يغلقون علينا المخارج والمنافذ، ولهذا سيكون نجاح محاولتنا معتمداً على معرفتنا كلمة السر التى يعطيها القائد العام للمسيحيين حتى نستطيع قتل الحراس خلال تلك الخدعة إذا كانوا مستيقظين أو المرور بجانبهم دون أى صوت إذا كانوا نائمين واضعين فى الأمام النساء والأطفال ويصحبهم اثنا عشر شابا أو أربعة عشر فتى من الموريسكيين حتى يرشدوهم فى طريقهم ثم يخرج بعد ذلك بقية الأهالى. إذا مرَّ كل هؤلاء، أو بقى القليل منهم، تخرج فرقنا، حتى إذا شعر بهم المسيحيون وواجهوهم بالسلاح، فى ليلة مظلمة، فلن يتعرف أحد منهم على الأرض حولهم ولن يجرءوا على الخروج للحاق بنا. وهكذا نستطيع أن نهرب خلال جبال باكاريس (Bacares) القريبة منا جدا، وعندما نصلها نرى ما هو مناسب لنا عمله. أعتقد أن هذا خير لنا وأفضل من تسليم أنفسنا إلى المسيحيين الذين لا نعلم ماذا سيفعلون معنا بعد تسليم أنفسنا لهم، بخاصة موقفهم من الأتراك، الذين لا يريدون لهم العودة إلى إفريقيا. هذا هو ما أرى، ولا أرى شيئًا غيره، لأن هذا هو الرأى الصواب".

بعد سماعهم هذا الحديث، قال القادة الأتراك إنهم يفضلون هذا الاقتراح الأخير: الموت وهم يقاتلون العدو. وقد اتفق الجميع على هذا الأمر وانتظروا أن ترسل لهم السماء بليلة حالكة الظلام كى يهربوا، وهكذا فى انتظار هذا الأمل، انقضى ثلاثون يومًا أو أكثر وهم محاصرون، وخلال تلك المدة لم تتوقف المدفعية عن القذف، على الرغم من عدم القدرة على الهجوم واقتحام البلدة، وذلك لأنه مع شدة القذف لم تفتح ثغرة كافية لاقتحام البلدة. ومن داخل القرية كان المسلمون يطلقون الأعيرة النارية ولم يتوقفوا عن إحداث أضرار بالمسيحيين؛ وفى نهاية تلك المدة أراد الحظ أن يكافئهم بما ينتظرون؛ فقد جاءت بضعة ليالى اختفى فيها القمر وحلَّ فيها الظلام الدامس وهطل فيها المطر، وفى أثناء تلك الليالى قام المسلمون بفتح ثغرة فى السور فى الناحية التى تطل على الجبال، بكل هدوء بحيث لم يشعر بهم أحد. وبعد فتح هذه الثغرة وفى الوقت الذى سكتت فيه أصوات المسيحيين بدءوا فى الخروج بعد أن التحفوا بالبطاطين كى تحميهم من قسوة البرد. فى ذلك الوقت كان الحرس المسيحى معظمه يغط فى النوم بدلاً من السهر، بخاصة الجنود الجبناء الذين لم يتعودوا على هذا النوع من العمل، بدأ المسلمون يلقون بنسائهم وأبنائهم من خلال الثغرة ثم توجهوا بهم نحو الجبال.

وبهذه الطريقة استطاعوا أن يتخففوا من الرفاق الضعفاء الذين لا يقدرون على الحرب، وعندما لم يتبق لديهم سوى المحاربون، جاءتهم ليلة أكثر ملائمة من الليالى السابق من حيث الظلام الحالك الذى غلفها، وحيث لم يتبق سوى عشرين خطوة تفصلهم عن الآخرين. وقد تنبه السيد خوان لهروب العدو خلال تلك الليالى المظلمة، فأمر بإعداد خيول البريد ووقوفها بالقرب من البلدة، وعلى الرغم من كل خطر، استطاع المسلمون أن ينتهزوا الفرصة التى سنحت لهم كما سنوضح الآن.

لا بد وأنكم تعرفون التوزانى جيداً، وهو الفتى الذى خرج من بورتشينا كى يعرف ما حدث فى غاليرا، وإذا كانت أخت المالح قد لقت حتفها أم لا تزال على قيد الحياة، وعندما دخل القرية وعثر عليها وقام بدفنها ثم ذهابه بعد ذلك وهو مرتدٍ ملابس المسيحيين واثقًا فى طلاقة حديثه باللغة الإسبانية، وكأنه جندى إسبانى، إلى جيش السيد خوان والتحاقه به كأحد جنوده. كان التوزانى هذا، ومعه ثلاثة جنود يقومون بالحراسة، فى المنطقة القريبة من السور الذى يحيط بالقرية، وكانت كلمة السر التى أعطاها لهم قائدهم هى " القديسة ماريا"، كما جرت العادة فى أيام الحرب، وكان من عادة الجنود فى ذلك الوقت أن يتناوبوا اليقظة والحراسة، بحيث يظل أحدهما مستيقظًا وحارسًا للمكان بينما ينام الآخر، وعندما تحل نوبة استيقاظ هذا يخلد الأول إلى النوم، ويستمر هذا النظام هكذا حتى يأتى النهار. وهكذا، كان التوزانى ومعه ثلاثة جنود فى نوبة حراسة، وكان الدور فى الحراسة يقع عليه فى أول الليل، وكان مملوءًا بالشر والمكر، وبعد أن تحدث مع زملائه فى بعض الأمور، كما هى العادة بين الجنود، قال لزملائه الباقين: "أيها الزملاء، فلتناموا كما يحلو لكم، بينما أقوم أنا بالحراسة فى أول الليل، فالجيش بعيد ولكى أقوم بخدمتكم سوف أبذل جهداً أكبر وأقوم بالحراسة أيضًا خلال الربع الآخر من الليل، لأننى أعرف هذه الأراضى جيداً، وأستطيع أن أتحمل البرد والجليد، لأننى فى النهاية أحد أبناء غواديكس، وقد تعودت منذ طفولتى على الخروج والسير فى هذه الجبال الباردة الجليدية خلف الماشية، وهكذا تعودت على البرد وتعود البرد علىَّ، وأستطيع أن أبقى هنا وأتجول فى هذه الأراضى أفضل منكم، لأنكم غير معتادين عليها وتبدو لكم سيئة، فإذا شعرت بالتعب فسوف أتوجه إلى المزرعة ويقوم أحدكم بالخروج والحراسة، وهكذا تمر هذه الليلة السيئة المتعبة، وإننى أؤكد لكم أن المسلمين لن يجرءوا على الخروج من بلدتهم فى ليلة سيئة كهذه، قبل اليوم كان يُقال فى الجيش إنهم سيهاجمون السيد خوان، وهذا هو الصواب، لأننا من الممكن أن نكون غافلين عن هذا، ولكن بالنسبة لما يخص الحراسة

فسوف أقوم بالواجب من أجل الجميع؛ فربما تأتي دورية تفتش علينا فتجدنا مستعدين وهذا هو الصواب". وقد شكر الجنود التوزاني شكرًا جزيلاً، ولأنهم كانوا كسالى، لم يأخذوا في اعتبارهم أن ما قاله أمر سيئ وسيؤدى إلى نتيجة سيئة. فيما بعد استسلموا للراحة والدفء بينما توجه التوزاني للحراسة وبدأ يتمشى بعض الوقت كعادة الجنود، حتى لا ينام ولا يتطرق النوم إلى عينيه، والحق أن التوزاني قد جافاه النوم نتيجة للهدف الذي يحاول تحقيقه والذي جعله مستيقظًا.

في تمام الحادية عشرة مساءً، وهي نهاية نوبة أول الليل وبعدها تدخل نوبة الربع الآخر من الليل، كان التوزاني قد تأكد تمامًا من أن جيش المسيحيين في حالة هدوء بسبب قسوة الطقس، حيث كان المطر والثلج ينهمر من السماء، والهواء البارد يدمر الأشياء، وكانت هناك جذوة نار في أراضي الجيش بينما الحراس يستسلمون للدفء والنوم بدلاً من السهر والبرد. قلنا إن التوزاني تأكد أن زملاءه قد أخلدوا للنوم العميق لدرجة أنهم لو أراد ذبحهم لاستطاع دون أن يشعروا به، فتوجه إلى السور من الناحية الأقل ارتفاعًا من غيرها، وعندما وصل إلى هناك على قدميه، قام بالنفخ في صفارة صغيرة أخرجها من جيبه، وكانت هذه هي الإشارة الدائمة بين المسلمين، والتي من خلالها كانوا يتعرفون على أتباعهم وتصلهم رسائلهم. لم يكد الفتى المسلم ينته من صفيره إلا وردَّ عليه صفير مماثل له؛ فأخذ التوزاني يصفر ويرد عليه صفير مشابه من الداخل، ولم يمض وقت إلا وأطل رجل مسلم من أعلى السور، وكان عمدة تيخولا نفسه، وقد تحدث بصوت منخفض مع التوزاني، وقال له: "منْ ينادي؟"، وأجابه التوزاني وعرفه بنفسه وقال له العمدة إنه ينتظر ومعه بقية أهالي البلدة الخروج من البلدة هربًا من الموت الذي يحيط بهم، وإنهم يريدون أن يعرفوا فقط كلمة السر لهذه الليلة حتى يستطيعوا أن يمروا من رجال الحرس. على الفور، قال لهم التوزاني كلمة السر، ثم أمرهم بالخروج من المنطقة التي يتواجد هو فيها، لأن ذلك سيكون أكثر راحة وأمانًا لهم، وبعدما قال لهم هذا ابتعد عن السور وتوجه إلى حيث ترك زملاءه، الذين كانوا لا يزالون يغطون في نوم عميق غافلين عما يحدث داخل البلدة وما يدبره التوزاني. وقد فرح عمدة تيخولا أشد الفرح لأنه تعرَّف على التوزاني وتعرَّف عليه هذا الأخير، على الرغم من أن شدة الظلام قد حالت دون رؤية أحدهما للآخر، وقد توجه إلى الموريسكيين والأتراك وأخبرهم بما حدث، وبأنه قد حانت ساعة خروجهم من البلدة، فالآن هو يعلم كلمة السر، وقد قالها لهم، وقد فرحوا جميعًا بهذا ولهذه الجسارة والجرأة؛ واستعد الجميع على الفور من أجل الهروب، وعندما فتحوا الثغرة

ألقوا بالنساء الباقيات فى البلدة أولاً ومعهن الفتيان وقادهم عمدة تيخولا من المكان الذى أشار به التوزانى، وعلى الرغم من شدة العاصفة والظلام الحالك، فإنهم توجهوا إلى حيث يتواجد التوزانى الذى شعر بهم جيداً عندما مروا بالقرب منه. كان الجزء الأكبر من أهالى البلدة قد هربوا، عندما استيقظ أحد الجنود من زملاء التوزانى وتذكر نوبة الحراسة، وقد شعر بقربها، فقال لزميله: "هل حانت الساعة، أيها الزميل؟" "هل تريد أن تنام؟" فأجابه التوزانى قائلاً: "لا والله، فحتى الآن لم يأتنى النعاس، والسبب فى ذلك هو البرد" قال له زميله الجندى: " لقد ذكرتنى بهذا ولهذا السبب أريد أن أسير قليلاً، فإن قدماى أصبحتا كقدمىٍ ميت". فقال له التوزانى: "إذن، فلتمش يا سيدى قليلاً وتدفئ نفسك"، وهكذا بدأ الجندى يتجول فى الناحية، وعندما ابتعد قليلاً للأمام سمع همهمات المسلمين وهم يهربون، ولكنه لم يتمكن من رؤية شيء وذلك للظلمة الحالكة، فعاد إلى التوزانى وقال له: " لقد سمعت أصواتًا بالقرب من البلدة، ولكن مع شدة الظلمة لم أستطع أن أرى أو أكتشف شيئًا، لا أدرى ماذا يمكن أن يكون هذا". فقال له التوزانى وكأنه لا يفهم شيئًا: "لست أدرى، ربما يكون جزء من السور قد تهدم بفعل رصاصة أو قذيفة مدفعية". قال له الجندى الكسول: "من المحتمل أن يحدث هذا "، ولكن بعد قليل اقتربت منهم فرقة من المسلمين الذين توغلوا كثيراً بين المسيحيين، وعلى الرغم من قربها منهما، فإن الجندى لم يلمحها، ولكن زميل التوزانى ابتعد قليلاً وتوجه لهذه الناحية واكتشف شيئًا؛ فقال بصوت مسموع: "منْ هؤلاء الناس؟ " فأجابه أحدهم قائلاً: "أصدقاء"، فقال الجندى: "أصدقاء منْ؟ " حينئذٍ أجابه الفريق قائلاً: " القديسة ماريا ". وعندما رأى الجندى أن هذه الفرقة قد أعطته كلمة السر، عاد إلى التوزانى وحكى له ما حدث. وقد أجابه التوزانى قائلاً: "لا بد أنهم نوبة الحراسة التى تفتش بالليل، اذهب وعد إلى الأصدقاء وإذا وصلوا سأجاوبهم أنا". وقد فعل الجندى هذا، وبقى التوزانى وحيداً، بعيداً بعض الشيء عن الآخرين. وفى أثناء ذلك الوقت لم يتوقف الفريق المسلم عن التقدم للأمام.

كانت نوبة الحراسة الخاصة بالربع الآخر من الليل قد انقضى جزء كبير منها، عندما شعر أفراد الحراسة الواقفون عند الجزء الآخر من البلدة بأصوات المسلمين وهم يتحركون ويمشون، وارتفعت أصوات غريبة اختلطت بعضها بعضًا، ولم يفهم سر هذه الضوضاء وماذا يحدث ولم يستطع أفراد الحراسة أن يروا أى شيء بسبب الظلام الحالك، فوقفوا حائرين ومندهشين لهذه الضوضاء المحيرة، إلا أنه هناك رجلا له خبرة واسعة فى تلك الأمور أراد أن يستكشف الأمر، فتوجه دون أن يرى شيئًا إلى حيث يشعر أن الأصوات تصدر، وكان قد خطا

بعض الخطوات عندما أدرك أنها أصوات المسلمين الذين يهربون من البلدة، بخاصة وقد سمع بكاء طفل بين ذراعي منْ تحمله، وعندما تأكد مما يسمع، هتف قائلاً: "سلاح، سلاح، المسلمون يخرجون من البلدة "، وقد ترددت صيحته بين رجال الحراسة الذين استعدوا على الفور بالسلاح. وقد وصلت إلى حيث يقف التوزاني صيحة السلاح هذه، وقد هتف هو أيضاً "سلاح، سلاح، سلاح، فالعدو قادم"، واستمر هتاف حمل السلاح يتنقل بين الأفراد حتى وصل إلى أفراد الحراسة السيد لوبي دى فيغيروا، ثم سرى فى كل الجيش بكل سرعة؛ فحضر الكثير من الجنود كي يهجموا على المسلمين. وقد عمت الفوضى كل الجيش بحيث لم يكن يسمع بين جنباته سوى هذه الصيحة "سلاح، سلاح" وبعض الجنود يتحركون نحو مكانه، وآخرون يهرعون إلى مكان آخر، دون أن يعرفوا ماذا عليهم أن يفعلوا، وقد ألقى السيد لوبى عن جسده نصف دستة من الدثر، وخرج حيث ترتفع أصوات جنوده كي يعرف سبب الأمر برفع السلاح. وقد انزعج صاحب السمو وأراد الخروج، ولكن لم يوافق حراسه على هذا. وكان هناك بعض المسيحيين الذين توجهوا إلى الجزء الآخر من البلدة حتى وصلوا إلى حيث المسلمين وكانوا يهتفون: "سلاح"، وقد فعل المسلمون مثلهم. الشاهد أن الأمور كانت تسير باضطراب شديد ولم يكن أحد يدرى ماذا عليه أن يفعل حتى إن بعض المسلمين حين كانوا يرون أن الطريق قد قطع عليهم كانوا يعودون ويمرون وسط الجنود المسيحيين دون أن يتعرف أحد عليهم بسبب الظلام والضباب. وليتخيل كل واحد الآن حال الحرب والمعركة وكيف تسير؛ فلم يبق سوى جنود يقتل بعضهم بعضا. كانت الليلة قارسة البرودة.وكانت السماء تمطر ثلجاً وجليداً، وكان الهواء شديد البرودة والقسوة، ولم يكن من الممكن عمل شيء إلا وستكون له آثار سيئة على جنودنا. لذا فقد صدر أمر بتجمع الجند حتى لا يتعرضوا للخطر، ولكن الذى حدث هو أن الجنود الذين نبهتهم إشارة السلاح، وأربكتهم الفوضى وامتلأت نفوسهم بالطمع، توجهوا، دون خوف من الظلام والجليد الذى يتساقط، إلى البلدة وتجولوا حول السور وأخذوا يطلقون الرصاص على الباب الصغير بكل غضب وقوة حتى قتلوا المسلمين الذين كانوا يخرجون من خلاله. وقد بدأ المسلمون بعد ذلك فى إطلاق النار على المسيحيين، محاولين الخروج بدلاً من القتل فى الداخل. وهكذا، اشتبك الطرفان بقوة، وقد أمر الجنود الذين دخلوا بفتح باب المدينة، وبعد فتحه تدفق الكثير، ولكي يبدءوا فى النهب وسرقة بيوت المسلمين، بدءوا يضرمون النار فى الشوارع الكبيرة، ولكن عندما حدث هذا كان المسلمون الباقون فى المدينة قليلين للغاية وكلما عثر على أحد منهم كان يقتل على الفور، ولكن أكثر قتلاهم عدداً

كانوا قد لقوا مصرعهم في الجزء العميق من النهر وهم يصعدون الجبال. جاء الصباح، وكانت البلدة كلها قد تم نهبها، وقد تم التعرف على آثار الأهالي التي تركوها فوق الجليد حيث ساروا في أثناء هروبهم ومن خلالها عرف المسيحيون أنهم قد توجهوا إلى باكاريس (Bacares) وسييرو (Sierro).

قام العدو بالهروب يوم الخميس المقدس (خميس العهد) ليلاً، كما قيل، ولم يتم خلال هذا الحصار أي مواجهة، إلا ما سبق وذكرناه، وما حدث مع باغان دي أوريا (Pagán de Oria)، عندما حاول أن يستطلع ما يحدث في باياركي (Bayarque) وتيخولا الجديدة، واشتباكه مع فرقة من المسلمين التي حضرت من بورتشينا، وقد أظهر باغان دي أوريا شجاعة نادرة في أثناء ذلك الاشتباك. كذلك أظهر فرانثيسكو غالتيرو، قائد مورثيا، شجاعة عظيمة، عندما صعد لتركيب قطعة مدفعية (كما سبق وقلنا)، عندما تصدى له بعض الأتراك واشتبكوا معه. في اليوم التالي، وكان يوم الجمعة المقدس (الجمعة الكبيرة)، جاء أحد المسلمين يحمل راية بورتشينا، وأعلن أن المالح قد خرج من بورتشينا ومعه سبع فرق، متوجهًا إلى جبل فيلابريس. لهذا أمر السيد خوان بتحرك الجيش نحو بورتشينا، كي يترك فيها جماعة من الجنود حتى لا يستطيع العدو أن يتخذ منها بيتًا وسكنًا. وهكذا سنترك جيش السيد خوان، وهو يتجه إلى بورتشينا يوم السبت، يوم وقفة عيد القيامة، ونعود إلى مسلمي روندة.

تقول كتب التاريخ إن المسلم المدعو مالك، بعد أن جُرح وأصيب إصابة شديدة، خرج من الجبال، حيث كان يحتمي بالحصن الذي استولى عليه دوق أركوس ورجاله. في نفس تلك الليلة قام بتجميع أكبر عدد من جنوده، الذين هربوا كما هرب هو، وأخذوا يلعنون حظهم السيئ، وكفروا بمحمد. في تلك الليلة ابتعدوا لمسافة طويلة، وفي اليوم التالي تقابل مع رجال أكثر مما كان يتوقع، وهكذا، آملاً في إيجاد حل له ولرجاله، ذهب مالك إلى ريو بيردي (Rio Verde) واتخذ من أحد الجبال القريبة منها مأوى وسكنًا له ولرجاله، وكانت تُسمى جبال بلانكيا (Blanquilla)، وهناك كان يذهب إليه المسلمون الذين كانوا يسيرون بلا هدف لدرجة أن مالكا هذا استطاع إعادة تكوين جيشه كما كان في الماضي. ولكن عندما علم دوق أركوس أن مالكًا قد استعاد قوته هناك، ذهب ليبحث عنه، وعندما وجده دارت بين الطرفين معركة ضارية، لقي خلالها مالك حتفه من طلقة رصاص وتم تدمير جيشه. وبعد أن قتل العديد من أفراد جيشه طلب دوق أركوس الشجاع من الباقين الاستسلام له وتسليم سلاحهم فبقي بعضهم معه وتحت أمره وكثيرون منهم عبروا البحر إلى إفريقيا. وهكذا تم إخضاع كل هذه الأراضي وعاد الهدوء

إليها بفضل حكمة الدوق وشجاعته. ولأنه لا بد أن نعطى نهاية لقصتنا، سنعود الآن لنتحدث عن جيش السيد خوان، الذى سار يوم السبت "وقفة عيد القيامة" إلى بورتشينا قادماً من فلوريس.

وصل السيد خوان إلى بورتشينا يوم السبت نفسه ولم يعثر فيها على أى مسلم، وقد تناول الجنود يوم عيد الفصح الكعك الجاف، وهو الطعام الوحيد الذى كان يحمله الجيش. وهناك قضى السيد خوان عيد الفصح كله، وبعده بدأ الجيش سيره نحو النهر إلى أسفل فى اتجاه كانتوريا فوجدها خالية من السكان، ومن هناك توجه إلى أريولياس (Arboleas) وثورخينا (Zurgena)، ومرَّ بجانب بيرا، وذهب إلى قرية تسمى أوتاس(Autas)، ومن هناك توجه إلى سوربارس (Sorbas) ولوبرين Lobrín، ونهر أغواس وأوليى (Auley) وتيركى (Terque)، وفى بعض هذه القرى أمر صاحب السمو بأن يتم اللعب بالعصى على طريقة خيريث دى لا فرونتيرا، وجهًا لوجه، وكان اللعب حماسيا للغاية. هناك وصل ماركيز فابرا ومعه ثلاثة فرسان قادمين من غواديكس، وعلى الرغم من تواجد المسلمين استطاعوا الوصول إلى هناك، فاندهش لذلك كل أفراد الجيش. ومن هناك رحل السيد خوان مع جيشه ولم يتوقف حتى وصل إلى أنداراكس حيث تقابل مع جيش دوق سيسا، الذى سرَّ كثيراً لمجيء صاحب السمو واستقبله بحفاوة بالغة، بعد ذلك أمر السيد خوان بتنظيم جيش دوق سيسا، وبأمر من سموه، رحل الدوق إلى غرناطة كى يستريح، حيث لم يكن فى كامل استعداده، وبقى السيد خوان وحده قائداً للجيش.

الآن وقبل أن نتقدم فى الحديث، لا بد أن نذكر ما فعله الفتى المسلم التوزانى، الذى ذهب مرتدياً ثوب جندى مسيحى إلى جيش السيد خوان. من المهم أن نعرف أن الفتى كان يسير دائمًا وفى ذاكرته موت الجميلة "مليحة" – على يد المسيحيين فى غاليرا، كما سبق وحكينا– التى كان يحبها الفتى فى حياتها وقد ظهر هذا الحب الكبير فيما قام به من أجلها بعد موتها وبعد أن عثر عليها قتيلة، ولم يغادر ذاكرة الفتى جمال هذه السيدة ولم تنتزع صورتها من خياله، وكان قد أقسم على الانتقام لمقتلها، إن ساقت له الأقدار المسيحى الذى قتلها وأمسك به بيديه، وهكذا كان يسير وكله انتباه ويقظة وتصميم على الانتقام، وكان سعيه للانتقام يتم بطريقة غريبة بعض الشيء؛ فقد كان يتواجد فى جلسات الجنود التى يدور فيها النقاش، ونحن نعرف أنه حلو الملامح والحديث، لذا كان الجميع يسعد بالحديث والتعامل معه، ودائمًا كان يقود دفة النقاش إلى الأحداث التى وقعت بغاليرا، قائلاً: " الآن، لا بد أن نعترف يا سادة

أنه لم تكن هناك معركة سقط فيها موتى من المسلمين ونسائهم أكثر من معركة غاليرا، إننى من جانبى أقول إننى قتلت دون أية رحمة بيدى هاتين أكثر من أربعين امرأة مسلمة من أجمل النساء اللاتى كنَّ يعشن فى تلك البلدة، هذا بخلاف الأطفال والرجال الذين قتلت منهم الكثير".

وعندما كان الجنود يسمعون حديثه هذا، كان كل منهم كما جرت العادة، يحكى ما فعل وكم قتل وكم سرق ونهب. وقد حدث فى أحد الأيام فى أثناء إدارته للنقاش بهذا الأسلوب، أن أجابه أحد الجنود قائلاً: " إذا كنت، أيها الجندى، قد قتلت فى معركة غاليرا كما تقول دون رحمة أو شفقة الكثير من النساء؛ فإننى أقول لك إن قلبك قاسى ومصنوع من الفولاذ، لأن هذا القتل فى النهاية يدعو إلى الشفقة والتعاطف بخاصة قتل النساء الجميلات، أى ذنب للنساء فيما اقترفه الرجال؟. لقد قتلت امرأة واحدة؛ لكننى تألمت من أجلها كثيراً، بخاصة بعد موتها، وقد قالت لى بعض النسوة اللاتى بقين على قيد الحياة بأن السيدة التى قتلتها هى أخت القائد مالح، قائد بورتشينا، والحق أنها كان يبدو عليها أصلها الرفيع من ملابسها والأساور والأقراط الذهبية التى كانت تضعها، لقد نزعت عنها كل شىء بعد موتها، وتركتها فقط مرتدية قميصًا، كان أنيقًا أيضًا، وقد تركت هذا القميص حتى لا تصبح عارية، والآن أشعر وكأنى أراها، لقد كان قميصها من الحرير الأخضر والأحمر القانى، وكان هناك من الجنود مَنْ يريد أن ينزعه عنها، ولكنى دافعت عنها، وأكثر ما يؤلمنى بعد قتلها، هو أنها كانت من أجمل نساء العالم. يعلم الله أنها وهى قتيلة فتنت كل الرجال بجمالها، وقد لعننى كل من رآها وهم يقولون: "أى شر اقترفه الجندى الفظ بقتله هذا الجمال!"، وقد توجه إليها الكثير من القادة والجنود المهمين كى يلقوا بنظرة عليها، وقال الكثيرون: "لو كنت قابلتها، لقدمتها للملك الذى يعد واحدا من أهم رجال العالم فى الوقت الحالى"، لأنه يا سيدى كان مجرد رؤية هذه الجميلة قتيلة ومرتدية قميصها المشغول وشعرها الأشقر حولها كجدائل من ذهب تحيط بعنقها، جديرة بمقارنتها بملاك جميل. انظر لقد قام رسام شهير كان يصاحبنا فى هذا الجيش، وكان فى فرقة القائد بيلتران دى لا بينيا، وقد قتله المسلمون فى غاليرا، قام برسمها طيلة يوم كامل، وهى صورة رائعة وكأنها حقيقة ومجرد رؤيتها تجذب مَنْ ينظر إليها، وقد حدث أن عرض أحد الرجال مبلغ ثلاثمائة دوقية على هذا الرسام كى يشترى منه تلك الصورة ولكنه رفض؛ وهكذا أرى أن الكثيرين يلعنوننى على قتلى هذه السيدة، لذا أشعر بالألم والخجل لما اقترفته، وقد أقسمت على ألا أفعل نفس الشىء مع أى سيدة أخرى لأننى كجندى صالح دائمًا أتساءل ما ذنب هذه السيدة المسلمة المحفورة صورتها فى قلبى".

كان التوزانى يستمع إلى كلمات الجندى المسيحى بكل انتباه، ومن خلال الإشارات التى ذكرها، علم بوضوح أنه الجندى الذى قتل سيدته؛ فقد ذكر هذا فى كلامه وحكى عن جمال السيدة، وكانت كل كلمة يسمعها بمثابة ضربة خنجر تصوب نحو قلبه، وكان يقول لنفسه: "سوف تدفع ثمن كل هذا أيها الخائن، لن أكون التوزانى إذا لم تدفع ثمن كل هذا"، وقد شعر بعاطفة جياشة وهو يسمع المأساة التى وقعت للجميلة مليحة بحيث إن لون جبهته تغيَّر من هول ما كان يسمعه من الجندى حتى إن بقية الجنود تعجبوا لتغير سحنته عند سماعه هذا الحديث وقالوا له: " لماذا تأثرت هكذا؟ هل تشعر بشىء، أم حدث لك شىء ؟"، وكان التوزانى حينما يسمع هذا يحاول إخفاء مشاعره، ويجيبهم: " إننى بخير منذ بداية هذا اليوم حيث تناولت قليلاً من الماء ومعه بعض الخروب"، وبعد ذلك سأل الجندى إذا كان لا يزال لديه شىء من ملابس هذه السيدة أو أى قطعة حُلى، قال له الجندى: "لا، لم يتبق معى سوى أقراطها وخاتم نزعته من إصبعها؛ فقد بعت الباقى فى باثا لأننى كنت فى حاجة إلى نقود، والآن لو وجدت منْ يشترى هذه الأقراط والخاتم لبعتها له اليوم". فقال له التوزانى: " أنا اشتريها منك، وسوف احتفظ بهذه الحُلى حتى نصل إلى بيليث البلانكو وأقدمها لأختها التى تعيش هناك أسيرة فى بيت ماركيز تلك الأراضى" . قال الجندى: "لم يبق سوى أن تتوجه معى إلى خيمتى كى ترى الحُلى؛ فإذا أعجبتك اشتريتها". قال التوزانى: هيا بنا، بإذن من هؤلاء السادة". بعد ذلك توجه الجندى والتوزانى إلى حيث قال الجندى، وعند وصولهم إلى خيمته، أخرج الجندى من صُرة بعض الأوراق ثم أخرج الأقراط والخاتم، وقد تعرَّف التوزانى على الأشياء على الفور؛ فقد رآها كثيراً وسيدته تحملها فى أذنيها وتحمل الخاتم فى إصبعها، وعندما رأى التوزانى هذه الأشياء لم يستطع أن يمنع نفسه من التنهد بألم وقد تدفقت الدموع من عينيه من فرط عاطفته، ولكنه حاول إخفاء مشاعره قدر استطاعته، وطلب من الجندى أن يقول له السعر الذى يريده، وأخيراً اتفقا على أن يدفع التوزانى ست دوقيات، مع أن الحُلى كانت تساوى أكثر من عشرين دوقية، ولكنها الحاجة وظروف الحرب. دفع التوزانى النقود، وأخذ الحُلى ووضعها فى صدره، وكأنه يضع سيدته، وبعد ذلك طلب من الجندى أن يخرجا للتنزه قليلاً خارج أنداراكس. وقد خرج الجندى بصحبة التوزانى وابتعدا عن القرية قليلاً، وقد رأى التوزانى أن الوقت قد حان لتنفيذ رغبته الملحة؛ فقال للجندى: " لو عرضت عليك صورة السيدة التى قتلتها، هل تتعرف عليها؟" قال الجندى :" لو رأيتها لعرفتها على الفور، لأننى أشعر وكأننى قد قتلتها من ساعة واحدة". فأخرج التوزانى من صدريته قطعة جلد مطوية وفردها أمام الجندى وأطلعه على الصورة، وقال له: "هل هذا هو وجه الجميلة مليحة ؟ ". أمعن

الجندي النظر في الصورة، ثم عرفها، وقد اندهش لهذا، وقال: "إنها هي دون شك، وقد أدهشتني رؤيتها"، فقال له التوزاني: "إذن، قل لي، أيها الوغد الشرير، الحقير، لماذا قتلت هذا الجمال؟ فلتعلم أنها كانت الخير في حياتي، وإنني كنت أخطط للزواج منها، وقد حرمتني أنت، بكل نذالة، من هذا الأمل دون أي مواساة لي، فلتعلم أنني سأنتقم لقتلها، لذا اقبض سيفك بيدك ودافع عن نفسك، وإلا، فكما قتلتها اقتلني أنا أيضًا ولتنضم دمائي إلى دمائها التي سالت على حافتي سيفك ولتهنأ بانتصارك على حياتنا نحن الاثنين إذا كنت تريد أن تحظى دائمًا بشرف قتل المحبين". وعندما قال التوزاني هذه الكلمات أخرج سيفه وهاجم الجندي كي يقتله، ولكن الجندي على الرغم من دهشته لما سمع، لم يفقد حماسه لأنه شجاع، وقد أشهر سيفه في وجه التوزاني وكأنه أسد، وهكذا بدأ الاثنان معركة قوية بالسيوف، وكان التوزاني إلى جانب شجاعته يجيد استخدام السيف؛ لذا فقد أصاب الجندي التعيس إصابة شديدة بضربة من سيفه، وهو يقول له: "خذ، أيها الوغد، جائزة قسوتك التي تبعثها إليك الجميلة مليحة التي قتلتها دون ذنب". وقد سقط الجندي الجريح على الأرض، فقام المسلم المتوحش بضربه ضربة قاتلة وهو يقول: " لقد ضربت سيدتي ضربتين، وسوف تموت مثلها بضربتين". وبعد أن قال هذا تراجع ووضع سيفه في غمده ثم توجه نحو الجبال، التي لم تكن بعيدة. بينما كان هذا يحدث، كان هناك بعض الجنود، الذين كانوا يتجولون خارج القرية ولم يكونوا بعيدين عن مسرح الأحداث وقد رأوا الاثنين وهما يتصارعان بالسيوف، وهرعوا نحوهما حتى يُصلحا بينهما، ولكنهم وصلوا بعد أن كان التوزاني قد أصاب غريمه إصابة قاتلة وهرب مسرعًا نحو الجبال. وقد اقترب الجنود من الجريح وحاولوا مساعدته على النهوض، ولكنه عاد وسقط من جديد ولم يحتمل الوقوف على قدميه، وقد طلب من كل منْ حاول رفعه عن الأرض بالإسراع بطلب كاهن ليعترف أمامه. وقد حمله الجنود إلى أنداراكس وتعرفوا على كتيبته وقائده، وحاولوا علاجه بكل سرعة، وعندما سُئل منْ قام بجرحه ولماذا، حكى الجندي كل ما حدث بكل تفصيل. ولم تمر سوى سويعات قليلة حتى أسلم هذا الجندي الروح، وكان يُدعى فرانثيسكو غارثيس، وكان من أبناء بيال دي بيثيرو (Peal de Bezerro)، وقد اشترك في الحرب ومعه بعض أصدقائه دون أن يتقاضى أية نقود.

وصل التوزاني إلى أعالي الجبال في تمام الرابعة بعد الظهر ومع ظلمة الليل عاد إلى أنداراكس حيث كان زملاؤه قد شعروا بغيابه منذ أن خرج بعد تناول الطعام؛ وعندما سألوه أين كان، أجاب قائلاً إنه كان يلعب ويلهو، دون أن يذكر شيئًا عما حدث. بعد ذلك قام بتغيير

ثيابه وأخذ يتجول بين الجيش دون أن يتعرف عليه أحد لأنه بين المسيحيين يوجد خمسة عشر ألفا من الرجال أو عشرين ألف رجل فيكون من السهل عدم التعرف على أحد. وقد حدث أن ذهب التوزاني في أحد الأيام إلى مكان قريب من سكن السيد خوان فتعرَّف عليه الموريسكي الذي جاء من بورتشينا حاملاً راية السلام يوم "الجمعة الكبيرة" التي تم فيها الاستيلاء على تيخولا، حيث أخبرهم برحيل المالح من بورتشينا ومعه ست فرق من جيشه. وكان هذا الرجل قد تعامل فيما قبل كثيراً مع التوزاني، وكان بين الرجلين نوع من الصداقة، ولهذا على الرغم من أن التوزاني كان يسير مرتدياً زي الجندي المسيحي، فإن الرجل تعرَّف عليه، وأظهر سعادة عظيمة برؤيته وأخذ يعانقه ويحييه بحرارة دون أن يأخذ في اعتباره أنه يسير متخفياً. وقد طلب إليه التوزاني مندهشاً، باللغة العربية، أن يصمت ولا يكشف أمره لأن كل الجيش يعتقد أنه مسيحي قديم. فأخفى الموريسكي مشاعره، وقال لبعض منْ رأوه يعانق التوزاني إنه يعرفه من البلدة التي نشأ فيها، وكل المسيحيين القدامى بتلك البلدة يعرفون العربية. وبهذه الطريقة ابتعدا عن الآخرين وقضيا ثلاث ساعات أو أربع ليالي مع بعضهما بعضاً. وقد حكى التوزاني خلالها لموريسكي بورتشينا كل ما حدث منذ أن خرج من هناك وكيف قتل الجندي الذي كان قد قتل الجميلة مليحة، وهكذا أسرَّ إليه بأسراره. اندهش الموريسكي لكل ما سمعه من التوزاني، بخاصة إعطاؤه كلمة السر لأهالي تيخولا ليلة هروبهم، وكانت "القديسة ماريا"، ولأن المسلمين كانوا دائماً لا يثبتون على مبدأ، قرر هذا الموريسكي أن يحكي لصاحب السمو كل ما قاله التوزاني له، وهكذا خرج للبحث عن السيد خوان، وعندما قابله قال له: " فلتعلم يا صاحب السمو أن هناك مسلماً يتواجد في جيشك ويرتدي ملابس المسيحيين ويُدعى التوزاني، وقد أخبر المسلمين بكلمة السر حتى يمروا بين الجيش دون أن يدري بهم أحد، وقد قام منذ يومين بقتل أحد الجنود لأنه سبق أن قتل أخت القائد المالح عند اقتحام غاليرا، احذر منه يا صاحب السمو لأنه رجل ذكي ومُر بإحضاره وقتله، لأنه يستحق هذا لأنه أعطى كلمة السر الخاصة بالجيش إلى الأعداء، مخاطراً بكل شيء، ولولا عناية الرب لضاع كل شيء".

ظهرت الدهشة على وجه صاحب السمو لكل ما قاله المسلم، ولم يرغب في أن يتواجد في جيشه شخص يمكنه إلحاق الأذى بهذا الجيش وخيانته، أمر بالبحث عن التوزاني وإحضاره على الفور. وقد وعده مسلم بورتشينا بالبحث عنه وإحضاره وذهب للبحث عنه مدة يومين في كل أنحاء الجيش ولم يستطع أن يعثر عليه، حتى رآه في اليوم الثالث وسأله على الفور أين كان. وقد أجابه التوزاني بأنه كان في مسكنه، ولم يغادر أنداراكس، وأراد أن يعرف السبب

الذى جعل صاحبه يبحث عنه طيلة يومين، فأجابه رجل بورتشينا قائلاً: "تعرف يا صديقى إننى قد أتيت بمحض إرادتى وسلمت نفسى لصاحب السمو السيد خوان، وقد حكيت له كيف أن المالح قد رحل إلى فيلابريس ومعه ست فرق، وهو يفكر فى الخروج من هناك والانضمام لابن عبو، والآن كان علىَّ أن أناقش بعض الأشياء مع السيد خوان، وأريدك أن تحضر الحديث معى لأنك، كرجل ذكى، تستطيع أن تتدخل وتُدلى برأيك حول ما يُقال". قال له التوزانى، كرجل مخلص، يقدر قيمة الصداقة، إنه على استعداد للذهاب معه وصحبته فى الوقت الذى يراه ملائمًا للحديث مع السيد خوان، وقد أظهر مسلم بورتشينا أنه يريد أن يحدث ذلك فى أقرب وقت ممكن. وهكذا ذهب هو والتوزانى على الفور إلى سكن الأمير، الذى كان يصاحبه فى ذلك الوقت عدد كبير من الرجال المهمين، من بينهم ثلاثة من رؤساء الرهبانية العسكرية وهم: أنطونيو مورينو والسيد بدرو دى باديا والسيد لوبى دى فيغيروا، إلى جانب السيد فرانثيسكو دى بيلاسكو، الذى جاء إلى الجيش التابع لدوق سيسا بأمر من صاحب الجلالة حتى يساهم فى وضع نهاية لهذه الحرب. وكان الحديث يدور حول الخروج للبحث عن العدو الذى يسكن بيليث، وكان القادة قد اتفقوا على تقسيم الجيش إلى ثلاثة أجزاء، حتى يبحث كل فريق من جهة مختلفة عن ابن عبو وألا يتوقفوا عن البحث حتى يتم العثور عليه والقضاء عليه، بحيث يتركون فى كل قرية يتم الاستيلاء عليها قوة كبيرة، حتى لا يستطيع المسلمون العودة للإقامة فيها. هكذا كان يدور النقاش عندما وصل مسلم بورتشينا ومعه التوزانى وقالا لقائد الحرس إنهما يريدان الحديث مع صاحب السمو حول أمور يجب القيام بها. وقد أبلغ قائد الحرس صاحب السمو بالرسالة، فأمر بدخولهما، وقال مسلم بورتشينا، بعد أن قام بتحية الأمير: "أيها الأمير، هذا هو زميلى الذى تحدثت إليكم بشأنه، وقد جئنا كى نلفت انتباهكم لأشياء هامة". وقد تعرَّف السيد خوان فيما بعد على الموريسكى، بعد أن أخبره الآخر بأمره؛ فأمر بإلقاء القبض عليه على الفور وبأن يقوم قائد الحرس بتجريده من سلاحه. بعد ذلك أدرك التوزانى أن هذا الموريسكى قد باعه، ولكنه لم يفقد حماسه ولم تسقط معنوياته؛ بل توجه إلى الأمير وسأله بكل تواضع لماذا أمر بالقبض عليه. حينئذٍ سأله السيد خوان بدوره وأمام الجميع من أين أتى. ولأن التوزانى كان يعلم أن الأمير قد عرف عن طريق الموريسكى كل شىء عنه، لم يرغب فى إخفاء الحقيقة، فقال له بكل حماس إنه من أبناء قرية صغيرة تسمى فينيس (Finis)، تقع بين كانتوريا وبورتشينا، وإنه فارس ويُدعى التوزانى. وقد

سأله السيد خوان لماذا يتواجد وهو موريسكى فى جيشه مرتديًا زى جندى مسيحى. فأجابه التوزانى قائلاً: " لتعلم يا سيدى إننى ارتديت هذا الزى كى أقتل وغداً قتل بكل دناءة أجمل نساء الدنيا فى أثناء اقتحام غاليرا، فى الوقت الذى كان يمكنه أن يأسرها فقط، وأن هذه السيدة كانت زوجتى، وقد أقسمت يا سيدى أن أبحث عن هذا الجندى وأن أقتله، ومنذ يومين عثرت عليه فى هذا الجيش وقتلته فى مكان ليس ببعيد عن هنا وهذه هى الحقيقة فافعل بى يا صاحب السمو ما يحلو لك، فإذا مت سأرحل من هذه الدنيا سعيداً لأننى انتقمت لموت سيدتى، التى كانت كل ما أتمنى فى هذه الحياة، ولدىَّ أمل فى أن يجمعنى الله بها بعد الموت، وإننى على يقين من أنها لن تشكو منى لأننى انتقمت لمقتلها، ولكنى أريد أن أموت مسيحيا، لأن على هذه الديانة ماتت سيدتى؛ فقد كنا على اتفاق بأن آخذها من غاليرا ونذهب سويا إلى مورثيا حيث نتزوج ونعيش فى انتظار أن تنتهى هذه الحرب الدامية. وعلى ضوء هذه الفكرة توسلت هى لأخيها المالح بأن يسمح لها بالذهاب إلى غاليرا بحجة زيارة بعض أقاربها الذين يعيشون هناك، حتى نختصر الوقت ونقوم بما اتفقنا على تنفيذه. ولكن لم يمكننا القدر من تنفيذ مخططنا، لأن بعض الخونة أعلنوا الثورة فى غاليرا وأعطوا لسموكم وجيشكم ذريعة لاقتحام المدينة وقتل سيدتى. لقد ذهبت بنفسى للبحث عنها، وعثرت عليها قتيلة، وقد قمت بدفنها وكتبت على قبرها رثاءً، وأقسمت أن أنتقم لها، وقد انتقمت لها، وارتديت هذا الثوب المسيحى؛ لأننى مسيحى، وقد كنت فى صفوف جيشك والآن تأمرون بالقبض علىَّ؛ فلو مت سأموت قرير العين لأن أميراً مثلك هو منْ أمر بقتلى. ولكن فى هذه الحالة لدىَّ شىء واحد أرجو من عظمتكم أن تحتفظ بصورة سيدتى هذه، وألا تقع فى أيدى أحد الأوغاد غير الجديرين بلمسها، ومع الصورة هذه الحُليات الثلاث اللاتى لا تُقدر بثمن لأنها كانت حُليها".
قال التوزانى هذه الكلمات دون أن يتغير لون وجهه، ثم جثا على ركبتيه ووضع يده فى جيبه، وأخرج اللوحة الجلدية و الحليات الثلاث وقدمهم للأمير. وقد علت الدهشة وجه الأمير من هدوء التوزانى وهو يحكى له قصته، وقد شعر بحزن لحظه السيئ فأخذ الصورة والأقراط والخاتم، بينما تنهد التوزانى بتنهيدة ألم عندما سلَّم هذه الأشياء لصاحب السمو، وكأنه وهو يسلم هذه الأشياء، سلم معها سيدته ونزع قلبه من صدره. وقام السيد خوان ببسط اللوحة الجلدية وبهره جمال مليحة، وقام بعرض الصورة على الفرسان الموجودين معه، فأبدوا إعجابهم بجمال السيدة الموريسكية، وإعجابهم أيضًا بالحب الحقيقى الذى يُكنه الفتى المسلم لها والصراحة التى أظهرها وهو يحكى قصته دون أن يضطرب وهو فى حضرة الأمير، وقال الفرسان إن التوزانى لا يستحق الموت لأنه تصرف كفارس وجندى شجاع وانتقم لموت سيدة فى غاية الجمال. وقد أكدَّ كل منهم أنه كان سيفعل مثلما فعل التوزانى لو كان فى مكانه، وأن

الجندى الذى قتل كان يستحق القتل على يد التوزانى لأنه قتل مليحة الجميلة، ولهذا فهم يرون أن الموريسكى قد قام بواجبه ولا يستحق على هذا أى عقاب؛ بل هو جدير بالاحترام.

عندما رأى السيد خوان أن كل هؤلاء القادة ورؤساء الكتائب قد تباروا فى الثناء على التوزانى، وأن رأيه الشخصى يتفق مع كل ما قالوه عن حقه فى الدخول إلى غاليرا بعد يومين من اقتحامها، وأنه قد انتقم لموت سيدته؛ عفا عنه على الفور، ولكنه أعلن أمام الجميع أنه قد أخبر مسلمى تيخولا بكلمة السر ليلة هروبهم، وقال له أمام هؤلاء الفرسان إن هذا فقط كفيل بأن أقطع جسدك إلى أربعة أجزاء، ولكن التوزانى أجابه، دون أى خوف وبكل هدوء قائلاً: "لا أنكر هذا، يا سيدى الأمير، إننى أستحق الموت على فعلتى هذه، ولكن هذا فى حالة الحكم على ما فعلته دون النظر للأسباب التى جعلتنى أفعل هذا، والهدف من ورائه، ولو أمعنتم النظر لوجدتم أن إعطائى كلمة السر لمسلمى تيخولا كان لصالح سموكم وليس ضده، لأنه لم يكن أحد يستطيع أن يقتحم البلدة إلا بعد مائة يوم أو مائتى يوم من الحصار لأن البلدة كانت تنتظر المدد القادم من ابن عبو الذى يسير خلفه ثلاثون ألف جندى، والذى يعلم سموكم أن لقاءه لن يكون بالأمر الهين. إننى أعلم أن قوتكم عظيمة، ولكن خبرتى القليلة وعلمى المتواضع بشئون الحرب، جعلنى أسعى لإخراج مسلمى تيخولا من الحصن الذى يضعه ابن عبو نصب عينيه هو ومنْ معه من جنود كحل له، حتى يأتيه المدد من إفريقيا، والذى وصل بالفعل فى اليوم التالى إلى كاستيل دى فيرو ولم تستطع السفن أن ترسو على الشاطئ لأن جيش دوق سيسا كان يقذف بمدافعه أراضى الشاطئ. آخذين فى الاعتبار كل هذه الظروف والملابسات، أستطيع أن أوضح أنه، على الرغم من سوء تصرفى لأننى لم أطلع سموكم على ما نويت القيام به مسبقًا كما يحتم الواجب، إلا أننى قد تفاديت خطرًا جسيمًا كان سيلحق بالمسيحيين وعملت لصالحهم عند إخراجى مسلمى تيخولا من بلدتهم. إننى حقا أعطيتهم كلمة السر، ولكننى قمت بخداعهم حتى يتركوا مدينتهم الحصينة ويهربوا فى تلك الليلة المظلمة. وعندما شعرت بأن البلدة أصبحت خالية من سكانها هتفت بأعلى صوتى وأمرت الجنود بحمل السلاح، عندما علمت أنه فى الجانب الآخر من الجيش قد شعروا بهروب المسلمين. وقد تحرك كل الجيش على الرغم من الظلام الحالك، وكان أول منْ اقتحم المدينة جنود كتيبتى وزملائى وعلى رأسهم السيد لوبى دى فيغيروا، وكنت أنا معهم، وكنت أنا أول منْ أشعل النار فى المنازل، وكنت أول من أضرم النار فى الشوارع حتى يرى المسيحيون ما يفعلون ويستطيعون التعرف على المسلمين، وقد هرب هؤلاء المسلمين ونساؤهم، وتركوا بعض آثارهم بين يديك

القويتين، وهناك لقى عمدة تيخولا حتفه، وإذا كان ألفان من السكان قد نجوا بحياتهم فقد بقي لسموك ما هو أهم، ألا وهو الحصن، الذى كما قلت، كان يمثل للمسلمين أملا للنجاة. ولتعلم، يا سيدى، أنه فى مقابل منْ رحلوا بسببى من هذه البلدة، سوف يأتى خلال ثلاثة أيام من الآن كل جنود ابن عبو لتسليم أنفسهم لسموك، وقد علمت هذا من المالح الذى جاء بالأمس لسموك، وكان هنا بين أفراد جيشك ولم يتعرف عليه أحد سواى، وعندما سألته ما الذى جاء ببويرتو كاريرو إلى هنا، أجابنى قائلاً بأنه جاء لاستكشاف أمر الجيش. وقد أصابه الرعب لرؤية هذا الجيش الجرار وقال إن ابن عبو سوف يأتى ليلقى سلاحه أمامكم ويعمل على أن تعود المملكة لطاعتكم. وقد بكى هذا القائد الشجاع سوء حظه وندم على ما فعله مع سيده الملك، وقد بكيت معه تعاستى وموت أخته الحبيبة، سيدتى. هذه هى الحقيقة، يا سيدى الأمير، لو كنت تريد قتلى فأسرع به ولا تؤجله لأن فى ذلك امتداد لشعورى بالألم واعلم أننى سوف أتخلص من ألمى عندما تأمرون بقتلى". هنا لم يستطع التوزانى أن يخفى مشاعره وأوضحت عيناه عن كل ما يشعر به ويعانى. ونظر إليه السيد لويى نظرة تقدير كجندى شجاع، وهتف بحياته مرتين أو ثلاث مرات ثم قال له: "لقد أوضح الجندى حقيقة موقفه ولا يوجد سبب لقتله، إننى أريده فى فرقتى وأن يستمر متابعًا لرايتى. فلتأمر سموكم بمنحه حريته وبإعطائه سلاحه، فلو كنت مكانه وقتل أحدهم سيدتى ما كنت اكتفيت بقتله فقط بل بقتله هو وكل أفراد عائلته". وعندما رأى الأمير موقف السيد لويى وكل الحاضرين، أمر بإطلاق سراح التوزانى وإعطائه سلاحه. حينئذٍ قال له السيد لويى: "أيها الصديق، حارب فى صفوف فرقتى، لأنه يشرفنى أن يكون فيها جنود مثلك. ولكى تستمر معى سوف احتفظ لك بصورة سيدتك لأنها بين يدى لن ينالها مكروه، وسوف أضعها فى إطار حتى لا تتلف"، وقد أجابه التوزانى قائلاً: "إننى اعلم ذلك جيداً يا سيدى، وهكذا سأضع بين يديك سبب سعادتى وشقائى، ومن الآن فصاعداً سوف أقوم بخدمتك كجندى مخلص، وإن كنت أخشى أن يدركنى الموت ولا أسعد برؤية صورة سيدتى". هنا، قدر السيد لويى، كرجل يعلم تمام العلم معنى الحب، أن عدم وجود صورة الحبيبة مع الجندى يمكن أن يزيد من شوقه وحزنه بحيث يصل بعدها إلى خيبة الأمل والإحباط وهذا يؤدى بدوره إلى الموت المفاجئ، فأمر بالنداء عليه وأعطاه صورة الحبيبة وهو يقول: "إننى أعلم أهمية هذه الأشياء، خذ صورتك واحتفظ بها حتى تسرى عن نفسك، وكن دائمًا من أفراد فرقتى وبين جنودى واعلم أن لديك صديقًا قريبًا منك، والآن اخرج وقم بالحراسة، حتى أخرج أنا". وقد أمر السيد خوان بإعطاء القرطين إلى التوزانى الذى خرج من مسكن الأمير بعد أن استحق إعجاب الجميع به لنبل تصرفه ورجاحة عقله. أما الموريسكى

الآخر الذى باع التوزانى فقد أصابه الرعب من إمكانية انتقام التوزانى منه فخرج فى نفس تلك الليلة من أنداراكس وذهب إلى بالور حيث يقيم ابن عبو.

منذ ذلك الوقت حمل التوزانى اسم فيرناندو دى فيغيروا، وكان يسير دائمًا مع جيش السيد لوبى، وقد شارك فى كل المعارك التى شارك فيها قائده ولم يتركه حتى مات فى مونثون (Monzón) . حينئذٍ عاد إلى بيانويبا دى الكارديتى (Villanueva de Alcardete)، حيث كان يقيم موريسكيو بيليث الروبيو (Vélez el Rubio) لأن أبناء إخوته كانوا يعيشون هناك، وقد سعيت أنا شخصيا لرؤيته وذهبت إليه فى مدريد والتقيته من أجل كتاب قمت بتأليفه[٤] ولأننى كنت على علم بقصة التوزانى من خلال بعض الموريسكيين؛ فقد اهتممت بالبحث عنه والحديث معه، وقد حكى لى هو شخصيا هذه القصة التى رويتها. وقد رأيت صورة الجميلة مليحة التى وضعها فى إطار، وقد بدت لى كأجمل نساء الدنيا؛ ويحيط بالصورة كلمات عربية تعنى بالإسبانية " أجمل نساء العالم فى عينى". ولنعد الآن إلى قصتنا كى نضع لها النهاية، فابن عبو ينتظرنا، ولديه ألف فكرة ويملؤه الرعب، لذا يفكر جديا فى تسليم سلاحه للسيد خوان، ولكن قبل كل هذا لنقرأ هذه القصيدة التى تحكى الأحداث السابقة:

" قصيدة تحكى قصة الاستيلاء على قلعة تيخولا"

قام الأمير وجيشه

بحصار مدينة تيخولا

وحصنها المنيع:

أحاط به ثلاثة جيوش

من جهة السفح ومن جهة الجبل

ثم نصب السيد لوبى مدافعه

وقام بحفر خنادق

---

(٤) تُرى ما هو ذلك الكتاب؟ . (المراجع).

وضع السيد بدرو باديا

جيشاً قويا

فى منطقة ترامونتانا

وهاجم السيد أنطونيو مورينو

مدينة تيخولا الجديدة

حيث كان مقيماً السيد خوان

ومعه جيشه المغوار

وبين فريق وآخر

بدأت تظهر علامات النصر

وأخذوا يجهزون الخنادق

ويضعون المنصات

وسريعاً أقاموا اثنى عشر مدفعاً

كى يدكوا الأرض

إلى جانب مدفعين آخرين

تم تركيبهما فى سفح جبل

ولكن عند تركيب هذين المدفعين

دار اشتباك رهيب

لأن المسلمين أرادوا تعطيل المهمة

بينما أصرَّ جنودنا على القيام بها

وكان هؤلاء الجنود من ثامورا

لذا فهم شجعان ومغاوير

ولكن لأن المسلمين كانوا كثرة

فقد بدأ جنودنا فى التراجع

وقد جاء قائد لنجدتهم

وكان أيضًا ثامورى

وكان يُدعى فرنشيسكو غالتيرو

وقد شارك فى الهجوم

وأبلى بلاءً حسنًا

حتى تم تركيب المدفعية

على الرغم من مقاومة المسلمين

الذين حاولوا الدفاع عن الأرض

وقامت المدافع تقذف البلدة

وكانت القذائف تنهال على الصخور

وعلى الأبراج والسور

ولكن لم يكن لها تأثير كبير

لأن المدينة كانت محاطة بالصخور

ومبنية بأحجار وإسمنت قوى

ومرَّ ثلاثون يومًا

واتفق المسلمون على أمر

وهو أن يهربوا فى ليلة

باردة ومظلمة

وقد جاءت تلك الليلة

وكانت ممطرة ومظلمة

حيث امتد الظلام الحالك

وقد عرف الرجال بكلمة السر

فقد أعطاها لهم التوزانى

ولهذا فقد خرج المسلمون

وساروا نحو الجبال

لكنهم لم يواصلوا المسير

عندما انطلقت صفارة الإنذار

وقد ارتبك كل الجيش

وتوجه البعض إلى السور

وبكل قوة استطاعوا

أن يحتلوا أرض البلدة

ودخل جنود لوركا أولا

حيث اجتازوا السور

ثم أشعلوا النار فى البيوت

وأضرموا النيران فى الشوارع

حتى يستطيع المسيحيون أن يقاتلوا

ويرون من يقاتلون

وكانت الساعة تدق الثانية مساءً

عندما وصلت الجيوش المسيحية

إلى أعلى منطقة فى القصر

وأخذ الجنود يهتفون

" إسبانيا ، إسبانيا ، إسبانيا !"

وقد خضعت كل تيخولا

الجديدة والقديمة

للملك فيليبى

وقد وقع هذا الهجوم

ليلة "الخميس المقدس"

وقد ذهب الجيش إلى أنداراكس

حيث يقيم دوق سيسا

الذى استقبل الجيش والأمير

استقبالاً حسناً

وذهب الدوق إلى غرناطة

وبقى فى أنداراكس الأمير أوستريا

" خاتمة "

الفصل الخامس والعشرون

الذى يحكى كيف طلب القائد الحبقى السلام من صاحب السمو، وكيف انتهت الحرب.

لم يتبق لعبد الله بن عبو سوى أمل ضئيل بعد أن رأى الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ، ورجاله يشعرون باليأس ويتقاعسون عن حمل السلاح، بخاصة بعدما وصلهم خبر سقوط قلعة تيخولا القوية، التى كان الجميع يضعون أملهم فيها، ورأى أيضًا أن النجدة التى أرسلتها الجزائر عادت إليها، وأن سلطان الأتراك لن يهب لنجدته، وكذلك ملك المغرب الذى بعث إليه يخبره بأن أخا ملك إسبانيا، وصل الآن إلى أنداراكس وقد اجتمع مع جيش دوق سيسا وأخبرهم أيضًا أن قواته وقادة جيشه لا يجرءون على السير فى الطرقات حتى لا يسمعون بكاء الأطفال والنساء، وأنهم أيضًا لا يجرأون على البقاء فى القرى أو المدن بل يقيمون فى أعالى الجبال، كالحيوانات المتوحشة الضارية، يعانون من الشمس والجليد، ويعانون بشكل خاص من الجوع، ولديهم أمل ضعيف فى إيجاد حل لكل هذا، وقد بدأ يفقد حماسه، وكان الدخول فى الحرب يجعله مسئولاً هو وحده عن أرواح كل منْ معه من الرجال؛ لهذا فقد قرر فى أحد الأيام أن يعقد مجلسًا للحرب، وبعد أن اجتمع كل القادة المتواجدين فى جيشه توجه إليهم وكله حزن وأسى وتحدث إليهم بهذه الطريقة.

"حديث الملك الصغير ابن عبو مع قادة جيشه"

" أيها القادة الشجعان، الذين واجهوا خطر الحرب بكل شجاعة، وقتلوا بأيديهم الكثيرين من أعدائنا: لقد فعلنا من جانبنا كل ما يجب علينا فعله، وقد أوشكت الحرب على نهايتها، ولا نستطيع أن نستمر آملين فى إحراز النصر، ولنأخذ فى اعتبارنا أن المدد الذى أرسله ملك الجزائر قد عاد إليه ولم يستطع أن يرسو على أرض إسبانيا، وأن الأتراك لن يأتوا ولا يعرفون على أى حال تسير بنا أمور الحرب، أما ملك فاس والمغرب فلم يلتفت لرسائلنا، وهكذا فى عدم

وجود المدد لن نستطيع أن نحقق ما نريده. لقد أحاطت بنا قوات الأعداء واحتلت القرى المهمة وتركت بها حاميات قوية وكافية. لقد نفدت مئونتنا؛ فقد دمروا زرعنا وقضوا على ماشيتنا؛ فالجوع الذى نعانى منه أكبر من معاناتنا من السلاح والحرب. والأطفال والنساء بيننا هم أشد معاناة، وهم يفضلون الموت على الوقوع فى الأسر لدى الأعداء. ولهذا، أيها الأصدقاء والزملاء الأعزاء، إننى أرى من جانبى أن نسلم أسلحتنا إلى شقيق الملك فيليبى، الذى أعطاه الله روحًا شجاعة، وننهى هذا البكاء المر، وننهى هذه التعاسة والموت والتنهدات الأليمة. لقد أخذ أمير أوستريا أعلى مكان فى دائرة الحظ؛ ولست مجبرًا على تسليم نفسى للجيش المسيحى لأننى أقسمت "لمحمد" وعاهدته على الحرب، لذا سوف أرحل إلى إفريقيا مع الأتراك حيث أعيش ما بقى لى من عمر. أما منْ سيبقون هنا فعليهم أن يبحثوا عن سلامتهم التى يتمنونها وعن السلام الذى يرغبون فيه، ولهذا فليذهب القائد الحبقى، وهو رجل يستطيع التفاهم مع شقيق الملك حول أمر له أهمية عظيمة، وليكن أول ما يتم الاتفاق عليه هو عدم تعرض الأتراك للخطر بل إعطائهم حرية الانتقال فى سلام إلى الساحل الليبى، وأن يعيش أهالى غرناطة فى أراضيهم، دون المساس بأموالهم وضياعهم، فإذا فعل ذلك أخو الملك فيليبى سيحل السلام ويكون أكيداً. هذا هو رأيى الشخصى، وهو آخر أمل لنا، وليقل الآن كل واحد ما يشعر به تجاه ما أرى؛ فإذا كان الرأى صائبًا فلنأخذ به، وإلا فلنستمر فى الحرب، فإذا متنا نكون قد وفينا بواجبنا".

هكذا أنهى ابن عبو حديثه، وقد رأى جميع القادة سواء الأتراك أو الموريسكيين الغرناطيين أن طلب السلام هو القرار الصائب بالنسبة لموقفهم لأنه مع السلام سوف تتوقف جميع معاناتهم وتعاستهم، وأن يبحثوا عن نهاية طيبة لابن عبو حتى لا يذهب إلى إفريقيا إلى أراضٍ غريبة عنه، ولهذا فقد أعطوا للحبقى رسالة، موقعة وتحمل خاتم ابن عبو، حيث تم الاتفاق على ما سبق وقلناه فى مجلس الحرب هذا. وبعد انعقاد هذا المجلس، انتشر خبر طلب السلام بين فرق الجيش المختلفة، التى استقبلت الخبر بالسرور، بخاصة النساء اللاتى بكين من فرط الفرحة، وتمنين أن يتم السلام ويستقر بين ربوع الأرض، وأن ينتهى سريعا هذا الوقت العصيب الذى قضوه فى حرب استمرت قرابة السنتين أو الثلاث سنوات. وكان الغرناطيون يشعرون بنفس هذا الإحساس وبفرحة صادقة ورغبة أكيدة فى رؤية أراضيهم والعودة إلى قراهم والراحة فى مساكنهم التى تعودوا عليها. وهكذا ألقى بعضهم السلاح على الأرض بينما بكى البعض الآخر من شدة الفرحة، ورفع آخرون أيديهم إلى السماء شكرًا لله

على السلام. وهكذا تمنوا أن يغادر الحبقى أراضيهم سريعًا ويذهب إلى جيش المسيحيين لبحث سُبل السلام. ولم يكن الحبقى أقل منهم سعادة ولا رغبة فى السلام وفى تحقيقه على يديه، وهكذا رحل متوجهًا إلى أنداراكس ومعه اثنان فقط من أصدقائه من الموريسكيين، حاملاً راية بيضاء على عصا رمح كإشارة للسلام، وظل فى طريقه لم يتوقف حتى وصل إلى أنداراكس، وقبل أن يصل إليها كان جيش السيد خوان قد رآه وأرسل إنذارًا إلى صاحب السمو بوصول ثلاثة موريسكيين طالبين السلام ورافعين راية السلام البيضاء. وقد أمر صاحب السمو بالسماح بدخولهم إلى مقره بعد وصولهم، وهذا ما حدث بالفعل؛ فعندما وصل الحبقى وهو على صهوة جواده، طلب مقابلة السيد خوان وأن يقولوا له إن القادم هو الحبقى الذى يُقبل أياديكم ويريد أن يتناقش مع سموكم حول أمور مهمة. وقد أخبر صاحب السمو بهذا فأمر بدخول الحبقى إليه. وهكذا ترجَّل الحبقى عن جواده وتركه لصاحبه وذهب إلى مقر السيد خوان بصحبة بعض القادة والجنود الذين جاءوا لاستقباله بأمر من صاحب السمو. وعندما وصل الحبقى جثا على ركبتيه أمام السيد خوان محاولاً تقبيل قدميه، لكن السيد خوان لم يسمح له بذلك؛ بل أخذه بيديه ونهض به من الأرض وقال له مرحبًا بك، وسأله ماذا جاء بك إلى هنا؟. ساعتها تحدث الحبقى الحصيف دون أن يتغير لون وجهه، وبكل هدوء، قال كلمات تثير الإعجاب لطلاقتها ووقعها الطيب:

" حديث الحبقى للسيد خوان "

" الشرف والمجد لهذه الشجاعة الإسبانية

لابن الملك كارلوس الخامس الشهير

الذى منحته السماء أمجادًا عدة

وانتصارات خالدة

الذى أعطاه الحظ دائمًا وجهه السعيد

وأشارت إليه دائرة الحظ المتقلبة

ووضعه الله فى أعلى المناصب

إننى أدعى الحبقى

إذا كنت فى يوم من الأيام

سمعت اسمى يتردد

فى المعارك والحروب

فذلك لأن القدر قد وضعنى

فى قائمة سيئة السمعة

غبية وغير عاقلة

وجعلنى أتبع نهجًا ظالمًا

وأكون تابعًا لجيوش المتهمين

وإننى نادم على كل ما فعلت

وبكل ثبات عازم على هدفى

وهكذا أقف احترامًا أمام سموكم

لقد أحضرت لكم من ابن عبو هذه الرسالة

فإذا قرأتها عرفت سبب مجيئى إليكم

وسوف نتفق على ما جاء فيها

عبد الله – فى البداية – يقبل أيديكم وأقدامكم

ويرجو ألا ترفض رحمتكم

العفو عن مملكة غرناطة

التى بكل تواضع وكل ندم

تطلب رحمتكم وتريد أن تنهى الحرب

وتستسلم بكل إرادتها لعظمتكم

إن السلاح يستسلم وكذلك الأهالى

ويطلبون العفو من سموكم

إنهم يطلبون العفو والدموع فى أعينهم

يطلبون بكل تواضع فالنساء والأطفال

ينادونك بدموعهم وأناتهم

ويقولون لك إنهم يفضلون الموت

بين أيديكم على العيش فى الصحراء

حيث الجوع والعطش والموت

وهكذا أيها الرجل العظيم والمحارب الشجاع

أوقف الحرب .. أوقف الدمار

فلتعد الرايات إلى الصارى

ولتتوقف الطبول عن الدق

والأبواق عن العزف

وليتوقف البارود عن التدمير

ولتتوقف الوديان عن ترديد

صدى طلقات النيران من البنادق

وليختف دخان المدفعية

الذى كان يتصاعد إلى السماء وكأنه سحابة

ولتتوقف الأسلحة المسنونة

عن إراقة الدماء الحمراء

وليغلق معبد "خانو" أبوابه

وليتوقف الحديث عن الحرب والانشقاق

فلا يتواجد سوى السلام والخير والسعادة

وليُمهد الطريق أمام الخير أمام العدل

الرحمة الرحمة الرحمة أيها الأمير

فلتكن مثل والدك

القيصر الذى كان لديه من الرحمة الكثير

فكان مع المهزومين رحيمًا

لم يكن كإله الحرب يا سيدى

يعيش فيليبى ! تعيش عظمته !

نحن رعاياك الآن كما كنا من قبل

ولتعد إلينا أملاكنا كما كانت من قبل

ولنعد إلى قرانا كما كنا من قبل

سوف ندفع الضرائب كما كنا من قبل

وليغادر الجيش التركى إسبانيا

ويذهب إلى ليبيا

ولتأذن له حتى لا يقع عليه أذى

وليذهب إلى الجزائر منً يخبرهم

أن ابن عبو أصبح ينعم بطاعتكم

على ضوء هذه الأمور أطلب

وأرجو من عظمتكم أن تعاملنا

بالرحمة التى نرجوها منكم

من ابن الملك القيصر

ولننس كل الشرور التى حدثت

ولننس كل الخيانات التى اقتُرفت

ولتأخذ فى اعتبارك يا سيدى

أن الله لم يشأ أن يموت المذنب

بل أن يعيش حتى يندم على أخطائه

وهو مستعد أن يصلح ما ارتكبه من ذنوب

أنا يا سيدى الأمير لن أقول أكثر مما قلت

لقد تحدثت عن الأسباب التى دفعتنى للحضور

ولن أذهب من هنا مطرودًا أو مغضوبًا علىَّ

لأن من عادة عظمتكم أن تعفو

عن البائس الذى يطلب العفو"

كانت هذه هى الكلمات التى قالها القائد الشجاع الحبقى أمام صاحب السمو وأمام القادة، الذين حاز إعجابهم جميعًا لفصاحة وحلاوة تصرفه، وقد أعجب به الأمير كثيرًا ربما

أكثر من أصحابه، وقد سعد كثيراً عندما علم أن مسلمي غرناطة يريدون تسليم سلاحهم، وهو أمر يَعْلم أن صاحب الجلالة سيسعد به كثيراً، ولهذا أمره بتمويل الحرب ولكن إذا طلب المسلمون السلام فلا بد أن يقابلهم السيد خوان بالترحاب، وهكذا أجاب على كلمات الحبقى بكلمات أكثر منها رقة قائلاً:

" حديث السيد خوان إلى الحبقى "

"لقد أسعدنى كثيراً أن أتعرف عليك عن قرب، أيها القائد الشجاع الحبقى، على الرغم من أن شهرتك وتاريخك الطويل أعلم عنهما الكثير، وأعلم أيضاً أنك لم تكن مصراً على الثورة ولم تكن مؤيداً لها، وأنك قد عملت من جانبك على إنهاء هذه الثورة فى عهدى الملكين سيئ السمعة، وأعلم أنه إذا كان ابن عبو سيستسلم الآن، فإن ذلك بتأثير منك ومن مساعيك، وليكن ما يكون، أقول لك إن السلام سيكون مؤكداً بكلمة منى، وبإذن من سيدى صاحب الجلالة، وأؤكد لك أن الموريسكيين سيتلقون ترحيباً من جانبنا، وسيُستقبلون بكل البشاشة التى أمر الله بها والتى تضمنها عظمة صاحب الجلالة الملك، وسوف تعود لهم أملاكهم وأموالهم وحليهم وملابسهم التى تم التحفظ عليها، دون أن ينزعها عنهم أى شخص أو يطلب منهم أى إنسان، ولن ينالهم منا أى أذى، وإذا كان الأتراك يريدون الرحيل والسفر من كاستيل دى فيرو فلن يمنعهم أحد من السفر أو يعكر صفو رحيلهم أحد، وكان من الممكن أن يحدث هذا منذ أيام طويلة، وكان من الممكن تفادى الشرور والأذى اللذين لحقا بالجانبين، وهكذا فقد أتيت أيها القائد الصالح للتفاوض حول أسلم الطرق؛ فلا تضيع أيًا منها، إننى أعلم جيداً حماسك وغيرتك وقد تعهدتَ أن تكون فى خدمة صاحب الجلالة، الذى أقسم لك بحياته أن أجعله يمنحك وسام رهبانية سانتياغو، وعندما تُمنح هذا الوسام تستطيع أن تعيش كفارس شريف أنت وكل ذريتك وأبنائك وأحفادك مع كل الامتيازات الملكية لنبل عائلتك وفروسيتك، والتى ستظل محفوظة لك ولأبنائك وأحفادك إلى الأبد، وكدليل منى على ذلك، تقبل منى هذه القلادة وهذا السيف الذى أحمله فى وسطى حتى تُعد من الآن فصاعداً فارساً ذا قيمة كبيرة أكبر من التى أنت عليها الآن، مع إننى أعلم تماماً أن قيمتك كبيرة".

بعد أن قال السيد خوان هذه الكلمات، نزع عن عنقه قلادة ذهبية جميلة وأعطاها للحبقى وقدَّم إليه معها سيفه الذى كان يحمله فى وسطه والذى كان يساوى الكثير؛ فانحنى الحبقى على ركبتيه يريد تقبيل قدمى صاحب السمو، ولكن صاحب السمو لم يقبل ولم يسمح له بذلك،

ولكن الحبقى قبَّل يديه بالقوة. بعد الاتفاق على ذلك رحل الحبقى من أنداراكس متوجهًا إلى بالور حيث يقيم ابن عبو، وكان معه صاحباه اللذان تعجبا كثيراً لما قدمه له صاحب السمو من عطايا وما قام به من ترحيب هو والحاضرون بالحبقى مما أثار أحقادهم للنجاح الذى أصابه الحبقى فى مفاوضاته مع الأمير.

عند وصول الحبقى إلى الجيش قام كل أفراده باستقباله ومعهم أصدقاء كثيرون، وقد أسعدهم كثيراً وصوله وهو بكامل هيئته بخاصة وهو يحمل القلادة الذهبية والسيف المذهَّب، وعندما سألوه كيف دارت المناقشة حكى لهم كل ما حدث، وقد سعد كل الجيش بالأخبار الجديدة التى حملها الحبقى وشكروا الله كثيراً على ما آلت إليه الأحداث ثم مَثَل الحبقى أمام ابن عبو وحكى له كل ما حدث بينه وبين السيد خوان.

بعدما أخبر القائد الحبقى ابن عبو ما جرى بينه وبين صاحب السمو، ذهب إلى مسكنه حيث جاء لزيارته الكثير من الأصدقاء، الذين نصحهم الحبقى بأن يفعلوا كل شيء من أجل تحقيق السلام. فى نفس تلك الليلة ذهب الرجلان الموريسكيان اللذان صحبا الحبقى فى رحلته للحديث مع ابن عبو، فقالا له والحقد والحسد يملأن نفسيهما:

"انظر، أيها الملك عبد الله، ماذا فعل الرجل الذى وضعت ثقتك به، لقد بعثت الحبقى كى يسعى إلى تحقيق الخير للجميع ويضمن سلامتك أنت، ولكنه عمل من أجل مصالحه الشخصية وليس من أجل مصلحتك أنت - فهل ترضى، أيها الملك الشهير، أن ينتصر الحبقى ويحقق ما يريده على حسابك أنت؟، وأن يحمل هو وحده المجد وشرف الصلّح وأن يتم منحه هو وحده كل العطايا؟. إذا كنت تريد هذا فاصنع ما تريد، وسوف نتبعك لأن من واجبنا أن نكون مخلصين لك، ولكن لا تقل يوماً إننا لم نحذرك فى الوقت المناسب الذى يمكنك فيه إصلاح الأمر".

هذا ما قاله هذان الخائنان لابن عبو وهما ممتلآن حقداً وحسداً ضد الحبقى. ولأن ابن عبو سار وراءهم أعمى العينين؛ فقد اعتقد فى صدق ما قالاه من أكاذيب واختلاق، وهكذا شعر بغضب شديد تجاه الحبقى وصمم على قتله، ولكى يقوم بهذا دون جلبة أو فضائح أمر القادة والجنود من أصدقاء الحبقى بالخروج من بالور لحراسة بعض الأماكن التى تثير القلق فى أثناء بحث السلام. وقد رحل بالفعل هؤلاء القادة ثم أعلن ابن عبو رغبته فى الذهاب إلى هناك، وهكذا رحل إلى هناك ومعه ألف رجل وفى أحد الأيام أمر بحضور الحبقى الطيب، وعندما حضر هذا الأخير، بادره ابن عبو قائلاً:

"حديث ابن عبو الذى اتهم فيه الحبقى الطيب "

"قل لى، أيها الدنيء الحبقي، هل هذا هو إخلاصك لى؟ أبهذه الطريقة ترد على العطايا وكل خير فعلته لك بعد أن جعلتك القائد الأعلى العام لكل الجيش؟ هل هذه هى الثقة التى وضعتها فيك؛ فقد أعطيتك خطابى وكل ثقتى كى تتفاوض مع شقيق ملك إسبانيا باسمى ونيابة عنى، ولكنك فاوضت من أجل مصلحتك أنت، وأخذت لنفسك كل مجد وشرف التصالح وتسليم السلاح وإعادة بناء المملكة، وأعطيت للقائد العام المسيحى وعداً بأن تحملنى إليه أما قتيلاً أو سجيناً هل تعتقد أن نبأ خيانتك لن يصل إليَّ؟ لقد أتيت سعيداً وأنت تحمل قلادتك والسيف المذهب، ولكن لتعلم أنه لن ترى اليوم الذى يمكن أن تفعل فيه ذلك، وأقسم بمحمد أننى سأضعك فى مشنقة على عصا حتى يكون موتك الدنيء عبرة للآخرين حتى لا يجرؤ أحد الخائنين من أمثالك على فعل ما فعله أنت معى".

علت الدهشة وجه الحبقي الطيب مما سمع من حديث ابن عبو، ولأنه كان بريئًا من كل ما يقوله ويتهمه به، لم يظهر علي وجهه أى اضطراب، لأنه رجل شجا ع، وردً على ابن عبو قائلاً:

" رد القائد الحبقى على اتهامات ابن عبو "

" لا أدرى ما السبب وراء اتهامك، أيها الملك، هكذا دون أى سبب تصفنى بالخائن، وأنا لم أكن قط خائنًا لك أو لأى شخص غيرك فى العالم، لأنه ليس من سماتى أن أكون خائنًا، لقد بعثتنى إلى السيد خوان وإذا كان هو قد منحنى برضاه هذه القلادة الذهبية وهذا السيف؛ فليس بسبب هذا يمكن اتهامى بالخيانة، وليس دون أدنى سبب تغضب منى وأنت تعلم إخلاصى فى خدمتك، أما الخائنون لك فهم من أوقعوا بينك وبينى حسداً منهم لى، أنت تعلم هذا جيداً يا عبد الله، تعلم أن الجيش كله كان ثائراً عليك وكان هناك الكثير من المؤامرات تُحاك ضدك لقتلك، وقد استطعت أن أطفئ نيران الثورة بين أفراد الجيش وأن أتفادى موتك. إذا كان هذا حقيقيا، وأنت تعلمه تمام العلم ، فلماذا تتهمنى بالخيانة؟ إننى لا أدين إليك بشيء، يا ابن عبو، فافعل فيَّ ما تريد، فإذا أمرت بقتلى، فلن يخلو الجيش ممنْ يقتلك، وإذا خلا الجيش ممنْ يقتلك، فإننى على يقين بأن الله سوف ينتقم منك بحيث لو عشت لذقت مرارة الموت آلاف المرات، لأن الله وحده يعلم أننى عشت دائمًا مخلصًا وعادلاً، ويعلم

بأنني قد اتبعت راية الموريسكيين دون رغبة لأننى مسيحى حقيقى[١]، وتسرى فى عروقى دماء المسيح، وإذا كنت أحاول تحقيق السلام فذلك حتى أنقذ أرواح المتمردين. ليس لدىَّ ما أقوله لك سوى افعل ما يحلو لك، إننى مستعد أن أموت حبا فى الله".

هكذا أنهى الحبقى حديثه، الذى كان له وقع سيئ على نفس ابن عبو، وهكذا، وبصوت يمتلئ بالغضب أمر بإلقاء القبض على الحبقى ثم إعدامه فيما بعد. وعندما رأى الحبقى نفسه وحيداً، دون أصدقاء، حيث لم يحضر إليه أحد من أصدقائه، توسل إلى القادمين من أجل تنفيذ حكم الإعدام بأن يتركوه ولا ينفذوا هذا الحكم الظالم، ثم تضرع إلى الله ورفع بصره إلى السماء وبعينين تملؤهما الدموع قال هذا الدعاء:

" تضرع الحبقى إلى الله "

أيها المسيح الرب

يا منْ قُتلت فى أحد السفوح من أجلى

احمنى يا رب

فمن أجل دينك المقدس أموت

لا تنظر إلى ذنوبى

أيها المقدس الأعظم

التى أرجو أن يغفرها لى

حبى الخالص والكبير لك

(١) لا يتخلى بيريث دى إيتا مطلقًا عن النهج الدعائى: كل الموريسكيين الطيبين ينتهى بهم المطاف إلى اتباع المسيحية. (المراجع).

لقد أذنبت فى حقك كثيراً

وقد سامحتنى أنت

فإذا لم تتخلى عنى وتحمينى

أكون بالفعل قد تعرفت على عظمتك

إن ذنوبى عظيمة

وأنا أتذكرها جيداً

ولكن رحمتك يا سيدى

ستغفرها لى

لقد أذنبت فى حقك

وأعرف أنى كنت شريراً وخائنًا

ولكن لا تتركنى يا سيدى

ولا تؤاخذنى على سلوكى

عاملنى بطيبتك العظيمة

أيها السيد العظيم

لا تنظر إلى أخطائى الكبيرة

ولا إلى طباعى الشريرة

اقبل أيها السيد روحى

التى ستكون بين يديك

بينما سيسكن جسدى التراب

ويهدأ بين ديدان الأرض

حتى تأتى يا سيدى العظيم

وتحاكم الأحياء والأموات

سأبقى هنا فى تلك الصحارى

فى انتظار عفوك

أراد الحبقى الطيب أن يطلب النجدة من الرب، ولكن هؤلاء الخونة لم يعطوه الوقت الكافى، فهم خونة مثل ابن عبو يحقدون على مجده، وهكذا قتل القائد الشجاع مُعلقًا فى شجرة سنديان، مات كمسيحى كاثوليكى، بعد أن أظهر شجاعته كأحد جنود المسيح المخلصين، وبعد أن هتف بأم الرب كى تصاحبه هذه الرحلة المرهقة.

هكذا تم إعدام الحبقى دون أى ذنب. مات على جذع شجرة سنديان، وقام بإعدامه رجال الجبل الأشرار، الذين لا يأملون فى أى غفران لهم على كل ما ارتكبوه من شرور وآثام، وهكذا فوجئ رجال الحرب الملتفون حول ابن عبو بالموت المفاجئ للحبقى، وقد اعتبروا ما فعله ابن عبو جريمة فى حق القائد الشجاع، فثاروا عليه، حتى رأى هذا الخائن أن من المناسب له الهروب من أمام الجيش الثائر الغاضب، فهرب، وقد لحق به عدد قليل من الجنود التابعين له. وعندما علم الثائرون بما فعله الرجلان الموريسكيان من وقيعة أدت إلى مقتل الحبقى، قاموا بإعدامهما فى نفس شجرة السنديان دون أن يستطيعا الفرار. ثم قاموا بإنزال جسد الحبقى من الشجرة وقاموا بدفنه وسط شعور بالحزن والبكاء. بعد ذلك انتشر خبر الموت الظالم للقائد الشجاع الحبقى، وعندما علم بهذا الخبر القادة أصدقاء الحبقى الذين نفاهم ابن عبو خارج بالور، قام كل واحد منهم بالبحث بنفسه عن ابن عبو كى يقتله، ولكن هذا الخائن استطاع الاختباء بحيث لم يتمكن أحد من العثور عليه. وصل خبر مقتل الحبقى أيضًا إلى صاحب السمو، وقد حزن الأمير خوان حزنًا شديداً لهذا، وكذلك أفراد الجيش الملكى. أما حزن

الموريسكيين ونسائهم فلا يمكن أن يتخيله أحد؛ فقد فقدوا أملهم فى تحقيق السلام، وهكذا بكوا موت الحبقى بكاء حارا.

عندما رأى القائد المالح والقائد ابن عياش والدالى وأريندانى أن القائد الحبقى قد أرسى قواعد السلام والشروط اللازمة لتحقيقه، قرروا أن يذهبوا إلى أنداراكس للحديث مع صاحب السمو ويضعوا نهاية لعملية السلام التى كانت قد بدأت. وهكذا حملوا راياتهم وجيوشهم وذهبوا ليضعوا أيديهم فى أيدى السيد خوان، وقد تم الاتفاق على تسليم السلاح فى غرناطة وغواديكس وألمرية، وأن يعودوا جميعًا إلى مدنهم حتى صدور أوامر أخرى، وأن يرحل الأتراك من ميناء كاستيل دى فيرو. على هذا سافروا، وكانت ترافقهم حامية لم تتركهم إلا بعدما أبحرت سفنهم، على الرغم من أنه كان من الأفضل ذبحهم وليس رحيلهم. عندما رأى بقية القادة كيف تم تحقيق السلام، حضروا جميعًا إلى السيد خوان كى يسلموا أسلحتهم، وقد استقبلهم جميعًا بالترحاب وأجزل لهم العطاء. وقد عاد كل الأهالى إلى بيوتهم ليرتاحوا، وهم يشكرون الله على نعمه وأهمها السلام. فذهب البعض إلى ألمرية، وهناك أطلقوا الأسلحة وبعضهم ذهب إلى غرناطة، أما الركايمى وأبو نفيلى وأصحابهما فقد ذهبوا إلى غواديكس. وأخيرًا، استسلمت كل المملكة نحو وسلمت أسلحتها، فقط بقى ابن عبو ومعه نحو خمسمائة رجل من رجال الجبال على تمردهم، وقد خرج رواءهم بعض الرجال للبحث عنه لقتله أو القبض عليه. وفى النهاية، تم القبض عليه وقتل كل رجاله وحُمل إلى غرناطة سجينًا، وقد ألقوه من فوق حائط عال كى يلقى حتفه على الصخور التى سقط عليها بعد أن تحطم جسده إلى أشلاء، وهناك قاموا بقطع رأسه وحملوها إلى غرناطة، حيث وضعوها داخل قفص من الحديد وعلقوه على باب سوق القرية، وتعلو القفص لوحة مكتوب عليها:

" هذه رأس الخائن "

"الكلب ابن عبو

الذى بموته

وضعت نهاية للحرب".

وقد رحل الكثير من المسلمين إلى إفريقيا، وقد علم السيد خوان فى أنداراكس بأن السيد فيرناندو دى بالور الذى كان ملكًا قد مات مسيحيا، فأمر صاحب السمو بأن تجمع عظامه وتحمل إلى غواديكس ليتم دفنها، وكذلك فعل مع جثة الحبقى، الذى أمر بحمله إلى غواديكس، مسقط رأسه، حيث تم دفنه، وقد كتب فوق قبره هذه الأبيات:

" رثـــاء فـــوق قـــبر الحبقـــى "

هنا يرقد جسد

الحبقى الشجاع

الذى كان الخَونة يكرهونه

لشجاعته وشهرته العظيمة

إن روحه تنعم فى السماء

لأنه مات كمسيحى صالح

وقد كرَّمه الأمير خوان

بيديه فوق الأرض

حزنت غواديكس حزنًا شديدًا على موت الحبقى، لأنه كان محبوبًا من الجميع لصفاته الجميلة. وعندما رأى السيد خوان أنه قد أرسى قواعد السلام، وأن الموريسكيين قد استسلموا وسلموا أسلحتهم، ذهب إلى غواديكس وأخبر صاحب الجلالة بكل ما حدث. بعد ذلك أمر صاحب الجلالة بخروج الموريسكيين من أراضيهم ورحيلهم من قشتالة وإلى مانشا (Mancha) وإلى أماكن أخرى لا تدخل فى نطاق مملكة غرناطة: تم نشر هذا الأمر الملكى وبدأت مهمة انتزاع الغرناطيين من مملكتهم. ولا يستطيع أحد أن يصف مدى حزنهم وهم مجبرون على الخروج من أراضيهم، ولم يكن أهالى كارتاخينا أقل منهم حزنًا، حيث أمروا بمغادرة بلدهم بعد أن قاموا بتسليم أسلحتهم. يا للبكاء الحار فى كل غرناطة ساعة توديعهم

لبيوتهم!، فكم بكت النساء وهنَّ ينظرن إلى بيوتهن ويعانقن جدرانها ويقبلنها كثيراً ويتذكرن أيام السعادة الماضية، وأيام النفى المقبلة التى تنتظرهم ومستقبلهم الغامض!"، فكنَّ يبكين ويقلن: " آه، يا ربى!، آه يا أرضى!، أمن الممكن ألا نراكِ بعد الآن؟!". وقد قال الكثيرون هذه الكلمات التى قالها إنياس وهو يغادر طروادة: " آه، إن هؤلاء المحاربين الذين قتلوا تحت جدران بيوتهم أكثر حظا، مرة واثنتين وثلاث مرات لأنهم فى النهاية بقوا فى أراضيهم حتى ولو كانوا أمواتًا ". كان الموريسكيون يقولون هذا وهم يبكون حزنًا؛ فلو كانوا يعلمون أنهم وبعد كل هذا الكفاح سوف يخرجون من أراضيهم، لفضلوا الموت ألف مرة على تسليم السلاح والبحث عن السلام. وأخيراً، تم إخراج كل موريسكيى المملكة، وكان من الأفضل عدم إخراجهم من ديارهم بسبب كل ما فقده صاحب الجلالة، وكذلك الممالك. كانت هذه هى نهاية الحروب الغرناطية (بعد ألف عام من دخول العرب إسبانيا) فى زمن الملك الكاثوليكى السيد فيليبى الثانى، حفظه الله أعواماً مديدة. آمين.

كتبها ونقحها خينيس بيريث دى إيتا، من أبناء مورثيا، عام ١٥٩٧، من أجل الرب سيدنا، فى الثانى والعشرين من نوفمبر فى نفس العام.

وعن الفصل الماضى، نكتب هذه القصيدة:

"قصيدة تتحدث عن ابن عبو، وإرساله الحبقى لطلب السلام من السيد خوان، وقتل ابن عبو للحبقى"

كان ابن عبو

يشعر بالرعب من الموت

وهو يرى كيف تسير الحرب

ضد مصالحه

كان يرى قادته

يتقاعسون عن حمل السلاح

بينما يتوسل الأطفال والنساء

من أجل السلام

فى النهاية وافق على الاستسلام

وعلى إرسال منْ يتفاهم

مع السيد خوان كى يحقق السلام

الذى يرهبونه ويرغبون فيه

وأن تبقى الأملاك

فى أيدى مسلمى غرناطة

كما كانت فى الماضى

وأن يدفعوا عنها الضرائب

وأن يرحل الأتراك

ويعبروا البحر المالح

وقد أرسل الحبقى

للتفاوض حول السلام

فهو رجل حكيم

وفصيح الكلام

وقد رحل الحبقى

وذهب إلى أنداراكس

حيث يقيم صاحب السمو

وقد حضر أمامه

وأعلن شروط ابن عبو للسلام

وأعلن الأمير رضاه عن السلام

وأعطاه له بكل رضا

ومنح الحبقى لمجيئه

قلادة من الذهب

وسيف مذهب أيضًا

وقد عاد الحبقى إلى ابن عبو

بعد أن اتفق على السلام

لكن الخونة حقدوا عليه

وأساءوا معاملته

بعد أن أفهموا ابن عبو

بأنه قد خانه

ووعد السيد خوان

بتسليم ابن عبو سجينًا

وقد حاول أن يحصل وحده

على المجد والشرف

لتحقيقه السلام

وقد أمر ابن عبو غاضبًا

بإعدام الحبقى

وقد قاموا على الفور بذلك

وعلقوه في جذع شجرة

ومات الحبقى مسيحيا

وليغفر الله لروحه

وقد أحزن هذا السيد خوان

وكذلك حزن لموته كل الموريسكيين

فقاموا بالثورة على ابن عبو

وهرب ابن عبو إلى الجبال

بالقرب من سييرا نيبادا

وهناك بحث عن كهف

يسكن فيه هو ورفاقه

فقد تبقى قلة من رجال الجبال

وبعد ذلك قام القادة

والجنود الثائرين من كانتوريا

إلى ابن عياش وكذلك القائد المالح

وفرقته وكثير من الموريسكيين

بالذهاب إلى أنداراكس

وهناك اتفقوا على السلام

كما كان متفقًا عليه فيما قبل

وقد سافر الأمير إلى غواديكس

وأخبر الملك بما حدث

وأخبره عن السلام الذى تحقق

وأمر الملك فيما بعد

بأن يخرج من غرناطة

كل الموريسكيين نساءً ورجالاً

وأن يخرج أهالى البشرات

ويا للألم الرهيب

الذى شعر به المسلمون

من جراء ذلك الأمر !

فقد كانوا يفضلون الموت

على الرحيل من وطنهم الحبيب

ولكنهم فى النهاية تركوا وطنهم

وحُملوا إلى قشتالة

وإلى أندلوثيا

وإلى إشبيلية

وإلى كل مكان بعيد

عن مملكة غرناطة

"خاتمة"

المؤلف فى سطور:

خينيس بيريث دى إيتا .

- ولد عام ١٥٤٤ فى قرية مولاه وأقام فى مرسية.

- اشترك في إخماد ثورة مسلمى البشرات التى اندلعت بين عامى ١٥٦٨ - ١٥٧٠ .

- تعتبر "الحروب الأهلية فى غزناطة" أهم أعماله الأدبية.

- توفى عام ١٦١٩.

المترجمة :

عائشة محمود سويلم

ليسانس اللغة الإسبانية (كلية الألسن - جامعة عين شمس) بتقدير جيد جدا مع مرتبة الشرف.

ماجستير فى الأدب الأسبانى بتقدير ممتاز (كلية الألسن - جامعة عين شمس) ١٩٨٩.

دكتوراه مع مرتبة الشرف فى الأدب الأسبانى جامعة الأوتونوما مدريد ١٩٩٧.

رقيت إلى درجة أستاذ مساعد فى عام ٢٠٠٣.

تعمل حاليا رئيسة لقسم اللغة الأسبانية فى كلية اللغات والترجمة جامعة ٦ أكتوبر.

لها عدة دراسات فى الأدب الأسبانى منشورة باللغتين العربية والإسبانية.

المراجع فى سطور:

جمال عبد الرحمن.

- من مواليد ١٩٥٦ فى قرية بنى مجد (أسيوط).

- حاصل على درجة الإجازة العليا (الليسانس) فى اللغة الإسبانية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف (١٩٧٩).

- الدراسات التمهيدية للدكتوراه فى جامعتى سلمنكا ومدريد.

- حاصل على درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف من جامعة مدريد المركزية (١٩٨٩).

- فى عام ٢٠٠١ رقى إلى درجة أستاذ فى قسم اللغة الإنسانية فى كلية اللغات والترجمة.

- له العديد من الكتب المترجمة والمقالات المنشورة فى مصر والخارج حول موضوعات مختلفة من الأدب الإسبانى والعلاقة بين الإسلام والثقافة الإسبانية.

التصحيح اللغوى : سماح محمد
الإشراف الفنى : حسن كامل



هذا الكتاب - وإن كان يحمل عنوانًا مستقلاً - هو الجزء الثانى من كتاب "الحروب الأهلية فى غرناطة" لبيريث دى إيتا، الذى صدر عن المركز القومى للترجمة فى شهر مايو الماضى.

يتناول هذا الجزء الثانى وقائع الحرب التى دارت فى الجنوب الإسبانى بين عامى 1568 - 1570 بين الموريسكيين، الذين ضاقت بهم الأحوال وبين السلطات الرسمية، التى أرادت فرض المذهب الكاثوليكى على كل من يقيم فى شبه جزيرة إيبيريا.

كان المؤلف على صلة وثيقة بمسلمى إسبانيا الثائرين، فتبنى وجهة نظرهم بعض الشىء، لكنه أطلق لخياله العنان أحيانًا، واعتمد على الأغنيات الشعبية أحيانًا أخرى، فجاء كتابه بعيدًا عن موضوعية أورتادو دى مندوثا، وإن لم يسقط فى مبالغات كارباخال.

تصميم الغلاف: تامر زيدان